موقف الكنيسة الغربيّة

من

الإسلام ونبوّة محمدٍ ﷺ

الدكتور
راجح إبراهيم السباتين

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠١٠/٣/٨٥٤)

٢٤٥

السباتين، راجح إبراهيم محمد
موقف الكنيسة الغربية من الإسلام ونبوة محمد ﷺ /
راجح إبراهيم محمد السباتين ـ عمان: المؤلف، ٢٠١٠

() ص
ر. إ: ٢٠١٠/٣/٨٥٤
الواصفات: الشريعة الإسلامية // الإسلام // المسيحية /

ملحوظتان هامّتان:

١. هذا الكتاب مجهود فردي خالص، لا يهدف لتحقيق ربحٍ أو منفعةٍ ماديّةٍ وهو بحاجةٍ إلى جهةٍ أو مؤسّسةٍ علميّةٍ تقوم بدعمه ونشره وترجمته دون اعتبارٍ للربح أو المنفعة الماديّة. للراغبين في ذلك يرجى الاتّصال على رقم الجوّال ٠٠٩٦٢٧٩٥٦٦٩٠٩٣.

الإهداء

- لأُمّي وأبي الكريمين الحبيبين، ففي رضاهما كلُّ البركةِ، وفي دعائهما كلُّ التوفيق والبهجة معترفاً ومُبتهجاً ومُقِرّاً بفضلهما وحرصهما وسهرهما وقلقهما الدائم علينا.

- لشريكتي ورفيقة دربي ومفتاح النَّجاح في كلِّ ما كتبتُ، زوجتي الغالية التي قهرتْ كلَّ الظروف بصدق توكّلها على الله، فصَبرت واحتسبَتْ وطوّعت العوائق والصّعوبات، وقبلتْ أن تكون الجنديّ المجهول الذي يصنع وببراعةٍ كلَّ مفاتيح النّصر والنجاح بعيداً عن الأضواء وحُبِّ الظّهور. مستذكراً أيّاماً جميلةً قضيناها في مرحلة الدراسة والبحث ومجهوداً طيّباً مباركاً قد أقضي العمر كلَّه ولا أقدر على ردِّ معشارٍ منه أو يزيد. فكان حالها معي كما قال الشاعر:

قامــت تظللــني مــن الــشمس نفــسٌ أعــزّ عــليّ مــن نفــسي

قامــت تظللــني ومِــن عجــبٍ شمــسٌ تظللــني مــن الــشمس!!!

- لأولادي الأحبّاء عمر وعلاء وعبد الرحمن، شاكراً لهم التزامهم الخُلقَ الحسنَ والمواظبة على الصّلاة في وقتها والجدّية في الدراسة والتحصيل العلمي.

- للعزيز الغالي أيمن، الصّابر، القدوة، المثابر، الرّجل الذي أنفقَ سنوات عمره يسعى على عباد الله ينفِّس كرباتهم ويهوِّنُ عليهم، فجزاه اللهُ عنهم وعنّي خير الجزاء وبارك فيه.

- للعزيز الغالي أيسر، الذي كان كبيراً بكُلّ ما تحمله الكلمة من مدلولاتٍ، فتشجيعه وعطاؤه كان سبباً لاستمراري في الدراسة والبحث. سائلين المولى تعالى أن يكتب لنا يوماً نرى فيه مالكاً وسارة ومشتقّاتها يطلبون العلم على مقاعد الدراسة الجامعية. وأن يكتب لأيسر أن يأكل من خيرهم وثمرهم، إنّه على ذلك لقدير.

- للعزيز الغالي فراس في بداية سيره على درب الحياة الزوجية مع تمنيّاتنا له بكُلِّ الخير والتوفيق واليُمن والبركة.

ـ للشاهدِينَ على هذا العصر، المُحَاصَرين في غزّة وقد أثخنتهم الجراحُ وأعياهم الجوعُ والعطشُ وظلمُ ذوي القُربى، مُستحضرين حصار المسلمين الأوائل في شِعْبِ أبي طالبٍ في سيناريو "التاريخ يعيدُ نفسه". ما وددتُ أن أكونَ إلاّ معهم وبينهم، لأشارك في شرف رفع الحصار يحدوني الأملُ بفرَجٍ قريبٍ يعيدُ البسمة لوجوه أبنائهم وبناتهم ولو بعد حين...

شكر وتقدير

لا يسعني في هذه الصّفحةِ المخصّصة لشكر المساهمين في إنجاح هذا البحث إلا أنْ أتقدّمَ بالشكر الجزيل والامتنان الوافر للسادة الأفاضل:

١. البروفسور عبد المقصود حامد عبد المقصود، جبل العلم الراسخ ونور وجهه الشامخ.

٢. الأستاذ عبد المحسن أبو شخيدم وابنه العزيز المشعل الوضّاء.

٣. الأساتذة والزملاء الأفاضل محمد توفيق البستنجي وناصر الهندي وفارس أسعد الحواري، مصابيح المعرفة في عصرٍ غلبت عليه العقول الظلمة.

٤. الأستاذة إلهام محفوظ صالح خبيرة اللغة العربيّة التي كان خيرَ ناقدٍ ومُمَحِّصٍ للمادة العلميّة التي احتواها هذا الكتاب وأجهدت نفسها كثيراً في سبيل خروجه إلى النور خالياً من المثالب والأخطاء.

فهرس المحتويات

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات. وبعد، فقد تمَّ إعداد هذا الكتاب، بعونه تعالى، لتوضيح جذور موقف الكنيسة الغربيّة من الإسلام ونبوّة الحبيب المصطفى ﷺ، وذلك من خلال تتبّعه وتوثيقه لتاريخ هذا الموقف والأرض العقدّية الصّلبة التي نبتَ فيها.

وقد ثارت تساؤلاتٌ كثيرةٌ حول الأسباب الدافعة لاختيار هذا الموضوع، وهل هو موضوع دينيٌ عقديٌ أم أنّه موضوع سياسيٌ بالدرجة الأولى؟؟ كما ثارت تساؤلاتٌ أُخرى حول صحّة أو عدم صحّة اختيار العنوان بدعوى أنه عنوانانِ مدموجانِ في واحدٍ، فالأول منهما موقف الكنيسة الغربية من الإسلام، والثاني موقف الكنيسة الغربية من نبوّة محمدٍ ﷺ!!.

وفي الإجابة عن تلكم التساؤلات السابقة نقول: ليس هنالك تفريقٌ في الإسلام بين الشريعة (الدين) وبين السياسة، حيث إنَّ السياسة جزءٌ من نطاق المعاملات والعلاقات الإنسانية التي نظّم الإسلام أحكامها. بل إنّ هنالك تخصّصاتٍ معاصرةً ضمن برامج الجامعات الكبيرة عنوانها (السياسة الشرعية) و (العلاقات الدولية في الإسلام)... وفي ردٍّ آخر على أصحاب هذا التفريق بين العقيدة (الدين) والسياسة نقول: هل فرّق البابا بنديكتيوس السادس عشر بين (الديني) و (السياسي) في خطبته الشهيرة بجامعة ريجنسبورغ الألمانية التي وصف فيها محمداً ﷺ بأنه لم يأتِ إلا بكل ما هو شرير ولا إنساني؟؟؟ لا، لم يفعل البابا ذلك ولم يُفرّق بين (الدينيّ) و (السياسي) وهو القائم دينه على (دع مالقيصر لقيصر ودع مالله لله)!! إن لم يفعل البابا ذلك فكيف نفعل نحن، وديننا دين الحق ودعوته دعوة الخير؟؟؟ فإننا إن فعلنا ذلك لنكونَنَ، والعياذ بالله، كمن آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض!!

وفي الإجابة عن التساؤلات التي ثارت حول عنوان الكتاب، وأنه اثنانِ مدموجانِ في واحدٍ نقول: إنّ موضوع هذا الكتاب واحدٌ وليس اثنين، والكتاب يقوم على محورٍ واحدٍ لا على محورين، فموقفُ الكنيسة الغربية من الإسلام هو عينه موقف هذه الكنيسة من نبوّة محمدٍ ﷺ؛ وبيان ذلك أنّ الكنيسة اتخذت من طعنها في نبوّة محمدٍ ﷺ منطلقاً للطعن في الإسلام والقرآن الكريم وكلِّ ماجاء به محمد بن عبدالله، وعلى ذلك يكون ذِكرِ نبوةِ محمدٍ بعد

ذكر الإسلام من باب ذكر الخاصّ بعد العامّ، وذلك لزيادة الاهتمام به والتنبيه على تميُّزه. ومن المعلوم أنَّ ذكر الخاصّ بعد العامّ إنما هو أحدُ الفنون البلاغية في علم المعاني، فنحن إذا أردنا التنبيه على أهمية الخاصّ وفضلهِ ذكرناه بعد العامّ تشريفًا له. وخلاصة القول أنَّ ذكر نبوة محمدٍ ﷺ بعد الإسلام كان للتأكيد على انطلاق الكنيسة الغربية ورهبانها من إنكار نبوة محمّدٍ إلى التعميم في إنكار الإسلام الذي جاء به محمدٌ بكلّ مضامينه ومدلولاته . ثم إننا لم نرَ عند هؤلاء فصلاً بين الإسلام وبين نبوّة محمدٍ ﷺ حيث أن موقفهم من المُسَمَّيين ومضمونهما كان واحداً فلماذا نقوم نحن بالفصل؟؟؟

وفي الختام نسأل الله تعالى التوفيق والسَّداد وحُسْنَ الختام.

المؤلّف

الفصل الأول

نشأة وتطوّر موقف الكنيسة من الإسلام ونبوّةِ محمدٍ ﷺ عبر العصور

مقدمةٌ

في الاتصال الإسلاميّ المسيحيّ الغربيّ

من المستحسن قبل الخوض في موقف الكنيسة الغربية من الإسلام، أن نرصد بعضَ نماذج الاتّصال الرسمي الإسلامي المسيحي الغربي، لنقف على معالم هذا الاتصال ودوافعه وحيثيّاته ونتائجه.

ممّا لا شكَّ فيه أنّ البادئ بهذا الاتصال كان رسول الله ﷺ عندما شرع في دعوة زعامات الغرب وشعوبه وغيرهم، للتعرّف على الإسلام والدّخول فيه، وذلك من خلال بعثه سفراء للإسلام، يحملون رسائله إلى الحكّام والزّعماء في زمانه. ولعلّ أبرز هذه الرسائل وأشهرها على الإطلاق تلك التي حملها دحيةُ بن خليفة الكلبيّ[1] ـ رضي الله عنه ـ إلى هرقل عظيم الروم[2] "في آخر السنة السادسة للهجرة بعد رجوعه، عليه الصلاة والسلام، من الحديبية، فوصل هذا الكتاب إلى هرقل في المحرَّم من السّنة السّابعة للهجرة، وقال أنس بن مالك [كتب النبيُّ إلى كلِّ جبارٍ يدعوهم إلى الإسلام] وسمّى منهم كسرى وقيصر"[3].

وقد أخرج الإمام مسلم ـ رحمه الله ـ في صحيحه نصَّ هذه الرسالة التي حملها دحيةُ واستلمها منه حاكم بُصرى وسلمّها بيده إلى هرقل وجاء فيها:

"بسم الله الرحمن الرحيم، من محمدٍ رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلامٌ على مَن اتبع الهدى. أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتكَ الله أجرَك مرّتين، وإن توليتَ فإنّ عليك إثم الأريسيين[4]. **و[قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا**

---

(1) صحابي جليل شهد مع رسول الله ﷺ كل الغزوات خلاف بدرٍ. وكان رسول الله ﷺ يشبهه بجبريل عليه السلام.

(2) هو فلافيوس اغسطس هرقل، امبراطور بيزنطي حكم من تشرين الأول سنة ٦١٠م حتى شباط ٦٤١م.

(3) العمري، أكرم ضياء، السيرة النبويّة الصحيحة، ج٢، ص ٤٥٥، بتصرف. ط٧، ٢٠٠٧، مكتبة العبيكان، الرياض.

(4) صحيح الإمام مسلم، كتاب الجهاد، باب كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام ص ٩٤٥، ط٢، ٢٠٠٦، مكتبة دار الفوائد ودار ابن رجب، مصر. والأريسيون: هم الفلاحون والخدم والأكارون. وقيل: هم الموحدون من أتباع آريوس المصري الذين كانوا يعيشون في ظل امبرطورية هرقل البيزنطيّة.

يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ][1].

لقد اختار رسولُ الله ﷺ وقتاً مناسباً تماماً لبعث هذه الرسالة إلى هرقل؛ حيث كان هذا الأخيرُ مزهواً بنصرٍ تاريخيٍّ على الفُرس، نصرٍ كان قد انتظره طويلاً ليُتوِّج به سلسلة انتصاراته وإنجازاته العسكرية حتّى إنّه قد عاهد الله على القدوم للحجّ[٢] شكراً إن نصره على الفرس وأعانه على استرداد الصليب المقدَّس الذي سلبوه من الروم.

"وقد جاء نصرُه التاريخي هذا على الفرس، في نهاية حملته الصّليبية التي بدأت لاستعادة القسطنطينية في شتاء عام ٦٢١ للميلاد"[٣]. وقد وصف "أسد رستم"، مؤرخ الكرسي الأنطاكي، هرقل بأنه "الصّليبي الأوّل وذلك نظراً للواجبات التي قام بها في الدفاع عن الدولة والكنيسة والدّين"[٤]. إذاً فهرقل هذا الذي راسله النبي ﷺ لم يكن مجرّدَ قائدٍ عسكريٍ لا علاقة له بالدين، ولكنه كان ذا صلةٍ وثيقةٍ بالكاثوليكية، ومن مظاهر هذا أنه "استشفع إلى العذراء في سنة ٦٠٩ للميلاد عندما بدأ الاستعداد للحملة على القسطنطينية وتقدّم في الرابع من نيسان سنة ٦٢٢ للميلاد من المائدة المقدّسة متناولاً جسدَ الربّ ودمه، وكان همّه الأكبر في كل حروبه ضدّ الفرس استرداد الصليب وإعادة نصبه في "أورشليم"، وهذا الذي تحقق له فعلاً في شهر آذار سنة ٦٣٠ للميلاد"[٥].

لقد دلّت هذه الرسالة، وبكلّ وضوحٍ، على حرص الرسول ﷺ على تعريف شعوب العالم من العرب والأعاجم بالإسلام ودعوتهم إلى اعتناقه وتأكيداً منه ﷺ على عالمية الدّعوة الإسلاميّة وهذا الدِّين، والذي هو أكبر وأعظم من أن يقتصر على حدود جزيرة العرب. ويشهدُ لصحّة هذا الكلام ذلك العددُ الكبيرُ من الرسائل التي بعث بها النبي، عليه السلام، للحكام من غير العرب، كما كانت هذه الرسائل نواةً أساسيّةً للمخاطبات الرسمية بين

---

(1) سورة آل عمرآن، الآية ٦٤.

(2) يحج المسيحيون إلى كنيسة القيامة في مدينة بيت لحم.

(3) رستم، أسد. كنيسة مدينة الله أنطاكية العُظمى، ج١، ص ٤٢٦، بتصرف، مطبعة دار الفنون، تاريخ النشر مجهول.

(4) انظر رستم [م. س]، ص ٤٢٦.

(5) رستم، [م. س]، ص ٤٢٨، ٤٢٩ بتصرف.

رؤساء الدّول ونقطة انطلاقٍ لما يُسمى بـ "حوار الأديان ما بين الشرق والغرب". والقاسم المشترك في رسائل النبي هو حرصهُ، عليه السلام، على تقديم الإسلام والتعريف به لكل الشعوب والأمم وإقامة حجّة التبليغ عليهم بأنّ رسالة الإسلام قد وصلت إليهم عن طريق حكّامهم وزعمائهم. ويُستفاد من الرسالة إلى هرقل وغيرها من الرسائل جدوى وفاعليّة هذا الأسلوب من الأساليب في الدعوة، ويشهد لذلك دخولُ عددٍ كبيرٍ من الناس في الإسلام بسبب هذه الرسائل وذلك بعد إسلام ملوكهم وحكّامهم، ومن هؤلاء "المنذر بن ساوى" والي البحرين، و"الحارث الحميري" ملك اليمن و"جَيْفَر وعبّاد" ملكيْ عُمان آنذاك.

ويُستفاد من هذه الرسائل كذلك أنّ تبليغ دعوة الإسلام للحكّام والملوك هو بالدرجة الأولى من مسؤوليات وواجبات الحاكم المسلم قبل الأفراد المُسلمين؛ "لأنّ ما يقبله الرؤساء من بعضهم قد لا يقبلونه من آحاد الرعيّة"[1]، كما يُستفاد كذلك "أنَّ تخصيص الزعماء في إبلاغ الدعوة دليلٌ على عدم وجوب تبليغ كلِّ فردٍ في رعاياهم، لتعذُّر ذلك من جهةٍ، ولأنّ كلَّ زعيمٍ مسؤولٌ عن دعوة قومه إلى ما دُعي هو إليه"[2]. ولكنّ السؤال الذي يطرحُ نفسه بقوّةٍ في هذا الموضع، ماذا كان ردّ فعل هرقل العظيم على رسالة النبيِّ سالفة الذّكر؟ لقد اهتمَّ هرقلُ اهتماماً شديداً بأمر هذه الرسالة وتأمّل في مضمونها بعمقٍ حتى إنّه سأل عن أدق التفاصيل المتعلّقة بأمر بعثة وشخص هذا النبي الجديد، وأمر أتباعه أن يأتوه بأناسٍ من قوم هذا النبي الجديد ليسألهم عن خبره، وقد وافق ذلك مرور رهطٍ من تُجّار قريش متّجهين من الشام إلى غزة من أرض فلسطين في تجارةٍ لهم بقيادة "أبي سفيان"، قبل دخوله في الإسلام، فألقى الجندُ القبضَ عليهم وجيء بهم إلى هرقل وهو لا يزال موجوداً في "إيلياء" (القدس)، فأجلسهم هرقل بين يديه وبجانبهم ترجمانه ووجَّه كلامه لأبي سفيان، الذي روى هذه الحادثة كاملةً فقال: سألني هرقلُ قائلاً: "أخبرني عمّا أسألك من أمره. فقلت: سلني عمّا بدا لك؟ قال: كيف نسبُه فيكم؟ فقلت: محضاً من أوسطنا نسباً، قال: فأخبرني هل كان من أهل بيته أحدٌ يقول مثل قوله فهو يتشّبهُ به؟ فقلتُ: لا. قال: فأخبرني هل مُلكٌ فأسلبتموه إياهُ فجاء بهذا الحديث لتردّوه عليه؟ فقلت: لا. قال: فأخبرني عن أتباعه مَن هم؟ فقلتُ: الأحداث والضعفاء والمساكين فأمّا أشرافُهم وذووا الأنساب منهم فلا. قال: فأخبرني عمَّن صَحِبَهُ أيحبه ويكرمه أم يقليه ويفارقه؟ قلت: ما صحبه رجلٌ ففارقه. قال: فأخبرني عن الحرب بينكم وبينه؟ فقلت: سجالٌ يُدالِ علينا ونُدالِ عليه. قال: فأخبرني هل يغدرُ؟ فلم أجد

---

(1) الصّوا، علي محمد وآخرون، العلوم الإسلامية، ص ٣٠٥، ط٣، منشورات وزارة التربية والتعليم، الأردن.

(2) المرجع السابق نفسه، ص ٣٠٥.

شيئاً أُغره به إلا هي. قلتُ: لا ونحن منه في مّدةٍ ولا نأمنُ غدره فيها. فوالله ما التفتَ إليها منّي قال: فأعاد عليَّ الحديث، قال: زعمتَ أنه مِن أمحضكم نسباً وكذلك يأخذ الله النبيَّ لا يأخذه إلا من أوسط قومه، وسألتكُ هل كان من أهل بيته أحدٌ يقول مثل قوله فهو يتشبه به؟ فقلتَ: لا، وسألتُك هل كان له ملكٌ فأسلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث لتردّوا عليه مُلكه؟ فقلتَ: لا، وسألتُك عن أتباعه فزعمتَ أنهم الأحداث والمساكين والضعفاء وكذلك أتباع الأنبياء في كل زمانٍ، وسألتكَ عمّن يتّبعه أيحبه ويكرمه أم يقليه ويفارقه؟ فزعمتَ أنه قَلَّ مَن يصحبه فيفارقه وكذلك حلاوة الإيمان لا تدخل قلباً فتخرج منه، وسألتكم كيف الحربُ بينكم وبينه؟ فزعمتَ انها سِجالٌ يدالِ عليكم وتدالون عليه وكذلك يكون حرب الأنبياء ولهم تكون العاقبة؛ وسألتكَ هل يغدر؟ فزعمت أنه لا يغدر فلئن كنتَ صدقْتَني ليغلبنَّ على ما تحت قدميَّ هاتين ولوددتُ أني عنده فأغسل عن قدميه"[١].

إنّه من الواضح تماماً أنّ أسئلة هرقل الكثيرة هذه إنما هي أسئلة الباحث عن معرفة الحقيقة، والتي يُستدلُّ من خلالها على صدق نبوّة هذا النبيّ الجديد ﷺ. في ختام الأمر لم يُسلم هرقلُ، ولربّما كان السبب راجعاً إلى خوفه من ردّ فعل كبراء قومه وحاشيته التي كان فيها عددٌ لا بأس به من البطارقة والرّهبان. ولربّما كان السبب راجعاً بالدرجة الأولى إلى حرصه على المحافظة على عرشه ... ومهما يكن من أمر هرقل السّابق فإنه يُحسَبُ له أنّه أعطى لنفسه الفرصة الكافية والقدر الكافي للتعرّف على حقيقة دعوة الإسلام وأبرز مضامينها وما تدعو إليه، ولم يكن موقفُه موقف المعادي السّاخط الرّاغب في الانتقام من محمدٍ أو الانتقاص من قدره أو المتّهِم له بالكذب والافتراء.

ومع أن هرقل هذا قد عاصرَ النبيَّ، عليه السلام، إلاّ أنّه لم يقع في عُقدة "الأنبياء الكَذَبة" التي ما فتأت الكنيسة الغربيّةُ تقذفُ بها محمداً ودينه حتّى يومنا هذا، مستندةً في ذلك إلى قول المسيح "لأنّه سيقوم مُسَحَاءُ كَذَبَةٌ وأنبياءُ كذَبةٌ ويُعطون آياتٍ عظيمةً وعجائب حتّى يُضِلّوا لو أمكنَ المختارينَ أيضاً"[٢]، وإضافةً إلى ذلك فإنّ هرقل لم يتّهم محمداً، كما فعلتْ كنيستُه الغربيةُ لاحقاً، بأنّه واحدٌ من الكذّابين الذين حذّرَ المسيحُ أتباعه منهم واصفاً إيّاهم

[١] ابن كثير، إسماعيل، البداية والنهاية، ج٤، ص ٦٣٠، ط١، مكتبة الإيمان، القاهرة، مصر.
[٢] متّى: ٢٤: ٢٤.

بأنّهم (ذئابٌ في ثياب حملان) بقوله "احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان ولكنهم من داخل ذئابٌ خاطفة"[1].

يُستفادُ ممّا سبق أنّ الرسول الكريم، ﷺ، كان السبَّاق في مدِّ يده للحوار مع المسيحيين الروم الغربيين، ودعاهم إلى التعرُّف على الإسلام واعتناقه من خلال الرسالة السابق ذكرها، التي بعثَ بها إلى أعظم زعيمٍ وقائدٍ عسكريٍّ في ذلك الوقت وأنزله فيها المنزلة التي تليقُ به ويحبُّها قلبُه فخاطبه بقوله (هرقل عظيم الرّوم)، ويُستفادُ ممّا سبق، كذلك، أنّ هرقل كان عظيماً في أدبه وتعامله مع هذه الرسالة النّبويّة؛ حيث قرأها وتمعّن فيها وسأل عن أدقّ تفاصيل حياة هذا النبيّ الجديد، واستدلَّ من خلالها على علاماتٍ وأماراتٍ لا تتوفّرُ إلاّ في الأنبياء، وقد تبيَّن لنا من خلال ما سبق ذكره من النّصوص اقتناعه بصدق دعوة رسول الله ﷺ، بدليل قوله لأبي سفيان [ليغلبنّ على ما تحت قدميّ هاتين، ولوددتُ أني عنده فأغسل عن قدميه]. والجميل في ذلك كلِّه أنّ هرقل استسقى معلوماته تلك، عن النبي والإسلام، من فمِ رجلٍ كان من ألدِّ خصوم الإسلام آنذاك، ألا وهو أبو سفيان بن حربٍ، الذي أنطق اللهُ لسانه بالحقّ والصّدق وقلبه كارهٌ لذلك. ويُستفادُ مما سبق كذلك أنّ هرقل لم يحتكر الحقيقة لنفسه ولم يكتم أمر محمدٍ ودعوة دينه الجديد ولم يعمل على تشويهها، بل عرضَ نصَّ الرسالة التي جاءته كما هو على حاشيته وقال لهم:

"يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبَّتَ لكم مُلككم؟ فتتابعوا لهذا النبي؟ فحاصوا حيصة حمُرِ الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد غُلّقت، فلما رأى هرقلُ نفرتهم وأيس من الإيمان قال: ردّوهم عليّ. وقال: إني إنما قلتُ مقالتي آنفاً أختبرُ بها شدّتكم على دينكم فقد رأيتُ، فسجدوا له ورضوا عنه، فكان ذلك آخر شأن هرقل"[2].

ولا ينبغي لأحدٍ أن يُقلِّلَ من أهمية وفائدة مثل هذا النوع من المراسلات التي سنّها رسولُ الله ﷺ، بين الدّول والحضارات ذات الأديان والثقافات المختلفة المتنوّعة، فقد نشط مثل هذا النوع من المراسلات بين كبار بابوات الكنيسة الكاثوليكيّة في روما وبين الحكّام المسلمين، خصوصاً بعد أن استشعر رجالات الكنيسة الخطر الإسلامي ـ كما يصفونه ـ المحدق

[1] متّى ٧: ١٥.

[2] صحيح الإمام مسلم [م. س]، كتاب الجهاد، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل.

بلادهم وكبريات عواصمهم، والتي كانت تتهاوى أمام المدّ والفتح الإسلامي واحدةً تلو الأخرى ... وقد جاءت هذه الرسائل التي بعث بها هؤلاء إلى الحكّام المسلمين وشعوبهم كردٍّ فعل على ما كانوا يسمّونه "المشكلة الإسلامية"، عبّروا من خلالها عن اعتزازهم بدينهم المسيحي، وحذّروا المسلمين من الاغترار بانتصاراتهم، ودعوهم إلى اعتناق المسيحيّة كسبيلٍ وحيدٍ للحصول على رضا الربّ والخلاص من عذاب الدنيا والآخرة. ومن أشهر هذه الرسائل التي سجّلها التاريخ الأوروبي ونقلها إلينا رسالتان؛ أولاهما تلك التي بعث بها البابا "إينياس سلفيوس"[١] الملقّب بـ (بيوس الثاني) إلى السلطان العثماني محمد الثاني[٢] الملقب بـ (محمد الفاتح) ومما جاء في هذه الرسالة[٣]: "إنك لا تجهل أمورنا، ولكنك قد لا تعرف قوة الشعب المسيحي: إسبانيا المرابطة، الغال "فرنسا" المولعة بالحرب، ألمانيا الكثيفة بالسكان، بريطانيا القوية، بولندا الجريئة، المجر النشيطة، إيطاليا الغنية التي تملك روحاً عاليةً وخبرةً بفنون القتال. هناك نقاط عديدة من الاتفاق بين المسيحيين والمسلمين: الإله الواحد خالق العالم، الإيمان بضرورة الدين، الجزاء والعقاب في الحياة المستقبلية (الآخرة)، خلود الروح، الاستعمال المشترك للعهد القديم على اعتبار أنه الأساس، كل ذلك أرضية مشتركة، ولكننا نختلف حول طبيعة الرب فقط. شيءٌ بسيطٌ، يمكن أن يجعلك أعظم وأقوى وأشهر رجلٍ في زمانه، وإذا سألت ما هو؟ فليس من الصعب إيجاده، ولن تبحث عنه بعيداً، إنه موجودٌ في العالم كلّه، قليل من الماء تَتَعَمَّدُ به، وتتحول إلى المسيحية المقدّسة، وتؤمنُ بالإنجيل. إفعلْ هذا، ولن يكون في العالم أميرٌ يتفوَّقُ عليك في العظمة، أو يوازيكَ في القوة، وسنجعلك إمبراطور اليونان والشرق. إنّ الأرض التي تحتلُها الآن بالقوة ستحكمها بالحق، وإنّ جميع المسيحيين سيبجّلونك ويجعلونك قاضيهم، ومن المستحيل أن تنجحَ ما دمتَ على شريعة محمد. ولكن فقط إذا تحولتَ إلى المسيحية فستصبحُ أعظمَ رجلٍ في زمانه وبرضاء العالم وموافقته"[٤].

وقبل ذكر أبرز الملاحظات على هذه الرسالة فإنه من المستحسن ذكر الرسالة الشهيرة الأخرى، وهي التي بعث بها الراهب الفرنسي الشهير "بطرس المبجَّل[٥] لعموم العرب

---

(1) تولّى كرسي البابوية من ١٤٥٨ – ١٤٦٤ للميلاد ويُعدُّ من علماء النهضة الأوروبية ومشجّعيها، حاول عقد تحالف مع ملوك أوروبا ضد العثمانيين.

(2) سلطان عثماني شهيرٌ فتح القسطنطينية في ١٤٥٣ للميلاد.

(3) سوذرن، ريتشارد. صورة الإسلام في أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة رضوان السيّد، ص ١٤٥ – ١٤٧ بتصرف ط١، ١٩٨٤، من منشورات معهد الإنماء العربي، لبنان.

(4) المرجع السابق نفسه، ص ١٤٧

(5) رئيس دير الكلوني للرهبان في فرنسا، كان متقناً للغة العربية ويُعتبرُ مؤسس الدراسات الإسلامية في أوروبا في العصور الوسطى، وسيأتي تفصيلُ ذكره لاحقاً.

والمسلمين، وجاء فيها: "من بطرس الفرنسي الجنسية، المسيحي العقيدة، الأباتي في الخدمة الكنسية، من أولئك الذين يُطلق عليهم الرهبان ... إلى العرب، أبناء إسماعيل، الذين يتبعون الرجل الذي يُدعى محمداً. قد يبدو غريباً، ومن الممكن أنه كذلك، أنني إنسان كم أنا بعيد عنكم موطناً، وأتكلمُ لغةً أخرى، وأفكّر بصورةٍ مختلفةٍ، وأعرف أن عاداتكم ونمط حياتكم مغايرة لحياتنا ونمط معيشتنا، ومع ذلك أكتب إليكم من عمق الغرب، إلى شعوب الشرق والجنوب، الذي أرجح أنني لن أتمكن من رؤيتهم أبداً"[1]. "لكنني أردت أن أجيء إليكم ليس بالسلاح، كما يفعل مسيحيونا في أغلب الأحوال، وإنما بالكلمة، ليس بالبغض والكراهية، وإنما بالمحبة، تلك المحبة، التي يجب أن تكون بين أولئك، الذين يجلُّون المسيح، وأولئك الذين استداروا عنه، بتلك المحبة التي وُجِدَت بين رسل المسيح "تلامذته وحوارييه" والوثنيين. وهكذا، فأنا أيضاً، واحد من عددٍ لا يُحصى من خدم المسيح، بل الأصغر من بينهم ... إنني أحبكم، وبمحبةٍ أكتب إليكم، داعياً إياكم للخلاص، ليس ذلك الخلاص الذي يزول ويتبدّل، وإنما إلى الخلاص الذي يبقى ويدوم ... ليس إلى الخلاص الذي ينتهي مع انتهاء هذه الحياة القصيرة، وإنما إلى ذلك الخلاص الذي يستمر في الحياة الأبدية"[2].

إنّه من المفيد بعد إيراد نصِّ الرسالتين المذكورتين ونصّ رسالة النبي ﷺ السابقة إلى هرقل ـ مع الاحتفاظ بعلو مقامه وقدره ﷺ ـ التنبيه على ما يلي:

أولاً: جاءت رسالة النبي ﷺ دون مقدماتٍ وغير مرتبطةٍ بحدث معينٍ، إنما كانت امتثالاً لأمر الله تعالى الذي أمره بدعوة الناس كافّةً لهذا الدّين، دون أن ينتظروا مقابل ذلك مغنماً أو مكسباً أو مردوداً دنيوياً، والنبي ﷺ عندما عرض على هرقل الدخول في الإسلام لم يعرض عليه ـ إن هو أسلمَ ـ أيَّ مقابلٍ أو مردودٍ أو تعويضٍ متوقعٍ في حالة خسارته لعرشه إنّما تلخَّصَ العرضُ في (يُؤتك اللهُ أجرَكَ مرّتين) بينما جاءت رسالة البابا إلى السلطان العثماني، إن هو اعتنق المسيحيّة، تعرضُ عليه المزيد من المكاسب والمغانم كتنصيبه إمبراطوراً لليونان والشرق وجعله قاضياً لجميع المسيحيين.

---

[1] جورافسكي، إليكسي، الإسلام والمسيحيّة من التنافس والتصادم إلى الحوار والتفاهم، ترجمة خلف محمد الجراد، ص ٧٩، ط١، ٢٠٠٥، دار الفكر، بيروت.

[2] المصدر السابق نفسه، ص ٧٩ – ٨٠ بتصرف.

ثانياً: حملتْ رسالة النبي ﷺ اعترافاً صريحاً وإعلاناً واضحاً بأنّ المسيحيين أهلُ كتابٍ سماويٍّ، وذلك جليٌّ واضحٌ في الآية القرآنية التي خُتِمت بها الرسالة **(قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)**[1]. بينما لم تعترف رسالة البابا بيوس الثاني بالإسلام كدينٍ سماويٍ، ولم تعترف بنوة محمدٍ ﷺ. وهذا ليسَ موقفاً غريباً أو متفرِّداً لهذا البابا؛ فقد دأب البابوات حتّى يومنا هذا على إنكار نبوّة محمدٍ وعدم الاعتراف بها وطعنوا فيها على الدّوام، وكان إنكارهم لها وطعنهم فيها من أبرز مداخلهم للطعن في الإسلام.

ثالثاً: كان البابا بيوس واضحاً وصريحاً في تشخيصه لأبرز نقطة خلافٍ بين المسيحيّة والإسلام، حسب الفهم المسيحي لها، ألا وهي الخلاف (حول طبيعة الرب)، أي وبتعبيرٍ آخر الخلاف حول ألوهيّة المسيح، والتي ينكرها الإسلام تمام الإنكار وذلك من خلال تقريره لبشريّة المسيح عليه السلام.

وعلى الجانب الآخر تُشيرُ الرسالةُ الأخرى (رسالة بطرس المبّجل) إلى محمدٍ ـ عليه السلام ـ بعبارة [إلى العرب أبناء إسماعيل الذين يتّبعون الرجل الذي يُدعى محمداً]، وهذا لفظٌ غير مُستغربٍ من كبير رهبان فرنسا الكاثوليك الذين كانوا ولا يزالون يُنكرون نبّوة محمد عليه السلام، وهي عبارةٌ فيها من الانتقاص من قدر العرب وقدره عليه السلام، الشيء الكثير خصوصاً إذا ما تذكرنا نصوص العهد القديم (والتي وصفها البابا بيوس في رسالته السابقة بأنّها الأساس) التي تصف إسماعيل وأمه وذريته بأقذع الألفاظ والأوصاف، ولننظر كذلك إلى عبارات البابا بيوس التي تسفِّهُ محمداً والشريعة التي جاء بها [ومن المستحيل أن تنجحَ ما دمتَ على شريعة محمدٍ، ولكن فقط إذا تحولت إلى المسيحيّة فستصبحُ أعظم رجلٍ في زمانه وبرضاء العالم وموافقته]. إنّ الرّبط بين شريعة محمدٍ والفشل من جهةٍ وبين المسيحيّة

---

[1] سورة آل عمران، الآية ٦٤.

والعظمة ورضا العالم من جهةٍ أخرى واضح تماماً في الرسالة السّابقة، وليس من المبالغة القولُ إنّ المسيحيين الغربيين وحتى هذه الساعة، لم يستطيعوا أن يُخرجوا أنفسهم من عقدة المقارنة الدّائمة بين محمدٍ والمسيح، عليهما السلام، وهي مقارنة نتيجتها لديهم، أنّ المسيح أفضلُ من محمدٍ؛ لأنَّ الأول إله تجسَّد في صورة الإنسان أمّا الثاني فهو مُجَرّد إنسان ادّعى النبوّة وزعم أنّ وحيّاً سماوياً تنزّلُ عليه!!.

رابعاً: في الوقت الذي اتّسمت به رسالةُ النبي ﷺ السابقة بافتتاحيّة [سلامٌ على من اتبع الهدى] نرى أن رسالة البابا بيوس اتسمت بروحٍ عدائيّةٍ وحملت طابع التهديد المبطَّن، وركَّزت على استعراض قوّة الشعب المسيحي والدّول المسيحيّة التي وصفها بـ [المرابطة] و[المولعة بالحرب] و[القويّة] و[الجريئة] و[التي تملكُ روحاً عاليةً وخبرةً بفنون القتال] وهذا يُثبتُ أن هذه الرسالة كانت وبالدرجة الأولى، ردَّ فعلٍ على التفوق والمدّ الإسلامي العثماني آنذاك، وكانت "قد كُتبتْ، على ما يبدو، ليسَ من أجل السّعي إلى التفاهم اللاهوتي، وإنما لأهدافٍ سياسيّةٍ وديبلوماسيةٍ ودعويّةٍ"[(١)]. ومن المُستغرَبِ عند الحديث عن مثل هذا النّوع من الرسائل أنْ نرى انحيازاً واضحاً من بعض المؤرّخين لطرفٍ دون آخر من الأطراف التي بُعِثت إليها الرسائل فنرى، على سبيل المثال، أن ريتشارد سوذرن[(٢)] قد أثنى على رسالة البابا بيوس السابقة ثناءً عظيماً، بعد ذكره لترجمتها الكاملة بقوله[(٣)]: "ولا أتمالك هنا أن أعبِّر من جديدٍ عن إعجابي برسالة بيوس الثاني إلى محمد الثاني، فهي عملُ رجل دولةٍ خبيرٍ بالعالم. لقد جمع كلَّ حجج الأقدمين والمعاصرين في صعيدٍ واحدٍ بطريقةٍ جديدةٍ، فيها السياسة وفيها الجدل. إنها الطريقة التي استُخدِمتْ في مواجهة قسطنطين وكلوفيس واهتديا بها. لكن في حين جرى التركيز هناك على قضايا السياسة والاجتماع؛ جرى التركيز هنا على العقل والمنطق والفوائد العملية التي يمكن أن تتحول إلى بديهيّات. ولم يكتف بيوس بذلك؛ بل ضَّمن ذلك كله في لغةٍ نهضويةٍ رائعةٍ". وقد جاء ثناء "سوذرن" المبالغ فيه على هذه الرسالة كتذييلٍ في ختام مداخلاتٍ وتعليقاتٍ كثيرةٍ رافقت سرده لترجمة نصّ الرسالة، لم يلتزم عند كتابتها أدنى درجات الحياد أو التجرد أو الموضوعية ويشهدُ على ذلك قوله: "تعتبر هذه الرسالة نموذجاً رائعاً للرسائل من هذا النوع؛ تبدو

(١) جورافسكي، [م. س] ص ٩٠.

(٢) مؤرخ ومستشرق بريطاني متخصّص في تاريخ أوروبا في العصور الوسطى.

(٣) سوذرن [م. س]، ص ١٤٦، ١٤٧، بتصرف.

فيها بلاغة إينياس العالية، وحكمته، وعمقه في فهم نفسية العثمانيين،وقدرته على مجاراتهم في كبريائهم. وقد رَكَّز فيها على المسائل الأساسية المؤثرة، وعمد إلى تنظيم البراهين والحجج بطريقةٍ منطقيةٍ واضحةٍ تُظهر فضائل المسيحية ومواطن القوة فيها. ولا تتضمن الرسالة ما يمكن أن يخدش مشاعر العثمانيين وسلطانهم لا من حيث المضمون، ولا من حيث التأدب في مخاطبة السلطان"[١]!!!

ولا يصحُّ أن يُفهم ممّا سبق أنّ كلَّ المؤرخين الأوروبيين لا يلتزمون الحياد فإنّ هذا الفهم يجانب الصواب؛ لأنَّ منهم المعتدِل ومنهم الباحث عن الحقيقة ومنهم المدافع عن الحق حتى لو كان في غير صفِّه وعلى غير مذهبه، قديماً وحديثاً، ومن هؤلاء كارين آمسترونج التي ذكرت الرسالتين السابقتين ووصفت بطرس المبجّل بتنحيته التعقُّل والموضوعيّة عندما يتعلّق الأمر برؤية الإسلام، فقالت: "حتى رجل مُنصفٍ كبطرس المبجَّل لم يستطع، إلا أن ينحّي جانباً التعقُّلُ والموضوعية عندما وصل الأمر إلى رؤية الإسلام، وكان لا يزال بحاجةٍ ماسّةٍ إلى رؤيته كدينٍ قائمٍ على العنف وعدم التسامح"[٢]. وقد جاء وصف آرمسترونج هذا لبطرس المبجل بعد حديثها عن ترجمته المُغْرِضة للقرآن الكريم وتعليقاً على رسالته السابقة للمسلمين، تلك "الرسالة التي ادّعى أنها تتقدم من المسلمين بمشاعر الودّ، ولكنّ عنوان الرسالة وحده يكشف بأية روح كُتبتْ: [موجزٌ بكامل هرطقات مذهب السراسنة الإبليسي] إنه ليتعذر على المسيحية، فيما يبدو، أن ترى الإسلام على أية صورةٍ إلا باعتباره نسخةً فاشلةً من المسيحية. والانتقاد العنيف للمسلمين الذي تطوَّرَ في العصور الوسطى، ولا يزال يؤثر في الطريقة التي يرى بها الغربيون الإسلام اليوم"[٣].

يُسَجَّلُ في ختام هذه المقدّمة أنّ الرسائل السابقة التي بعث بها بعضُ كبار المسيحيين الغربيين لزعماء وشعوب العالم الإسلامي إنما كانت تنطلقُ، بالدرجة الأولى، من نظرة الكنيسة الغربية للإسلام وفهمها له، هذا الفهم الذي توافرت له مجموعةٌ من العوامل التي خرجت به عن جادّة الصّواب والسلامة والاستقامة، فكان فهماً عوجاً يستلزم النهوض لتقويمه وتوضيحه وتصويبه. إنّ فهم البابا بيوس الثاني للإسلام إنّما يجسِّدُ ويمِّثلُ فهم كلّ البابوات الذين جاؤوا من قبله للإسلام، وهذا الفهم، الخاطئ طبعاً، لم ينقطع بموت بيوس

---

[1] المرجع السابق نفسه، ص ١٤٤.

[2] آرمسترونج، كارين، الحرب المقدّسة، الحملات الصليبيّة وأثرها على العالم اليوم، ترجمة سامي الكعكي، ص ٢٨٦، ط١، ٢٠٠٤، دار الكتاب العربي.

[3] المرجع السابق نفسه، ص ٢٨٤.

الثاني بل امتدَّ واستمرَّ حتى هذه السّاعة، وكذا الحال بالنسبة للرهبان؛ فإنّ فهمهم الخاطئ للإسلام هو الآخر لم ينتهِ، ولم يمت بموت بطرس المبجّل، بل استمرَّ حتّى هذه الساعة. وبطبيعة الحال فإنّ فهم الرهبان للإسلام إنما هو امتدادٌ طبيعيٌ لفهم رئيسهم ومُلهِمهم المعصُومِ "البابا". وإنما وقع الاختيار على الرسالتين السابقتين، لشهرتها ولأنَّ كلَّ واحدةٍ منهما خُطَّتْ بقلم عَلَمٍ مسيحيٍّ يمثّلُ عنواناً من عناوين فصول هذه الدراسة التي سيأتي فيها الحديثُ تالياً عن موقف البابوات والرهبان من الإسلام عبر العصور.

المبحث الأول
الكنيسة الغربية
نشأتها وطبيعة نظامها ومصدر صلاحيّاتها

يتّخذُ الحديث عن الكنيسة دروباً طويلةً قد تطولُ ولا تنتهي؛ وذلك راجعٌ إلى قدم عمرها وامتداد جذورها في الأرض المسيحيّة. ويُرْجِعُ معظم المؤرّخين المسيحيين، على اختلاف طوائفهم، تأسيسها إلى اليوم الخمسين من قيامة المسيح، عليه السلام[١]، وذلك اعتماداً على الإصحاح الثاني من سفر أعمال الرسل، ويصفون هذا اليوم بأنّه تاريخ ميلاد الكنيسة؛ حيث كان قد تجمّع فيه مجموعةٌ من تلاميذ المسيح و"هؤلاء المؤمنون الأمناء كانوا أتباعاً للمسيح أفراداً ومنهم تكوَّنت نواةُ الكنيسة عند تأسيسها في اليوم الخمسين. ففي ذلك اليوم اعتمدوا جميعاً بالرّوح النازل من السماء إلى جسدٍ واحدٍ للمسيح وصاروا متَّحدين بمخلِّصهم المجَّدِ في الأعالي كما هو مكتوب: "لأننا جميعنا بروحٍ واحدٍ أيضاً اعتمدنا إلى جسدٍ واحدٍ يهوداً كنا أم يونانيين عبيداً أم أحراراً وجميعنا سقينا روحاً واحداً" [١ كو ١٢: ١٣]. هؤلاء المؤمنون لم يبقوا بعد مؤمنين أفراداً بل صاروا جسداً مترابطاً، جسداً للمسيح وأعضاء بعضهم لبعضٍ، مرتبطين معاً بروح الله الذي يسكن الآن فيهم. كانت هذه هي بداية كنيسة الله الحي"[٢].

وللكنيسة في الاصطلاح المسيحيّ معنيان أولّها خاصٌ، وثانيهما عام.

أمّا المعنى الخاص للكنيسة فهو أنّ كلمة كنيسة إنّما هي ترجمةٌ للكلمة اليونانية "إكليسيا"، والتي تعني (أجتماع أو جماعة مدعوة أو جماعة المؤمنين)[٣]. وهذا المعنى الخاص إنما يُستعمل للدلالة على تجمّع الناس في مكانٍ معيّنٍ أو بناءٍ محدّد يجلسون فيه.

---

(1) رستم، [م. س]، ص ٥.

(2) كامبل، د. ك، كنيسة الله الحيّ، الفصل الأول ص ١، ترجمة موقع كلمة الحياة. www.kalimatalhayat.com التابع للكنيسة الآرثوذكسية

(3) انظر: أ. جبسون، و. ج، الكنيسة النابضة، الفصل الأول، ص ١، وهو ترجمة لكتابه المسمّى The Dynamic Churuch، الذي قام بترجمته ونشره موقع كلمة الحياة www.kalimatalhayat.com التابع للكنيسة الآرثوذكسية
ب. الموسوعة الحرّة ويكبيديا، كلمة كنيسة.

أمّا المعنى العام للكنيسة فهو أكبر من سابقة وأشمل، حيث يُستعملُ هذا المعنى للدلالة على "كلِّ المؤمنين الحقيقيين بالمسيح سواءٌ الأحياء أو الذين رقدوا في الربّ"[١]. وهذا التعريف يتوافق تماماً مع التعريف الذي ذكره مؤرّخ الكرسي المسيحي الأنطاكيّ "والكنيسة في العالم هي جماعة المقدّسين في المسيح وبنعمة الروح القدس المدعوين ليكونوا قديسين بشراً أحراراً كاملين قدر المستطاع منصرفين إلى تطبيق مشيئة الله على أكمل وجه. والكنيسة فوق العالم هي سرُّ الله المكنون. ولولا هذا لما عاشت في العالم"[٢].

ويفضّل معظم الباحثين في التاريخ الكنسيّ القديم والمعاصر استخدام المعنى العام للكنيسة بل إنّ منهم من يُخطِّئ استعمال المعنى الخاص (معنى البناء) للدلالة على الكنيسة؛ وذلك لأنّها أكبرُ وأعمُّ من أن تنحصر في مكانٍ أو بناءٍ محدَّد. (كذلك خطأٌ ما جرت به الألسن من تسمية المنشآت الدينية وأماكن ممارسة الشعائر الدينية بالكنائس. لأنَّ الكنيسة بحسب الكتاب ليست بناءً مادياً، بل هو جسدٌ يجمع جماعةً من المؤمنين الذين فيهم حياة الله - وهم حجارةٌ حية - يكوّنون هيكلاً مقدّساً في الربّ، كما هو مكتوب "مبنيين على أساس الرسل والأنبياء، ويسوع المسيح نفسه حجر الزاوية، الذي فيه كل البناء، مركباً معاً، ينمو هيكلاً مقدساً في الربّ، الذي فيه أنتم أيضاً مبنيون معاً، مسكناً لله بالروح". وأيضاً "كونوا أنتم أيضاً مبنيين كحجارةٍ حيّةٍ، بيتاً روحياً، كهنوتاً مقدّساً، لتقديم ذبائح روحيةٍ مقبولةٍ عند الله يسوع المسيح" [أف ٢: ١٩ – ٢٢، ١ بط ٢: ٥] واجتماع المؤمنين معاً في أيِّ مكان معيّن يشكّل كنيسةً حقيقيةً. والمكان الذي يضمهم معاً ما هو إلا مكان الاجتماع سواء كان منزلاً أو قاعةً أو معبداً أو أي مبنىً مطبوعٍ بطابع ديني خاص)[٣].

ويرى كامبل أنّ الكنيسة "كانت دوماً في فكر الله وموضوع مقاصده من قبل تأسيس العالم. وأنّها كانت هي "السر المكتوم منذ الدهور في الله" [أفسس ٣: ٩] وكانت سراً مكتوماً في الأزمنة الدهرية ولكن ظهر الآن وأُعلِمَ به جميع الأمم (رو ١٦: ٢٥ و٢٦)[٤].

وبالعودة للحديث عن التاريخ الحقيقي المعتمد عند المسيحيين لتأسيس الكنيسة وبنائها نجدُ أنَّ هنالك قولاً يُعارض تأسيسها في اليوم الخمسين بعد القيامة (كما يذكر الإصحاح

---

(1) جبسون، [م. س]، ص ١.
(2) انظر، رستم، [م. س]، المقدمة صفحة ج.
(3) كامبل [م. س]، ص ٢، بتصرّف.
(4) المرجع السابق، ص ١.

الثاني من سفر أعمال الرسل)، ويرى أصحاب هذا القول أنَّ تأسيس الكنيسة الحقيقي إنما كان في ختام سفر الأعمال عند سجن بولس وليس في اليوم الخمسين. ويترتّب على هذا القول، الذي ينظر إليه المسيحيون على أنّه خطيرٌ، فهمٌ واحدٌ ألا وهو أنّ هنالك كنيسةً قد تأسست في غير اليوم الخمسين لقيامة المسيح، وأنّ هذه الكنيسة كانت يهوديةً، فقد وُصفتِ الأمّةُ الإسرائيلية مَرّةً في العهد القديم بوصف "الكنيسة في البريّة"[١]. ولكنّ المسيحيين يردّون معنى "كنيسة" في الآية السّابقة إلى المعنى الخاص وهو أنها كانت تعني (جماعة مدعوين) من أرض مصر. ويقولون: إن هنالك فروقاً وتبايناً كبيراً بين تلك الجماعة في البريّة وبين كنيسة العهد الجديد الكنيسة الحقيقية. يُسلّمُ المسيحيون ويعترفون ـ بناءً على إيمانهم بالعهد القديم ـ بأنه كان لله شعبٌ وأمّةٌ بين الشعوب، هو شعب إسرائيل، وأنَّ هذا الشعب كانت له علاقةٌ ينظّمها عهدٌ مع الله، لكنّهم يرون "أنّ هذا الشعب الإسرائيلي لم يكن هو الكنيسة التي لها مع المسيح علاقةٌ أكثرُ قرباً وأوفر بركةً ممّا كان لإسرائيل"[٢]. ويؤكد كامبل على "أنّ الربّ له كنيسةٌ واحدةٌ فقط، وأنَّ الكنيسة التي ذُكِرت في اليوم الخمسين هي جسدُ المسيح تماماً وأنه لا توجد كنيسةٌ يهوديةٌ وأخرى أمميةٌ أو كنيسةٌ من اليهود وأخرى من الأمم".[٣]

ويعتقدُ المسيحيّون أنّ الكنيسة هي المؤسّسةُ الإلهية العُظمى وأنَّ المسيح ذكر أنّه سوف يستبدلُ أمّةَ إسرائيل التي كانت تمثّلُ الله على الأرض بمجتمعٍ جديدٍ كليّاً هو مجتمع الكنيسة وأتباعها المؤمنين بها، وأنّ هذا الاستبدال إنما جاء بسبب عدم إخلاص اليهود وفشلهم في أن يكونوا نوراً للأمم ويوصّلوا خلاص الله إلى أقاصي الأرض، مع أنّ التحذيرات لهم كانت مُستمّرةً بوساطة الأنبياء، وهذا يتفّق تماماً مع ما ذهب إليه جبسون، حيث كان يرى أنّ الأنبياء العبرانيين قد تنبّأوا بالخلاص الذي يمتد إلى الأمم في العالم كله، وعن رفض إسرائيل بسبب عدم إيمانهم وأمانتهم، كانت حقيقةً حيث إنّ الكنيسة هي شعب الله سرّاً في العهد القديم، لكنْ كُشِفَ هذا السر في العهد الجديد (أفسس ٣: ٤-٥) حيث كانت الكنيسة أمراً في المستقبل فيما قبل الأناجيل الأربعة والإصحاح الأول من سفر الأعمال، لكنها بدأت في يوم الخمسين، العيد العبري (أعمال ٢) انضم المؤمنون إلى المسيح بعمودية الروح (أعمال ١: ٥ و١ كورنثوس ١٢: ١٢ – ١٣) الكنيسة ليست استمرارا لشعب إسرائيل بل هي خلفاً لها. وهي التي تقوم الآن بالعمل الإلهي في فترة رفض الله لإسرائيل (رومية ١١: ١

(١) أعمال الرسل، ٧: ٣٨.
(٢) كامبل [م. س]، ص١.
(٣) المرجع السابق نفسه، ص ٣ بتصرف.

– ٢) وسوف يرجع إسرائيل في المستقبل إلى الرب يسوع الذي ترفضه الأمم الآن (رومية ١١: ٢٥ و٢٦؛ زكريا ١٢: ١٠؛ ١٣: ١) والله الآن ينادي الناس ليأتوا إلى المسيح بواسطة شهادة الكنيسة ويضم الله إلى الكنيسة كلَّ يومٍ الذين يخلصون (أعمال ٢: ٤٧)[١].

يجدرُ بكلِّ دارس لتاريخ الكنيسة المسيحية أن يقف عند سفر أعمال الرسل[٢]، بل أن يتأمَّله طويلاً، وأهميّة هذا السّفر كما نرى إضافةً لاحتوائه على معالم أعمال الرسل وتلاميذ المسيح في صدر المسيحية الأولى، فإنّه يمثلُ فترةً انتقاليةً من اليهودية إلى المسيحية زادَ فيها عددٌ المسيحيين بشكلٍ كبيرٍ وملحوظٍ.

يُستفاد مما سبق أنَّ الكنيسة في أيامها الأولى وُلدت في القدس وأخذت تنمو ويزداد أتباعها وأعضاؤها منذ أيامها الأولى وقد حملت كنيسة القدس أو كنيسة (أورشليم) لقب أم الكنائس. وهي لم تكن لها في بداية عهدها أماكن خاصّةٌ للعبادة والوعظ، بل كان الأعضاء يجتمعون في الهيكل أو في بيوتهم الخاصّة. ولكنّ السؤال الذي يطرحُ نفسه بقّوةٍ الآن هل بقيت التعاليمُ المسيحيةُ والشرائع والمعتقدات حكراً على القدس وأهلها ممَّن آمن بدعوة المسيح آنذاك أم أنّها توسّعت وتمدّدت خارج هذه الأسوار، وانتشرت في العالم؟ وكيف تمّ ذلك؟ ولماذا؟ الجواب عن ذلك كله يخبرنا به جبسون بقوله: [٣]

"أسّسَ اللهُ كنيسته من أجل غرضٍ في نفسه. لم يخلّص الله المؤمنين لكي يعيشوا في شركةٍ انفراديةٍ وانعزاليةٍ معه كما يعتقد البعض. إنهم مدعوون إلى الشركة في مجتمعاتٍ روحيةٍ كأفراد عائلة الله العاملة، ويوصينا ألاّ نترك اجتماعنا (عبرانيين ١٠: ٢٥) فالكنيسة هي الجسد الذي رسمه الله والذي يستحق الاحترام والتعضيد والمشاركة الشخصية من كل شعبه. لم يتجاهل أيُّ إسرائيليٍ مكرّسٍ مسؤلياته في الحياة الروحية في مجتمعه، بنفس الحالة لا يمكن لأيِّ مسيحيٍ مُخلصٍ أن يتجاهل الكنيسة، عائلته الروحية".

---

(1) جبسون، [م. س]، ص ١.

(2) سفر أعمال الرسل (باليونانية يقال له الإيبركسيس) هوأحد كتب العهد الجديد يروي قصة الكنيسة المسيحية الناشئة، وسمي بأعمال الرسل لأنه يركز على بعض ما قامت به جماعة الإثني عشر رسولاً من نشاطات رسولية في الفترة التي تلت صعود يسوع المسيح إلى السماء بحسب رواية هذا السفر، وبشكل أوسع ما قام به بولس الرسول من رحلات وأعمال تبشيرية وكيف أسس جماعات مسيحية في معظم المدن اليونانية آنذاك. ومن المتفق عليه بأن كاتب سفر أعمال الرسل هو نفسه كاتب إنجيل لوقا والذي قد يكون الطبيب لوقا كما تؤمن معظم الكنائس، يعتقد أن هذا السفر كتب في فترة متزامنة مع كتابة إنجيل لوقا أي حوالي ٦٠م، بينما يرى العديد من الباحثين المعاصرين بأن هذا السفر كتب من قبل شخص غير معروف في الفترة ما بين ٨٠م و١٥٠م.

(3) جبسون، [م. س]، ص ١.

إنّ كلمات جبسون السّابقة واضحةٌ تمام الوضوح في الدلالة على وجوب نشر التعاليم المسيحيّة في العالم كله، وعدم بقائها حكراً على عائلةٍ أو مجتمعٍ أو كنيسةٍ بعينها بل يجب (التبشير) بها إلى العالم كله أو (التكريز) بها على نحو ما ذهب إليه تلاميذ المسيح الأوائل. ولقد بدأت الدعوة المسيحية تتخذُ وبالتدريج، صفة العالمية على يد بولس وأتباعه، حيث أخذت بالانتشار في المُدُن المحيطة بالقدس ومن ثمّ البلاد المحيطة بفلسطين والشام إلى آسيا وبقية القارات. وكان أشهر من تصدّى للقيام بنشرها القدّيسان بولس[١] وبطرس[٢] وذلك من خلال زيارتهما، كلٌّ على انفراد، للكثير من البلدان والمدن المختلفة أو من خلال الرسائل التي بعثا بها إلى معظم الناس في تلك البلاد. وقد بلغ مجموع رسائل بولس أربع عشرة رسالةً، أمّا رسائل بطرس فكانت رسالتين. وفي بعث هذه الرسائل دلالاتٌ بارزة على أهميتها في نشر الدِّين كما سبق وأن بينّا، عند الحديث عن رسالة الرسول محمد ﷺ إلى هرقل عظيم الروم.

وعلى كل حالٍ، فقد انتشرت في معظم أرجاء العالم، وقد ساعدها على ذلك، إضافةً لما سبق، تعرُّضها للاضطهاد، وتعاطفُ الناس مع أتباعها، وبعد ذلك اعتناق قسطنطين[٣] لها وجعلها ديانةً مرخّصةً مسموحاً بها في جميع أنحاء الدولة الرومانية التي كانت إمبراطوريةً عظمى آنذاك، "حيث جعلها مذهباً مساوياً لبقية المذاهب داخل الإمبراطورية الرومانية، مُنهياً بذلك عهوداً من الاضطهاد الذي عاشه المسيحيون في ظل سابقيه من الحكّام الرومان. "والحقيقةُ التي لا يستطيعُ أحدٌ إنكارها، أنَّ الدولة الرومانية عندما رفعت شعار الصليب، فإنّها أعلنت أنّ الديانة الرسميّة لها هي المسيحية، سواءٌ أكان اعتناق الإمبراطور للمسيحية سياسياً أم اعتقادياً"[٤].

---

(1) هو القديس بول (١٠م – ٦٨م) من الشخصيات الكنسية الأولى، يعرف أيضاً باسم القديس بولس. اشتهر بوصفه منصراً ومؤسِّساً لمجموعات الأديرة التي انتشرت في آسيا الصغرى وجنوب شرقي أوروبا. ولشدة أهميته فإن بعض النصارى يسمُونه الحواري، رغم أنه لم يكن واحداً من الحواريين الإثني عشر الذين كانوا مع عيسى عليه السلام. واسمه شاول وكان من أصلٍ يهوديٍ، ولد في طرسوس.

(2) هو سمعان بن يونا الملقب بسمعان بطرس ومعنى اسمه بالعربية الصفا وبالآرامية والعبرية شمعون كيفا وبالإنكليزية Simon Peter ومعنى اللقب بطرس هو الصخرة وقد نال لقبه هذا من المسيح بحسب رواية الكتاب المقدس. كان بطرس الرسول واحداً من نخبة الرسل الإثنى عشر رسولاً الذين اختارهم المسيح من بين أتباعه وسُمُّوا بالتلاميذ. وقد دُوِّنت بعض محطات حياته في الكتاب المقدس {الأناجيل الأربعة وأعمال الرسل}.

(3) قسطنطين الكبير (٢٧٥ – ٣٣٧م)، ويعرف أيضاً باسم قسطنطين الأول. أول إمبراطور روماني يدخل النصرانية، وتعتبرُ الكنيسةُ قسطنطين قديساً. وقد عُمِّد على فراش الموت.

(4) الخطيب، محمد أحمد، مقارنة الأديان، ص ٢٥٨، ط١، ٢٠٠٨، دار المسيرة، الأردن.

يعتقد الكاثوليك أنَّ بناء الكنيسة في روما إنما تمَّ بأمرٍ من المسيح للقديس بطرس هو "أنتّ بطرس، وعلى هذه الصّخرة أبني كنيستي، أبوابُ الجحيم لن تقوى عليها، وأُعطيكَ مفاتيح ملكوت السموات، فكلُّ ما تربطهُ على الأرض يكون مربوطاً في السموات، وكلُّ ما تحلُّه على الأرض يكون محلولاً في السموات"[١]. وبناءً على هذا النص قامت كنيسةُ روما واستمدت سلطتها وصلاحيّاتها، وكثرت التفاسير التي تدعمُ وتؤيد ذلك، ومن هذه التفاسير ما يلي:

١. "إنّ إبن الله أنشأ الكنيسة بأنْ جعل الرسولَ بطرس أوَّل رئيسٍ لها. وإنّ أساقفة روما ورثوا سلطات بطرس في تسلسلٍ مُستمّرٍ متّصلٍ، ولذلك فإنّ البابا ممثِّلُ الله على الأرض يجبُ أن تكون له السيّادةُ العُليا والسّلطان الأعظم على جميع المسيحيين حكّاماً كانوا أو محكومين"[٢].
٢. "إن الكنيسة هي صاحبة السَّيادة في العالم كُلِّه، تستمدُّ نفوذها من الله مباشرةً، وتمدُّ هي ملوكَ الأرض وأمراءها بالنّفوذ، وإنّ البابا له مركزٌ فذٌّ في العالم، فهو الذي يولّي الأساقفة ويخلعهم وله الحق في خلع الأباطرة لأنّه سيّدهم الذي لا يُسألُ عما يفعل وهم يُسألون"[٣].

وبناءً على ما سبق يمكننا أن نفهم سبب تعدُّدِ الأسماء التي أُطلقت على الكنيسة الغربية والتي هي محور وأساس دراستنا هذه، ومنها: الكنيسة الغربية أو اللاتينية وذلك لامتداد نفوذها إلى الغرب اللاتيني خاصّة، ومنها الكنيسة البطرسية أو الرسولية، لأنّ أتباعها يؤمنون أنَّ مؤسسها هو (بطرس) كبير الحواريين، ورئيسهم، والبابوات في روما خلفاؤه. أمّا أبرز أسمائها فكان الكنيسة الكاثوليكية. "وأصل كلمة كاثوليكي هو اللفظة اليونانية Katholikos كاثوليكوس، وتعني: العالميّ، حيث تمثّل الكنيسة الرومانية الكاثوليكية أكبر تجمعٍ مسيحيٍ في العالم؛ إذ يُقدَّرُ عدد أتباعها بنحو مليار مسيحي يمثلون حوالي خُمْس سكان العالم، وينتشرون في جميع بقاع المعمورة"[٤]. "وقد استخدمت هذه الكلمة ـ أي الكاثوليكية ـ

---

(1) متّى ١٦: ١٨ – ٢٠ وقد ورد في بعض الترجمات للإنجيل النص التالي (أنتّ صخرٌ وعلى الصخر هذا سأبني كنيستي ...) أنت بطرس وعلى هذه الصخرة إبني كنيستي، فلن يقوى عليها سلطان الموت، وسأعطيك مفاتيح ملكوت السموات، فما ربطتّه في الأرض رُبطَ في السموات وما حللته في الأرض حُلَّ في السماوات.

(2) ديورانت، ول، قصّة الحضارة، ترجمة عبد الحميد يونس، طبعة الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية، الجزء ١٤، ص ٣٥٢.

(3) حسونة، محمد ومحمد رفعت، معالم تاريخ العصور الوسطى، ص ١٣٧، ط١، ١٩٢٥، المطبعة الرحمانية، مصر.

(4) الموسوعة الحرّة باللغة الإنجليزية ويكيبيديا، انظر كلمة chatholic.

لأول مرةٍ من قبل القديس "أغناطيوس الأنطاكي" في رسالته إلى السميرانيين سنة ١١٠م، ثم استخدمها اللاهوتي الإغريقي "كليمنت الإسكندراني" (١٥٠م – ٢١٥م)، الذي يُعدُّ أحد الآباء العظام اليونانيين للكنيسة الكاثوليكية، لكنَّ الاستخدام الرسميّ لها في التعبير عن الكنيسة المسيحية ـ التي كانت الوحيدةَ في ذلك الوقت ـ لم يحدث قبل القرن الثالث الميلادي"[١].

يُستفادُ ممّا سبق استقرار عقيدةٍ في الذهنيّة المسيحية الغربية أو (الكاثوليكية) مفادها أنَّ القدّيس بطرس هو الذي قام ببناء الكنيسة في روما، وأنّ خلفاءه من البابوات في روما ورثوا صلاحيّاته في تسلسلٍ مُستمرٍّ، وأنهم مارسوا هذه الصلاحيات في سبيل نشر وتكريس الإيمان الكاثوليكي في ظل وجود البابوية. "والبابوية أو "Papacy" باللغة الإنجليزيّة نسبةً إلى البابا، والبابوات جمع بابا أو "Pope" بالإنجليزية، والكلمة في أصلها مشتقةٌ من الكلمة اللاتينية papa والتي تعني الأب، وهو لقبٌ كَنَسيٌّ يُطلق في الكنيسة الغربية خاصّةً على رئيس الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، الذي اتخذ مدينة روما الإيطالية ثم الفاتيكان مقراً له"[٢]. لقد كان لقب "البابا" يُطلق على كل أُسقفٍ في القرنين الرابع والخامس للميلاد، إلاّ أنه أصبح تدريجياً، مقصوراً على أسقف روما وحده، واستمرَّ الحال على هذا في الكنيسة الغربية إلى يومنا هذا. وممّا يجدرُ ذكرهُ هنا أنّه وبعد اعتناق قسطنطين للمسيحيّة بدأ مركز الثِّقل الدّيني ينتقل من أورشليم إلى روما، وبدأت المدينة المقدَّسة تفقدُ بريقها القديم كعاصمةٍ لمملكة الله؛ فقد حلَّت روما محلَّها، وإن بقيت لها جاذبيتها الخاصّةُ؛ إذ فيها ظهر المسيح وبدأت رسالته، وبذا تحَّولتْ إلى مزارٍ مقدّسٍ يحجُّ إليه (المؤمنون). وتعلِّقُ المؤرّخةُ اليهودية "باربارا توخمان" على ذلك بقولها: "إنه وإن أخذت أورشليم تُسلِّمُ المقاليد إلى روما إلى أن انتقل مركز السلطة الدينية إلى أوروبا بتأسيس العرش البابوي سنة ٥٩٠م. فإنها ظلّت الوطن الروحيَّ، حتى وإن تضاءلت مكانتها الزمنية"[٣].

ويحدّثنا التاريخ المسيحي عن وقوع ما يُسمّى بـ (الانشقاق العظيم) وهو انشقاق كنائس الشرق والغرب الخلقيدونية عن بعضها البعض، مُشكِّلةً بذلك فرعاً غربياً لاتينياً

---

(1) رستم، سعد، الفرق والمذاهب المسيحية منذ ظهور الإسلام حتى اليوم، ص ٦٨، ط٢، ٢٠٠٥، دار الأوائل للنشر، دمشق.
(2) الموسوعة الحرّة باللغة الإنجليزية، ويكيبيديا، انظر كلمة pope وpapacy.
(3) مقار، شفيق، المسيحيّة والتوراة، ص ٦٢، ط١، ١٩٩٢، دار رياض الريّس للنشر، لندن، وقبرص.

(كاثوليكياً) وفرعاً شرقياً بيزنطياً (أرثوذكسياً) [1]، وعادةً يرجع تاريخ هـذا الانشقاق إلى عام ١٠٥٤ م. "والانقسام بين الشرق والغرب جاء في الواقع نتيجةَ فترةٍ طـويلةٍ مـن الجفـاء بـين المسيحية اللاتينية واليونانية. وقد كان السبب الرئيس للنزاعات التي أدت للانشقاق هـو الخلاف حول قرار البابا ليـو التاسـع، والذي طالـب بـأن يكـون له سـلطةٌ عـلى البطارقـة اليونانيين الأربعة في الشرق، وأيضا رغبة الغربيين بإضافة عبارة على قـانون الإيمـان النيقـاوي حول انبثاق الروح القدس من الابن إضافة للآب. وقد رأى الشرقيون بأنَّ سلطة بابا رومـا هي شرفيّةٌ وهو يملك سلطةً روحيةً في نطاق رعيّته فقط، ولا يملك الحقَّ لتغيير قـرارات المجامع المسكونية"[2].

وقد ظلَّ كرسي البابويّة في روما يزداد قوّةً ونفوذاً في كلِّ عقدٍ من العقود التي مرّت عليه... وكان ثراؤه وكثرة صدقاته العامّة ممّا رفع مكانته، وكان العالم المسيحيّ بأجمعه يستشيره في كلِّ ما يصادفه من المشاكل الخطيرة ... "وقد نادى سبريان في كتابه "الكنيسة الكاثوليكيّة الموحّدة" بأنّ كرسيَّ بطرس أو مقرّه إنما هو مركزُ العالم المسيحي وأعلى مكانٍ فيه. وقبل أن ينتصف القرن الثالث كان مركز البابوية ومواردها المالية قد بلغا من القوة حداً جعل ديسيوس يقسم أنه يُفَضِّلُ أن يكون في رومة إمبراطورٌ ثانٍ ينافسه على أن يكون فيها بابا. وهكذا أصبحت عاصمة الإمبراطورية عاصمة الديانة المسيحية"[3].

وبناءً على ما سبق ذكره من النصوص، فقد تمحورت الكنيسة الكاثوليكية حول شخص البابا بوصفه خليفةً للقديس بطرس، وتمتّع البابا بصفة القداسة في ذاته وكلماته كما اعتُبِرَ عند الكثيرين من الكاثوليك واسطةً بين الله والخلق، وممثّلاً لله على وجه الأرض. وتطّور الأمرُ لدرجةٍ وصلتْ إلى إطلاق وصف العصمة عليه فهو معصوم عندما يتكلمُ بصفته كاهناً أو مُعلِّماً، وهذه العصمة، كما يرون، إنما هي هديةٌ من الله ثبتت مشروعيتها بنص العهد الجديد في إنجيل يوحنا "لم تختاروني أنتم بل أنا اخترتُكم وأقمتكم لتنطلقوا فتثمروا ويبقى ثمرُكم فيعطيكم الآب كلَّ ما تسألونه باسمي"[4]. وقد قرّر مجمع روما الذي عُقد عام (٨٦٩م) أموراً هامّةً فيما

---

[1] إحدى الكنائس الرئيسة الثلاث في المسيحية وقد انفصلت عن الكنيسة الكاثوليكية الغربية بشكل نهائي عام ١٠٥٤م. وتدعى أرثوذكسية بمعنى مستقيمة المعتقد مقابل الكنائس الأخرى، ويُقدّر اتباعها بنحو ١٨٠ مليونا، ويتركز أغلبهم في المشرق ولذا يطلق عليها الكنيسة الشرقية، أو كنيسة الروم الآرثوذكس، وتمثلت في عدة كنائس مستقلة. ولا تعترف بسيادة بابا روما عليها.

[2] انظر: الموسوعة الحرّة ويكيبيديا، مادة الانشقاق الغربي.

[3] ديورانت [م. س]، الكتاب الخامس، الفصل الأول، ص ٣١٨، ٣١٩، بتصرف واختصار.

[4] مرقص ١٦: ١٥ – ١٨.

يتعلق بالكنيسة والبابا كان من أبرزها "تقرير مبدأ عصمة البابا ومنح الكنيسة سلطة محو السيئات ووجوب الاحتكام إلى كنيسة روما في كلِّ أمرٍ يتعلق بالمسيحية، وأن المسيحيين في جميع بلاد العالم يخضعون لقرارات رئيس كنيسة روما"[١]. وقد تعاقب على كرسي البابوية مئات البابوات، كان أولهم، حسب الاعتقاد الكاثوليكي، القديس بطرس وآخرهم الألماني جوزيف ريتسنغر الملقّب "بنديكتيوس السادس عشر". ومن المعلوم أن البابا يتم انتخابه عن طريق مجلس الكرادلة (جمع كاردينال) وهم مُستشارو البابا. أما عن الإدارة البابويّة للكنيسة الكاثوليكية والرتب الكهنوتيّة التي فيها فهي تتكون ممّا يلي[٢]:

١. الإدارة البابوية: تتكون من أمين سر وعدد من اللجان: لجنة الكرادلة، وبها فريق يطلق عليهم أمناء السر (السكرتارية)، ويشرفون على المسائل الخاصة بالكنيسة، لاسيما القانونية والإدارية واللاهوتية.
٢. المطارنة (الأساقفة): وهم مسؤولون أمام البابا، ويتكون مجمع المطارنة من الأساقفة بمن فيهم البابا الذي يرأس المجمع، والمجمع مسؤول عن قيادة الكنيسة وهم أعلى مرتبة من الكهنة والقسيسين.
٣. الأسقفيات أو الأبرشيات: وهي مناطق حدودية من الكنيسة يديرها أسقف يتولى شؤونها الإدارية والدينية، وتعتبر الأبرشيات الوحدات التنظيمة التي تتكون منها الكنيسة الكاثوليكية.

أما التسلسل الهرمي للإكليروس (أي لرجال الدين)، في الكنيسة الكاثوليكية فهو كالتالي[٣]:

١. الشماس المساعد، ثم الشماس، ثم رئيس الشمامسة.
٢. القسّيس (ويسمى ـ أيضاً ـ القس والكاهن، والأب والخوري)،وكل هؤلاء لقبهم التشريفي هو الـمُحترم، ويناديهم الأتباع باسم "أبونا".

---

(1) شلبي، أحمد، المسيحيّة ص ١٦٨، ١٦٩، بآختصارٍ وتصرفٍ ط١٠، سنة ١٩٩٣، مكتبة النهضة، مصر.
(2) رستم، سعد [م. س] ص ٧٨، ٧٩ بتصرف.
(3) رسم، سعد، [م. س]، ص ٧٩، بتصرف.

٣. ثم الأُسْقُف، أو المطران، وأحياناً؛ يكون المطران أعلى من الأسقف، حيث يرأس عدة أساقفة، ثم رئيس الأساقفة، ولقبهم التشريفي "سيادة" .. الجزيل الاحترام والوقار، في حين يُخاطبهم الأتباع باسم "سيِّدنا".
٤. البطريرك (أو البطريارك أو الشّيخ الجليل) وهُو رئيس الأساقفة، ولقبه التشريفي: "غبطة" البطريرك.
٥. الكاردينال، ولقبه التشريفي "نيافة"، ومنهم يتشكَّل مجمع الكرادلة.
٦. وأخيراً؛ البابا ويلقّب قداسة الحَبْر الأعظم.

ومن المهم في ختام هذا المبحث أن نذكِّر أن عقائد الكنيسة الكاثوليكيّة إنّما تثبتُ بناءً على قرارات المجامع الكنسِيّة المسكونيّة (العالمية) "والمجامع هيئاتٌ شوريّةٌ في الكنيسة المسيحيّة، قد رسم نظامها الرسل في حياتهم، حيث عقدوا المجمع الأول في أورشليم "القدس" بعد ترك المسيح لهم باثنتين وعشرين سنة"[١].

عُقدتْ في تاريخ الكنيسة المسيحية عدّة مجامع أو اجتماعات ضمّت قادة الكنيسة من مختلف أنحاء العالم للبحث في أمور الكنيسة وخاصّةً للبتّ في القضايا العقديّة في ضوء تعاليم الكتاب، ولم تكن جميع المجامع التي عقدت في تاريخ الكنيسة القديم، مجامعَ مسكونيةً، بل عُقدت أيضاً مجامعُ إقليميةٌ حيث كانت الكنائس في إقليمٍ ما تبحث في قضايا مشتركة. وكذلك كانت هناك مجامعُ وطنيةٌ أي ضمن البلد الواحد، وكانت تشمل عدة أقاليم وكان لها تأثيرٌ معيّنٌ في الوطن ... والذي يعنينا هنا هو تلك المجامع التي انعقدت للبحث في الأمور التي تهمّ الكنيسة في كل أنحاء العالم. وتُسمَّى هذه المجامع الكَنَسيَة بالمجامع المسكونية وهذه الكلمة تُستعملُ إلى يومنا هذا في الكلام عن الاجتماعات التي تعقد للبحث في شؤون الكنيسة في مختلف بلدان العالم والتي تضم ممثلين من أكثر من بلدٍ أو قارةٍ واحدةٍ. "ولم تكن هناك أيةُ منظمةٍ لعبت دوراً هاماً كالدور الذي لعبته المجامع المسكونية التي انعقدت في تاريخ الكنيسة القديم"[٢] وتعتبرُ قرارات هذه المجامع مُلزِمةً لجميع أتباع الكنيسة الكاثوليكية "وتكمنُ خطورتها في كونها تختصُ بتقرير القواعد والقرارات الدينيّة العامّة، وفي كونها تملكُ سلطان التشريع. وأخطر هذه المجامع وأبعدها أثراً وأكبرها شأناً أربعة، وهي التي عُقدت في القرون الأولى

[1] الخطيب، [م. س]، ص ٢٨٦.
[2] مدني، بسام، سلسلة دروس الكنيسة في التاريخ، درس المجامع المسيحيّة، المنشورة في موقع كلمة الحياة www.kalimatalhayat.com التابعة للكنيسة الأرثوذكسية ، درس المجامع المسيحية.

للمسيحيّة، فحدّدت حدود العقيدة، ورسمت مظاهر التشريع عند اتباع المسيحية وهذه المجامع هي"[1]:

١. مجمع نيقية المنعقد في ٣٢٥م.
٢. مجمع القسطنطينية الأول المنعقد في ٣٨١م.
٣. مجمع أفسس المنعقد في ٤٣١م.
٤. مجمع خليقدونية المنعقد في ٤٥١م.

ويهمنا أن نضيف إليها مجمع كليرمون المنعقد في ١٠٩٥ ومجمع الفاتيكان الثاني المنعقد ما بين عامي ١٩٦٢ و١٩٦٥ للميلاد وذلك لما صدر عنهما من قراراتٍ تتعلقُ مباشرةً بموضوع دراستنا هذه.

(1) الخطيب، [م. س]، ص ٢٨٧، بتصرف.

المبحث الثاني
فهمُ الكنيسة الغربية للإسلام
حقيقتهُ والعوامل التي أدّت إليه

علا نجم الكنيسة الكاثوليكية ولمع في العصور الوسطى[1]، وأخذ نفوذها في الازدياد على ثرى القارة الأوروبية لدرجةٍ ضايقت الكثيرين من الحكّام والملوك والأمراء، وكان أصدق تعبيرٍ عن هذا التضايق المصادمات العديدة التي شهدتها "أوروبا" بين السلطات الزمانية (مؤسسة الحكم الدنيوي التي كان يتزعمها الملوك والأمراء) وبين السُلطات الدينية (مؤسسة الحكم الرّوحي التي كانت تتزعمها الكنيسة برئاسة البابا)، وقد كانت المؤسسة الدينية تتدخّل في معظم شؤون الناس، إن لم يكن فيها كلّها، كيف لا وقد منحت لنفسها حقَّ غفران الذنوب؟ واستصدرت صكوك الغفران وفرضت الكتاب المقدّس باللغة اللاتينية التي كان معظم الناس لا يجيدونها ولا يعرفون عنها شيئاً كما أنّها احتكرت الحقّ في فهم هذا الكتّاب وتفسيره، وابتدعت نظام محاكم التفتيش لملاحقة كلّ مَن يخالف تعليماتها وتشريعاتها وقوانينها واتهمته بالهرطقة والكفُر. وفوق ذلك فقد فرضت أسراراً سبعةً وطقوسها التي يُمنعُ غيرها من تفسيرها وتوضيحها، وفرضت لنفسها سلطاناً وهيبةً في النفوس جعل لها جانباً كبيراً من الرّهبة في قلوب الناس. وقد ساعد على تقوية نفوذ الكنيسة الغربيّة ضعفُ الإمبراطورية الرومانيّة الغربيّة وما تلا ذلك من صراعاتٍ وانقساماتٍ في البلدان والممالك التابعة لها، وكانت الكنيسة الكاثوليكيّة أكبر المستفيدين من ذلك حيث استقلّت بتعيين البابوات عن طريق المجامع الكنسية وليس عن طريق الأباطرة، كما كان الحال سابقاً، وهذا بحدِّ ذاته قوَّى سلطان الكنيسة والبابا بوصفه السلطان الأعلى للمسيحيين في العالم كلّه، وهم مُلْزَمون بطاعته والخضوع له ولسلطاته الممنوحة له من الربّ، وبما أن الحاكم أو الملك أو الأمير الذي يحكم إحدى البلدان في أوروبا مسيحيٌ فإنه ومن كلِّ بُدٍّ بحاجةٍ لمباركة ودعم وتأييد الكنيسة لحكمه وإضفاء صفة الشرعيّة عليه. وقد تعدّى الأمرُ هذه الحدود؛ ففي مقابل تمتُّع الكنيسة بحق الغفران (غفران ذنوب الناس ومعاصيهم) فقد وهبت لنفسها حقَّ الحرمان، و"الحرمان نوع من

[1] العصور الوسطى: يشار إلى هذه الفترة المبكرة بأنها العصور المظلمة، كانت القرون الأولى من العصور الوسطى، خاصة من القرن الخامس إلى أواخر القرن العاشر الميلاديين أقرب إلى أن تكون مظلمة، حيث أصيبت حضارة غربي أوروبا بالانحطاط، ولم يتبق من حضارة الرومان القدامى سوى ما بقي في قلة قليلة من مدارس الأديرة والكاتدرائيات والبلاط والقصور الملكية. أما العلوم التي نقلت عن اليونانيين فقد اندثرت تقريباً وكان الذين تلقوا علماً فئة قليلة من الناس، كما ضاع الكثير من المهارات الفنية والتقنية القديمة، وأمسى العلماء في جهلهم، يتقبلون الحكايات الشعبية والشائعات على أنها حقيقة.

العقوبة أخذه المسيحيون عن قدماء الوثنيين، وفي العهد الذي كان للبابا الحق في تتويج الأباطرة، كان الحرمان يسلبهم تيجانهم وعروشهم، وقد حرم البابا "بيوس الخامس" ملكة الإنجليز "اليصَّابات" عام ١٥٧٠م وأباح لرعاياها عصيانها، وحرم البابا "بيوس التاسع" في النصف الأخير من القرن الغابر ملك إيطاليا "فيكتور عمانويل" لاستيلائه على أملاك الكرسي الرسولي. أمَّا حرمان غير الملوك والأباطرة فكان على نوعين؛ حرمان المحروم من بعض المزايا الكنسيّة ـ متى كان جرمه بسيطاً، فإن كان الجرم كبيراً، طُرِدَ المحروم من عضوية الكنيسة ـ إن كان عضواً بها، وحُرم من معاشرة المسيحيين، ودُفن على غير الشعائر المسيحية. وقد أيدت القوانين المدنية عقوبة الحرمان الكنسي، فسلبت المحروم حقوقه المدنية في وظائف الدولة وصادرت أملاكه، وحرمته من الرتب ونحوها. وقد يُصدر البابا قرار الحرمان ضدَّ أمّةٍ كاملةٍ، وعندئذ تغلق كنائسها ويمنع الزواج بين أهلها، ولا تباركُ الكنيسة دفن موتاها ..."[1]. ولعلَّ ممارسة الكنيسة لهذا الحرمان، يدلُّ بكل صراحةٍ ووضوح على نوعيّة النفوذ والسُّلطة التي كانت الكنيسة تمارسها وتتمتّعُ بها، ويشهد على ذلك ما أعلنه البابا "غريغوري السابع": "إنَّ الكنيسة هي صاحبةُ السيادة في العالم كلّه، تستمدُ نفوذها من الله مباشرةً، وتمدُّ هي ملوك الأرض وأمراءها بالنفوذ، وإنّ البابا له مركزٌ فذٌّ في العالم، فهو الذي يولّي الأساقفة ويخلعهم، وله الحق في خلع الأباطرة لأنه سيدهم الذي لا يسأل عما يفعل وهم يُسألون"[2].

كما يشهد على ذلك بيان البابا "نيكولاس الأول" ... "إن البابا ممثّلُ الله على ظهر الأرض، يجب أن تكون له السيادة العليا والسلطان الأعظم على جميع المسيحيين حكَّاماً كانوا أو محكومين"[3].

ولئن كان هذا حال الكنيسة وبابواتها مع الحكّام والملوك فمن السَّهل علينا أن نتصوّر حالها مع المحكومين من الشعوب والرعيّة ... من السهل أن نفهم الآن أنّ أيَّ رأيٍ كانت الكنيسةُ تتبناه، فإنه يصبحُ، وبصورةٍ تلقائيّةٍ، رأياً يجبُ على أتباعها ورعاياها أن يتبنّوه، وأنّ أيَّ موقفٍ تتخذه الكنيسةُ تجاه حدثٍ مُعيَّنٍ فإنّه يصبحُ، وبصورةٍ تلقائيّةٍ كذلك، موقفاً لجميع أتباعها ورعاياها ... ويبرزُ في معرض الحديث عن هذه المواقف موقفُ الكنيسة من الإسلام

---

[1] الطويل، توفيق، قصة الاضطهاد الديني في الإسلام والمسيحية ص ٨١، ١٩٤٧، ط١، دار الفكر العربي.
[2] حسونة محمد، محمد رفعت، [م. س]، ص ١٣٧.
[3] ديورانت، [م. س]، ص ٣٥٢.

ونبوّةِ محمد ﷺ، وخصوصاً إن تذكّرنا أنّ وصول الإسلام إلى القارة الأوروبية آنذاك لم يكن مجرد حدثٍ بارزٍ بل هو الأبرز والأهم في ذلك الوقت خصوصاً وأنّ الإسلام كان في عصره الذهبي وأوجِ قوّته ومجده، بينما كانت القارة الأوروبية وكنيستها العجوز غارقةً في عصرٍ حمل اسم عصر الظلمات أو العصور الوسطى. وإنّ من الصواب قبل أن نذكر حقيقة موقف هذه الكنيسة من الإسلام وفهمها له، أن نشير إلى أنَّ هنالك مجموعةً من العوامل كانت قد تضافرت وتجمَّعت لتشكّل وتصنع هذا الموقف والفهم الذي لا زالت الكنيسة الغربية في روما تتبناه إلى وقتنا الحاضر، وترفض أن تُدخل على جوهره أيَّ تغييرٍ حقيقيٍّ. وعوامل فهم الكنيسة الغربية للإسلام وصورته في ذهنها إنما هي عوامل متباينةٌ مختلفةٌ، على مصدريّتها العشرات والعشرات من علامات الاستفهام والتعجب والرفض، وأبرز هذه العوامل قصص العهد القديم ودَورُ الحجّاج المسيحيين العائدين من بيت المقدس (أورشليم) وقصص الخيال والموروث الشعبي، ويضاف إلى تلك العوامل مساهمات الكنيسة الإسبانيّة ومساهمات الرهبان في التحريض على الإسلام والمسلمين. أمّا أهمُّ هذه العوامل وأبرزها على الإطلاق فكان عامل الجهل بالإسلام والخوف منه. وتفصيل هذا ما يلي:

أولاً: قصص العهد القديم

شهدت العصور الوسطى انكباباً كبيراً من الناس على قراءة الكتاب المقدّس ومحاولة فهمه وتفسير الأمور من خلاله؛ فمن الناس من كان يقرؤه ليُسيِّر حياته بمقتضى تعليماته وأوامره، ومنهم من كان يقرؤه لمعرفة أصول المسلمين ـ أو السرازانيين أو السراسنة، كما كانوا يُسمَّون في أوروبا في العصور الوسطى ـ وسلالاتهم ومكانهم بين شعوب العالم، ومنهم من كان يقرأ هذا الكتاب ليحاول من خلاله فهم ما سيحدث في المستقبل[1]، وهذا الانكباب على قراءة الكتاب المقدّس بعهديه القديم والجديد يرجع ـ كما يرى سوذرن ـ إلى "أنَّ الكتاب المقدّس كان الأداة الفكريّة الوحيدة الفعّالة في أوروبا في مطالع العصور الوسطى، وما كان بوسع المؤلِّفين اللاتين أن يتجاهلوا كلام العهد القديم عن الماضي والمستقبل؛ مهما كان هذا الكلامُ غامضاً أو غير معقولٍ. وقد أسهم الكتابُ المقدس في صياغة مفهوم الأوروبيين للعالم والتاريخ؛ وكان هؤلاء يُصغون إليه ويتلمَّسون في نصوصه حلولاً لمشكلات العالم في الماضي والحاضر والمستقبل؛ رغم أن سلاّتهم كانت تعود غالباً فارغةً. وما كان علماءُ الكتاب المقدّس

[1] سيأتي تفصيل ذلك في الفصل الثاني والذي يحمل عنوان "الفكر الرؤيوي وتوظيفه في الفهم الخاطئ للإسلام في العصور الوسطى"

ليجدوا مَهمّةً أَوْلَى في مجال تخطيطهم للمستقبل من العودة لدراسة المسألة انطلاقاً من نصوص الكتاب"[١].

أمّا عن قراءة هؤلاء للكتاب المقدَّس ومحاولتهم للربط بين أحداثه ونصوصه من جهةٍ وبين الدين الإسلامي الذي يمثِّلُهُ محمدٌ، ﷺ من جهةٍ أخرى، فإنما كانت على الدوام تؤدي إلى ما يلي:

١. إنّ محمداً وأتباعه العرب هم أعقابُ إسماعيل، ابن الجارية المصريّة هاجر.
٢. إن ظهور محمدٍ ودولته الإسلامية القوية وانتصارها إنما هو مقدّمةٌ وتمهيدٌ لظهور المسيح الدجّال، وفي هذه إشارةٌ واضحةٌ لقرب نهاية الزمان.
٣. إنّ محمداً ومملكته إنّما هما التفسير الحقيقي لمعنى الوحش الرابع الذي ورد ذكره في سفر دانيال[٢].

وقد علّق سوذرن على مقارنة هؤلاء للمسألة الإسلامية وربطها بنصوص العهد القديم "بأنها خاطئةٌ ومضحكةٌ ولكنها تركت آثاراً ضخمةً على تطوّر فهم أوروبا للإسلام"[٣].

ولا يخفى على أيِّ قارئٍ أنّ محاولات الربط والتأكيد على أنّ محمداً والعرب هم أعقابُ إسماعيل ابن الجارية المصرية إنما هي محاولةٌ للتحقير والحطّ من شأن العرب ونبيّهم، خصوصاً إذا ما قرأنا الطريقة التي روت بها التوراةُ قصّة هاجر وابنها إسماعيل، عليهما السّلام، وتفاصيل هذه القصّة موجودةٌ في الإصحاح السادس عشر من سفر التكوين وألفاظها صريحةٌ في الحطّ من شأنها وشأن ابنها الذي وصفته التوراة بالوحشيّ ـ حسب الفهم الكتابيّ لمعنى الكلمة ـ وأوحت بأنّه بدويٌ شرسٌ يرفع يده على الجميع!!! وهكذا انطلاقاً من هذا الربط كان الأوروبيون ينظرون للإسلام ورسوله في العصور الوسطى على أنّهم بدو، شرسون، بربريون، مقاتلون أشداء، جاؤوا من الصحراء.

---

(1) سوذرن، [م. س]، ص ٥١.
(2) أحد كتب العهد القديم، ونرى فيه تجارب ورؤى مَرَّ بها دانيال في الأسر البابلي، حيث نجا من وكر الأسد. يذكر السفر أن دانيال بعدما تمكن من تفسير حلم الملك نبوخذ نصر في الوقت الذي عجز فيه المجوس والسحرة والمنجمين عن ذلك رفعه الملك ليكون كبيرهم (دانيال ٥: ١١) ويعتقد أنه كتب في القرن الثاني قبل ميلاد المسيح عندما عانى اليهود من الاضطهاد، وليس في بابل. ومما يتميز به هذا السفر أنه خليط من اللغتين العبرية والآرامية الغربية، وفيه أيضاً أكثر من أثنى عشر كلمة مشتقة من الفارسية.
(3) سوذرن [م. س]، ص ٥١.

"ويعتبر المؤرخ "بدا" (أو بيدا) العالم الكبير بنصوص الكتاب المقدّس في مطالع العصور الوسطى أوّلَ من أدخل المسلمين في تفسير العهد القديم، وصار الأمر من بعده بمثابة (كليشية) يستعمله الجميع في شروح الكتاب المقدّس وخارجها ... وقد ظلّت صورة "بدا" عن المسلمين (السرازانيين) سائدةً لمدّةٍ طويلةٍ دون إضافاتٍ ظاهرةٍ"[١]. لقد شكّلت سرعة انتشار الدِّين الإسلامي في العالم في ذلك الوقت، تماماً كما هي اليوم، ظاهرةً فريدةً أثارت الخوف والقلق في قلوب رجال الكنيسة الغربيين، فعملوا جاهدين على محاربة هذه الظاهرة والحدّ منها بأن حاكوا حولها الأكاذيب والقصص المشوَّهة والخياليّة لصدِّ الناس عن مجرد التفكير في حقيقة هذا الدين وطبيعته فقالوا بأن الإسلام من اختراع محمدٍ وإنه استلهم هذا الدين من الشيطان. وكان هذا القول نقطة البداية التي نُسِجَتْ حولها الخيوط، وبُنيت عليها الكثير من الأساطير والافتراءات على الإسلام، ونشروها بين الناس وبخاصة في الأوساط المسيحية، لإخافتهم من هذا الدين، ومنعهم من التحول عن دينهم واعتناق الإسلام. و"من هذه الأساطير زعمهم بأن محمداً "صلى الله عليه وسلم" لم يمت في عام ٦٣٢م، كما هو معروف، وإنما في عام ٦٦٦م، حتى ينطبق هذا الرقم على عدد الوحش في سفر رؤيا يوحنا اللاهوتي، الإصحاح الثالث عشر، والذي يقول في أوله: "ثم وقفتُ على رمل البحر فرأيتُ وحشاً طالعاً من البحر له سبعة رؤوسٍ وعشرة قرونٍ وعلى قرونه عشرةُ تيجانٍ وعلى رؤوسه اسم تجديف". وفي نهايته يقول: [وأن لا يقدر أحد أن يشتري أو يبيع إلا من له السمة أو آسم الوحش أو عدد اسمه، هنا الحكمة. من له فهم فليحسب عدد الوحش فإنه عدد إنسانٍ، وعدده ستمائة وستة وستون][٢].

"وقد حرّفوا اسم هذا الوحش وأطلقوا عليه "ماهاوند Mahound" حتى يصبح محمد "صلى الله عليه وسلم" في نظرهم تجسيداً للشيطان. إن اسم "ماهاوند" أو "ماهون Mahun" بالفرنسية و"ماهمت Mahmet" بالإنجليزية، أو "ماتشميت Machmet" بالألمانية، كانت جميعها مرادفةً لكلمة عفريت وشيطان وصنم ابتكرها كُتَّابٌ مسيحيون، صِيغت حولها قصصٌ أسطوريةٌ وورومانسيّةٌ في أوروبا إبان القرن الثاني عشر. وفي هذه الكتابات لم يُظهروا فيها محمداً نبياً، وإنما صوّروه على أنه صنمٌ ووثن عبده العرب"[٣]. وليس من قبيل المبالغة أن نؤكِّدَ هنا على أنّ قدراً كافياً من العلم عن طبيعة وحقيقة الإسلام كان

---

(1) سوذرن [م. س]، ص ٥٢.

(2) الفرا، محمد علي، الإسلام والغرب مواجهةٌ أم حوار، ص ٥٠، ط١، ٢٠٠٢، دار مجدلاوي للنشر، الأردن.

(3) المرجع السابق نفسه، ص ٥٠.

متوفراً لدى علماء العصور الوسطى وذلك من خلال توفُّر بعض ترجمات القرآن الكريم والكثير من الأحاديث النبويّة والتاريخ الإسلامي[1]، إلا أنّ هؤلاء ومَن كان وراءهم من رجالات الكنيسة كان يصرّون على فهم الإسلام والتعرّف عليه من خلال الكتاب المقدّس وبالذات العهد القديم منه، والذي كان ولا زال حتى السّاعة، مُلْهِماً لهم في تدوين أبرز أحداث تاريخ العالم!!! "ومن ذلك أنّهم فسَّروا أحداث زمانهم طبقاً لإشاراتٍ وردت فيه، فقد فسروا، على سبيل المثال، ظهور الإسلام بأنه ظهور نقيض المسيح وعدوّه. وقد وجدوا ما يثبت زعمهم هذا في كتابهم المقدس، وبالتحديد في (سفر دانيال، الإصحاح السابع الفقرات ١٥ – ٢٥) والتي جاء فيها "أمّا الحيوانُ الرابع فتكون مملكةٌ رابعةٌ على الأرض مخالفةٌ لسائر الممالك فتأكل الأرض كلّها وتدوسها وتسحقها. والقرون العشرة من هذه المملكة هي عشرةُ ملوكٍ يقومون، ويقوم بعدهم آخر، وهو مخالف الأولين، ويُذِلُّ ثلاثةَ ملوك، ويتكلم بكلامٍ ضدَّ العليّ، ويبلي قديسي العلي، ويظن أنه يغير الأوقات والسَّنة ويسلمون ليده إلى زمانٍ وأزمنة ونصف زمان".

وبموجب فكر العصر الوسيط فإنَّ الحيوان الرابع يتمثل في الإمبراطورية الرومانية التي جاءت بعد إمبراطوريات: الأشوريين والفرس واليونان، وأن القرون العشرة للمملكة هم البرابرة الذين غزوا أوروبا، ومن بعدهم جاء أتباعُ محمدٍ، ﷺ، الذين اكتسحوا اليونان والفرنجة والقوط، وأنهم مختلفون عن البقية، وأنهم غيَّروا الأوقات والقوانين"[2].

يُستفاد ممّا سبق أنَّ الكنيسة الغربيّة وافقت ودعمت محاولات فهم الإسلام والتعرُّفِ عليه من خلال الكتاب المقدّس وكان خلاصة ما انتهت إليه تلك المحاولات أنَّ محمداً هو عدو المسيح أي أنه المسيح الدجّال الذي يعتبرون قدومه وكثرة انتصاراته الدنيويّة دلالةً على اقتراب اليوم الآخر. والسؤال الذي يطرحُ نفسه الآن هو هل كان لهذه التفسيرات والتأويلات إنعكاسٌ حقيقيٌ أو أثرٌ ملموسٌ في أوروبا في تلك العصور الوسطى؟ الجواب هو قطعاً نعم. فقد خرجت فتاوى هنا وهناك في أنحاء أوروبا وبالذات في إسبانيا تشجّع على مسبّة وشتيمة "محمد" أو "المسيح الدجال" وكانت تلك الفتاوى والتي شجعها رجال من أمثال باول ألفاروس وأوجيليو[3] بدايةً لتاريخ مؤلمٍ محزنٍ مريرٍ من العلاقات بين المسلمين

---

[1] سيأتي تفصيل ذلك لاحقاً في الفصل الثالث.

[2] القزا، [م. س]، ص ٥٢، ٥٣.

[3] سيأتي الحديث عنها لاحقاً في الفصل الثاني.

والمسيحيين الغربيين. وقد بدأ ذلك بالهجوم على شخص الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في إسبانيا، التي كانت الأندلس المُسلمة آنذاك، "ففي عام ٨٥٠م خرج راهب يدعى "بيرفكتوس" إلى السّوق في قرطبة، وكانت عاصمة دولة الأندلس المسلمة، حيث لقيه بعض العرب الذين سألوه أن يُفَاضل بين النبي عيسى والنبيّ محمدٍ. وأدرك "بيرفكتوس على الفور أن بالسؤال شَركاً نُصبَ له، لأن قانون الإمبراطورية الإسلامية كان يقضي بإعدام مَن يسبُّ النبيّ محمداً، ومن ثم التزم الحذر في إجابته أول الأمر ولكنّ زمامه أفلتَ فجأةً فانطلق يصبُّ وابلاً من الشتائم؛ فزعم أن نبيَّ الإسلام دجّالٌ ومولعٌ بالجنس بل وأنه المسيح الدجال نفسه ... وسرعان ما ألقي به في السجن ... وعندما وصل "بيرفكتوس" إلى السجن، كان يرتعد فرقاً ورعباً، ولكنَّ القاضي قرَّرَ ألاّ يصدر حكماً بإعدامه، إذ رأى أنه كان ضحية استفزازٍ ظالمٍ من المسلمين، ولم يلبث "بيرفكتوس" في غضون أيامٍ معدودةٍ، حتى أفلت زمامه من جديد فطفق يسب نبيّ الإسلام سباباً بذيئاً، لم يُطق القاضي إزاءه إلا تطبيق القانون بكل صرامة. ونُفِّذَ حكم الإعدام في الراهب، فإذا بجماعةٍ من المسيحيين، الذين كانوا - فيما يبدو - من زعانف المجتمع، يمزّقون أوصاله ويضفون هالةً من القداسة على رفات "شهيدهم" وبعد أيام مَثُلَ راهبٌ آخر يدعى "إسحق" أمام القاضي وأخذ يسبّ محمداً ودين محمدٍ بحرارةٍ جعلت القاضي يظنه مخموراً أو مختل العقل، فصفعه على وجهه ليعيده إلى صوابه، ولكنَّ إسحق استمرَّ في السباب، فلم يجد القاضي بدّاً من وضع حدٍّ لمثل ذلك الانتهاك الصارخ للقانون"[1].

وقد اشتهرت هذه الحادثة في التاريخ المسيحي باسم ظاهرة "شهداء قُرطبة". وهذه الظاهرة إنما هي انعكاسٌ حقيقيٌ وواضحٌ للتأويلات والتفسيرات الكتابية التي سبق الحديث عنها، وكانت تلك التفسيرات المسَتَنَدَ الدّاعم لصيحات التهجُّم والشتم التي استهدفت شخَصَ رسول الله، ﷺ، كيف لا "وقد صوّر الجهلُ والوهم للأذهان التي سيطر عليها الرعب أنّ محمداً دجّال كاذب، نصَّب نفسه نبياً ليخدع العالم، وصوَّر لها "الجهلُ" أنه فاسق يستمرئ الفسق البذئ ويدفع أتباعه إلى محاكاته، وصوَّر لها "الوهم" أنه كان يجبر الناس على اعتناق عقيدته بحدّ السيف. وانتهت هذه الأوهام إلى القول بأن الإسلام ليس ديناً مستقلاً مُنزَلاً، بل بدعةً، أو صورةً مشوهةً من صور المسيحية، وأنه دينُ عنفٍ يؤمن بالسيف ويمجّد

---

(1) أرمسترونغ، كارين، سيرة النبي محمد، ترجمة فاطمة نصر ومحمد عناني، ص ٣٢، ٣٣، ط١، ١٩٨٩، دار الكتاب العربي، القاهرة، باختصار وتصرف.

الحرب والقتل. وقد سمع البعض أنباء شهداء قرطبة في مناطق أخرى من أوروبا، بعد أن انطفأت شعلة الحركة، ولكنَّ هذه الأنباء لم تُحدِث صدىً يُذكر"(١).

وبمناسبة الحديث عن الجهل فإن ذلك ينقلنا للعامل الثاني من عوامل فهم الكنيسة الغربية للإسلام.

ثانياً: الجهل بالإسلام

يعتبرُ الجهل بالإسلام، في تقديرنا، أبرز وأهمّ العوامل التي صاغت صورة الإسلام في ذهن الكنيسة الغربيّة حتى يومنا الحاضر، وليس هذا الجهل بالإسلام راجعاً لتواضع إمكانيات الكنيسة الغربية وعدم قدرتها على بعث مَن يذهبون إلى الجزيرة العربية للتعرُّفِ على حقيقة دعوة الإسلام، لا ولكنَّ ذلك راجعٌ إلى عدم اهتمام هذه الكنيسة والقائمين عليها، في ذلك الوقت على الأقل، بمعرفة عقيدةٍ مغايرةٍ للعقيدة الكاثوليكيّة، و"كان الكثيرُ مِن أتباع هذه الكنيسة يعتقدون بأن الدّين الجديد لمّا كان غير مسيحيٍ فإنه لابُدَّ أن يكون وثنيّاً، ولمّا كان المسيحيون الكاثوليك يعبدون مؤسس العقيدة المسيحية فإنّ المسلمين يعبدون محمداً مؤسِّس العقيدة الإسلامية!!!(٢) ويُشبِّه سوذرن الجهلَ الناجم عن ضيق الأفق بأنه "نوعٍ من الجهل مثل ذلك الذي ينزل بالسجين؛ إنه يسمع ضجيجاً وأصواتاً عاليةً خارج الأسوار ويحاول بفكرته السابقة عن المصادر الموجِدةِ للضجيج والأصوات أن يصيغها بالشكل المناسب. ففي القرون السابقة على العام ١١٠٠م كان المؤلِّفون الغربيون فيما يتصل بالإسلام في موقعٍ مشابهٍ، فهم لم يكونوا يعرفون شيئاً أبداً عن الإسلام بوصفه ديناً غير المسيحية، لقد كان الإسلام بالنسبة لهم رقماً في قائمة الأعداء الطويلة؛ أولئك الذين يتهدّدون المسيحية من كلِّ ناحيةٍ. ولم يكن هؤلاء على استعدادٍ للتمييز بين وثنية الأوروبيين الشماليين وتوحيد الإسلام، ولم يكن الإسلام يفترق بالنسبة لهم عن المانوية التي واجهتها المسيحيّةُ قديماً"(٣).

(١) آرمسترونغ، [م. س] ص ٣٣، بتصرف.
(٢) سوذرن، [م. س]، ص ٦٨.
(٣) المرجع السابق نفسه ص ٦٨.

وبالحديث عن الجهل ودوره فقد أُشِيعَ حول النبيِّ محمدٍ، ﷺ، في القرون الوسطى قصصٌ تدل بمنتهى الصراحة على جهل الأوروبيين بحقيقة الإسلام ونبوّة محمدٍ، ومن ذلك قصّةٌ خرافيةٌ مؤدّاها "أنّ محمداً كان في البداية تلميذاً للراهب النسطوري سرجيوس بحيرا، تلقّى عنه بعض المعلومات الأساسية عن التوراة والإنجيل، وبعد ذلك أعلن نفسه نبياً وكوّنَ عقيدةً خاصّةً به"[1]. ورأى لاهوتيّون كثيرون أنّ النبي محمداً هو مطرانٌ أو بطريرك في الأصل؛ تشاجر مع بطريق القسطنطينية فَشَكَّلَ هرطقةً انفصلت تدريجياً عن المسيحية الكاثوليكية الصحيحة"[2]. ولم تكن هذه الفرية وليدة لحظةٍ أو ساعةٍ، بل الأمرُ خلاف ذلك تماماً حيث وُلدت هذه الفرية في بيئةٍ ملائمةٍ ونمت وتطورّت واتخذت اشكالاً متعددةً في التعبير عنها، إلا أنَّ هذه الأشكال بقيت تعبّرُ عن جوهرٍ واحدٍ، وهو أن محمداً تلميذٌ لبحيرا النسطوري" أخذ عنه هذه الهرطقة المسيحية وأدخل عليها بعض التعديلات والتطويرات والإضافات وزعم أنها دينٌ جديدٌ سمّاه الإسلام. وقد تصدى لودفيغ هاغمان لرصد تطور هذه الفرية خلال فترة تقارب الأربعمائة سنةٍ، نلخّصها فيما يلي[3]:

"في مرحلة بداية اللقاء بين الديانتين كان الجهل مسيطراً. وبعد ما لا يقل عن مئة عام من وفاة محمدٍ تحاور في الشرق يوحنا الدمشقي (وُلد في عام ٦٥٠م، وتوفي قبل عام ٧٥٤م) مع الإسلام. وكان يدين بمعرفته بالدين الجديد لاحتكاكه الشخصي بالمسلمين الذين عاش بين ظهرانيهم ومارس العمل. وفي كتابه (حول الهراطقة) وهو القسم الثاني من كتابه في اللاهوت (ينبوع المعرفة)، يعدُّ الإسلام ضرباً من الهرطقات، لأن محمداً تلقّى معلوماته على الخصوص من راهب آريوسي: وهذا ما يُفسِّرُ برأي يوحنا أيضاً أنَّ المسيح يُطلقُ عليه في القرآن اسم "الكلمة"، و"الروح" أي "كلمة الله" و"روحه" غيرَ أن ألوهيَّته يُجادَلُ فيها. وهكذا رأى في تعاليم محمدٍ بصدد شخص المسيح هرطقةً مسيحيةً ذات طابعٍ أريوسي.

وهذه الأطروحة الخاصة بتأثُّر محمدٍ براهبٍ مسيحيٍّ تظلُّ المرّةَ بعد الأخرى، تلقى التأييد والاحتضان على مدى التقليد الطويل الخاص بالجدل المذهبي المعادي للإسلام، سواء أكان ذا مصدرٍ بيزنطيٍ أم لاتينيٍ. ومن الممكن أن يكمن أصل تلك الأسطورة عن مُعلِّمٍ

---

(1) جورافسكي [م. س]، ص ٧٠.

(2) سوذرن [م. س] ص ١٢.

(3) هاغمان، لودفيغ، المسيحيّة ضدّ الإسلام حوار انتهى إلى الاخفاق، ترجمة محمد جديد، ص ٤٦، ٤٧ بتصرف، ط٢، ٢٠٠٥، قدمس للنشر، سوريا.

مسيحيٌّ لمحمدٍ كان يوجِّهه، في قصة بحيرا[1] العائدة إلى عصر الإسلام الأول. وقدَّم الحافزَ إلى ذلك الاتهامُ الوارد في القرآن، الذي زعموا أنه يرد فيه أنَّ محمداً يتلقى تعليماته من بشرٍ لا يستخدم اللغة العربية [في إشارةٍ منه للآية ١٠٣ من سورة النحل "ولقد نعلم أنهم يقولون إنّما يعلّمه بشر، لسان الذي يُلحدون إليه أعجمي، وهذا لسان عربي مبين"] ففهموا الآية فهماً خاطئاً.

وفي الروايات البيزنطية واللاتينية اللاحقة يصبح الراهب الأريوسي الذي ورد الحديث عنه عند يوحنا الدمشقي: سرجيوس / سركيس ونسطوريوس، وجيورجيوس، ونيقولاوس ويوحنا ... الخ، وهو يظهر أيضاً نسطورياً. كما يظهر من أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة، كما يظهر أيضاً أريوسياً. بل يظهر أيضاً مرتداً، وحتى مؤلِّفاً للقرآن. وفي هذا الصدد كان يُنظرُ إليه، أكثر ما ينظر، على أنه نسطوري ويُصوَّرُ على أنه مصدرٌ غامضٌ لمعلومات محمد.

وفي مستهل القرن التاسع يتحدث ثيوفانس في استئنافٍ لتاريخ صديقه جيورجيوس سينكيللوس بالتفصيل عن نشوء محمدٍ وإقامته بين ظهراني اليهود والنصارى وأصبح هذا التاريخ الذي بات معروفاً جداً في القرون الوسطى، في ترجمته اللاتينية التي تحمل اسم (ثلاثية الحوليات) بقلم اناستازيوس المكتبي (المتوفي عام ٨٧٩م) ذا أهميةٍ بالغةٍ عند الغرب أيضاً. وفيه يجري الحديث على النحو ذاته عن راهبٍ هرطوقي.

ومع بداية الحروب الصليبية في عام (١٠٩٦م)، وانحسارها، تزداد معلومات اللاتين عن الإسلام ومؤسِّسه ونصادف أسطورة تأثر محمّدٍ بالمسيحية عن طريق راهبٍ من الهراطقة في أكثر الأشكال تنوعاً: فمحمدٌ يظهر ضحيةَ راهبٍ حاول عبثاً أن يطمح إلى منصب بطريرك القدس، ثم يظهر على إثر ذلك ساحراً في ليبيا، ويجري الحديث عن زاهدٍ لم يفلح في الحصول على منصب بطريرك بسبب هرطقته، ثم مارس تأثيره على محمد. ولأولِ مرةٍ في الغرب اللاتيني يذكر بطرس المبجَّل (١٠٩٤م – ١١٥٦م)، رئيس دير كلوني ومُفتتِحُ الدراسات الإسلامية الغربية، في رسالته إلى برنارد فون كليرفو (١١٥٣ – ١٠٩٠) اسم

---

[1] كلمة سريانية تعني المتبحّر في العلم

راهبٍ نسطوريٍ، هو سرجيوس، على أنه مصدرٌ لمعلومات محمد ويقول إن سرجيوس / سركيس هذا جادل في ألوهية المسيح وكسب محمداً إلى جانبه في هذا الاعتقاد.

وفي العصر الذي تلا ذلك تختلط رواياتٌ شتّى: إذ يظهر سرجيوس راهباً هرطوقياً، ومرتداً، ومغوياً لمحمدٍ"[١]...

هكذا إذاً ولدت وتطوّرت هذه الفِريةُ السخيفة التي لا زالت قائمةً حتى الساعة تحتضنها وتدعمها الكنيسة الغربية التي لا زالت حتى هذه اللحظة ترفضُ الاعتراف بالاسلام كدينٍ سماويٍ موحىً به وذلك استناداً إلى إنكارها لنبوّة محمدٍ، ﷺ، وطعنها المستمر في نبوّته المزعومة المدَّعاة!!! إنّه عداءٌ له تاريخ وإنها أحقادٌ متوارثةٌ، وإنه لتراثٌ من الجهل والتعصب والعمى كان الهدف منه ولا زال الطعن في هذا الدين الجديد "وتصويره على أنّه غيرُ أصيلٍ وغيرُ عريقٍ، بل على أنّه صدىً لتوجيهٍ مسيحيٍ مطبوعٍ بطابع الهرطقة، ووصمه، بذلك على أنّه تزييف"[٢]. ولقد عمدت الأوساط الكنسية والعملية الأوروبية إلى اختلاق هذه الفرية ـ التي لا زلنا نصممُ على وصفها بالسخيفة ـ بعد أن عجزت عن إقناع الشعوب الأوروبية بأنّ السِّحَر وممارسةَ محمدٍ له هو السبب في سرعة انتشار الإسلام آنذاك، في ذات الوقت الذي كنا نرى فيه التقلّص والانكماش المفاجئ للعالم المسيحي بسبب انتشار الإسلام في مجال البحر الأبيض المتوسط، وفتحه إسبانيا وبعض البلدان في الشرق الأوروبي حتّى حدود النّمسا، ولمّا لم تلقَ فريةُ محمد (ﷺ) السّاحر والمشعوذ إقبالاً عند الجماهير في أوروبا تمّ اللجوء إلى القول بفرية الهرطقة النسطورية المسيحيّة، خصوصاً وأنّ هذه الفرية كان لها ما يبرّرها في العقلية الغربيّة؛ وكيف لا؟ وقد عاش محمدٌ (ﷺ) في شبه جزيرة العرب، تلك الجزيرة التي ضمّت العديدَ من المسيحيين الذين كانوا ينتمون لمذهب الطبيعة الواحدة للمسيح والعديد من المسيحيين الذين يعتنقون المذهب النّسطوري المؤمن بطبيعتين منفصلتين للمسيح، إلهيةٍ وبشريةٍ. فما الذي يمنع الفرضيّة القائلة بإمكانية التقاء محمدٍ (ﷺ) ببعضٍ من بقايا هؤلاء؟؟

"وكان محمد مؤسس الإسلام الذي عاش ما بين ٥٧٠ – ٦٣٢م، أول الأمر، يشاطر أهل بلده النظرات العقدية القديمة المتوارثة من جيلٍ إلى جيلٍ، حيث بدا أنَّ

---

[1] هاغمان، [م. س]، ص ٤٦، ٤٧، بتصرف.

[2] المرجع السابق نفسه، ص ٤٨.

التصوُّرات الدينية اليهودية والمسيحية، كان من الجائز أن تكون معروفةً لديه نتيجةً للمعطيات المتوافرة في مسقط رأسه، مكة، عن طريق الرواية، ولو بصورٍ مختلفةٍ. فالقوافل، والتجّار الذين كانوا يرتادون أشهر الأسواق هناك، وكذلك الأعياد التي كانت تقام في مسقط رأسه وتجذب الناس إليها سنوياً من كل حدبٍ وصوبٍ، جعلت من مكة بوتقةً لمختلف التصوُّرات الدينية، ومركزاً تجارياً وروحياً بين سورية في الشمال واليمن في الجنوب"[1].

هكذا وعلى هذا الأساس الفرضّي التاريخيّ بُنيت فرية الهرطقة المسيحية التي قُذف بها خيرُ البشر صلّى الله عليه وسلم .

ثالثاً: الخوف من الإسلام

من أسباب الخوفِ من الشيء الجهل به. وقد ارتبط خوف المسيحيين الغربيين، بشكلٍ عامٍ، من الإسلام بجهلهم بحقيقته، التي حرصت الكنيسة الكاثوليكية على مدار قرونٍ مضت على حجبها عنهم، كما حرصت على عرضه لهم كما تفهمُه هي وكما تريده هي مشوَّهاً، مُرعِباً، زائفاً، انتشر بحدّ السّيف وقوّة السلاح دون أدنى درجات الإقناع أو المحبّة. ويمكن جمع أبرز عوامل الخوف الغربي المسيحي من الإسلام فيما يلي:

١. إنّ وجود الإسلام كان قد أثار في العصور الوسطى الأوروبية إحساساتٍ عميقةً بالخوف والصدمة وعدم الرضا. ومن الناحية الواقعية أحدث الإسلام موجاتٍ غير متناهيةٍ من الشعور بعدم الأمان، وتوقُّع الخطر؛ ليس لأنه كان خطَراً حقيقياً فقط؛ بل لتشكيله عاملاً قوياً لا يمكن حسبان أفعاله وردود أفعاله: فالغرب ما كان يعرف نوايا المسلمين، كما لم يكن بوسعه تحديد أهداف الإسلام الحقيقية.
٢. إنّ مما أثار حفيظة أوروبا المسيحية على الإسلام والمسلمين، وولَّد الخوف عندهم من هذا الدين وأتباعه، الانتشار السريع للإسلام، وتحوُّلُ الكثيرين إليه واعتناقهم له دون إكراه، وذلك لبساطة تعاليمه، وسُمُوِّ قيمه ودعوته إلى المساواة بين جميع البشر، بصرف النظر عن أجناسهم وأعراقهم وألوان بشرتهم وأوضاعهم الاجتماعية، وأعطى الحق للعبيد لتحرير

---

[1] هاغمان، [م. س]، ص ٢٩.

أنفسهم بشراء حريّتهم، في الوقت الذي كان فيه نظام العبيد سارياً ومتفشّياً في العالم وبخاصةٍ في أوروبا، حيث غضَّت المسيحية الطرف عنه.

٣. أُصيب الأوروبيون بالرعب من الفتوحات الإسلامية، وخشوا على مصير الدولة البيزنطية التي اعتبروها خطَّهم الدفاعي الأول في مواجهة الشرق. صحيحٌ أن هذه الدولة كانت تحسب الحساب لندها الدولة الفارسية، إلا أنها لم تكن تشعر بأنها تشكل خطراً على كيانها وعلى الشعوب الأوروبية الخاضعة لنفوذها، وبخاصةٍ بعد أن ذهبت رياحها، واضمحلّت قوّتها ولم تكن ترى في يوم من الأيام أنها ستكون خطراً على عقيدتها المسيحية، ولكنَّ اندفاع الجيوش الإسلامية، واجتيازها لحدودها أشعرها وللمرة الأولى بالخطر الحقيقيّ، ما دام الهدف الاستيلاء على أجزاءٍ من إمبراطوريتها، ونَشْرَ عقيدةٍ غير عقيدتها تعتبرها نقيضةً لدينها. وإذا كانت هي تحارب المذاهب المسيحية الأخرى المخالِفة لها وتضطهد كلَّ منَ يعتنقها أو يؤمن بها، فكيف لا تخاف من دينٍ جديدٍ، جاء، كما اعتقدتْ، لينسخ المسيحية كلَّها ويهدّدها بالزوال؟.

٤. لقد ظن الغربيون بأن فتح العرب المسلمين لبلادهم ما هو إلا غزوة طارئة من أقوامٍ حلَّ بها القحطُ، أو شكت من مجاعةٍ أو واجهت الشح في عيشها فلم تجد وسيلةً تخفف بلوتها إلاّ بالإغارة على المناطق الزراعية الخصبة. ولكن سرعان ما خاب ظنهم بعد أن شاهدوا انطلاقة الإسلام يكتسح العوائق والعقبات التي تعترض طريقه، ورأوا المسلمين يُقبلون على الجهاد، لا طمعاً في المكاسب والمغانم، وإنما طلباً للشهادة، وفوزاً بالجنة التي وُعِدَ المجاهدون بها، بل لقد امتلأت قلوبهم بالإيمان ونفوسهم تشبّعت بالإسلام فزاد ذلك من مخاوفهم وحوّلها إلى قلقٍ مُستمرٍ دائم.

وإضافةً لما سبق من عوامل الخوف الغربي المسيحي من الإسلام من النواحي العسكرية، فإن هنالك عوامل أخرى ساهمت في صياغة هذا الخوف والتأسيس له منها عوامل حضارية وأخرى دينيةٌ عقديّةٌ.

أمّا عن العوامل الحضارية فتمثّلت في أنّ الإسلام حقّق خلال قرونه الأربعة الأولى تطوّراً ثقافياً وعلمياً وحضارياً لم تستطع أوروبا المسيحيّة تحقيقه إلا عبر عصورٍ متطاولةٍ من النّضوج البطيء والمتردد، وقد أدّى ذلك كلُّه إلى تقرير الفرق الأساسيّ بين حضارة العالمين الإسلامي والغربي اللاتيني؛ "وهو الفرق بين حضارةٍ نمت وتطورت ببطءٍ وعلى أمداءٍ طويلةٍ، وأخرى بلغت أوان النضج بسرعةٍ بالغةٍ. ويرجع ذلك إلى أسلوبيْ الحياة المختلفين تماماً في

الحضارتين. ثم إنه إلى جانب البنية الاجتماعية المتمايزة في العالمين، كان هناك تمايزٌ واضحٌ في الميراث الحضاري. فعندما تهاوت حضارةُ العالم القديم، كان الإسلام الوارث الرئيسي للعلم والفلسفة الإغريقيين، في حين ورث الغرب المتبربرُ الثقافة الرومانية. وقد صورَّ ريتشارد فالزر هذا التضادّ في الميراث في مقالةٍ معروفة، أوضح فيها تسلُّل الفكر الإغريقي من خلال المدارس الهللينيستية[1] إلى بلاطات الإسلام ومدارسه؛ حيث جرى التوفيقُ بينه وبين الإسلام وثقافته. وهذا الحدَثُ هو أخطر ما كان في التاريخ الثقافي، كما كان صعود الإسلام باعتباره قوةً سياسيةً عالميةً أخطرَ الأحداث في تاريخ المؤسسات والنظم. لقد كان الإسلام الوسيط يفيضُ ازدهاراً وثراءً في المجالات كلها؛ بينما كان الغرب في الحقب نفسها لا يملكُ غير ثقافة آباء الكنيسة، والشعراء الكلاسيكيين ومَنْ بعدهم، وثقافة مدرّسي اللاتين. وقد كانت أعمالُ هؤلاء بالغة الضخامة والتنظيم؛ لكنها في عالم العصور الوسطى المبكرة لم تترك آثاراً ضخمةً. ويبدو أنّ الأمر بالنسبة للغرب كان شديد الإيلام إذا ما قورن ما كان يملكه الإسلام في عالم الثقافة من أعمالٍ بما كانت تملكه أوروبا في العصر نفسه. وقد أدرك العلماء اللاتين في القرن الثاني عشر التفاوت الهائل بين ثقافة الغرب المسيحي والإسلام الوسيط، وشكَّل ذلك صدمةً قاسيةً لهم"[2].

أما عن العوامل الدينية العقدية فتتمثّل في أنّ الإسلام قد قال بالله الواحد الأحد، القادر، مُبدع الأكوان، وأنكر التثليث وتجسُّد الإله، والطبيعة الإلهية للمسيح ... كما قال الإسلام بخلود الروح، وبيوم الحساب الذي يُؤجَرُ فيه الصالح ويُعاقَبُ الطالح ... لكن ماذا يستطيع المسيحي الأوروبي أن يقول عن دينٍ يُنكر ألوهية المسيح، كما يُنكر واقعة صلبه، ويعترف في الوقت نفسه بولادته من عذراء، كما يرى نبوَّتَهَ وأنه مرسلٌ من الله؟! وقد قال الإسلام كالمسيحية، بالثواب والعقاب ولكن مع اختلافٍ في الكيفية ... "إنّ عقيدةً بدون كنيسةٍ ولا أسرارٍ أمرٌ ربما أمكن فهمُهُ؛ لكنّ هذه الخصيصة التي يتميَّزُ بها الدين الطبيعي، ترتبط بما يُناقضُها في عقل الغربي الوسيط عندما يجري ربطُها بكتابٍ مقدَّسٍ هو القرآن،

---

[1] الهلينيستية مستمدة من كلمة هيلين وهي الاسم العرقي الذي يطلقه اليونانيون على أنفسهم) هي فترة متأخرة من الحضارة الإغريقية، وتمتد منذ أوائل القرن الرابع قبل الميلاد وحتى القرن الخامس الميلادى. وفى هذه الحقبة أصبحت الثقافة الاغريقية ملكا مشتركا بين جميع بلدان البحر المتوسط وكانت اليونانية لغة العلم في ذلك الوقت والهيلينستية هي ثقافة مركبة من عناصر يونانية وشرقية حمل فيها الاغريقيون إلى الشرق الفلسفة ولقح فيها الشرقيون حضارة اليونان بروحانية الشرق ونظمه وعلمه . يقول بعض المؤرخين مثل تارن في كتاب الحضارة الهيلينستية أن الحضارة الاغريقية تنقسم إلى مرحلتين الأولى هلينيك اى المرحلة اليونانية البحتة وتضم مرحلتى النشأة والنضج والازدهار وتشمل العالم اليونانى وحضارته منذ الغزو الدوري وحتى الاسكندر الأكبر والمرحلة الثانية هي هيلينستك اى المرحلة الهيلينيستية وهي مرحلة يونانية متأخرة وتشمل البقاع التي تألفت منها امبراطورية الاسكندر وتشمل بلاد اليونان والممالك الشرقية بعد غزو الاسكندر لها.

[2] سوذرن، [م. س] ص ٤٣، ٤٤.

رأى الأوروبيون أنه يتضمن الكثير مما يُناقض صورتهم عن الدين. ثم إنّ هذا الدّين دعا إليه رسولٌ اعتاد الأوروبيون منذ بدايات العصور الوسطى على النظر إليه باعتباره رجلاً عاش حياةً غير حميدةٍ، وكان غارقاً، في نظرهم، في حمأة الدنيا وشهواتها"[1].

نعم إنّ هذا هو الذي حدثَ بالضّبط، قدومُ دينٍ جديدٍ إلى أرض الكنيسة الغربية الكاثوليكية يناقضُ كلَّ ما تؤمنُ به وتحمله من عقائد، دينٌ تميَّزَ بسهولة تعاليمه وتشريعاته على عكس الكنيسة الغربية، وببساطة عقيدته وموافقتها لكلِّ من العقل والفطرة البشرية، على العكس من الكنيسة وعقيدتها، نعم لقد كان الإسلام وبما يحمله وما يمثّله أخطرَ عوامل الرهبة والإرهاق للكنيسة الغربيّة وعلى المستويات كُلِّها.

ونختم الحديث عن هذه العوامل الدينيّة بقولنا إنّ الكنيسة الكاثوليكيّة كانت ولا زالت مصمّمةً على عدم التسامح مع الإسلام وأتباعه على الأرض الأوروبية، مُحجِمةً عن دراسته وفهمه دراسة المحايد الراغب في معرفة الحقيقة، خوْفاً على وجودها وكينونتها لأنّها تعلمُ على اليقين أنّه البديلُ الحضاري الوحيد الأنسب منها. حتى إنّها لم تتسامح مع أولئك الذين يمدحون الإسلام من أتباعها، فكان حالها كحال الأستاذ صامويل جونسون الذي قال في إجابةٍ له على سؤال رجلٍ أبدى إعجابه بانفتاح الفلاسفة القُدامى وتسامُحهم في مُحاوراتهم ومناظراتهم مع خصومهم: "كان بوسع هؤلاء أن يُظهروا تسامُحاً في مُناظراتهم؛ لأنهم لم يكونوا يأخذون عقائدهم مأخذ الجدّ [....]. فالذي لا يخافُ أن يفقد شيئاً، يستطيع أن يستمع إلى خصمه بهدوء [...] أمّا ذلك الذي يعتقد شيئاً هو عزيزٌ عليه؛ فإنه يُحسُّ بالتوتُّر والألَم عندما يُواجه مُناظِراً ينقضُ ذلك. إن الذي يُهاجم عقيدتي؛ ينالُ من ثقتي بنفسي. وبالتالي من هدوئي النفسي، إنّ ذلك الذي يؤمن بدينٍ مُوحىً به يشعر بالغضب الشديد عندما يُواجه التشكيك في اعتقاده. إذ في مثل هذه الحالة فإنّ الخصم إنما يسلبُهُ إلى حدٍّ ما الأرض التي يقفُ عليها"[2].

---

[1] المرجع السابق نفسه، ص ٤٠، ٤١ باختصار وتصرف.

[2] المرجع السابق نفسه، ص ٣٨.

رابعاً: القصص الخياليّة والأناشيدُ الحماسيّة والموروث الشعبي

كان من الطبيعي، ونتيجةً لما سبق ذكره من توطُّدِ الجهل بالإسلام والخوف منه في عُقول الأوروبيين من أبناء الغرب المسيحي، شيوعُ قصصٍ خرافيةٍ وخياليةٍ تغذّي الشعور الشعبي العام تجاه الإسلام وتعبِّرُ عنه بأسلوبها الخاص. وقد كانت هذه الموروثات الشعبية جزءاً من تاريخ الخيال الأوروبي وشطحاته، ولم تكن بحالٍ من الأحوال جزءاً من تاريخ أوروبا الحقيقي الذي دوَّن الوقائع والأحداث، وحفِظها كما وقعتْ وكما هي. وكان من أبرز ذلك أغنية رولان أو (أغنية عن رولان)[1]، وهذه الأغنيّة (أو بالأصح الملحمة الشعبية) "نظمها شاعر الكنيسة القسيس "كونراد" قُبيلَ الحروب الصليبية، بمدةٍ قليلةٍ، وبالتحديد في عام ١٠٨٠م، فكان لها تأثير كبير في إلهاب العواطف العدائية في أفئدة الأوروبيين مما جعلهم يردّدونها في كل مناسبةٍ.

"لقد تُرجمت أنشودة رولان إلى سائر اللغات الأوروبية، فأصبحت شائعةً في فرنسا وألمانيا وإيطاليا. وقد كان لها من الذيوع وبُعْدِ الصيت ما حمل كثيراً من نحّاتي الهياكل على نحت تماثيل لرولان ولرفيقه أوليفيه على مداخل الكنائس الكبرى في مدن أوروبا المختلفة"[2].

ومن الجدير ذكره هنا أن أنشودة رولان الحربية نُظمت بمناسبة حادث هجومٍ وقع على مؤخرة جيش الفرنجة كان يقوده شارلمان بنفسه ضدَّ مُسلمي إسبانيا، وحين كان هذا الجيش عائداً من الغزوة عن طريق جبال البرانس، انقضَّ فريق من فرسان المسلمين على مؤخّرته التي كانت بقيادة رولان ابن أخ شارلمان، فأبادوها عن بكرة أبيها، فعمَّ الحزن وانتشر بين جميع الفرسان في أوروبا المسيحية. وتصف هذه الأنشودة نضال رولان وتفانيه في الدفاع عن المؤخرة واستبساله في مقاومة هجمات أعدائه الهائلة. وكان من أبرز ما اشتملت عليه هذه الأنشودة وخصوصاً في الأبيات ٢٥٨٠ – ٢٥٩١ ما يلي:

---

[1] أغنية عن رولان أو أغنية رولان (chanson de Rolland) قصيدة غنائية فرنسية ظهرت في القرون الوسطى، طُوّرت وعُدلت مراتٍ كثيرة فكان شكلها الأكثر اكتمالاً من تحرير اكسفورد حوالي ١١٧٠م. موضوعاتها التاريخية تقوم على سرد الحكايات البطولية حول حروب كارل العظيم (أو الكبير)، بطل هذه الملحمة الغنائية، الذي يجسد الشجاعة والوطنية.

[2] الفرا، [م. س]، ص ٢٩.

١. تصوير المسلمين من أعداء شارلمان ورولان في صورة عابدي الأصنام، وهم يركعون أمام ثلاثة آلهة هي "أبولو"[١] و"تيرفاجان (أو ووترفونيوس)[٢] ومحمد (ﷺ)، وإن كانوا على ذلك، جنوداً شجعاناً، يسعد المقاتل بمنابذتهم.

٢. وصفُ المسلمين بأنهم "الشعب الذي لا يُروى تعطشه إلا بسفك الدماء، والذي لعنه ربُّ السماء... فهم كفرةٌ وكلابٌ ... وخنازير فجرة ... وهم عبدة الأصنام التي لا حول لها ولا قوة ... الذين لا يستحقون إلا أن يُقتلوا وتُطرح جثثهم في الخلاء، فهم إلى جهنم دون أدنى شكٍّ.

٣. قول الشاعر المؤلِّف القس "كونراد" عن الشعب المسلم: "إن أولئك جميعاً دون استثناءٍ حزب الشيطان اللئام، خسروا الدنيا والآخرة، وحلَّ عليهم غضبُ الله، فبطش بهم روحاً وجسداً، وكتب عليهم الخلود في جهنم أبداً"[٣]!!.

٤. إن السبب المباشر لهزيمة المسلمين في هذه المعركة على يد الملك المسيحي كان نتيجةً لسخطهم وحقدهم وكُفرهم، وأنهم لمَّا هُزموا سَحبوا أصنامهم من الكهف وحطّموا تماثيل "أبوللو" و"تروفونيوس"!!! وقد علّق "أليكسي جوارفسكي" على هذه الملحمة الشعبية الأوسع والأكثر انتشاراً في أوروبا آنذاك قائلاً: "وللحقيقة يجب القول: إن تلك الأساطير المختَلَقة تمثّل سخريةً مأساويّةً لأن النبيَّ محمداً الذي حارب أكثرَ من أيِّ مخلوقٍ آخر عبادةَ الأوثان، والذي حطَّم جميع أصنام الكعبة، يتحول في تصوُّر المسيحيين إلى صنمٍ يؤلّهه أتباعُه" الذين يُطلقون عليهم إزدراءً واحتقاراً لقب "عبيد سارة" أو "أبناء الجاريةً"[٤].

ولقد شهد على هذه الفترة السوداء التي شاعت فيها هذه القصص والحكايات عن الإسلام والمسلمين عددٌ لا بأس به من كبار المؤرّخين والمُستشرقين الأوروبيين الذين دوَّنوا خلاصة هذه القصص الشعبية التي لا زالت عالقةً في الذهن الأوروبي إلى يومنا هذا. وقد جمع شهاداتهم الأستاذ المبدع محمد عمارة في كتابه الأخير ومهَّد لذلك بالقول[٥]: "وبشهادات علماء الغرب، الذين قارنوا بين حقيقة الإسلام وبين الصورة البائسة والكريهة

---

[1] أبوللو أو أبولون (Apollon). يُعدُ عند الإغريق إلهاً لكل ما هو خير وجميل كحفظ واحترام القانون وإسعاد الناس، والتخفيف عن ذوي الضمائر المعذبة. وكان إلهاً للرماة وللطب، ويستغاث به في كثير من المدن لاسيما في دلفي حيث كان وحيه يكشف الإرادة الإلهية للكهنة الذين يؤدونها للناس. وكان أيضاً إله الموسيقا والشعر ورئيس ربات الشعر.

[2] تروفونيوس (Trophonios) هو ابن الإله (أبولون) تروي الأسطوة أنه اشترك مع زوج أمه آغاميد في بناء معبد أبوللو في دلفي وسواه، لكن زوج الأم غدر به وقتله فابتعلته الأرض، ثم أصبح مؤلهاً، واختص بمهبط ريحٍ في بيوتيا حيث تقيم روحه في نفق (أو كهف) يدخله المستشيرون فيقدمون قرابينهم ثم ينامون على أمل أن يتلقوا وحي هذا الإله الأرضي.

[3] الفرا [م. س]، ص ٣٠ فما فوق بتصرف.

[4] جورافسكي، [م. س] ص ٧٥.

[5] عمارة، محمد. الفاتيكان والإسلام، أهي حماقة أم عداء له تاريخ، ص ٢٨، ٢٩، بتصرف ط١، ٢٠٠٧، مكتبة الشروق الدولية، مصر.

والشوهاء التي صنعتها المسيحيةُ الغربية لهذا الإسلام ... فإنَّ الخيال الغربيّ المسيحيّ المريض قد أطلق لنفسه العنان في تشويه صورة الإسلام ليشحن العامّة والغوغاء في الحروب الصليبية التي شنتها الكنيسة الغربية لإعادة اختطاف الشرق من التحرير الإسلامي". يشهد على هذه الحقيقة المستشرق الفرنسي "مكسيم رودنسون" فيقول:

"لقد حدث أنَّ الكُتّابَ اللاتين، الذين أخذوا بين ١٠٠٠م و١١٤٠م على عاتقهم إشباع حاجة الإنسان العامّيّ، يوجّهون اهتمامهم نحو حياة محمدٍ، دون أيِّ اعتبارٍ للدقة، فاطلقوا العنان "لجهل الخيال المنتصر" فكان محمد (في عرفهم): ساحراً، هدم الكنيسة في إفريقيا والشرق عن طريق السحر والخديعة، وضمن نجاحه بأن أباح الاتصالات الجنسية ... وكان محمد ـ في عرف تلك الملاحم ـ هو صنمهم الرئيس، وكان معظم الشعراء الجوَّالة يعتبرونه كبير آلهة السراسنة [البدو] وكانت تماثيله (حسب أقوالهم) تُصنعُ من موادّ غنيّةٍ، وذات أحجامٍ هائلةٍ"[١]. وبشهادة المستشرق الإيطالي "فرانشسكو جابرييلي": "فلقد كانت العصور الوسطى الغربية تنظر إلى ظهور الإسلام وانتشاره باعتباره تمزُّقاً شيطانياً في صدر الكنيسة المسيحية، وانشقاقاً مشؤوماً قام به شعبٌ بربريّ"[٢]. وبشهادة المفكر الألماني "هربرت هيركومر" ـ في دراسته عن [صور الإسلام في الأدب الوسيط] ـ: "فإن الأوروبيين ادّعوا أن رسول الإسلام كان كاردينالاً كاثوليكياً، تجاهلته الكنيسة في انتخابات البابا، فقام بتأسيس طائفةٍ مُلحدةٍ في الشرق انتقاماً من الكنيسة، واعتبرت أوروبا المسيحية ـ في القرون الوسطى ـ محمداً المرتدَّ الأكبر عن المسيحية، الذي يتحمَّلُ وزر انقسام نصف البشرية عن الديانة المسيحية"[٣]. وبشهادة المستشرقة الألمانية "زيغريد هونكة": "فلقد استقر في أذهان السواد الأعظم من الأوروبيين الازدراءُ الأحمقُ الظالم للعرب، الذي يَصمهم جهلاً وعدواناً بأنهم "رعاة الماعز والأغنام، الأجلاف، لابسو الخِرق المُهلهلة ... وعبدة الشيطان، ومحضّرو أرواح الموتى، والسَّحَرة، وأصحاب التعاويذ وأعمال السحر الأسود، والذين حذقوا هذا الفن، واستحوذ عليهم الشيطان، تحرسهم فيالقُ من زبانيته من الشياطين ... وقد تربَّعَ على عرشهم الذهبي "ما هو مد" "مَحْميد" ـ وقد ركعت تحت أقدامه قرابينُ بشريةٌ يذبحها أتباعه قرباناً وزلفى إليه .. فهم الكفرة الفجرة، الذين لا يدينون بالمسيح أو الله؛ لأنهم لم يعبدوه بعد .. فهم

---

(1) عمارة، [م. س] نقلاً عن مكسيم رودنسون [الصورة العربية والدراسات العربية الإسلامية] بحث منشور بكتاب [تراث الإسلام] ـ بإشراف "شاخت" و"بوزورت" القسم الأول ص ٢٧، ٢٨. ترجمة: د. محمد زهير السمهوري. مراجعة: د. شاكر مصطفى. طبعة الكويت ١٩٧٨م.

(2) المرجع السابق نقلاً عن: [الإسلام في عالم البحر المتوسط] ص ١٠٤ ـ ١٠٥.

(3) المرجع السابق نقلاً عن: [صورة الإسلام في التراث الغربي] ص ٢٣، ٢٤.

ليسوا سوى ديدان حقيرةٍ .. وسَفلة أوغاد .. أعداء الله .. وأعداء المسيح .. مستبيحو قبر المسيح"![١].

لقد كانت مساهمةُ الكنيسة الغربيّة في تكريس الصورة السوداء عن الإسلام كبيرةً فقد "صَوّرت الكنيسةُ الأوروبيةُ رسولَ الإسلام ساحراً كبيراً ... وصوَّرت "قرطبة" في الأندلس على أنّها وطن عُبّاد الشيطان، المتوسّلين بالموتى، الذين قدّموا لمحمدٍ الصنم الذهبيّ الذي كانت تحرسه عصبةٌ من الشياطين"!! "فبلاد الإسلام هي عالم الخرافات والأساطير وعبدة الشيطان، والسَّحرة المتضرّعين إلى الشيطان ... بلاد الأضاحي البشرية من أجل صنم ذهبيٍ، تسهر على سلامته عصبة من الشياطين، اسمه محمد"!![٢].

لقد كانت هذه الصورة السوداء للإسلام في الخيال الشعبي الأوروبي المسيحي تتوهجُ أحياناً وتخبو أحياناً أخرى. ولم تظهر، ولم تجرِ أيةُ محاولةٍ نقديةٍ موضوعيةٍ لفهم رسالة محمد، ﷺ، وتعاليم الإسلام، بل على العكس من ذلك ظلَّت الحروبُ الصليبية حيّةً في أوروبا وعُزِّزت بالخوف من تصاعد قوة الإمبراطورية التركية في أثناء القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر. ولقد خبت هذه الأساطيرُ الخيالية حيناً من الدّهر، لكنَّ كتّاب مفكري النهضة الأوروبية أحيوها واستعادوها، فقد صّوروا محمداً بأنه ادّعى الألوهية، وأنه ماكر وساحر ومنجِّم وخادع. وعلى الرغم من زيادة احتكاك الغرب بالشرق عن طريق التجار والرحّالة والسُيَّاح الذين اختلطوا بالمسلمين وتعرَّفوا على الإسلام، وشاهدوا المسلمين وهم يمارسون عباداتهم ورأوا أعمالهم على أرض الواقع، إلاّ أنّ هذا كلّه لم يُغَيِّر من صورة الإسلام الشائنة التي رسموها ونشروها في أوروبا. وظلّ الأوروبيون ينظرون إلى المسلمين نظرةَ حقدٍ وكُرهٍ وبُغضٍ وتحيُّزٍ.

وقد كان للنبي محمدٍ، ﷺ، نصيبٌ كبيرٌ من افتراءات وخيالات هذا القصص الشعبيّ نالته كلُّها بالذمّ والقدح والتّحامل على شخصه الكريم والرسالة السامية التي كان يدعو إليها، ومن المؤسف أنّ الكثير من المؤلِّفين الغربيين ورثوا هذا القصص عن آبائهم وأجدادهم وصاغوا مفرداته في مؤلَّفاتهم بأسلوبهم الخاص ودونوها في كتبهم الحاقدة اللّاموضوعيّة طبعاً،

---

[١] هونكة، زيغريد، العقيدة والمعرفة، ص ١٦١، ١٦٢، بتصرف، ترجمة عمر لطفي العالم، ط١، دمشق ١٩٨٧.

[٢] المرجع السابق نفسه، ص ١٦٢، بتصرف.

لحفظوها من الزوال والإندثار. ولما توالت عليهم العصور والأزمان أصبحت مؤلَّفاتُهم هذه مرجعاً ومستَنَداً يرجعُ إليه المتأخرون من الأوروبيين، وكان ملخَّص التراث المدوَّن لهؤلاء عن النبي، ﷺ، ما يلي: "محمدٌ رجلٌ مسيحيُ الأصل، تزوَّج أيماً ثريةً، وكان مصاباً بالصَّرع. وتحدّد هدفُهُ بسحق المسيحية عن طريق اشتراع حُريّةٍ جنسيةٍ واسعةٍ. "وعلى أساسٍ من هذه المعالم القليلة (والمضلّلة) بنى الغربيون في القرن الثاني عشر بناءً ضخماً من الحكايات. وقد اعتاد المؤلِّفون اللاتينيون أن يطرحوا على أنفسهم أسئلةً عن محمدٍ الإنسان، وعن أسباب انتشار دعوته، ثم يُجيبوا عليها بأنّه كان ساحراً استطاع بسحره وسعةِ حيلته أن يقضي على الكنيسة في إفريقية والشرق، وأن يثبت دينه ويُغري الناس باتّباعه بحريةٍ جنسيةٍ أتاحها لمعتنقي دينه"[(١)].

هذا عدا القصص الآخر الذي أُشيع عن "تأرجح ضريح النبي محمدٍ بين السماء والأرض مغناطيسيّاً، وهذا كلُّه كان بعد موته الناجم عن افتراس الخنازير له في إحدى نوبات صرعه"[(٢)].

وقد كان هؤلاء المؤلِّفون يأخذون خلاصات القصص الشعبية والأدب الشعبي ويضمّنونها في كتبهم، وكانوا يعترفون بعدم استنادهم إلى مصادرَ مكتوبةٍ أو موثوقةٍ فيما يكتبونه عن النبيِّ محمدٍ، ﷺ، ومن الأمثلة على هؤلاء اللاهوتي الأوروبي الكبير "غيبرت نوغنت" الذي ذكر بصراحةٍ أنه لم يستطع الاستناد إلى مصادرَ مكتوبةٍ عن النبي ﷺ. وقال إنّ ما يذكره هو نتاجُ الرأي العام السائد، ولا يستطيع أن يحدّد مدى الصحّة أو الخطأ في أخبار الرأي العامّ؛ لكنه يستطيع القول "إنّ الباحث له الحق في أن يتحدَّث بشكلٍ سلبيٍّ عن رجلٍ فاقت سيئاته كلَّ حدٍّ معقولٍ - يقصد رسول الله صلى الله عليه وسلم - وتقارير النصف الأول من القرن الثاني عشر تختلف من حيث الشكل؛ لكنها تستند بمجموعها إلى المبدأ نفسه تقريباً: حكم الرأي العام، وصورة الرأي العام. وما يأتي بعد ذلك ليس غير خيالٍ محضٍ ومريضٍ في أحيانٍ كثيرة"[(٣)]. ولعلَّ الكلمات السابقة تكتسبُ أهميةً بالغةً خصوصاً إذا ما تذكّرنا أنّ

---

(١) سوذرن، [م. س]، ص ٦٦.
(٢) المرجع السابق، ص ٦٦، بتصرف واختصار.
(٣) سوذرن [م. س] ص ٦٧ بتصرف.

"غيبرت نوغنت" هذا إنما كان كاتبَ أوَّلِ سيرةٍ للنبي محمد ﷺ في أوروبا الغربيّة في النّصف الأول من القرن الثاني عشر.

هكذا إذاً كانت خلاصة تصوّرات هؤلاء عن رسول الله، ﷺ، رجل فاقت سيّئاته كلَّ حدٍّ معقول!!! ومن هنا يمكن لنا أن نفهم عبارة سوذرن عن صورة محمدٍ صلى الله عليه وسلم في المخيّلة المسيحية الغربية "أما الخطوط الرئيسة للصورة فقد كانت نتاج مخيّلةٍ مُغرقةٍ في التوهُّم وتسويغ الذات"[١].

وفي ختام الحديث عن عامل القصص الخيالية والأناشيد الحماسية والموروث الشعبي ودوره في صناعة صورة الإسلام في ذهن الكنيسة الغربيّة، نذكّرُ بأنّ هذه الحكايات الشعبية كلها نشأت في البيئات نفسها، التي انتشر فيها القصص الخرافي عن النبيّ محمدٍ (ﷺ) وعادات المسلمين. وليس هناك شكٌّ في أنّ المُبتدعين والسامعين لهذه الحكايا كانوا يتوهّمون أنها حقيقيّةٌ ويمكنُ التصرفُ على أساسٍ منها "ثم إنّ هذه الأقاصيص الأسطورية اكتسبت بمجرَّد ظهورها حياةً خاصَّةً وطريق تطورٍ خاصّاً مستقلاً عن إرادة أوائل واضعيها. وجاء الشعر الشعبي الأوروبي ليردّد الصورة الخيالية المتكوّنة عن الإسلام جيلاً بعد جيلٍ دون أن يطرأ عليها تعديلٌ ملحوظٌ. وكان العامةُ ينتظرون من هذه الشخوص الشعبية ـ مثلما هو في الحكايا والمرويات ـ أن تتصرف بطريقةٍ معينةٍ؛ ولذلك لم يطرأ على النموذج الأول المعهود كبيرُ تغييرٍ يُمكنُ أن يُخِلّ بالصورة المنتظَرَة. وهكذا بقي الإسلام وبقي نبيهُ عند الغربيّ العاديّ محبوسين في الصورة الخيالية الأولى لعدة قرونٍ. وليس سهلاً هنا تحديد الوقت الذي أدرك فيه الجميع أنَّ صورتهم عن الإسلام والشرق طفوليةٌ تماماً هدفُها الإخافة والاستهزاء"[٢].

خامساً: الحُجَّاج المسيحيون ودورهم في رسم صورة المسلمين

تحتلُ القدس مكانةً عظيمةً في قلوب أتباع الأديان السماوية الثلاثة، والذي يعنينا هنا هو الحديث عن أهميّتها لدى المسيحيين، فقد كانوا يأتون لزيارتها من أقاصي الغرب،

---

(1) المرجع السابق نفسه ص ٦٤.

(2) المرجع السابق نفسه، ص ٦٥.

بهدف مسح الآثام والذنوب والتطهُّر من الخطايا والآثام، وهو ما يُسمّى بالحجّ عند المسيحيين.

وتُسمّى القدس عندهم بالمدينة المقدّسة لاعتقادهم أنّ المسيح، عليه السلام، هبط إلى الأرض وتجسّد بشراً في مدينة بيت لحم القريبة منها، ثُمَّ رُفِعَ إلى السماء من جبل الزيتون "فكيف لا تصبحُ المدينةُ مقدّسَةً بعد أن شهدت خلاص العالم"[١] على حدّ مقولة "كيريلوس" أُسقُف أورشليم عام ٣٤٩م.

وكان المسيحيون يعتقدون أنّ الأماكن المقدسّة في "أورشليم يمكنُ أن تُعين المسيحيين على الاتّصال بالقوة الإلهية، لأنها ـ كما يعتقدون ـ "هي الأماكن التي لَمَسَ اللهُ فيها عالمنا ومِن ثمّ فقد أصبحت لها قوّتُها الروحيّة"[٢]. ومعنى ذلك أنّها تمكّن المسيحيين من الشعور بوجود الله عن طريق إزالة الحاجز المكاني، لا الزماني، بينهم وبين حياة المسيح وأنّ المسيحيين عندما يلمسون الأشياء التي لمسها المسيح مثل الصليب والمقبرة بل والأرض التي يقفون عليها نفسها فإنّهم يستطيعون أن يتّصلوا عبر السنين بالمسيح الغائب.

وكان كيريلّوس يُحبُّ أن يقول: "إنّ الآخرين يسمعون فحسب، ولكننا نرى ونلمس"[٣]. فالحجاج الذين يقتفون خطى المسيح حرفياً، ويطأوون الأرض التي وطأها، يجدون أنَّ أحداث حياته التي بَعُد العهد بها قد أصبحت حقيقةً حاضرةً وماثلةً أمامهم "ويستدرك كيريلّوس قائلاً إنّ المسيح لا يقتصر حضوره على موضعٍ بعينه، فالمسيحيون قادرون على استشعار هذا الحضور في أيّ مكانٍ في العالم، ولكنَّ زيارة الأماكن المقدسة، تمكّنهم من الوقوف في مكانٍ ما يزال مفعماً بالحضور الإلهي"[٤].

ويُستفاد من ذلك كلّه أنّ واحداً من أبرز الدوافع التي كانت تجذبُ الناس إلى أورشليم في الحج هو الرغبة في مشاهدة ولمس الأماكن التي كان المسيح يحضرها بجسده "وأصبح الحجّاج يعودون إلى ديارهم حاملين قطعاً من الصخور أو بعض التراب أو بعض زيت مصابيح الأماكن المقدسة، بل إنَّ أحد الحجاج بلغ به الحماس أن قضم قطعةً من الصليب

---

(١) آرمسترونغ، كارين، القدس مدينةٌ واحدةٌ وعقائدُ ثلاثةٌ، ترجمة فاطمة نصر ومحمد عناني، ص ٣١٩، ط١، ١٩٩٨، دار الكتاب العربي، القاهرة.
(٢) المرجع السابق نفسه، ص ٣٢٠.
(٣) المرجع السابق نفسه، ص ٣٢٠.
(٤) المرجع السابق نفسه، ص ٣٢٠.

الحقيقي عندما قَبَّلهُ في يوم الجمعة الحزينة. كان الناس يريدون أن يمتد تأثير قداسة أورشليم إلى أوطانهم ويتوفر في بلد كُلٍّ منهم"[1].

وكانت كنيسة القيامة أبرز المعالم التي يزورها الحجاج المسيحيون، لاعتقادهم أنّها تضمُّ قبر المسيح. وقد اشتعلت في القرن الحادي عشر الميلادي موجةٌ كبيرةٌ من الحماسة والشوق لأورشليم والأراضي المقدّسة، حيث راحت أعدادٌ أكبرُ من الحجّاج من أيِّ وقتٍ مضى تقوم بالرحلة الشاقة المحفوفة بالمخاطر عبر الأراضي المسلمة إلى الأراضي المقدسة. وفي أوروبا، أقبل المزيد من المسيحيين، وكما لم يُقبلوا من قبل، على تقديم التبرُّعات والأعطيات إلى كنيسة القيامة، وأوقفوا الكنائس التي شيَّدُوها للقبر المقدَّس.

لم يحتمل الحجاج المسيحيون الغربيون الذين كانوا يأتون إلى القدس رؤية الأماكن المقدّسة تحت الحكم الإسلامي. وكانوا يمتعضون من الإشراف الإسلامي على تلك الأماكن وكانوا عند عودتهم إلى أوروبا، يتحدّثون عن المعاملة السّيئة التي كانوا يلقونها من المسلمين أثناء رحلة الحج ـ كما يزعمون ـ وينادون بتطهير القبر المقدّس (القبر المزعوم للمسيح عليه السلام) من دَنَس المسلمين الكُفَّار ـ كما يصفونهم ـ وينادون بتقديم العون لإخوانهم المسيحيين الشرقيين الذين أصابهم الذلُّ والهوان في ظل الحكم الإسلامي للشرق، وقد لاقت دعاواهم وشكاواهم هذه آذاناً صاغيةً من الكنيسة الكاثوليكية التي اتخذت من (هذه المزاعم) مادّةً لشحن عواطف الناس وتعبئتهم ضدَّ الخطر الإسلامي القادم من الشرق.

ويضاف إلى ذلك أنّ هذه الدّعاوى والشكاوى (التي لا زلنا نصمِّمُ على وصفها بالمزعومة المختَلَقة) قد تزامنت مع الحملات الدعائية المُغرضة التي كانت تستهدفُ تشويه صورة الإسلام لصدِّ الناس عن الدخول فيه، وهي الحملات التي كان يبرمجُ لها وينفّذها القساوسة والرّهبان في أوروبا. وقد لاقت هذه الدعاوى، كما قلنا، آذاناً صاغيةً لدى الكنيسة الكاثوليكيّة التي أخذت تهوّل هذه الأخبار وتضخّمها وتدعو لتحرير قبر المسيح من المغتصبين والكفّار وكانت تلك الدعوى سبباً مباشراً من أسباب الحروب الصليبية.

---

[1] المرجع السابق نفسه، ص ٣٣٨.

سادساً: دور الكنيسة الإسبانية في رسم صورة الإسلام والمسلمين

عاشت الكنيسة الكاثوليكية في إسبانيا حرباً مفتوحةً طويلة الأمد في المجال العقديّ ضدّ الإسلام والمسلمين. "ويمكن القول إنَّ أكثر أخبار وأفكار الأوروبيين عن المسلمين في القرون الأولى للعصور الوسطى إسبانيةُ المنشأ. صحيحٌ أنّ النظريات العامة، والمنظومات الشاملة، وتطوُّرات الأفكار الأولى، جرت كلها خارج إسبانيا تقريباً، بيد أنَّ الدوافع الأصلية إسبانيةٌ في غالبيتها العظمى؛ سواءٌ كانت تلك الدوافع العلمية الطبيعة، أو المستندة إلى رؤى أنبياء الكتاب المقدس .. وربما كان هذا هو السبب في أنهم كانوا الأكثر انفعالاً من بين الأوروبيين بالمسألة الإسلامية"[(1)].

وفي تلك الفترة الزمنية كانت الحضارة الإسلامية في قمّة نموّها وازدهارها واجتذبت اللغة العربيّة (لغة الإسلام) الكثيرين من الشباب الإسبان الذين انكبّوا على دراستها وتعلّمها وقراءة المؤلفات العربيّة والأشعار وأعمال المتكلّمين والفلاسفة، لا ليردّوا عليها وينقضوها بل ليتقنوا التعبير والكتابة بالعربية "يا إلهي!! كل المسيحيين الشبّان الموهوبين يقرؤون ويدرسون بإعجابٍ الكتب العربية. أمّا الثقافة المسيحية فهم يحتقرونها ويقولون إنّها لا تستحقُّ الاهتمام. لقد نسوا لغتهم. فمقابل المسيحي الواحد الذي يستطيع كتابة رسالةٍ لصديقه باللاتينية؛ نجدُ ألفَ مسيحيٍّ على الأقل يمكنهم أن يبتدعوا أشعاراً بالعربية أحسن من أشعار العرب أنفسهم"[(2)].

وقد أُطلق على هؤلاء لفظ "المُستعرِبين"، ويبدو أنّ معنى التسمية واضحٌ تماماً. وقد شغلَ هؤلاء "المستعربون" الإسبان بال القائمين على الكنيسة الكاثوليكية الإسبانية طويلاً، ممّا جعلها تكافح على جبهتين؛ الأولى جبهة مواجهة الوجود الإسلامي على أرضها، والثانية جبهة ردِّ هؤلاء إلى هويّتهم ولغتهم الأصلية. ولمّا رأت الكنيسةُ الإسبانية أنَّ محاولاتها لردّ هؤلاء إلى "صوابهم" كانت بلا طائلٍ، فإنها عمدت إلى إثارة بعض حركات الاحتجاج ليس ضدّ الإسلام مباشرةً وإنما ضدَّ رضا العامّة من المسيحيين بالحضارة العربية الإسلامية ونتاجها، وكانت تُتداول فتاوى في الخفاء تحرّض على محاربة المسلمين وشتم رسولهم محمدٍ ﷺ،

---

(1) سوذرن [م. س]، ص ٥٥ بتصرّف.

(2) سوذرن [م. س] ص ٥٧، ٥٨.

كما سبق عند الحديث عن ظاهرة شهداء قُرطبة، وقد تزعّم هذا الاحتجاج الراهب "أوغيليوس" أكبر علماء المسيحية الإسبانية آنذاك وسانده في ذلك "باول ألفاروس". "وقد كان هذان الراهبان يشجّعان ظاهرة شهداء قرطبة ويحاولان العمل على نشرها في المدن الإسبانية كلّها، كما أنهما كانا يعتقدان أنّ السيطرة الإسلامية على إسبانيا إنما هي مقدمةٌ ضروريةٌ لظهور المسيح الدجّال"[١]، وكانا يُفتيان بأنَّ شهداء قرطبة إنما هم من جنود الله الذين كانوا يقاتلون وبكل استبسالٍ في الدفاع عن عقيدتهم "كانت حركة الشهداء التي قادها الفارو وأوغيليو تعارضُ المُستعربين المسيحيين بنفس المرارة التي تُعارضُ بها المسلمين؛ إذ اتهمتهم بأنهم خوَنةٌ لثقافتهم. وقام "أوغيليو" بزيارة إلى "بامبلونا" في البلدة المسيحية المجاورة، وعاد يحمل كتباً غربية: نصوصاً باللاتينية كتبها آباء الكنيسة، ومؤلفاتٍ رومانيةً كلاسيكيةً. كان يطمحُ في مقاومة استعراب مواطنيه الإسبان، وإبداع نهضةٍ لاتينيةٍ تتوقّدُ حنيناً وشوقاً إلى الماضي الروماني لبلده، فذلك من سبل إحباط تأثير الثقافة الإسلامية السائدة، ولكنَّ الحركة خبت وتدهورت عندما أصدر القاضي حكمه بإعدام أوغيليو"[٢].

سابعاً: عقدةُ الأنبياء الكَذَبة

لقد بنت الكنيسة الكاثوليكية ما أشاعته من أقاويل وأكاذيب حول رسول الله ﷺ على أساسٍ عقديٍ تَمَثَّلَ في أنَّ محمداً (ﷺ) إنما هو واحدٌ من الأنبياء الكذبة الذين يأتون في نهاية الزمان. وكان المسيح قد حذّر من هؤلاء الأنبياء الكذبة في الفصول الخامس والسادس والسابع من إنجيل متى وبالذات في القسم الأخير في الموعظة على الجبل، وكان ممّا ورد في ذلك في إنجيل متى (٧: ١٥ – ١٩): "احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان ولكنهم من داخل ذئابٌ خاطفةٌ. من ثمارهم تعرفونهم. هل يجتنون من الشوك عنباً أو من الحسك تيناً. هكذا، كلُّ شجرةٍ جيّدةٍ تصنعُ أثماراً جيدةً. وأما الشجرة الرديّة فتصنع أثماراً رديةً. لا تقدر شجرةٌ جيدةٌ أن تصنع أثماراً رديةً ولا شجرةٌ رديةٌ أن تصنع أثماراً جيدةً. كل شجرةٍ لا تصنع ثمراً جيداً تُقطع وتُلقى في النار. فإذاً من ثمارهم تعرفونهم ... "ليس كلُّ من يقول لي: يا ربُّ يا ربُّ، يدخل ملكوت السموات. بل الذي يفعل إرادة أبي الذي في السموات. كثيرون سيقولون لي في ذلك اليوم: يا ربُّ يا ربُّ، أليسَ بآسمك تنبأنا وبآسمك أخرجنا شياطينَ،

---

[١] المرجع السابق، ص ٦٣.

[٢] آرمسترونغ، سيرة النبي محمد [م. س]، ص ٣٥.

وبآسمك صنعنا قواتٍ كثيرة؟ فحينئذٍ أُصرِّحُ لهم: إني لم أعرفكم قط. إذهبوا عني يا فاعلي الإثم".

ولا يفهمُ من ذلك أن المسيح، حسب نصوص الكتاب المقدس، اتَّهم كلَّ الأنبياء بأنهم كذبةٌ ولكنّه أكَّدَ على أن هناك أنبياء صادقين وآخرين مُزيّفين، ومن هؤلاء المزيفين الكَذَبة جاء تحذيره (إحترزوا من الأنبياء الكذبة). ولقد ذكر الكتاب المقدّس أوصافاً متعددةً يعرفُ الناس من خلالها هؤلاء الأنبياء الكذبة، ومن هذه الأوصاف أنّهم يأتون الناس بشكلٍ غير شكلهم الحقيقي، وهذا واضحٌ في قول المسيح في الآية (١٥) من الفصل السابع من إنجيل متى (يأتونكم بثياب الحملان) وتلك كنايةٌ عن استعمالهم اللّطف والنّعومة واللين في أفعالهم وأقوالهم، ولكنهم في ذاتهم وجوهرهم خلافُ ذلك؛ فهم كما وصفهم المسيح (ولكنهم من داخلٍ ذئابٌ خاطفةٌ) وذلك للدلالة على مهارتهم الفائقة في خطف نفوس الناس وشدّهم وجذبهم إليهم. ومن الأوصافُ التي يُعرفُ بها الأنبياء الكذبةُ كذلك النتائج السّيئة لأعمالهم على الدوام، فقد وصفهم المسيح في الآيات (١٦ – ٢٠) من الفصل السابع في إنجيل متّى بقوله (من ثمارهم تعرفونهم) ثم سأَلَ (هل يجتنون من الشوك عنباً أو من الحَسَك تيناً؟) وكلامه واضحٌ في دلالته على أعمال هؤلاء؛ فالشوك لا يثمرُ إلاّ شوكاً والحسكُ لا يُنتجُ إلاّ حَسَكاً. ثمّ شبّه المسيحُ نتاج أعمالهم الرديئة بالثمار الرديئة التي لا تطرحها إلاّ الشجرةُ الرديئة حين قال: (كلُّ شجرةٍ جيّدةٍ تصنعُ أثماراً جيّدةً؛ أمّا الشجرةُ الرديّةُ فتصنعُ أثماراً رديّةً). وحتى لا نطيل في ذكر تفصيلات الحديث عن الأنبياء الكذبة[1] فإنّ الكنيسة قد ذكرتْ أهمَّ وصفٍ يُعرفُ من خلاله هؤلاء الأنبياء الكذبة، ألا وهو إنكارهم لعقيدة الثالوث الأقدس (الآب والإبن والروح القدس) وإنكارهم للصليب ولقيامة ولاهوت المسيح وعمل الفداء ويُضافُ إلى ما سبق من أوصاف الأنبياء الكذبة "ادّعاؤهم لمعرفة علم الغيب وظهور العديد من الآيات والعجائب على أيديهم، إضافةً لكونهم يقدِّمون تفسيراتٍ جديدةً مغايرةً تماماً للمعروف والمألوف من تفسير الكتاب المقدّس"[2]. لقد أسندت الكنيسةُ في تاريخها وصف النبي الكاذب للعديد من الرجال، وذلك حسب تفسيراتها التي كانت على الدوام تتغيّر بتغيُّر الزمان والأماكن والأشخاص، لكنّ الشخص الوحيد الذي اتّهمتهُ الكنيسةُ بهذا الوصف منذ ما يزيدُ على تسعمائة سنةٍ ولا زال هذا الوصفُ ملازماً له كلّما ذُكِر هو الرسولُ محمدٌ ﷺ، الذي لا زالت الكنيسةُ الكاثوليكية

[1] للتوسع في أوصافهم انظر موقع كلمة الحياة www.kalimatalhayat.com / الردّ على البدع وكشف القناع (احترزوا من الأنبياء الكذبة) وانظر تفسير القديس يوحنا الذهبي الفم لموعظة يسوع المسيح على الجبل (كيف نميّز الأنبياء الكذبة) على موقع www.orthodoxonline.org .

[2] مقالة البابا شنودة الثالث (إحترزوا من الأنبياء الكذبة) المنشورة على موقعه الرسمي www.copticpope.org.

حتى اليوم تتّخذُ من الطعن في صحّة نبوّته مدخلاً للطعن في الإسلام كلِّه، مُعلنةً دون أدنى حياءٍ أو خجلٍ، كراهيتها لهذا الرجل، عليه الصلاة والسلام "ورغم أن بعض الحضارات حاربت المسلمين، إلاّ أنّ معظم تلك الحضارات لم تحتفظ بِتُراثٍ من الكراهية تجاه نبي الإسلام مثلما احتفظت به دويلاتُ أوروبا وكنائسها. إنّ مِن المُلفت للنظر أنَّ العداء المسيحيّ للإسلام وللنبي ﷺ خارج أوروبا الغربية لم يتحول إلى كراهيةٍ تاريخيةٍ يتم الاحتفاء بها وتأكيدها في المناسبات الدينية وعلى حوائط الكنائس والأديرة كما حدث في أوروبا الغربية"[١].

ثامناً: عُقدةُ المقارنة المستمرّة بين محمدٍ والمسيح عليهما السلام

أمّا عن هذا العامل؛ فالكلام فيه كثيرٌ وطويلٌ،وقد لا تتّسعُ صفحات هذه الدراسة بأكملها لحصره والوقوف عليه وتحليله.

إنّه لا يخفى على أحدٍ مدى جماليّة الصورة التي رسمتها الكنيسةُ للمسيح، عليه السلام، ومدى قباحة وسوداويّة الصورة التي رسمتها لمحمدٍ ﷺ عن قصدٍ وعمدٍ، وذلك عبر مجهودٍ متواصلٍ خلال فترةٍ قاربت الألف عام من الدسّ وسوء الفهم والتشويه، فكانت النتيجةُ مقارنةً كالمقارنة بين إلهٍ وبشرٍ، وكالمقارنة بين الكمال أو السمّو المطلق وبين النقص المُعيبِ. ولم ينقطع هذا النوع من المقارنات (السّخيفة) بانزواء سلطات الكنيسة داخل جدرانها في مطلع عصر النهضة الأوروبيّ، بل لا زالت المقارنات مُستمّرةً حتّى السّاعة بين المسيح الإله الذي تجسَّد في صورة بشرٍ وبين محمدٍ البشريّ الناقص المزيّف، مدّعي النبوّة الذي تجلّت فيه أدقُ أوصاف الأنبياء الكذبة، كما يزعمون. لم تنقطع المقارنة بل اتّخذ فيها أعداءُ الإسلام أسلوباً من أساليب الطعن في الإسلام أو الدعوة إلى المسيحيّة، فكثرت كتاباتهم التي حملت عنوان (بين محمدٍ والمسيح) وما شاكله من عناوين تحملُ مفرداتٍ قريبةً من ذلك، وتسابقت المواقع الإلكترونية للكنائس كلّها (الآرثوذكسيّة منها والكاثوليكيّة) لتبثّ على الدوام خلاصة هذه المقارنات في محاولةٍ منها للتقليل من شأن الحبيب المصطفى ﷺ، منطلقةً في ذلك من جهلٍ متوارَثٍ بطبيعة الإسلام والرسول عليه السلام، ومن الخوف منه ومن الرغبة في التخويف منه ومن الدِّين الذي جاء به، علّها تجدُ في ذلك ضالّتها وما يشُفي غليلها من هذا المحمّد، الذي

---

[١] خفاجي، باسم، لماذا يكرهونه؟ الأصول الفكرية لموقف الغرب من نبيّ الإسلام، ص ١٥، ط١، ٢٠٠٦، من منشورات مجلة البيان، الرياض.

كان الدين الذي جاء به ولا زال حتّى اليوم أسرع الأديان نموّاً وانتشاراً على وجه الكرة الأرضيّة.

"صرّحت قناة (Fox) الإخباريّة الأولى في الولايات المتحدة الأمريكية بأنّ عدد الذين يتحوّلون سنوياً للإسلام في أمريكا حوالي عشرين ألف أمريكي، كما أعلنت وزارة الدّفاع الأمريكيّة أنَّ الإسلام هو أكثرُ الأديان انتشاراً في أمريكا"[1]. كما نشرت صحيفة "صنداي تايمز" البريطانية في عددها الصادر يوم الأحد بتاريخ٢٠٠٤/٢/٢٢ دراسةً موثقةً عن انتشار الإسلام في بريطانيا، وخصوصاً في صفوة المجتمع البريطاني جاء فيها: "إنّ أكثر من ١٤ ألف بريطاني أبيض اعتنقوا الدين الإسلامي، بعدما خيَّبتْ القيمُ البريطانية آمالهم، وإنّ أغلب هؤلاء تأثروا بكتاب الدبلوماسي البريطاني المسلم تشارلز إيتون "الإسلام قدر الإنسان"، وقالت الصحيفة اللندنية الأسبوعية: إنه وفقاً لدراسةٍ موثَّقةٍ لظاهرة تحوُّل البريطانيين إلى الإسلام، فإنَّ العديد من كبار مُلاك الأراضي ومشاهير المجتمع وشخصياتٍ بريطانية بارزة قد اعتنقوا الإسلام. والذي أجرى هذه الدراسة المُوثّقة هو (يحيى بيرت) "جوناثان بيرت" سابقاً نجل "اللورد بيرت" مدير هيئة الإذاعة البريطانية السابقة. وأشارت الصحيفة إلى اعتناق (إيما كلارك) حفيدة رئيس الوزراء البريطاني السابق "هيربرت إسكويت" من حزب الأحرار الدّين الإسلامي"[2].

وذكرت صحيفة التايمز البريطانية في عددها الصادر في ٢٠٠٦/١١/٣ أن قساً ألمانياً انتحرَ، حيث حرق نفسه داخل أحد الأديرة احتجاجاً على ما وصفه بانتشار الإسلام وعجز الكنيسة البروتستانتية عن احتوائه.

"وتشهد ألمانيا في السنوات الأخيرة تزايداً ملحوظاً في الإقبال على اعتناق الإسلام من قبل المواطنين الألمان، فهناك ٤٠٠٠ ألماني سنوياً يعتنقون الإسلام. إضافةً على ما سبق فإنّ المخابرات الفرنسية قلقةٌ من انتشار الإسلام السريع بالسجون حيث إنَّ نسبة الفرنسيين مِن الذين أسلموا في السجون حوالي ٧٠%. كما نشرت صحيفة "التايمز" البريطانية مؤخراً أن

---

(1) الريّس، علي، الحروب الصليبيّة من عهد قسطنطين إلى اليوم وجذورها الدينية، ص ٤، ٥، ط١، ٢٠٠٨، دار طيبة، مصر.
(2) المرجع السابق نفسه ص ٥.

اسم "محمد" أصبح أكثر الأسماء المفضلة في بريطانيا للمواليد الذكور بعد جاك"[١]. لقد عمد أصحاب وهواة المقارنات بين محمدٍ والمسيح إلى توثيق كلامهم، في مدح المسيح ورسالته والطعن في محمدٍ ورسالته، ودعموا كلامهم بتوظيف نصوصٍ مُجتزَأةٍ من سياقها أخرجوها عن مقصودها لتخدمَ غرضهم من هذه المقارنات، وسيأتي تفصيل هذه المقارنات في الصفحات القادمة من هذه الدراسة بعونه تعالى .

ونجدُ من المفيد في نهاية الحديث عن عامل عقدة المقارنة المستمرة بين محمدٍ والمسيح[٢] عليهما السلام التذكير بأنّ ردوداً تفصيليةً كاملةً سيردُ ذكرها لتوضيح ما سبق من الشبهات والإفتراءات وتفنيدها والردّ عليها في مبحثٍ مستقلٍ، نقمعُ فيه الصّلبان وندفع شبهات القسيسين.

يُستفادُ مما سبق ذكره من العوامل أنّ الكنيسة الغربيّة شنّت حرباً إعلاميةً فكريةً ضد الإسلام، استهدفت وبالدرجة الأولى تشويه صورته والحطّ من قدر نبيّه ﷺ وأظهرته بمظهر المخادع والسّاحر والكاذب والمهرطق والدجّال، لا بل زعمت أنه هو المسيح الدجّال الذي كان ظهوره وانتصار دينه المزيّف مقدمةً لمجيء المسيح الحقيقي وقيام القيامة، وأنّه يسعى لاحتلال البلاد الأوروبية لنشر دينه فيها بالسَّيف وقوّة السلاح وأنَّ ذلك لم ينتهِ بموته، فقد حمل أتباعُه رسالته المرعِبةَ وحطّوا بها على الأرض الأوروبيّة، فكان لابدَّ من النهوض لمحاربتهم واستئصالهم وإخراجهم من أورشليم وردّها لسابق عهدها. نقول: ساهمت العوامل السابقة كلُّها في رسم صورةٍ ذهنيةٍ نمطيّةٍ مُرْعبةٍ عن الإسلام في الذهن الغربيّ، صورةٍ جعلت منه ديناً كريهاً بغيضاً لدى العامّة. وقد استمرَّت هذه الصورة النمطيّةُ البشعة إلى يومنا هذا، ولكن مع تعديلاتٍ وتفصيلاتٍ طفيفةٍ أُدخِلَتْ على ظاهرها ولم تنل من جوهرها شيئاً يستحقُّ أن يُذكر.

---

(1) التميمي، محمد أسعد بيّوض، الحرب الصليبيّة والإساءة المتكررة لرسول الله ﷺ والغزو الفكري والثقافي وحقيقة المعركة. دراسة منشورة على موقع مفكرة الإسلام الإلكتروني، بتاريخ ٢٠٠٨/٣/٢٣.

(2) هذه المقارنات موجودةٌ في كل مواقع منتديات الكنائس المسيحية على شبكة الإنترنت. ولكن دون ذكر أسماء واضعيها. وقد كان موقع الكلمة www.alkalema.net الوحيد الذي تجرأ على الإشارة إلى أجزاءٍ منها في كتبٍ ودراساتٍ بعينها مثل دراسة (من هو= =الأعظم المسيح أم محمد؟) بقلم دانيال فراس كمال، ودراسة (بين السيد المسيح والنبي محمد في القرآن والإنجيل) دون ذكر اسم الكاتب، وكتاب (ماذا يقول الكتاب المقدّس عن النبي محمد رسول الإسلام؟) بقلم المدعو الدكتور عبد الله يوسف الأمين.

المبحث الثالث
ورهبانيةٌ ابتدعوها

نشأت الرهبانيّة في مرحلةٍ مبكرةٍ من مراحل المسيحية، بعد رفع المسيح عليه السلام إلى الله تعالى، وقد كان ذلك في فترة الاضطهاد وعصور الاستشهاد[1]، أثناء الحكم الروماني وذلك قبل اعتناق الإمبراطور قسطنطين للديانة المسيحية. وكانت الرهبانية متعددة الأسباب فمن المسيحيين من ترهبَن واعتزل الناس عزوفاً منه عن الزواج، ومنهم من ترهبن رغبةً في البعد عن المدن وضجيجها لينعم بالعبادة في ظلِّ سكينةٍ وهدوءٍ، ومنهم مَن ترهبن حرماناً لجسمهِ ومنعاً له من ملذات الطعام والشراب. والقاسم المشترك في الأسباب السابقة كلَّها هو رغبتهم في الاقتداء بالمسيح، حسبَ اعتقادهم.

وقد كانت الأديرة (جمع دير) الملاذ الآمن الذي فرّ إليه هؤلاء جميعاً لممارسة الرهبنة، وللزهد في الحياة ولممارسة الشعائر وطقوس العبادة المسيحية دون انقطاع. ويستدلُّ هؤلاء على جواز الرهبنة بالإصحاح التاسع عشر من إنجيل متى، والذي نختارُ من فقراته ما يلي:

١. فقال له التلاميذُ: "إن كان هكذا أمرُ الرجل مع المرأةِ فلا يُوافِقُ أن يتزوّج"[٢].
٢. "إنْ أردتَ أن تكون كاملاً، فاذهب وبِعْ أملاكَكَ وأعطِ الفقراءَ فيكون لك كنزٌ في السّماء، وتعال اتبعني"[٣].
٣. "وكلُّ من ترك بيوتاً أو إخوةً أو أخواتٍ أو أباً أو أمّاً أو آمرأةً أو أولاداً أو حقولاً من أجل آسمي، يأخذُ مائة ضعفٍ ويرث الحياة الأبديّة"[٤].

"وقد مَرَّت الرهبنة بمراحل؛ فكانت في المرحلة الأولى هروباً من الناس وبعداً عن المدن والقرى الزاخرة بالأدناس، وانطلاقاً في الصّحارى والبراري ولجوءاً إلى الكهوف، بقصد

---

[1] حركة الاستشهاد مصطلحٌ يطلق على عصور الاضطهاد التي عاشتها المسيحية في عصورها الأولى، وبالذات في عهد نيرون ودقلديانوس، عندما كانت الدولة الرومانية وثنيةً وأمعنت في تعذيب المسيحيين، الذين كانوا يقبلون على الموت بفرحٍ وسرورٍ لاعتقادهم بأن الموت بهذه الطريقة يجعلهم متّحدين مع المسيح بعد مماتهم.

[2] متى ١٩: ١٠.

[3] متى ١٩: ٢١.

[4] متى ١٩: ٢٩.

محاربة الجسد، والإكثار من العبادة والتأمل مع المحافظة على الوحدة والتفرد. وبمرور الزمن كَثُرَ عددُ الرّاغبين في الترهُّبِ، ومال هؤلاء إلى نوعٍ من الاجتماع والمعاشرة إذ تعرَّض بعضهم إلى عدوان اللصوص والمجرمين، فبنوا لهم صوامعَ متجاورةً، ثمَّ انتهى بهم الأمر إلى بناء أسوارٍ عاليةٍ تضمُّ بداخلها عدداً من الصوامع. فنشأ عن ذلك الديرُ، وكثرت بعد ذلك الأديار وانتشرت هنا وهناك"[١].

وقد قويت الأديرة وازداد نفوذها بتقوّي الكنيسة الكاثوليكية، وازدياد نفوذها لاسيّما في العصور الوسطى. وكانت هذه الأديرة بمثابة الرافد للكنيسة وذراعها الأيمن. واشتهر في التاريخ الأوروبي العديدُ من الرهبانيّات كان من أبرزها "الفرنسيسكان"[٢] و"الدومينيكان"[٣] كما اشتهر العديد من الأديرة مثل دير "كليرفو" في فرنسا ودير "كلوني" الشهير الذي تزعَّم وقاد حركة الإصلاح الكولونية التي كانت تنادي بإصلاح الكنيسة والعودة لتطبيق التعاليم المسيحية الصحيحة، خصُوصاً بعد الفساد الذي استشرى في الأوساط الكنَسَيّة في العصور الوسطى، بالذات في القرنين التاسع والعاشر. وكان هؤلاء الرهبان قد كرّسوا أنفسهم وجهودهم للوعظ والإرشاد ونصح الناس والاهتمام باحتياجاتهم الرّوحيّة. لقد قامت هذه الأديرة والرهبانيات ومن قبلها الكنائس لتحقيق العديد من الأهداف، حسبَ الاعتقاد المسيحي، ومن هذه الأهداف إكمال التواصل بين النفوس البشريّة التي أرسل إليها الربُّ إبنه لكي يساعدها ويرشدها، ومن أهدافها كذلك تحقيق رسالة المحبّة والتي تعني عيش الحبِّ الإلهي حتّى الوصول للقداسة، ومنها كذلك رسالة تعزيز الإنسان من خلال القيام بأعمال المحبّة وتحقيق رسالة التحاور والتعايش مع غير المسيحيين، إضافةً لرسالةٍ سابقةٍ وهي رسالة العُزلة والتأمّل في الحياة الرهبانيّة لعيش محبّة الله بأمانة ... ولتحقيق هذه الأهداف والرسائل، فقد منحت الكنيسة للرهبان والقسيّسين والأساقفة سلطاتٍ روحيةً جعلت لهم وضعاً مميزاً ومكانةً في أعين العامّة.

---

(1) شلبي، [م. س]، ص ٢٤٤.

(2) الفرنسيسكان: أعضاء في منظمات مسيحية مختلفة تنتمي إلى الرومان الكاثوليك، أخذوا إلهامهم ونظام حكمهم وبرنامج حياتهم من القديس فرانسيس. وفي عام ١٢٠٩م أسس فرانسيس نظام الفرير الصغار لإصلاح الكنيسة. وبين عامي ١٢١٢م و١٢١٤م أسس فرانسيس والقديسة كلير نظاماً للنساء يُدعى النظام الثاني للقديس فرانسيس.

(3) الدومينيكانية: هي رهبنة أسسها القديس دومينيك عام ١٢١٥م، ويلقب المنخرطون فيها باسم "الأخوة الوعاظ". وقد بدأت نشاطها أول ما بدأته في مدينة تولوز بفرنسا، وكانت أول رهبنة كاثوليكية أخذت على عاتقها التبشير بالعقيدة المسيحية. وقد تميز الدومينيكانيون الأولون بثقافة تخطت اللاهوت إلى محاولة للتوفيق بين اللاهوت والفلسفة.

"حوالي سنة ١٠٧م كتب الأسقف اجناسيوس اسقف كنيسة أنطاكية إلى المسيحيين في سميرنا ما يلي: "عليكم جميعاً أن تطيعوا آباء السماء كما أطاع عيسى أباه، أطيعوا أئمتكم الروحانيين كما تطيعون الرسل، ولا يباشر أحدٌ منكم شأناً من الشؤون التي تقوم بها الكنيسة "كالتعميد والزواج وحضور الموت والصلاة بدون حضور آباء الكنيسة، وأنّى يوجد الأسقف فإنّ حضوره يُعَد حضوراً للمسيح نفسه تبعاً لتعاليم الكنيسة الكاثوليكية ... الأب والأئمة الروحانيون لهم سلطان لقيادتنا وإرشادنا باسم المسيح، فمن أيديهم نتلقّى حياة الطّهر عن طريق التعميد، وهم الذين يعطوننا الخبز المقدس في العشاء الرباني، وهم الذين يربّوننا لنصبح أبناء الله، وهم عوض عيسى، وآباؤنا الروحانيون، فعلينا أن نتعمَّقَ في احترامهم وحبهم وطاعتهم ... وكل رجال الكنيسة العظام من الأب المقدس إلى الأساقفة، يُصدرون الأوامر لتنظيم الكنيسة ولسلامة المسيحيين من الذنوب والهموم النفسية، وتشجيعهم على فهم الحياة الكنسية ... والمسيحيون أعضاء يتكون منهم جسم عيسى المقدَّس، فعليهم أن يمتثلوا لأوامر الأساقفة وأن يسلموا أنفسهم للآباء الروحانيين"[(١)].

لقد سارت هذه الأديرة ممثّلةً برهبانها وقساوستها على المبادئ السابقة حيناً من الزمان لكنّها ما لبثت أن خرجت عنها وحادث عن خطّها المُعلَنِ، ولعلَّ الذي أخرجها عن خطّها وأفقدها صوابها هو وصول الإسلام إلى القارة الأوروبية فاتحاً، حاملاً لرسالةٍ قوامها دينٌ جديدٌ. لقد وجد هؤلاء الرهبانُ والقساوسةُ ومِنْ قبلهم أسيادهم البابوات المعصومون أنفسهم في مواجهةٍ مع "عملاقٍ قويٍّ خرج من المدينة المنوّرة، فحطّم لهم قواهم وجيوشهم التي كانوا بها يصولون ويجولون، ويحكمون بها نصف العالم، وطاردهم حتّى حصرهم في أوروبا وحدها، بل في جزءٍ منها، وطوّقهم من الشرق والغرب بذراعين قويّتين يهّددهم بهما صباح مساء"[(٢)]. لقد اتخذ الرهبان القائمون على الأديرة قراراً بالاشتراك في الحروب الصليبية ضدّ العالم الإسلامي بمجرّد أن دعا البابا أوروبان إليها، كما فعل الراهب بطرس الناسك، لا بل إنّ منهم مَنْ شجَّع الحكّام عليها بعد انتهائها كما فعل القديس برنار الذي كان مسؤولاً عن دير كليرفو، والذي كان سبباً رئيساً ومباشراً في اشتعال الحملة الثانية من حملات الحروب الصليبية وذلك بعد خمسين عاماً من انتهاء الحملة الأولى التي دعا إليها أوربان الثاني ... لقد انخرط الرهبان في الدعوة للحروب الصليبية وحثّوا الناس على الاشتراك فيها وأخذوا يشجّعونهم للخروج للقتال والقضاء

---

(1) شلبي [م. س]، ص ١٧١، نقلاً عن "تعاليم الكنيسة الكاثوليكية" من فصل بعنوان "نفوذ الكنيسة" مترجماً عن Pengad Jaran Geredjla Katolik الصفحات ٣٠٠ – ٣٠١.

(2) الجندي، جمعة، ملامح العنف والإرهاب الصليبي في بلاد الشام، ص ١٤٩، ط١، ٢٠٠٦، مكتبة مدبولي، مصر.

على المسلمين الكُفّار الذين منعوا الحجاج المسيحيين من الوصول إلى القدس ودنّسوا قبر المسيح المقدَّس، وقد استخدم هؤلاء الرهبان كلَّ ما خطر ببالهم من طُرقٍ وحِيَلٍ ووسائل لحث الناس على الخروج لقتال المسلمين وذبحهم، ومن ذلك "أنهم رسموا صورة لقبر المسيح، وعليه فارس مسلم يدوس القبر بجواده، ويسمح لهذا الجواد، فيبول عليه أيضاً!. وقيل بل صوَّروا المسيح، عليه السلام، وجعلوا معه صورة عربيٍ يضربه، وجعلوا الدماء على صورة المسيح، عليه السلام، وقالوا: "هذا المسيحُ يضربه محمدٌ نبي المسلمين، وقد جرحه وقتله"[1].

وحتى تكون الأمور أكثر تحديداً ووضوحاً فسنفردُ لأبرز هؤلاء الرهبان مبحثاً مستقلاً نستعرض فيه موقفهم من الإسلام وجهودهم في محاربته.

---

(1) المرجع السابق نفسه ص ١٥٧ نقلاً عن مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ص ٣٦٣.

المبحث الرابع
القدّيس أوغسطين يؤسّس للعنف والحرب في المسيحية

من الأسئلة الهامّة التي تطرح نفسها في هذه الدراسة، وقبيل الحديث عن الحروب الصليبية ودور الرهبان فيها كيف بدأت بواكير العنف والقتال والحرب في المسيحية؟ فهذا الأمر لم تألفه هذه الديانة في مسيرتها الأولى على الأقل. فكيف يا ترى سوّغت المجامع المسيحية في كلٍّ من مدينة "بياشنزا" الإيطالية ومن بعدها "كليرمونت" الفرنسية كيف سوَّغت وأجازت للبابا أوربان الثاني إعلان الحرب على العالم الإسلامي؟ وهل غابت عن ذهنها أوامر ووصايا المسيح بهذا الصدّد؟؟ الإجابة هي قطعاً لا، لم تغب عن هذه المجامع وأعضائها ورئيسها البابا "المعصوم" هذه النواهي الكتابية عن العنف والاقتتال، ولكنَّ الذي استجدّ هو أنّها أخذت تفعّل مبادئ ونظريات القديّس أوغسطين (أوأغسطنيوس)[1] فيما يتعلّق بالحرب العادلة أو (المقدّسة).

ويبرز عندنا، في معرض الحديث عن الحرب والعنف في المسيحية قولان لفريقين متغايرين:

١. يرى الفريق الأول أنّ روح العنف قد تسلّلث إلى المسيحيّة من اليهوديّة، وكان ذلك من خلال العنصر الرؤيوي في سفر الرؤيا (رؤيا يوحنّا اللاهوتي). وهم يرون أنّ هذا العنصر "الرؤيوي" يتَّسمُ بالعنف لدرجةٍ كبيرةٍ، وأنّ النزعة العدوانية لدى المسيحيّة قد تبدّت في وقتٍ مُبكِّرٍ جدّاً من تاريخ الكنيسة وأنّ تلك النزعة قد توضّحت تماماً في حركة الاستشهاد في عهد السّلطات الرومانيّة التي كانت تضطهد المسيحيين الذين كانوا يرفضون تقديم القرابين إلى القيصر، ويشكلون خطراً مُحتَملاً. فقُتل آلاف المسيحيين في حلبات المجالدة الرومانية، وقد تركت هذه الأحداث المؤلمة أثرها في الوعي المسيحي، وتركت لدى المسيحيين انطباعاً بأنّ "العالم" يقف ضدهم وسوف يتغلّب على دينهم. "وأدّى هذا الشعور العميق بعدم الأمان إلى نشوء بدعةٍ عدوانية الطابع من الاستشهاد الطوعي. وكان يُنظر إلى الشهيد على أنه مسيحي مثاليّ، لأن

---

[1] القديس أوغسطين (أوراليوس): (٣٥٤ – ٤٣٠م)، لاهوتي مسيحي وفيلسوف صوفي، سعى لتوظيف الفلسفة الهيلنستية في دعم اليقينيات العقائدية المسيحية. مؤلفاته الأساسية: "مدينة الله"، و"الاعترافات" و"مدينة الله" تشكل كفلسفة القاعدة المطلقة للكنيسة مقابل مدينة الأرض أي الدولة الدنيوية "الخاطئة" ولا تزال الأوغسطينية بوصفها فلسفة مسيحية، تستخدم اليوم على نطاق واسع لدى رجال الدين الكاثوليك والبروتستانت.

المسيح قال إن الجود بالحياة في سبيل من تحب هو أعظم أعمال الحب. والشهيد إنما يُحاكي يسوع في موته، غير أنّ هذا الحبّ كان يكتسب بُعداً عدوانياً؛ إذ شرع المسيحيون يبلّغون السلطات عن أنفسهم كي تقومَ بإعدامهم. لم يكن دافعهم إلى ذلك ميلاً لديهم إلى الألم والموت، كما لم يكن ذلك رغبةً لديهم في إثبات حبّهم للمسيح. كانت قناعة هؤلاء الشهداء الطوعيين أنهم إنما يُشاركون في معركةٍ كونيةٍ متواصلةٍ ضدَّ الشر. فكان موت كلِّ شهيدٍ يقرّب النصر النهائي والمجيء الثاني للمسيح، كما كان جزءاً من المعركة الفاصلة التي تنبأ بها الأنبياء"[1]. كان الشهيد يبدو سلبياً بسماحه لعنفٍ أن يصيبه، لكنه كان على يقين من أنه "جندي من جنود المسيح" وأنَّ موته مرادفٌ لـ "النصر"!!. حاولت الكنيسة أن تضع حداً لهذا الشغف بالاستشهاد الطوعي، الاختياري، لكنه لم يتوقف قط؛ إذ ظهر لاحقاً في أوروبا عندما شعر المسيحيون أنَّ أعداء الرب يهدّدون هويتهم؛ كما برزت أهمية الدافع الاستشهادي أثناء الحروب الصليبية. كما يرى أصحاب هذا الرأي أنَّ القديس أوغسطين، أسقف هيبّو في شمال إفريقيا تابعَ وبذعرٍ في أوائل القرن الخامس تدمير الإمبراطورية الرومانية الغربيّة فقرر أنه بينما تُعتبرُ الحروب ضد المسيحيين الآخرين دائماً خاطئةً وغيرَ مبرَّرةٍ، فقد يُلهمُ الربُّ في بعض الأحيان قائداً مسيحياً كي يشنّ حرباً على الوثنيين، كما سبق له وأوحى إلى يوشع وداود في "العهد القديم" بذبح أعدائهما. ويرى أصحاب هذا الرأي أنَّ "ما يميّزُ العنف المسيحيّ عن العنف الوثني هو أنه يجب أن يكون مفعماً بالحبِّ لعدوّه الذي يُقاتله، وينظر إلى عنفه هو على أنّهُ علاجٌ يُستخدم تقريباً بنفس الطريقة التي يُعاقِب بها الأبُ ابنه من أجل صالحه. وكان يسوع قد استخدم هذا النوع من العنف عندما طرد المرابين من الهيكل، وأنزل العمى بالقديس بولس على طريق دمشق. ومن دواعي الأسى أنَّ هذا العنفَ المسيحي ذا الغاية العلاجية، ينتهي أحياناً بموت العدو. صحيح أن المسيحيين بحاجةٍ إلى الدفاع عن أنفسهم، إلاّ أنّ القديس "أوغسطين" شدَّد على أن الدفاع عن النفس بحدِّ ذاته لا يمكن أن يبرِّرَ العنف، ذلك أن الدفاع عن النفس قد يكون نابعاً من الكراهية. وهم يرون أنّ حجج أوغسطين كانت ملتويةً، ومتناقضةً، وتظهر مدى الصّعوبة التي واجهته في تسويغ الحرب المسيحية. كما يرى أصحابُ هذا الرأي أنَّ المسيحيةَ ما كانت لتبقى وتستمر من دون حرب.

---

[1] آرمسترونغ، [م، س]، ص ٥٨ بتصرُّف.

٢. ويرى الفريق الثاني أنَّ القديس أوغسطين كان الرائدَ في إدخال النظريّة التقليديّة عن الحرب العادلة إلى المسيحيّة[1]، ويرون أنّ منطلقه في تسويغ حربٍ عادلةٍ على الهراطقة هو ما ورد في إنجيل لوقا (١٤: ٢٣) (أُخرجْ إلى الطُّرقات والدّروب وألزِم الناس بالدّخول حتّى يمتلئ بيتي). "وأفادته عبارة: "وألزِم الناس بالدخول" في تسويغ حربٍ عادلةٍ على الهراطقة. ومن الممكن أن تكون عبارة "ألزِمْ" عند لوقا تشير إلى ممارساتٍ تبشيريةٍ صلبةٍ أدت بعد ذلك على مرِّ الزمن من تاريخ الكنيسة إلى أشكالٍ من الشّطط والطغيان لم يُسمع بها"[٢].

وقد قام القديس "توما الأكويني" في القرن الثاني عشر بتطوير نظرية الحرب العادلة[٣] التي صاغها القديس أوغسطين، وأضاف عليها المعايير الأخلاقية التي يمكنها، حسب رؤيته، أن تكون مسوّغاً لأيّ حربٍ من الحروب، وهذه المعايير هي ما يلي[٤]:

١. السلطة الشرعية من جانب السلطة المختصة، التي تُشَنُّ الحرب بأمرٍ منها.
٢. السبب الذي يسوّغ الحرب، مثل الدفاع عن النفس، أو الإحساس بظلمٍ يعاني المرء منه.
٣. مستوى الوسائل.
٤. النية الحقة التي تنطوي على هدف يتمثَّلُ في خدمة السلام.

ومن الجدير ذكره هنا أنّ الممارسات الحربيّة في المسيحية كانت قد انتشرت وشاعت قبل أن يضع "توما الأكويني" هذه المعايير الأخلاقية للحرب العادلة في المسيحية؛ فقد كانت الحربُ تُعدُّ وسيلةً مناسبةً للانتقام من إهانةٍ فعليةٍ أو متوهَّمةٍ للمسيح، مثلاً، أو المساس بالعقيدة المسيحية، أو شتمها. "وفي القرنين التاسع والعاشر، عندما رأت أوروبا المسيحية نفسها تتعرّضُ المرة بعد الأخرى لغزواتِ الشعوب الوثنية، ارتبطت فكرة الحرب العادلة على نحوٍ خاصٍّ كل الخصوص بمفهوم "الحرب على الكفار". وبهذه الروح ضمن البابا ليون الرابع بين عامي (٨٤٧ – ٨٥٥م)، والبابا يوحنا الثامن بين عامي (٨٧٢ – ٨٨٢م)

---

(1) صاغ أوغسطين تفاصيل هذه النظرية في كتابه "مدينة الله" والذي كان يمثل ردّ فعلٍ على سقوط مدينة روما في أيدي الغوط آنذاك.

(2) هاغمان، [م. س]، ص ٥٠.

(3) فصّل توما الأكويني القول في هذه الإضافات في الجزء الأخير من موسوعته اللاهوتية.

(4) هاغمان، [م. س]، ص ٥٠.

لكل هؤلاء الذين يسقطون في القتال ضد العرب، أي المسلمين، وضد النورمانيين، أي ضد الوثنيين، الحياة الأبدية"[١].

وقد علّق لودفيغ هاغمان على فكرة الحرب العادلة أو الحرب المقدّسة بالقول إنها مهّدت لفكرة الحرب الصليبيّة على نحوٍ حاسمٍ بقوله: "ويمكن هنا أن نُثبتَ على وجه التلخيص: أنَّ فكرة (الحرب المقدسة) وما يرتبط بهاً من تكوين فروسيةٍ مسيحيةٍ على أنها طبقةٌ عسكريةٌ في خدمة الكنيسة، قد مهّدت لفكرة الحرب الصليبية على نحوٍ حاسمٍ وجعلتها في النهاية تتحول إلى حقيقةٍ واقعةٍ"[٢].

إذاً فقد ساهم القدّيس أوغسطين، ومن خلال فهمه الخاص واجتهاداته الخاصّة التي لم يسبقه إليها أحدٌ من تلاميذ المسيح والقدّيسين، ساهم في إضفاء صبغةٍ جديدةٍ خطيرةٍ أخرجت المسيحيّة، على الأقل كما يقول أتباعها، عمّا كانت تتميّزُ وتتغنّى به،حتّى يومنا هذا، من كونها دعوةً خالصةً للمحبّة والسلام والتسامح ونبذ العنف وإراقة الدِّماء. وكلُّ هذه الأوصاف والميّزات كانت مبنيةً على وصايا المسيح التالية:

١. "السارقُ لا يأتي إلاّ ليسرق، ويَذبحَ ويُهلك، وأمّا أنا فقد أتيتُ لتكون لهم حياةٌ وليكون لهم أفضل"[٣].
٢. وأمّا أنا فأقول لكم: لا تقاوموا الشرّ، بل مَن لطمكَ على خدِّك الأيمن، فحوِّل له الآخَر أيضاً. ومَن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً. ومن سخّركَ ميلاً واحداً، فاذهب معه اثنين"[٤].
٣. "وأمّا أنا فأقول لكم: أحبُّوا أعداءكم باركوا لاعنيكم. أحسنوا إلى مُبغضيكم، وصلّوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات"[٥].
٤. "رُدَّ سيفكَ إلى مكانه لأنّ كلَّ الذين يأخذون بالسيف، بالسيف يهلِكُون"[٦]

[١] المرجع السابق، ص ٥١، بتصرُّف.
[٢] المرجع السابق، ص ٥٣.
[٣] يوحنا ١٠: ١٠ – ١١.
[٤] متى ٥: ٤٠ – ٤٢.
[٥] متى ٥: ٤٤، ٤٥.
[٦] متى ٢٦: ٥٢.

هذا الذي نراه قد تقرّر على لسان المسيح ـ استناداً للإنجيل طبعاً ـ ولكنّ الذي رأيناه قد تقرّر على يد أوغسطين خلافُ ذلك تماماً. والغريبُ في الموضوع أنّ المؤسّسة البابوية ومجامعها المسيحية التي دعت إليها قد كرّست وأصّلتْ هذا النهج الذي خطّه أوغسطين!! ورأت فيه تحقيقاً لضالتّها المنشودة في استعمال القوّة والسلاح والعنف وطريقاً لإخضاع كلِّ مخالفٍ لها سواءٌ أكان من المسيحيين أنفسهم أم من غيرهم من (الهراطقة والكُفّار)!!

المبحث الخامس
بطرس الناسك

كان هذا الراهب[1] من أشدّ الرهبان الفرنسيين تعصّباً ضدّ الإسلام، وكان من الدّاعين لقتالٍ مستميتٍ ضد المسلمين، وقد سخَّرَ كلَّ مواهبه الخطابيّة والكلاميّة لتحقيق هذا الغرض. وهو بالرغم من بساطة مظهره وتواضع لباسه إلاّ أنّ تأثيره في الناس كان عميقاً لأبعد الحدود. وقد سبق لهذا الراهب أن زار بيت المقدس للحج، والتقى ببعض بطارقة المسيحيين هناك وناقش معهم الشقاء (المزعوم طبعاً) الذي يعيشونه في ظل الحكم الإسلامي للمدينة، وقام بحثّهم على مخاطبة كنيسة روما والاستغاثة بها لكي تَهبَّ لتحريرهم وتحرير القبر المقدّس، من هذا الاحتلال.

وكان ممّا قاله لأحد هؤلاء البطارقة: "... أعلم أيها الأب المباركُ، أنه إذا توفَّر لكنيسة رومة وأمراء الغرب مُبَلِّغٌ ألمعيٌّ ثقةٌ يخبرهم بالمصائب التي تكابدونها، فلا شكَّ أنّهم سوف يبادرون إلى بذل الجهد لتقديم العلاج بأسرع ما يمكنهم قولاً وعملاً، لتخليصكم من هذه المشاق. وعليكَ أن تثابر في الكتابة إلى قداسة البابا وإلى الكنيسة في روما ... وأما أنا فلن أتراجع من جهتي عن حمل هذه الرسالة رجاء خلاصِ روحي. كما أنني مستعد ـ مهتدياً بالله ـ لزيارة الجميع والتوسل إليهم ... وأدعو الجميع أفراداً وجماعاتٍ ألاّ يتوانوا عن إسعافكم بما فيه خلاصكم ..."[2] ولمّا عاد من زيارته تلك إلى فرنسا أخذ يقوم بشحن عواطف الناس ضدّ المسلمين السلاجقة، ويبتدع ويختلقُ القصص المُرعبة عن انتهاكهم الدائم وتدنيسهم المستمر لقبر المسيح، ويحثهم على النهوض لمحاربة المسلمين والانتقام لما أصاب القبر المقدّس من ذُلٍ وهوانٍ، ويشجعهم على استرداده. وقد كان هذا الراهب أوّلَ مَن تَكلَّمَ بمجرد انتهاء البابا أوربان الثاني من خطبته الشهيرة في مجمع كليرمونت، التي ستأتي الحديثُ عنها، حيث صاح في نهاية خطبة البابا قائلاً [إني نظرتُ قبرَ المسيح محتقَراً مُهاناً، ورأيتُ زوّاره مضطهدين] ثُمَّ صَاحَ بهم [إذا ما قام شخصٌ غريبٌ بالاعتداء على أحدكم، هل تتركونه من دون أن تثأروا له؟ أفلا تثأرون لله، ولآبائكم وأشقائكم الذين ترونهم يتعرّضون للّوم والتأنيب، والنفي والطرد من

---

[1] بطرس الناسك عاش بين سنتي ١٠٥٠م، ١١١٥م، كان ميلاده في مدينة ميان شمال فرنسا، كان رجلاً قصير القامة قبيح الوجه رث الهيئة ومن أشد الداعين للحروب الصليبية، حيث جال في أوروبا لهذا الغرض، وقدم مع طلائع الحملة الصليبية الأولى.

[2] الرومي [م. س] ص ١٣٢ نقلاً عن تاريخ الحروب الصليبيّة، لوليم الصوري ص ١٩٢ الجزء الأول.

أراضيهم، ويُسامون الاضطهاد وهم يصرخون في بؤسٍ طالبين النجدة؟][1]. لقد اختار هذا الراهبُ وقت الذروة في غضبة الناس الحاضرين لمجمع كليرمون الذين نفخ فيهم البابا أوربان الثاني الروح الصليبية، للنهوض ومحاربة المسلمين، فزادهم بطرسُ غضباً على غضبهم، فراق للبابا أوربان ما فعله الراهبُ بطرس وأعجبه تأثيره في جمهور الناس. فكلّفه بهجر ديره "لكي يقوم بالدعوة إلى الحملة الصليبية، فطاف بمختلف أقاليم فرنسا بهيئته المزرية داعياً إلى حملة البابا، وفي كلِّ مكانٍ يحل به كان يسحرُ ألباب الناس، ويسلب أفئدتهم، ببيانه الساحر وفصاحته حتى تجمَّع حوله أعدادٌ هائلةٌ من الأتباع"[2].

لقد طاف هذا الراهب في أنحاء أوروبا داعياً للحملةالصليبية هذه بأسلوبٍ حماسيٍّ استهوى العديد من الناس على مختلف مراتبهم وطبقاتهم، وكان بلا منازعٍ القائد الروحي للحملة الصليبيّة الأولى "وادّعى أنّ المسيح نفسه هو الذي عيّنه لقيادة هذه الحملة وأنه لديه رسالةٌ إلهيةٌ لإثبات ذلك، حتّى ظن الكثيرون أنّه هو وليس البابا أوربان الداعي الحقيقي للحملة إلى الأرض المقدّسة"[3]. تركَّزَ مجهود هذا الراهب في إيطاليا وشمال فرنسا وبلاد الفلانديرز، وكان حريصاً على الالتقاء بكلِّ أمراء المقاطعات التي زارها ومرّ فيها، أثناء دعوته بل حملته التحريضيّة تلك "ولم يترك أميراً من الأمراء إلاّ زاره، غيرَ مُدَّخرٍ وسعاً في حثّهم جميعاً وتحذيرهم ولومهم. فنجحت تحذيراته، بفضل الرب، في حمل بعضهم على المبادرة إلى الخروج لمساعدة إخوانهم الذين مسَّتهم البلوى ونزل بهم الضُرُّ، رغبةً منهم في ألاّ يدعوا الأماكن المقدسة ـ وهي البقاع التي تعطَّفَ السيد فشرَّفها بحضوره وصانها ـ أن تدنَّس بالخبائث"[4].

في اعتقادنا، أنّ هذا الراهب المحارب كان ضابط الإيقاع بل المحرِّكَ الأساس في هذه الحرب والحملة كلِّها، ولعلّه كان أشهر الوعّاظ الصليبيين على الإطلاق "كتب الراهب والمؤرِّخ المحنّك غيبر دو نوغان،الذي كان يعرف بطرس الناسك شخصياً يقول عنه: "كل ما كان يفعله أو يقوله كان يبدو شيئاً شبهَ إلهيٍ" طاف بطرس أرجاء فرنسا، مجتذباً الأتباع من كل الطبقات والفئات الاجتماعية. وحيثما وعظ، كان يسحر جمهوره ويحمله على البكاء. وقد حدث ذلك حتّى في ألمانيا، التي لم يكن فيها أحدٌ يفهم كلمةً واحدةً ممّا يقوله"[5]. ولكنّ

---

[1] آرمستروبخ، [م. س]، ص ١٠٥.
[2] تمام، أحمد، الحروب الصليبيّة، حملة الرّعاع في ذكرى تجمعها، دراسة منشورة على شبكة الإنترنت في موقع www.islamonline.net
[3] الموسوعة الحرّة ويكيبيديا تحت عنوان حملة فقراء صليبية.
[4] الرومي [م. س]، نقلاً عن تاريخ الحروب الصليبية، لوليم الصوري، ص ١٣٣.
[5] آرمستروبخ، [م. س]، ص ١٠٥.

السؤال الملحّ الهامّ الذي يطرحُ نفسه الآن، هو هل نجحَ هذا الراهبُ في حثِّ هذه الجموع على الخروج إلى بيت المقدس ومحاربة المسلمين؟ وإنْ كان قد فعل فإلى أيِّ مدىً وصل هذا النجاح؟؟ في الواقع لقد أصاب هذا الراهب نجاحاً عظيماً في دعوته التحريضيّة تلك، وأصابت حماستُه الأغلبيةَ السّاحقة من فئات المجتمع الأوروبي بفرسانها ورجالها وأمرائها ونبلائها وكبار رجال الإقطاع وحتى الفقراء والعبيد فقد تحرّكت هذه الفئات كلّها للخروج لمحاربة المسلمين (أعداء الربّ)!! "يقول وليم الصّوري [وقد كان أحد المشاركين في هذه الحملة الصليبية] في وصف حركة الاستعداد للرحيل إلى الشرق: "انفصل الزوج عن زوجته والمرأة عن بعلها، وفارق الآباء أبناءهم والأبناءُ آباءهم، كما غادر كثير من الرهبان أديرتهم، وفعل النسّاكُ فعلهم"[1]، ولقد عبَّرت المؤرخة آنا كومنينا عن هذه الحالة أحسن تعبير بقولها: "إنّه العالم الغربي بأجمعه وسكّانه، إنها هجرةٌ كاسحةٌ. أُسَرٌ تقتفي إثر أُسَرٍ قاطعةً أوروبا من الطرف إلى الطرف قاصدةً آسيا. لقد وصل الكليتون بكامل عددهم وعدّتهم فضاقت بهم رحال المسالك وبصحبتهم جماهير عُزَّلٌ حاملون الصّلبان، من بينهم النساء والأطفال، إنهم البحر بأمواجه المتلاطمة"[2].

لقد خرج الأوروبيون في جموعٍ عظيمة العدد متوجّهين إلى الشرق في الحملة الصليبيّة الأولى، وقد كان بطرس الناسك يقودُ بنفسه جحفلاً من عشرة آلاف رجلٍ من النبلاء والفرسان والمشاة، يصحبهم حشدٌ ضخمٌ من الحجّاج. ولعلّ هذا شاهدٌ على حرص الكنيسة الكاثوليكية على إبراز الدافع الديني العقدي لهذه الحرب. نعم، لقد حرصت الكنيسة الكاثوليكية على الإشراف بنفسها على الحملات الصليبية، حيث كان لها دورٌ بارزٌ في اختيار قادة الحملات واختيار رجال الدّين والرهبان والوعّاظ المرافقين لكلِّ الفرق والجيوش، وذلك في محاولةٍ منها لتذكير هؤلاء المحاربين دوماً بالهدف العقدي الأبرز للحملة ألا وهو تحرير المدينة المقدّسة والقبر المقدّس والمسيحيين في الشرق من أيدي المسلمين الكفّار أعداء الربّ ...

لقد أخرجت هذه الحروب الصليبية الأديرة الرهبانية عن الأهداف والغايات التي وُجِدَتْ لأجلها ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ

---

[1] جمعة [م. س]، ص ٥٤ نقلاً عن كتاب a history of the deeds done byeyond the sea لوليام الصوري.

[2] المرجع السابق نفسه، ص ٥٥.

وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[1]. نعم تلك هي الرهبانية التي ابتدعها هؤلاء باسم المسيح والانقطاع للعبادة، فما رعوها حقَّ رعايتها بل اتخذوا منها وسيلةً للتحريض ونشر الكراهية والحث على القتل وممارسة العنف، وباسم من؟؟ باسم المسيح عليه سلام الله تعالى. لقد خرج الرهبان ورجال الدِّين عن الخطِّ الذي رسموه لأنفسهم، فتركوا أديرتهم وصوامعهم وتسابقوا، في ظل ورعاية وتشجيع الكنيسة الكاثوليكية، للتدخل في شؤون السياسة والحرب، ولم يتوقفوا عند هذا الحدِّ بل إنّهم شكّلوا جماعاتٍ مقاتلةً من الرهبان الفرسان، كان من أبرزها الإسبتارية[٢] والداوية[٣]،والتيوتون[٤]. وقد استقرت هذه الجماعات في بلاد الشام بعد احتلالها من قبل هؤلاء الصليبيين، وسيطرت على العديد من الأراضي الزراعيّة وتلقّت الدّعم من كبار القادة والحكام المسيحيين الكاثوليك، إضافةً للدعم المباشر من كنيسة روما. "وقد اشتركت هذه الجماعات الرهبانية الفرسانية في العديد من المعارك ضدّ المسلمين، كان من أبرزها اشتراكها في حصار دمشق وعسقلان ومعركة حطّين ... وقد كانت الداوية والاسبتارية وغيرهما من فرق الرهبان الفرسان، كانت طوال فترة الحروب الصليبية تغذّي الشعور الديني للنصارى ضد المسلمين، وكانت لهذه الفرقة المكانة العالية لدى قوّاد النصارى سواء في أوروبا أو في بلاد الشام. وكثيراً ما تشترك هذه الفرقة مع قادة الصليبيين في البلاد الإسلامية ضد المسلمين"[٥].

لقد أفلح بطرس الناسك وأعوانه من الرهبان في نفخ الروح الصليبية في قلوب وعقول هؤلاء الذين قطعوا آلاف الأميال من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق، وفي ذهنهم هدفٌ واحدٌ هو (ذبح الكُفّار وطردهم من بيت المقدس واسترداد القبر المقدس)، وسيأتي الحديثُ عن المذابح

---

[1] سورة التوبة: الآيتان ٣١، ٣٢.

[2] هيئة الإسبتارية أو فرسان المستشفى. وهذه الهيئة عبارة عن مجموعة من الرهبان ورجال الدين الذين انقطعوا للعبادة وخدمة الحجاج المسيحيين في بلاد الشام. ثم تحولوا بعد ذلك إلى هيئةٍ عسكريةٍ قويةٍ كان لها دورها في حرب المسلمين خلال فترة الحروب الصليبية.

[3] هيئة الدواية: ظهرت هذه الهيئة في القدس بعد إنشاء الاسبتارية بعشرين عاماً تقريباً، وقد أسسها مجموعة من رجال الدين النصارى الفرنسيين، وكانت مهمتهم منذ البداية محاربة المسلمين، وحماية طرق الحج. حيث نالوا على ذلك تصريحاً من بطريرك القدس ومن الملك بلدوين الثاني.

[4] هيئة الفرسان التيوتون: وقد أنشا هذه الهيئة مجموعة من الحجاج الألمان في عام (٥٨٥ هـ - ١١٩٠م) وذلك أثناء حصار عكا خدمةً للمحاربين، وتقديماً للعون والعلاج للجرحى، ثم ما لبثت هذه الهيئة في المشاركة الفعلية والمباشرة في حرب المسلمين،وتأليب النصارى ضدهم. وإن كان دورها في المجال العسكري أقل من دور الهيئتين السابقتين.

[5] الرومي، [م. س]، ص ١٤٢، ١٤٣، باختصارٍ وتصرّفٍ

والفظائع التي ارتكبها هؤلاء عند وصولهم لبيت المقدس. لقد كان هؤلاء المحاربون، وتحت تأثير الشحن والتحميس من الرهبان المرافقين لهم، يعتقدون أنهم هم فعْلاً جندُ الله وجندُ المسيح!! ويفيدنا في هذا المقام الاستشهاد بفقرةٍ من وثيقةٍ هي في حدِّ ذاتها رسالةٌ بعث بها الأساقفة في الجيش قُبيلَ وصولهم إلى القدس، تحديداً عند أسوار أنطاكية، وتبرزُ وبكلِّ وضوحٍ صحّةَ كلامنا "وأردف الأساقفة يقولون في رسالتهم: "إننا لا نثقُ في أيِّ حشدٍ، ولا في أية قوةٍ، ولا في أيِّ سلطانٍ؛ وإنما نثقُ فقط في درع المسيح الواقي وفي عدالة قضيتنا، في ظل حماية (القديسين) جورج وثيودور وديمتري وبليز، جنود المسيح الذين يُلازموننا حقاً وصدقاً"[1]. وتعلّق كارين آرمسترونج على ذلك بقولها "وهذه لم تكن، بأيِّ حالٍ، استعارةً لفظيةً زائفةً، بل حقيقةً واقعةً "صدقاً"! وإذا كان الصليبيون قد رأوا محاربين سماويين يقاتلون من أجلهم في دوريليه، فإنهم الآن يُحسّون بأنهم محاطون بجيشٍ سماويٍ كاملٍ، غير منظورٍ. في هذه الحالة، من الغباء أن يفر المرء من الجنديّة، لأنّه يكون كمن يتخلّى عن المسيح ويهجر أصدقاءه الخُلَّص. وحين أخذ الصليبيون يشيرون إلى أنفسهم على أنهم "جند الله"، أو "جند المسيح"، فإنما كانوا يعنون ذلك حرفياً؛ وهذا معناه أنَّ الفرار من الجندية هو بمثابة الرِدَّة القصوى. لقد دفع سوءُ التغذية الصليبيين إلى الهلوسة، فلا عجبَ إنْ أخذوا "يرون" مزيداً من محاربي الربِّ السماويّين يحومون فوق الجيش حمايةً له، أو يحلمون بتلقّي رسائل تطمينٍ سماويةٍ تقول للصليبيين "إن الله معهم". ولم يكن ذلك من قبيل الوهم الكاذب، أو من باب البلاغة التحريضية، بل كانوا يؤمنون بأنها هي الحقيقة بحذافيرها"[2].

لقد أفلح هذا الراهب بطرس وأعوانه من الرهبان والقساوسة الكاثوليك في توظيف الدِّين وجعلوه في خدمة الحرب، وكان الجنود الصليبيّون يتناولون القربان المقدّس في بداية كلِّ مرحلةٍ من مراحل حملتهم هذه، وفي كلِّ لحظات الضيّق والهزيمة النفسيّة وأزمات التعب، وكان الجيش يُقبل على أداء الصلاة في العلن. "كان الجنود يضعون الطقوس الدينية في مصاف المجالس الحربية، ويستمعون إلى العظات الدينية بانتباهٍ كما لو كانت تعليماتٍ عسكريةً. كذلك كان الصليبيون جنوداً يدركون جيداً مدى أهمية الغذاء بحيث كانوا يحرصون على تزويد جيادهم بحصّتين من العلف قبل المعركة، فيما كانوا هم أنفسهم يصومون لثلاثة أيام كاملة قبل شنّ أيِّ هجومٍ كبيرٍ حتى وإنْ أوهنت المجاعةُ قواهم .... هذه كلها أسبغت على الحملة الصليبية طابعاً ديرياً مميّزاً، وبدت الجيوش لمعاصريها كما لو كانت أديرةً عسكريةً شاسعةً تنتقل

---

[1] آرمسترونج، [م. س]، ص ٢١٤.

[2] المرجع السابق نفسه، ص ٢١٤.

من مكان إلى آخر، وقد أضفت على الحملة جوَّ الخشوع المأثور في الحجّ الذي كانت له اليد الطولى في إطلاقها أصلاً"[١].

ما أشبه اليوم بالأمس! فقد كان الجنود الصليبيون يتناولون القربان المقدّس في بداية كلّ مرحلةٍ من مراحل حملتهم تلك وهاهم الجنود الأمريكيون في العراق اليوم "غالباً ما يجتمعون للصلاة قبل قيامهم بدوريات في مدينة بغداد"[٢]. "وكان الجنود الصليبيون وعلى رأسهم بطرس الناسك وبوهيموند يتساءلون عمّا كان يحملُ غالبيّتهم على مواصلة القعود أمام أسوار انطاكية، أثناء حصارهم لها، وهم يرون رفاقهم يتساقطون كالذباب"[٣] وها هم الجنود الأمريكيون، في العراق يتساءلون عن "مدى إمكانيّة استمرارهم في القيام بذلك [يقصد الحرب]؟ وهل يستحق الأمرُ هذا الألم والأسى؟ يا ربُّ ارجوك دعني أتطلّع إليك وحدك"[٤] وكان الصليبيّون الأوائل في الحملة الصليبيّة الأولى لما أصابهم الفشل الذريع الكارثي يتساءلون "إذا كان جيشُ الصليب يمثّل إرادة الربّ، فكيف عساه يفشل؟؟ إنّ الهزيمة النكراء التي حلّت بالصليبيين لم تكن هي النصر المؤزرَ الذي يتطلّع إليه الغرب"[٥]. وها هم الجنود الأمريكيون في العراق اليوم يتساءلون عن سبب فجائعهم وإصاباتهم المتوالية في العراق وهو الأمر الذي أفقد الكثيرين منهم ثقته بالربّ "... ويواجه الكثير من الجنود شكوكاً في إيمانهم خلال الحرب، لكنَّ هذه الضغوط أكثر حدّةً بالنسبة إلى المرشدين الدينيين. ومن خلال تقديم الإرشاد للنساء والرجال الذين يكافحون للحفاظ على إيمانهم، يواجه الكثيرون منهم شكوكهم الخاصة مراراً وتكراراً ... كانت تعكس أسى الجنود وإيمانهم بوجود الله الثابت. لكنها لم تفسِّرْ لماذا تحدث أمورٌ سيئةٌ لأناسٍ طيبين، وهو سؤال واجهه بنيموف مراراً وتكراراً مع الجنود الذين خدم برفقتهم؛ وطرحه على نفسه مراراً. ويقول المرشد الديني في الجيش الأمريكي الذي كان أحد الوعّاظ الدينيين المرافقين للجنود في حرب العراق (روجر بنيموف): كان يسألونني: إن كنتُ ابنَ الرب، فلماذا لا يحميني الرب؟ في سفر أيوب نرى أنّ الربّ يرعى الصالحين والأشرار، لكن من الصعب دائماً تقبلُ ذلك. لذا يكف بعض الجنود عن الإيمان بالرب، فيما يتقرب آخرون أكثر منه. كل شيء يتسارع في ساحة الحرب"[٦].

---

(١) آرمسترونغ [م. س]، ص ٢٠٥.
(٢) كونانت، إيف، الإيمان في ساحة الحرب، دراسة منشورة بتاريخ ٢٠٠٧/٥/٨ في مجلة News Week الأمريكية ص ١٧.
(٣) آرمسترونغ، [م. س]، ص ٢١٣.
(٤) كونانت [م. س]، ص ١٦.
(٥) آرمسترونغ [م. س] ص ١٠٧ باختصار وتصرف.
(٦) كونانت [م. س] ص ١٨.

وتنتهي مذكرات بنيموف في ٢٢ كانون الثاني من هذا العام وقد جاء في الأسطر الأخيرة منها: "لا أريد أن يكونَ لي أيُّ علاقةٍ بالربّ. لقد سئمتُ الدينَ، إنّه مجرّدُ عكازٍ للضعفاء .. الربُّ يتغير بالنسبة إلينا بحسب ما نحتاج إليه في لحظةٍ معينةٍ. أنا أكرهُ الرب. وأكره كل الذين يحاولون تفسير أعمال الرب في حين أنهم لا يعرفون شيئاً في الحقيقة"[١].

ونؤكّدُ في ختام هذا المبحث على أنّ دعوة بطرس النّاسك وأعوانه من الرّهبان للنهوض ومحاربة المسلمين قد لاقت نجاحاً باهراً، وأثارت في النفس حميّةً وحماساً منقطع النّظير، ودفعتْ الآلافُ من الأرواح ثمناً باهظاً لها، في ظلّ سيطرة الكنيسة الكاثوليكية ورهبانها على عقول الناس وأفئدتهم في تلك العصور الوسطى المُظلمة.

---

(١) المرجع السابق نفسه ص ١٩.

المبحث السادس
البابا أوربان الثاني[١] يُعلن الحرب المقدَّسة على الإسلام

كان من المتوقَّع، في مقابل تراكم العوامل السّابقة وعلى رأسها انتشار الإسلام في العالم بسرعةٍ تفوق سرعة انتشار النار في الهشيم، أن تتّخذ الكنيسةُ الغربية موقفاً تُعبِّرُ فيه عمّا كان يكتنفها ويدور في خلد باباواتها تجاه الإسلام. وكانت المؤشرات كلّها تشيرُ إلى أنّ الكنيسة يجبُ أن تتّخذ موقفاً وتخطو خطوةً عمليّةً، بعد أن استنفذت كلَّ الخطوات والمواقف النظريّة التي تمثّلت في حربها الإعلامية ضدَّ الإسلام والتي استهدفت، كما أسلفنا، تشويه صورته وتخويف الناس منه لصدِّهم عن مجرّد التفكير في اعتناقه، أو حتّى في التعرُّف عليه. وكان هذا الموقف العمليُّ الذي اتّخذته الكنيسةُ متمثّلاً في إعلانها للحرب المقدَّسة ضد العالم الإسلامي.وهي الحربُ التي اتخذت أسماءً متعددةً كان من أبرزها "حروب الفرنجة" و"الحروب الصليبية"[٢].

"ولم تقم هذه الحربُ إلا عن طريق مجامع مقدّسةٍ نادى إلى انعقادها البابا أوربان. كان أوّلها في شهر آذار سنة ١٠٩٥م في مدينة بياشنزا الإيطالية، والمجمع المقدس الثاني كان في مدينة كليرمونت الفرنسية في ٢٧ تشرين الثاني ١٠٩٥م"[٣]. كان السبب الظاهر أمام الناس لإعلان هذه الحرب المقدّسة على المسلمين، هو أن يهبّ المسيحيون الغربيون الكاثوليك لنصرة إخوانهم المسيحيين الشرقيين بعد أن أمعن المسلمون في إذلالهم، وعملوا على إهانة قبر المسيح، عليه السلام، وذلك "حين أرسل إلكسيوس كومنينوس (كومنين) الأول إمبراطور بيزنطة، يطلبُ مساعدةً عسكريةً من البابا أوربان الثاني ضدَّ الأتراك المسلمين، وقد رأى أوربان في طلب الدعم العسكري هذا فرصةً سانحةً له لكي يُرسِّخ أقدام سلطة الكنيسة البابويّة في بيزنطة، ولتحسين علاقات روما بالقسطنطينية"[٤]. لهذا وافق أوربان في الحال، وأشار إلى أنه سيحث فرسان أوروبا على التوجه بجحفل من الجنود إلى الشرق. وفي

---

[1] هو أوتو اللاجيري ويلقّب بـ أوربان الثاني. فرنسي المولد تولى منصب البابوية من عام ١٠٨٨ إلى عام ١٠٩٩م.

[2] الحملات الصليبية أو الحروب الصليبية بصفة عامة اسم يطلق حالياً على مجموعة من الحملات والحروب التي قام بها أوروبيون في أواخر القرن الحادي عشر إلى الثلث الأخير من القرن الثالث عشر (١٠٩٦ – ١٢٩١)، كانت بشكل رئيسي حروب فرسان، وسُمِّيت بهذا الاسم لأن الذين اشتركوا فيها تواروا تحت رداء الدين المسيحي وشعار الصليب من أجل الدفاع عنه وذلك لهدفهم الرئيسي وهو الاستيلاء على أرض المشرق في الوقت الذي كان فيه الشرق منبع الثروات ولذلك كانوا يخيطون على ألبستهم على الصدر والكتف علامة الصليب من قماش أحمر.

[3] الريس، [م. س]، ص ١٣٦.

[4] آرمسترونغ، الحرب المقدّسة، [م. س]، ص ١٠٣.

شهر تشرين الثاني من عام ١٠٩٥، تحدَّثَ إلى مجمع كليرمونت، وفيه أطلق دعوته إلى الحملة الصليبية الأولى.

"ويبدو أنه استهلّ خطبته بأن دعا إلى "سلام الربّ" ثم أهاب بفرسان أوروبا أن يكفّوا عن التقاتل فيما بينهم، وأن يعتصبوا معاً ضدّ الأتراك في حرب تحريرٍ مزدوجةٍ؛ تحرير إخوانهم المسيحيين في آسيا الصّغرى من ربقة الأتراك، والزحف على أورشليم لتحرير الأراضي المقدسة"[١].

إذاً فقد استهلَّ البابا أوربان خطبته الشهيرة تلك بالدّعوة لعملٍ عسكريٍ ضد المسلمين الهدف منه صالح المسيّحية والمسيحيين ... في الواقع لقد كان هذا هو الدافع المُعلَن والظاهر للحرب، لكنّ النصَّ الكامل، أو بالأصح شبه الكامل، لهذه الخطبة يكشفُ لنا عن تفاصيل أدقّ وأوضح كانت هي المحرك الحقيقي لهذه الحرب ولهذا الإعلان، ولعلّ هذه التفاصيل إنّما تمثّل خلاصة مُعتقدات وتصّورات الكنيسة الكاثوليكية وبابواتها عن الإسلام، وهذه التفاصيل تذكرها وبكل وضوحٍ وصراحةٍ المقتطفات التي وقفنا عليها من هذه الخطبة الشهيرة ومنها[٢]:

أولاً: ... من المهم أن تَهُبُّوا، بلا تأخيرٍ لنجدة إخوانكم الذين يقطنون بلاد الشرق الذين طالبوا مراراً بمعاونتكم. وبالفعل، كما تعرفون، فإنَّ هناك شعباً من الأتراك قادماً من بلاد الفرس قد غزا بلادهم. ولقد تقدّموا حتى البحر الأبيض المتوسط وبالتحديد إلى ما يُطلق عليه ذراع القديس جورج. وهم يتقدّمون في البلاد الرومانية على حساب أراضي المسيحيين الذين انهزموا سبع مراتٍ في الحرب، ولقي كثيرٌ منهم حتفه؛ وكثيرٌ قد تحوَّلوا إلى عبيد ... إنَّ هؤلاء الأتراك يهدمون الكنائس ويخرّبون مملكة الله .... وإذا ما ظللتم دون عمل أيِّ شيءٍ فإنّ عدد الضحايا من المؤمنين سيزداد بسبب هذا الغزو. لذلك فإنني أحثّكم وأتوسلّ إليكم ـ لا لست أنا الذي أحثكم ـ إنّه الربُّ نفسه ـ هو الذي يحثّكم أنتم يا رافعي لواء المسيح، وأيّاً كانت الطبقة الاجتماعية التي تنتمون إليها، فرساناً كنتم أم حفاةً، أغنياء أم فقراء، أن تذهبوا لنجدة المسيحيين وأن تصدوا هذا الشعب الشؤم بعيداً عن أراضينا. أقولها للحاضرين هنا، وأطلبها من الغائبين: إنَّ

---

[1] المرجع السابق نفسه، ص ١٠٣.

[2] عبد العزيز، زينب، محاصرة وإبادة موقف الغرب من الإسلام، ص ٧٦، ط١، ١٩٩٣، المؤسّسة الجامعيّة للدراسات والنشر، بيروت.

المسيح يأمر بذلك ... إنَّ كل الذين سيذهبون ويموتون على الطريق، سواء على الأرض أم في البحر، أو أولئك الذين سيموتون وهم يحاربون الكفّار، فإنَّ ذنوبهم سَتُغفرُ لهم وسأمنح الغفران لكل الذين سيساهمون في هذه الرحلة بموجب السلطة التي منحني الربُّ إياها ... ويا للعار إذا ما انتصر مثل هذا الشعب الحقير، المنحطّ، عابد الشياطين، على الأمة التي تعبد الرب، وتفخر بأنها مسيحية! أي لومٍ سيوجهه لكم الرب بنفسه إذا لم تجدوا الرجال الكافية الجديرة مثلكم بلقب المسيحيين! "ليذهب إذن هؤلاء الذين كانوا يحاربون بعضهم بعضاً على حساب المؤمنين ليذهبوا إلى المعركة ضد الكفّار، إنها معركةٌ جديرةٌ بأن تبدأ، ورهينةٌ بأن تنتهي بالنصر! وليصبحوا من الآن فرسان المسيح، بعد أن كانوا قُطّاع طرقٍ! ليحاربوا الآن ضد البرابرة بدلاً من أن يحاربوا ذويهم وإخوانهم! ولسوف ينالون المكاسب الخالدة، بعد أن كانوا مرتزقةً من أجل بضعة فلسات. ولسوف يعملون من أجل شرفٍ مزدوجٍ بدلاً من الشقاء على حساب جسدهم وروحهم. لقد كانوا هنا حزانى ومساكين، سيصبحون هناك سعداء أثرياء. لقد كانوا هنا أعداء الرب، وهناك سيصبحون أصدقاءه"[١].

ثانياً: ... إن العالم غير مقسومٍ بالتساوي. فمن أصل أجزائه الثلاثة، يستحوذ أعداؤنا على آسيا بوصفها أقطاراً موروثةً لهم، وهي جزء من العالم الذي طالما كان أسلافنا على حقٍّ في اعتباره معادلاً للجزأين الباقيين مُجتمعين. فهناك نما فيما مضى ديننا وتفرّعت أغصانه، وهناك لقي الحواريون فيما خلا اثنين منهم حتفهم. لكنَّ المسيحيين في تلك الأنحاء، هذا إذا بقي أحدٌ منهم هناك، بالكاد يُقيمون أودهم من الأرض، ويدفعون فوق ذلك الجزيةَ لأعدائهم، متطلّعين إلينا في صمتٍ علّهم يستردّون الحرية التي فقدوها. وإفريقيا، أو الجزء الثاني من العالم، مضى عليها هي الأخرى مئتا سنة أو يزيد وهي في قبضة أعدائنا بقوة السلاح؛ وهذا خطرٌ أشدّ وأدهى على العالم المسيحي كونها أنجبت ورعت نفوساً هي من ألمعها على الإطلاق، رجالاً ستدرأ أعمالُهم غائلةَ الدهر عن كتابنا المقدس طالما بقي اللسان اللاتيني حيّاً. وهناك ثالثاً أوروبا، الجزء المتبقي من العالم. وفي هذه المنطقة، فإننا نحن الأوروبيين لا نشغل إلا شطراً منها، إذ من ذا الذي يسعه إطلاق تسمية "المسيحيين" على أولئك البرابرة ممّن يقطنون الجُزر النائية ويبحثون عن لقمة عيشهم في المحيطات المتجمدة لكأنهم الحيتان؟ وحتى هذا القسم

---

[١] عبد العزيز، [م، س] ص ٧٧، نقلاً عن جورج تيت في كتابه L'orient des corisades .

الضئيل من العالم الذي يعود إلينا، يتعرّض الآن للضغوطات من جانب الأتراك والسراسنة المولعين بشنّ الحروب: فها هم منذ ثلاثمائة سنة يحتلون إسبانيا وجزر البليار، ويعيشون على أمل ابتلاع البقية الباقية[1].

ثالثاً: ... إن الأتراك عرقٌ ملعون، عرقٌ غريب تماماً عن الله، وهم حقاً جيلٌ لم يتوجه بقلبه أو يعهد بروحه إلى الله إنَّ قتل هؤلاء الوحوش الكفرة عملٌ مقدسٌ. فالواجب المسيحي يقضي باستئصال هذا العرق الفاسد من أراضينا. وبعد أن يطهّروا آسيا الصغرى من رجس المسلمين، يتعيّن على الفرسان أن ينخرطوا في مهمة أكثر قُدسيةً بعد؛ ألا وهي الزحف على مدينة أورشليم المقدسة وتحريرها من الكفار فمن العار أن يكون قبر المسيح في أيدي المسلمين[٢].

رابعاً: ... وعلى ذلك فنحن مُحذِّروكم وموصوكم باسم الرب بالعمل على التطهر من خطاياكم وذلك بمشاطرة إخواننا سكان القدس ومَن حولهم في مصائبهم وآلامهم ... وعليكم أن تكبحوا بكل غضبةٍ دينيةٍ وقاحة الكفّار الذين يحاولون إخضاع الممالك، والولايات، والدول، وأن تحاربوا ما وسعكم الجهد هؤلاء الذين أجمعوا العزم على إزالة الاسم المسيحي[٣].

لن نقف طويلاً عند المفردات البذيئة الحاقدة المقصودة السّابقة التي انتقاها البابا أوربان الثاني ليصفَ بها المسلمين، فهي واضحة المعاني والدلالات، أو كما يقال فإنها شارحةٌ لنفسها بنفسها، ولكنّ الذي نودُّ الإشارة إليه هنا أنّه استعمل هذه الكلمات والمصطلحات وهو يعلمُ أنّ المسيحيين الأوروبيين الذين خطب فيهم يعلمون معانيها تماماً. وهذا يدل بداهةً على أنّ هذه الأوصاف القبيحة عن العرب والمسلمين كانت شائعة الاستعمال في أوروبا، آنذاك خصوصاً إذا ما تذكّرنا أنّ طبقات المجتمع كافّةً كانت حاضرة في (مؤتمر كليرمونت) ابتداءً بالفلاحين والقساوسة والرهبان والفرسان وانتهاءً بالأمراء والنبلاء، كلّهم كانوا حاضرين ليستمعوا على مدار عشرة أيام لهذا التثوير والإغضاب والشَّحن ضد المسلمين. وحتّى تأخذ

---

(1) آرمسترونج، الحرب المقدسة [م. س]، ص ٢٦١، ٢٦٢ استناداً إلى ما كتبهُ المؤرخ الإنجليزي وليم أوف مالمزبوري عام ١١٢٥ في نسخته الخاصّة من خطاب البابا أوربان في كليرمونت.

(2) آرمسترونج، [م، س] المقدمة.

(3) الرومي، سليمان بن عبد الله بن صالح، دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية، ص ١٣٨، ١٣٩، ط١، ٢٠٠٧، مكتبة الرشد، الرياض.

هذه الحربُ المزيدَ والمزيد من الغطاء الديني فإنّه قام بتكليف العديد من الرُّهبان بقيادة بعض الفرق والجيوش المتوجّهة للمشاركة في الحرب، كما عهد إلى بعضهم الآخر بمرافقة هذه الجيوش لتحميسها ونفخ الروح الصليبيّة فيها.

وفي نهاية خطبته الشهيرة تلك اتجه البابا إلى الحاضرين، وصرخ فيهم قائلاً: "عبِّدوا طريق الرب، واجعلوا سبيله مستقيماً، وما كاد ينتهي من خطبته حتى صاح الجميعُ صيحةً واحدةً زلزلت أركان المؤتمر، وقالوا في هذه الصيحة: هكذا أراد الله"[١].

ومنذ ذلك اليوم أصبحت هذه الكلمة صيحةً عامةً للمُحاربين الصليبيين تقابل في كل موقعةٍ من المواقع صيحة من المسلمين "الله أكبر، الله أكبر" وطالما كانت تُسمعُ الصّيحتان دائماً عند الصدام الأول بين الفريقين.

وما أن فرغ البابا أوربان الثاني من تلك الخطبة حتى "تسابق الأمراء المسيحيون في ركوعهم بين قدميه، وأسرع في أن يضعَ شارة الصَّليب على كل واحدٍ منهم، وأقسم الجميع له يمين الإخلاص للمسيح وتعهدوا له بألا يلقوا السلاح حتى يظفروا بهذا الشرف الديني، وهو تحرير الأماكن المقدسة، وتعبيد طريقها للحجاج النصارى، ليقوموا بحجهم دون أن يتعرض لهم أحد من الأتراك"[٢].

لقد كان عنصر الإلهام الذي ارتكزت عليه خطبة البابا أوربان الثاني هو الضريح المقدس للمسيح عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ كما كان يدَّعي، إذ راح البابا يقصُّ على الناس ملحمة "أورشليم"، محور العالم، أمّ الكنائس، والجنّة الأرضية، التي شهدت الميلاد العجيب والرسالة الكبرى ثم طريق الآلام الفادي؛ فالقيامة. إنَّ هذه المدينة قد أمست في أغلال الأسر، وعلى الرجل تخليصها من العبودية والهوان. "وعلى هذا فمن يحمل صليبه يصبح جندياً للمسيح مع جيشه (من خاصة الله) ومن (الشعب المختار). وقال [أوربان الثاني]: "إن الأتراك قد أسروا وقتلوا كثيرين وهدموا الكنائس ودمّروا مدينة الله ... وطلب من الحاضرين أن يذكروا الألوف الذين لاقوا موتا شنيعاً، وعدَّد الفظائع التي زعم أن المسلمين ارتكبوها مع الحجاج المسيحيين مسيحي الشرق، وفي الكنائس ذكّرهم بقول المسيح ـ عليه السلام ـ [كلّ

(1) الجندي، جمعة، ملامح العنف والإرهاب الصليبي في بلاد الشام، ص ٤٤ ط١، ٢٠٠٦، مكتبة مدبولي، مصر.
(2) المصدر السابق، ص ٤٥.

مَن ترك بيوتاً أو إخوةً أو أخوات أو أباً أو أماً أو أمرأةً أو أولاداً أو حقولاً من أجل اسمي يأخذ مائة ضعفٍ ويرث الحياة الأبدية][1].

ولما وثق أنه أثار الشجون، وأسال العبرات، استصرخهم قائلاً: "فعلى عاتق أيٍّ غيركم يقع إذن واجبُ الانتقام من أعمال الظلم هذه؟ واسترداد الأراضي المقدسة؟ أنتم الذين حباكم الله بالأسلحة والشجاعة الفائقة والقوة الجسدية والمقدرة على الانتصار على كلِّ مَن يجرؤ على مقاومتكم "لا ترهبوا الموت، لأنَّ فيه تاج الشهادة، فالطريق قصير، والعناء قليل، والجزاء وفيرٌ أبديٌّ. احملوا سلاحكم وامضوا فإنه خيرٌ لكم أن تقعوا في المعركة من أن تتألموا لِمَا يصيب إخوانكم، وما تتعرض له مقدَّساتكم "سيروا فإنني أرى أمامكم في الطليعة، القائد الذي لا يُغلَبُ المسيح"[2].

لقد لاقت كلمات البابا أوربان صدىً واسعاً وحماسةً منقطعة النظير عند الحضور والمستمعين، وهذا واضحٌ تماماً، ولكنّ السؤال المهمَّ الذي يطرح نفسه الآن هو هل كان لهذه الخطبة وما اشتملت عليه من تثويرٍ وشحنٍ ضدّ المسلمين أيُّ أثرٍ عمليٍ وانعكاسٍ حقيقيٍ على أرض الواقع؟! الجواب هو نعم وبكلّ تأكيد، فقد كانت تلك الكلمات الملتهبة من ذاك البابا المعصوم وخطب البابوات المماثلة من بعده، السبب المباشر والمستنَدَ الشرعيّ للمذابح والفظائع التي قام بها هؤلاء الصليبيون بمجرّد وصولهم إلى القدس، وهي واحدةٌ من أكبر المجازر والفظائع التي سجلّها تاريخ العصور الوسطى والمعاصرة، "ففي الخامس عشر من تموز من عام ١٠٩٩ للميلاد نجح الصليبيون في إحداث اختراقٍ إلى داخل المدينة واستولوا عليها. ولمدّة يومين كاملين، انصرفوا إلى مهاجمة سكان المدينة فقتلوا كلَّ مَن وقع في أيديهم من السراسنة والأتراك، بل ذبحوا كلَّ فردٍ رجلاً كان أو امرأة ... وفي اليوم التالي للمذبحة، صعد الصليبيون إلى سطح المسجد الأقصى، وهناك قتلوا بدمٍ باردٍ مجموعةً من المسلمين كان تانكرد قد أعطاهم الأمان ... لم يَعُد المسلمون بعد اليوم أعداء محترمين، بل أمسوا أعداءَ الربّ، وبذلك كُتبَ عليهم أن يُبادوا إبادةً لا رحمة فيها ولا شفقة. إنهم يدنّسون هذه المدينة المقدسة. وبالتالي يجب قطع دابرهم كالحشرات الطفيلية، ومن هذه الزاوية، كانت التسمية التي أُعطيت للمسلمين في اللغة الصليبية هي: "القذارة". ورواية شاهد العيان الأشهر، "ريمون داغويليه"، ترينا بأيةِ روحٍ يشوعيه نُفِّذت تلك المذبحة:

---

[1] المصدر السابق، ص ٤٧.

[2] المصدر السابق، ص ٤٨.

[وشاهدنا أشياءً عجيبةً، إذا قطعت رؤوسُ عددٍ كبيرٍ من المسلمين، وقُتل غيرهم رمياً بالسهام، أو أُرغموا على أن يلقوا بأنفسهم من فوق الأبراج. وظلّ بعضهم الآخر يُعذَّبون عدّة أيامٍ، ثم أُحرقوا في النار. وكنتَ ترى في الشوارع أكوامَ الرؤوس والأيدي والأقدام، وكان الإنسان أينما سار فوق جواده يسير بين جثث الرجال والخيل. بيد أنَّ هذا كلَّه لا يُعدُ شيئاً بالمقارنة مع ما حصل في هيكل سليمان [يقصد المسجد الأقصى المبارك] حيث تُقام عادةً خدمة القدّاس. فماذا حصل هناك؟ أخشى إن انا أخبرتكم بالحقيقة أن لا تصدقوها لذلك حسبي أن أقول لكم على الأقل إنه في هيكل سليمان [يقصد المسجد الأقصى المبارك] ورواقه غاص الرجال حتى الرُّكَب وأعنّة الخيل في الدماء. وقد كان حُكماً إلهياً عادلاً ورائعاً أن يمتلئ هذا المكان بدماء الملحدين، وهو الذي عانى طويلاً من تجديفاتهم وتدليساتهم. لم تكن تلك المقتلةُ مجردَ معركةٍ عاديةٍ من معارك الفتوحات، فقد هجم الصليبيون على مسلمي بيت المقدس وأعملوا في رقابهم السيف كأنهم ملائكةُ الإنتقام في سفر الرؤيا. كان ذلك حُكماً أصدره الربّ بذاته. وكان خلاصاً يُشبه الخلاص الذي اجترحه الربُّ في البحر الأحمر حين فتك بجيش المصريين عن بكرة أبيه. بل كان فصلاً عنيفاً وقاطعاً ما بين العدل والظلم لقد أضحت الحملة الصليبية بحقٍّ حرباً مقدسةً. والرحلة المقدسةُ انتهت بمعركة الخير ضد الشر، أباد فيها جنود المسيح زهاء ٤٠ ألفاً من المسلمين في ظرف يومين ... ومشى قادة الحملة الصليبية، ودموع الفرح تهل مدراراً على خدودهم، إلى حيث القبر المقدس، فكان لقاءً وجدانياً مؤثراً مع مسقط رأس إيمانهم. في تلك اللحظة، لَفَّتْهُم الأجواء المقدسة للقبر الذي منه قام المسيح من بين الأموات. واحتفالاً بعودة الإيمان إلى أشد مراكزه قدسيةً وقوةً، أنشدوا جميعاً ترانيم قُدَّاس القيامة وقد كتب "ريمون داغويليه" يقول، مردداً صدى إيقاع الطقس الديني الشرقي في احتفاله ببزوغ فجر عصر جديد على العالم:

[إنه يومٌ جديد، وفرح جديدٌ، وبهجةٌ جديدة ودائمةٌ بانتهاء عملنا واكتمال تكرسنا، نستقيها من كل الكلمات الجديدة والأناشيد الجديدة. يحق لي أن أقول إنَّ هذا اليوم سيكون يوماً مشهوداً في العصور الآتية كلها، لأنه حَوَّلَ جهودنا وأحزاننا إلى فرحٍ وابتهاجٍ، ويحق لي أنْ أقول إنَّ هذا اليوم هو يوم انكسرت فيه شوكة الوثنية، وظهرت فيه براءة المسيحية كاملة، وتجدد فيه ايماننا]"[1].

---

[1] انظر:

أ. ديورانت [م. س]، المجلد الرابع من الجزء الرابع الباب ٢٣، الفصل الأول، الحروب الصليبية، ص ٢٥.

ب. آرمسترونغ، الحرب المقدسة [م. س] ص ٢٣١، ٢٣٢ بتصرف.

ج. الفرا [م. س] ص ٣١ – ٣٣. =

كانت تلك المذابح والأعمال الهمجيّة التي قام بها الصليبيون في القدس (التي سمّوها المدينة المقدّسة ومدينة الله) نتيجةً وأثراً عملياً واقعياً للشحن الذي قام به أوربان الثاني "المعصوم" ومَنْ جاء بعده مِن البابوات الصليبيين. كانت صورة القدس السماوية لا تفارق مخيّلة هؤلاء الصليبيين طيلة مسيرهم نحو القدس. وقد وصلوا إليها بعد ثلاث سنواتٍ من العذاب والسير والترحال. ولمّا وصلوا مشارفها أجهش جيشهم كلُّه بالبكاء وأخذ يطلق صيحات مدويّةً.

"لكنَّ صيحاتهم قد تكون صيحات غضبٍ خالصٍ. ففي ذلك الحين، كما هي الحال الآن، كانت المدينة المهيبة الرابضة على التلال بأسوارها المنيعة تُهيمنُ عليها صورة الجامِعَين الكبيرين: المسجد الأقصى وجامع عمر. ولا بد أنّ عظمة وجلالة هذين الصرحين، اللذين هما أكثر مَهابةً بكثيرٍ من أيِّ شيءٍ آخر في العالم المسيحي آنذاك، شكّلا على ما بدا لهم إهانةً للربّ وللدين الحقّ. ويُمكن أن يكونوا قد شعروا بما يشبه "الرهبة". لقد قيل للصليبيين إنّ المسلمين يحتلّون المدينة المقدسة، وها هم يستطيعون رؤية ذلك بأمّ أعينهم. فبوسعهم سماع أصوات المآذن تتردد عبر الروابي والأودية المجاورة، وبدت لهم كما لو أنها إهانةٌ متعمّدةٌ وتهديدٌ عميقٌ لمشروعهم كلّه الذي راهنوا عليه بأرواحهم ذاتها. إنّ هؤلاء المسلمين بدياناتهم الغامضة والزائفة إنما يلوثون التراب المقدَّس. لقد كانوا من مصر، وقد نظر إليهم الصليبيون على نحوٍ يختلف كثيراً عن نظرتهم إلى الأتراك في آسيا الصغرى، ليس لأسبابٍ عرقيةٍ، بل لأنهم في أورشليم، ولذلك لابد أن يكونوا أعداء الرب"[1].

نستطيع في نهاية حديثنا عن الحرب الدينية الصليبية التي تمّت بأمرٍ ودعمٍ وتمويلٍ من الكنيسة الكاثوليكية الغربية، نستطيعُ الآن أن ندرك أهمية الاعتذار التاريخيّ والهام الذي قدّمه ما يقارب الثلاثمائة من القساوسة المسيحيين عن الحروب الصليبية؛ التي أضرّت بالمُسلمين وتسببت بآثامٍ وخسائرَ بشريةٍ وعقائديّة طالبين المغفرة من الله الرحيم والصّفحَ من الأمة الإسلامية في جميع أنحاء العالم "وجاء ذلك في جواب للمسيحيين بعنوان "حب الله وحب الجار" ردّاً على رسالة وقعها ١٣٨ عالماً ومفكراً مسلماً بعنوان "كلمة سواء بيننا وبينكم" والذي قال فيه كبار رجال الدّين والفكر والعلماء المسيحيين إننا نودُّ البدء بالإقرار بأنَّ العديد

= د. زابورف، ميخائيل، الصليبيّون في الشرق، ترجمة إلياس شاهين، ص ١٢٢، ١٢٣، ط١، ١٩٦٨، دار التقدّم، موسكو.
هـ. حبشي، حسن، الحرب الصليبيّة الأولى، ص ١٧٩، ط١، ١٩٥٨، دار الفكر العربي، القاهرة.
(1) آرمسترونج، [م. س]، ص ٢٣٠، بتصرف.

من المسيحيين في الماضي ـ في الحروب الصليبية مثلاً ـ وفي الحاضر ـ في تجاوزات ما يُسمّى الحرب على الإرهاب مثلاً ـ أذنبوا بارتكابهم آثاماً ضد جيراننا المسلمين، فقبل أن نصافحكم ردّاً على رسالتكم نطلب مغفرة الله الرحيم وصفح الأمة الإسلامية من جميع أنحاء العالم.

إنّنا نفهمُ هذا الاعتذار ونقدّره تماماً ونفهم أنّه جاء ليمحو مرارات الماضي ويؤسِّسَ لحوارٍ ضروريٍ ومطلوبٍ بين المسلمين والمسيحيين في واقعنا المعاصر، لكنّ الذي لا نفهمه هو سبب إصرار الفاتيكان ورئيسها البابا، على عدم المشاركة في هذا الاعتذار، خصوصاً وأنّه يرأسُ المؤسّسة الدينية التي حملت لواء تلك الحروب وجعلت من الصليب شعاراً لها بدءاً من حملتها الأولى وحتى الأخيرة!!! والذي لا نفهمه كذلك أنّ الفاتيكان وبالرغم من إصراره على عدم الاعتذار للمسلمين عن الجرائم التاريخية التي لبست لباس الدين المسيحي نراه يرسل بين الحين والآخر، رسالات اعتذارٍ ومحبةٍ وتقديرٍ لليهود ويصرُّ على تبرئتهم من دم المسيح، عليه السلام، بالرغم من أن (العهد الجديد) ينصُّ وبكلِّ صراحةٍ على أنهم هم المسؤول الأول والأكبر عن حادثة الصّلب تلك!!!.

المبحث السابع
القدِّيس برنار

إذا كان الراهب بطرس الناسك سبباً رئيسا ومباشراً في الدعوة للحملة الصليبية الأولى وإثارة حماسة الناس لها، كما أسلفنا، فإنَّ القدّيس برنار[1]، قد لعب الدَّور نفسه في الحملة الصليبية الثانية، لا بل يزيد، فالراهب الأول بطرس استغلَّ دعوة البابا أوربان الثاني للحرب الصليبية، أمَّا القدّيس برنار هذا فكان هو صاحب الفكرة ابتداءً؛ حيث أثار سقوط (الرّها) على يد المجاهد عماد الدين زنكي عام ١١٤٥م، في قلب هذا الراهب الرعب والذعر فخشيَ أن تكون تلك مقدمةً لتوسّعٍ إسلاميٍ جديدٍ نحو الغرب الأوروبي.. ولمّا كان الناس في أوروبا عموماً، وفي فرنسا وألمانيا خصوصاً، متشائمين من الأهوال والمتاعب التي رافقت الحملة الصليبية الأولى، والتي حدثت قبل خمسين سنةً من ذلك، قام هذا الراهبُ ينفخُ الرّوح الصليبية في الناس، ويثيرُ فيهم الحنينَ للرحيل إلى الشرق من جديد. وقد كان هذا الراهب متنفّذاً جداً، وعلى علاقةٍ وثيقةٍ بملك فرنسا "لويس السابع" و البابا "أوجينيوس الثالث" الذي كان عضواً في جمعية الأخويّة التي كان هذا الراهب رئيسها بل ومؤسسها آنذاك. "وقد كان الراهب برنار هذا في أرجح الظنِّ أقوى شخصيةٍ في أوروبا حينذاك"[2]، وكان يتمّتعُ بموهبةٍ فذّةٍ في الخطابة لا تعرف الحدود، كما كان يمتلك قدرةً فائقةً على التأثير في الناس .. تمّت الدعوة للحملة (أو الحرب) الصليبية الثانية في تجمّعٍ جماهيريٍ حاشدٍ في مدينة فيزيلية الفرنسية، حضره الملك لويس السابع بنفسه في اليوم الحادي والثلاثين من شهر آذار عام ١١٤٦ للميلاد، وكان من الحضور كبار رجال الدولة وعددٌ كبيرٌ من البارونات (جمع بارون) الفرنسيين، لقد أزال الراهب برنار في خطبةٍ ناريةٍ ألقاها في هذا التجمّع كل الشكوك من نفوس الناس الحاضرين، وأقنعهم " بأنَّ سقوط الرها ليس بكارثةٍ، بل هو جزء من خطّة الربّ المقدّرة، لا بل إنّ الرب (سمح) لزنكي أو حتى "دفعه" إلى الاستيلاء على الرها كي يمنح المسيحيين فرصةً مذهلةً، ولسوف يكون مع شعبه في حملته الصليبية الجديدة، التي هي تجلٍّ للحبّ الإلهيّ، وأحدُ أعظم الأحداث شأناً في التاريخ الخلاصي وفي نهاية تلك الخطبة خرَّ

---

(1) برنار أو برنارد، قدّيس فرنسي عاش بين ١٠٩٠م-١١٥٣ م . ولد في فونتن – ليه – ديجون بفرنسا وكان أبوه من النبلاء، وعندما بلغ الثانية والعشرين من عمره دخل برنارد الدير البندكتي بمدينة سايتو، وفي عام ١١١٥م أسس ديراً بندكتياً بمدينة كليرفو، وصار رئيساً له، امتد تأثيره إلى نطاقٍ واسعٍ، حتى أن مساندته لكل من انوسنت الثاني ويوجين الثالث ساعدتهما في الجلوس على كرسي البابوية. وشارك عام ١١٤١م في مجلس الكنيسة الذي أدان اللاهوتي بيير آبيلار بالخروج عن الدين . في عام ١١٤٦م جعله يوجين مسؤولا عن تنظيم الدعم للحملة الصليبية الثانية.

(2) آرمسترونج [م.س] ص ٢٥٣ .

الملك ساجداً على ركبتيه وتناول شارة الصليب، وتبعه في ذلك حشدٌ "هائلٌ "جداً من كل طبقات وفئات المجتمع، حتى أن المخزون من شارات الصليب الجاهزة نفد بسرعةٍ اضطرّ معه برنار إلى تمزيق ردائه إلى شرائط ومناولتها للحشود الصاخبة"(١).

كيف لا وقد كان هذا الراهب يتمتّعُ بشخصيةٍ قويةٍ مؤثرةٍ مقنعةٍ كفيلةٍ "بإقناع جمهوره حتى قبل أن ينبس ببنت شفةٍ".(٢)

وكان من الطبيعي والمتوقَّع ، بعد أن شاهدَ الملك لويس ما شاهدَ من عبقريةِ هذا الراهب في الخطابة والتأثير أن يقوم بتكليفه بالإشراف على الدّعوة لحملةٍ صليبيّةٍ جديدةٍ، وجمع الدَّعم اللازم لها. وهذا الذي كان، فقد تجَوّلَ هذا الراهب في معظم المدن والمقاطعات في فرنسا وألمانيا مُجَدِّداً الدعوة لحملةٍ صليبيّةٍ جديدةٍ، ومؤكِّداً على مشروعية الحرب المقدّسة التي أضحت محلَّ تشجيع ودعم الكنيسة، مستفيداً من فصاحته وقدراته وخلفيَّتِه الصّوفيّة المسيحية "هذا ولسوفَ تصبغ قواه الصوفيةُ هذه الحملةَ بصبغتها لتجعل منها الحملة الأشدَّ تديُّناً من بين سائر الحملات الصليبية على الإطلاق"(٣). وقد خاطب هذا الراهبُ البابا أوجينيوس الثالث، زميله في جمعية أخوية برنار الدينية، برسالةٍ يمتدح فعله ونشاطه الذاتي وتأثيره في الناس قائلا: " فتحتُ فمي ، تكلمتُ، وفي الحال تضاعفَ عددُ الصليبيين إلى ما لا نهاية. المدائن والدساكر خلت من سكّانها، وترى في كل مكانٍ أرامل لأزواجٍ لا يزالون على قيد الحياة"(٤). لقد كان مضمون الدعوة التي سار بها الراهب برنار لتحريض الناس على النهوض لمحاربة المسلمين مشابهاً وبدرجةٍ كبيرةٍ لدعوة سلفه بطرس الناسك. لكنَّ الجديد في هذه الدعوة (دعوة برنار التحريضية) هو تقديمه تبريراتٍ تقنعُ الناس بأسباب نصر الله المؤقَّت للأعداء الوثنيين المسلمين على عباد الرب من المسيحيين، وهي المبررات والأسباب التي لطالما تساءل عنها "جيش الرب" "وجند المسيح" من المسيحيين الذين تركوا أموالهم وزوجاتهم وأولادهم، وخرجوا للاشتراك في الحرب ضدَّ أعداء الرب في الشرق، لكنهم فوجئوا بتخلّي الربّ عنهم مراتٍ كثيرةً لصالح أعدائهم من المسلمين الكفار!!!.

---

(1) آرمسترونغ [م. س] ص ٢٥٣ باختصار وتصرف

(2) المرجع السابق نفسه ص ٢٥٣

(3) آرمسترونغ، [م. س] ص ٢٥٤

(4) آرمسترونغ [م. س] ص ٢٥٤

لقد كان مضمون دعوة برنار وتبريراته تلك يتلخّصُ في أنَّ هذه الحملة الصليبية الثانية إنما هي دعوةٌ سماويةٌ موجّهةٌ من الربّ إلى كلِّ صليبيٍّ على حدىً، وأنّ المسيحي الذي يتوجه بنفسه للأراضي المقدّسة فإنما يستجيبُ لنداءٍ شخصيٍ ويخلّصُ روحه هو، "وأنَّ الربّ إذا كان قد عَرَّضَ نفسه للخطر بسماحه بانتصار المسلمين، فما ذلك إلا لكي يجعل الحملة الصليبية ضروريةً"[١].

لقد عاش هذا الراهب في دير كليرفو حياةً من التقشُّفِ، وطوَّرَ في مفهوم الرهبنة الشيء الكثير، واجتذب إلى ديره العديد العديد من شباب العائلات الثرية النبيلة آنذاك. وهو على تقشّفه في الدير لم يكن راهباً متديناً فحسب، بل كان فارساً سابقاً وفي الوقت ذاته شديد الانهماك في الحياة السياسية للعالم المسيحي، وكانَ على وعيٍ تامٍّ "بقوة المارد الإسلامي، ولعلَّ هذا بالذات ما جعل انتصار زنكي على الفرنجة المسيحيين في الرّها، يبدو بالغ الخطر وحدا ببرنار إلى وصفه بنقطة تحوّلٍ في التاريخ"[٢]. ولعلّ الذي نراه مكمناً للخطر الحقيقي لهذا الراهب برنار هو أنّه كان على الدوام نصيراً داعماً ومتحمِّساً لفرق الرهبان الفرسان (الداوية)[٣]، أو كما اشتهرت تسميتهم (فرسان الهيكل). "وساهم مساهمةً جادةً في اتخاذ مجمع "ترويه" لقرارٍ باعتبار أخويّة الداوية (فرسان الهيكل) سلكاً دينياً رسمياً في الكنيسة وصادق على قواعدها وأحكامها"[٤].

كان هذا الراهب شديدَ الإعجاب بفرقة الفرسان الرهبان الإرهابية هذه بوصفهم الجنود المسيحيين المثاليين، وما ذلك إلا لأنَّ هذا الراهب كان يرى أنّ أوروبا في حالة حربٍ دائمةٍ، وأنّ المسيحي الجادَّ يجب عليه أن يكون جاهزاً على الدوام للقتال!!!.

كان برنار يرى المغامرة الصليبية العنيفة كتجلٍّ للمحبّة الإلهية، كما كان يعتقد أنّ (الداوية) يحقّقون المثل العليا للحبِّ المسيحي الذي يجمع، في عرفه ، ما بين الرقّة والضراوة، فيقول: "إنّ هؤلاء المحاربين لهم أكثرُ وداعةً من الحملان، وأشدُ ضراوةً من السّباع، إنهم يقرنون سلاسة الراهب ببسالة الفارس، حتى ليصعبَ على المرء معرفة ما ينبغي أن يسمِّيَهُمْ: رجال يزينون هيكل سليمان بالتّروس بدلاً من تيجان الذهب، وبالسروج والأجمة بدلاً من

(1) آرمسترونغ [م. س] ص ٢٥٦ بتصرف
(2) المرجع سابق نفسه ص ٢٥٦
(3) سبق التعريف بهم في المبحث السابق.
(4) المرجع السابق نفسه ص ٢٦٣

الشمعدانات.... مَن يعيشون في بيتٍ واحدٍ على كثرتهم، وفقاً لقاعدةٍ واحدةٍ، وبروحٍ واحدةٍ وقلبٍ واحدٍ"[١]. لقد كان هذا البرنار من الداعمين والمؤيدين لنظرية "الحرب المقدّسة" وعمل على تكريسها كواقع في حياة المؤمنين المسيحيين بكل ما استطاعَ وأُوتِيَ من إمكانات ، فكان دون أدنى شكٍ من رهبان الحرب والموت الذين خلعوا لباس الرهبانية ولبسوا أثواب الحرب داعين على الدوام إلى القتال ثمَّ القتال ضدَّ أعداء الرب (المسلمين طبعا) !!!.

كان هذا الراهب المُحَارِبُ يرى "الحرب المقدّسةَ" الحلَّ الأفضل والأصحَّ والوحيد لمشكلة الوثنية (الإسلاميّة طبعاً)، وها هو يشرح لفرسان الهيكل (الداوية) أثناء حديثه عن الوثنيين ويقول: " مادام الأمر كذلك فمن الأفضل القضاء عليهم، حتى لا يبقى سيفهم بعد اليوم مُسلّطاً على رؤوس أهل العدل والإنصاف"[٢]. وتعلّق كارين آرمسترونج على نزعات الراهب برنار السابقة بقولها: "ولا نجافي الحقيقة إذا قلنا إنَّ الموت المسيحي الأمثل عند برنار هو موت المرء أثناء قتاله وقتله أعداء الرب، أجل، فسواء قضى الإنسانُ نحبَه في فراشه أو في ساحة المعركة، فإنّ موت قدّيسيه غالٍ دونما شكٍ في نظر الربّ، لكنَّ موته في القتال سيكون أغلى بعدُ بكثيرٍ بكل تأكيدٍ، ولكنَّ حقيقة أنَّ هؤلاء الشهداء يصعدون إلى الجنة بعد أن ذبحوا أناساً آخرين، ما كانت تزعج برنار مثقالَ ذرةٍ"[٣]. وإضافةً لما سبق من تكريس هذا الراهب المحارب لنظريّة "الحرب المقدَّسة"، فإنه عَمِلَ على تكريس نظرية "الاستشهاد في سبيل المسيح"، وقد سبق الحديث عنها، مُعتبراً الاستشهاد في سبيل المسيح أسمى دليلٍ على الحُبّ. وها هو يخاطب مجموعة الإرهابيين الذين يحملون اسم فرسان الهيكل قائلا: "ماذا هناك يا تُرى ممّا يدعو لخوف الإنسان سواء أعاش أم مات؟ طالما أنّ الحياة بالنسبة إليه هي المسيح، والموت بالنسبة إليه هو الفوز؟ إنّه يظلُّ في هذه الدنيا أميناً وراغباً في المسيح، لكنَّ رغبته الأعظم هي في الذوبان لكي يكون مع المسيح... وذلك لعمري المآلُ الأمثل. لذا ، كونوا في أمانٍ، أيها الفرسان، وبنفوسٍ لا تعرف الوجل ادحروا أعداءَ صليب المسيح، واثقين من أنّه لا الموت ولا الحياة يمكن أن تفرّقكم عن محبة الربِّ الكائنة في يسوع المسيح، ومردّدين في سرّكم عند كل خطرٍ: سواء عشنا أم متنا، نحن في حوزة السيد. فيا لمجد المنتصرين العائدين من أرض المعركة! ويا لنعمة الشهداء الصرعى على أرض المعركة"[٤].

---

[1] آرمسترونغ [م. س] ص ٢٦٤
[2] المرجع السابق نفسه ص ٢٦٥
[3] المرجع السابق نفسه ص ٢٦٥
[4] آرمسترونغ [م. س] ص ٢٦٥

من الواضح أنَّ نظريات ومفاهيم ومعتقدات هذا الرّاهب المحارب، لا تحمل أيّ نوعٍ من أنواع الرحمة أو الإنسانية أو حُبّ الحياة، ولا حتى أدنى نوعٍ من الأخلاقيات التي يُفترَض بالرهبان أن يتحلوا بها. والمصيبة أنّ هذا البرنار كان يرى الحروب الصليبية عملاً من أعمال الربّ تماماً!!!!. وما نرى التراث الذي جاء به إلا شبيهاً بالتراث الذي حمله سلفه بطرس الناسك؛ تراث الحقد والكراهية والتحريض على قتال المسلمين الوثنيين الكفار أعداء الرب الواجب قتالهم وذبحهم !!!.

"لم يكن المسلمون بالنسبة إليه كائناتٍ بشريةً حقيقيةً، وقد أساء هو ومعاصروه التكهُّنَ بنواياهم فيما خصَّ أوروبا، وأخطر من ذلك، أنه افترض أنهم صاروا في جيب المسيحيين فعلاً لأنهم، على ما يرى، مجرّدُ أدواتٍ استخدمها ويستخدمها الربُّ لتمجيد الغرب المسيحي"[1].

إن كانت هذه هي خلاصة الأفكار، بل المعتقدات، التي يحملها القديس برنار عن الإسلام والمسلمين، فمن البدهيّ أن تكون هذه المعتقدات عينها هي التي يحملها المئاتُ من الرهبان الذين تتلمذوا على يديه وصَقَلَهم في دير كليرفو، وفي رابطته الأخوية الرهبانية. مع التذكير بأنّ قِسماً كبيراً من هؤلاء الرهبان قد شارك في الحرب ضد المسلمين في الحملة الصليبية الثانية. ولكن ما النتيجةُ التي آلت إليها هذه الحملة الثانية التي قادها ودعا إليها هذا البرنار؟

لقد كانت هزيمةً نكراء وإخفاقاً شنيعاً، دفع المسيحيون الآلافَ من أرواح أبنائهم، مرةً أخرى ثمناً لها. وقد خلق فشل هذه الحملة، الأكثر تديُّناً في تاريخ الحروب الصليبية، ردَّ فعلٍ عكسياً في الأوساط الأوروبية حيث "أخذ الناسُ يتساءلون كيف يرضى الله جلَّ جلاله أن يُذِلَّ المدافعين عن دينه هذا الإذلال المنقطع النظير؟ وشرع النقادُ يهاجمون القديس برنار ويصفونه بأنه خياليٌ متهورٌ، يرسل الناس ليلاقوا حتفهم. وقام في أماكنَ متفرقةٍ بعضُ المتشككةِ الجريئين يجادلون في القواعد الأساسية للدين المسيحي، وردَّ عليهم برنار بقوله "إنَّ أساليب الله سبحانه لا تدركها عقولُ البشر، وإنَّ الوبال الذي حل بالمسيحيين ربما كان عقاباً لهم على ما ارتكبوا من ذنوب"[2].

---

[1] المرجع السابق نفسه ص ٢٦٥ – ٢٦٦

[2] ديورانت [م. س] الجزء الرابع من المجلد الرابع، عصر الإيمان، ص ٣٣ .

بدعمٍ وتحريضٍ من هذا الراهب الذي أحلَّ قومه دار البوار، أعاثت فرقُ الرهبان الفرسان الخرابَ في بلاد المسلمين، وأهلكت الحرث والنسل مُنطلقةً من خلفيّتها الرهبانية وواقعها المسلَّح، ولعلَّ هذا هو الذي دفع صلاح الدين، يرحمه الله، ليكون أشدَّ قسوةً عليهم من غيرهم من الأعداء الصليبيين، مع أنّه "كان في العادة شفيقاً على الضعفاء، رحيماً بالمغلوبين، يسمو على أعدائه في وفائه بوعده سمواً جعل المؤرِّخين المسيحيين يعجبون كيف يخلق الدين الإسلامي، "الخاطئ" في ظنِّهم، رجلاً يصل في العظمة إلى هذا الحدّ، وكان يعامل خدمه أرقَّ معاملةٍ، ويستمع بنفسه إلى مطالب الشعب جميعها، وكانت قيمةُ المال عنده لا تزيد على قيمة التراب، ولم يترك في خزانته الخاصة بعد موته إلا ديناراً واحداً"[١].

نعم، هذه هي أخلاق فرساننا، وهذه هي أخلاق فرسانهم. هذه ممارساتنا إن تمكنّا منهم، وهذه ممارساتهم إن هم تمكَّنوا منّا... ونختم هذا المبحث بعقدِ مقارنةٍ سريعةٍ بين عيّنةٍ من رسائل القديس برنار، سبق إيرادها، لفرسان الهيكل، وبين رسالةٍ ووصيةٍ تركها صلاح الدين لابنه الظاهر وهذا نصها:

رسالة القديس برنار	رسالة صلاح الدين
ماذا هناك يا ترى مما يدعو لخوف الإنسان سواء أعاش أم مات؟ طالما أنَّ الحياة بالنسبة إليه هي المسيح، والموت بالنسبة إليه هو الفوز؟ إنه يظل في هذه الدنيا أميناً وراغباً في المسيح، لكنّ رغبته الأعظم هي في الذوبان لكي يكون مع المسيح... وذلك لعمري المآلُ الأمثل. لذا ، كروا في أمانٍ، أيها الفرسان، وبنفوسٍ لا تعرف الوجل، ادحروا أعداء صليب المسيح، واثقين من أنه لا الموت ولا الحياة يمكن أن تفرقكم عن محبة الرب الكائنة في يسوع المسيح، ومردّدين في سرِّكم عند كل خطرٍ: سواء أعشنا أم متنا، نحن في حوزة السيد. فيا لمجد المنتصرين العائدين من أرض المعركة! ويا لنعمة الشهداء الصرعى على أرض المعركة.[٢]	أوصيك بتقوى الله تعالى فإنها رأس كل خيرٍ، وآمرك بما أمر الله به فإنه سببُ نجاتك، وأحذرك من الدماء والدخول فيها والتقلد بها فإنّ الدم لا ينام، وأوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر في أحوالهم، فأنت أميني وأمين الله عليهم، وأوصيك بحفظ قلوب الأمراء وأرباب الدولة والأكابر، فما بلغتُ ما بلغتُ إلا بمداراة الناس، ولا تحقد على أحدٍ، فإنَّ الموت لا يُبقي على أحد، واحذر ما بينك وبين الناس فإنه لا يغفر إلا برضاهم، وما بينكَ وبين الله يغفره الله بتوبتك إليه، فإنه كريم.[٣]

[1] المرجع السابق نفسه ص ٤٤، ٤٥

[2] آرمسترونغ [م. س] ص ٢٦٥

[3] ديوارنت [م. س] ص ٤٥ / نقلا عن كتاب " صلاح الدين"، لستانلي لين بول ونقلها المترجم الأستاذ عبد الحميد يونس، عن "النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، لابن شداد.

المبحث الثامن
هل انتهت الحروب الصليبيّة؟

لا زال العقل المحايد المتجرّد عن التحيُّز، لا يفهم حتّى هذه اللحظة كيف أخذ البابوات المتعاقبون ومجامعهم المسيحيّة بآراء واجتهادات أوغسطين وتركوا وصايا المسيح السّابقة الواضحة وضوح الشمس في الأمر بنبذ العنف!! إنّ (محاكم التفتيش) التي شرعتها الكنيسة الغربية (والحروب المقدّسة العادلة) ضدّ العالم الإسلامي لهي وصمةُ عارٍ كانت ولا زالت واضحةً في جبين الكنيسة الغربية التي تصُر حتى اليوم على عدم الاعتذار عن هاتين الجريمتين مهما كلّفها الأمر، وفي هذا كبير دليلٍ على اعتقادها بصحّة ما فعلته، كما أنّ فيه دليلاً على أنّ الحروب الصليبية لم تنتهِ ولم تتوقف بتوقُّف الحملات العسكرية التي أعلنها أوربان الثاني في مجمع كليرمونت.لم تنتهِ الحروب الصليبيةُ التي تسبّبت بجراحاتٍ وآلامٍ ومساهماتٍ في بُعد الشقّة بين حضارتنا وحضارة الغرب، لم تَمُتْ الروح الصليبيّة ولكنّها اتخذت أشكالاً معاصرةً متعدّدةً في التعبير عن وجودها واستمراريتها وكينونتها.

"إن التحديد الزمني للحركة الصليبية بين سنتي ٥٨٨ هـ - ٦٩٠ هـ، هو تحديدٌ خاطئٌ لا يقوم على أساسٍ سليمٍ ولا يعتمد على دراسة الحركة الصليبية دراسةً شاملةً، وإنما يكتفي بعلاجٍ مبتورٍ يشمل جزءاً من تلك الحركة ولا يعبِّرُ عن جذورها وأصولها من ناحيةٍ، ولا عن ذيولها وبقاياها من ناحيةٍ أُخرى"[١].

إن كانت الحروب الصليبية قد انتهت فعلاً فكيف نبرر ما يلي:

لمّا دخل الجنرال اللنبي القدس يوم ١٩١٧/١٢/٩م قال قولته المشهورة: [الآن انتهت الحروب الصليبية] ولمّا دخل الجنرال جورو دمشق يوم ١٩٢٠/٧/٢١م توجّه إلى قبر صلاح الدين الأيوبي ووقف أمامه قائلاً: [ها قد عدنا يا صلاح الدين]. وما قاله اللنبي أو جورو ما هو إلا تعبير عن الموقف السياسي والثقافي الأوروبي في ذلك الوقت، فنشرت الصحف البريطانية صور اللنبي وكتبت تحتها العبارة التي قالها، وهَنَّأَ لويد جورج وزيرُ

---
(١) عاشور، سعيد، الحركة الصليبية، ٢٦/١.

الخارجية البريطانية في ذلك الوقت الجنرالَ اللنبي في البرلمان البريطاني لإحرازه النصر في آخر حملةٍ صليبيةٍ من الحروب الصليبة التي سمّاها لويد جورج الحملة الصليبية الثامنة.

لم تنته الحروب الصليبية، ولا زالت المدارس في بريطانيا والولايات المتّحدة تجمّلُ صورتها القبيحة الدموية في أعين تلاميذ المدارس الصّغار، لينشأوا على الإعجاب بالفرسان الصليبيين البواسل ويحبُّوهم ويتمنّوا عودة أيّامهم. نحن لم ندرس في هذين البلدين الكبيرين، ولم نطّلع على مضمون مناهجها، ولكننا ننقل في هذا المجال شهادات اثنين من أشهر الكتّاب في تاريخ البلدين، أمّا الشهادة الأولى فهي ما ذكرته الكاتبة البريطانية كارين آرمسترونج، وهي راهبة كاثوليكية سابقة، في مقدّمة كتابها عن الحرب المقدّسة:[(١)]. "جرت العادة، عندنا في إنكلترا، أن نتعرّف على العصور الوسطى عندما نكون بعد أطفالاً صغاراً، وتبدو لنا تلك العصور كما لو كانت زمناً موغلاً في السِّحر. فهم يُطلعوننا على اللحظات الكبرى في تاريخنا ... فنتعلّمُ أنَّ تلك الأزمنة كانت عصراً عظيماً من الإيمان الدّيني ... وكل ذلك يتراءى فاتناً ساحراً إلى حدٍّ ما، وأبعد ما يكون في روحه عن عصرنا الحاضر، حتى لتبدوَ الأحداثُ والوقائع مُحاطةً بهالةٍ من الأسطورة ذلك هو الزمن الذي نسمع فيه أولَ ما نسمعُ عن الحملات الصليبية، وهو يبدو لنا سحرياً وشاعرياً إلى حدٍّ غير عمليٍ بتاتاً، مثله مثل سائر أجزاء الحقبة المذكورة: فلمدةٍ تربو على مئتي سنة، جعل الصليبيون البواسلُ يخيطون صلباناً حُمراً على أرديتهم ويسيرون إلى أورشليم لإنقاذ قبر السيد المسيح من الأوغاد [قومٌ يعرفون فيما يُشبه الغموض بـ "الكفّار" أو السراسنة][(٢)].

وأمّا الشهادة الثانية، فهي ما ذكره الكاتب الأمريكي بول فندلي،وهو عضو مجلس شيوخ أمريكي سابق، في مقدمة كتابه لاسكوت بعد اليوم "قالت لنا معلمتنا، وهي متطوعةٌ عطوفةٌ عمِلتْ بإخلاصٍ سنواتٍ طويلةً: إنَّ شعباً أميّاً وبدائيّاً وميّالاً إلى العنف يعيشُ في مناطق صحراوية في الأراضي المقدسة، ويعبدُ "إلهاً غريباً". وما زلتُ أذكرُ، من طفولتي المبكّرة، أنها كانت تسمّيهم "محمّديين"؛ وتواظبُ على تكرار قولها: "إنهم ليسوا مثلنا". وكُنّا، أثناء حديثها، نلهو في صندوق رملٍ كبيرٍ، نغرس في مواقع مختلفةٍ منه، أشكالاً مصغّرةً لأشجار النخيل والجِمال والخِيَم والبدو. لقد انغرزت تعليقاتها في ذاكرتي. وبقيت معظم حياتي أحمل

---

(١) انظر آرمسترونج، الحرب المقدسة [م. س]، بتصرف المقدمة ص ١٣.

(٢) علّقت الكاتبة على استعمالها لكلمة (السراسنة) بقولها "السراسنة" بدلاً من كلمة "عرب" أو "مسلمين" حفاظاً على ما تعنيه لدى الغربيين؛ ولأن تعريبها بكلمة "مسلمين" (أو عرب) لا يؤدي معناها الحقيقي النفسي لديهم، بما كانت تثيره في نفوسهم من مشاعر النفور والفزع.

صورة عن المحمّديين كأناسٍ غرباء جهلةٍ، ويضمرون الأذى للآخرين. كانت معلّمتي، مثلها مثل العديد من الأميركيين اليوم، تكرّر ببراءةٍ، الأضاليلَ التي اكتسبَتْها من أُناسٍ آخرين يفتقرون إلى المعرفة الوافية. فقد كانت تردّدُ في صفّنا ما كانتَ تعتقد أنه الحقيقة، بما في ذلك التسمية المغلوطة "المحمديون". لا أظنّها تَعَمَّدَتْ تقديم معلوماتٍ مضلّلةٍ، أو الافتراءَ على الإسلام. كانت، بكل بساطةٍ، تفتقر إلى الحقائق، شأنها شأن المعلّمات الأخريات والقس الذي ترأس أبرشيتنا ... وحتى الترتيلة المفضّلة "إلى الفرسان في الأيام الخوالي"، أدامت الصور المزيفة. وما زلت أذكر، بعدَ سبعينَ عاماً، أنها تقع في الصفحة ٢١٩ من كتاب التراتيل، كما أذكر لحنها وكلماتها، فقد كانت المراسم الافتتاحية تتضمّن، على الدوام، إنشاداً جماعياً. وكنا ننشد الترتيلة ٢١٩ بحماسٍ، إذ كانت أنشودةً مرحةً تحتفي بالصليبيين المسيحيين في الأراضي المقدّسة: "إلى الفرسان في الأيام الخوالي الذين يحرسون المرتفعات الجبلية، جاء طيف الكأس المقدّسة، وصوت عبر الليل المنتظر منادياً: اتّبعوا، اتّبعوا الضوء، الرايات المرفوعة في العالم أجمع؛ اتّبعوا، اتّبعوا، وميض كأس القربان، إنه الكأس المقدسة ... تنقلُ هذه الترتيلة نظرةً مشوّهةً إلى الإسلام، ما زال يقبلها كنظرةٍ تتّسِمُ بالدقّة، العديدُ من المسيحيين، وربّما غالبيتهم، فكلماتُها التي تصوّر الفرسان أبطالاً، لا تلمّح إلى إقدامهم، في الواقع، على ذبح آلاف المسلمين الأبرياء، واستمتاعهم بارتكاب المجزرة. لقد تجاهل الصليبيون، الذين سمّوا أنفسهم مسيحيين، التزامَ دينهم التسامحَ والرحمةَ والعدل. وسلكوا، بدلاً من ذلك، سلوك المتوحشين التوّاقين إلى الانتقام، والمتعطّشين للدماء"[1]...

إن كانت هذه كلمات وتعليقات المسيحيين أنفسهم فماذا عسانا نحن أن نقول؟؟؟

إنّ المرحلة الابتدائية في الدراسة هي مرحلة التأسيس في التعلّم والتحصيل العلمّي، لا بل هي مرحلةُ الحفر والنّقش على الحجر ... لبئسَ النقشُ وبئس الحجر. لقد لخّصت الكلماتُ السابقة كلَّ ما سَبقَ ذِكرهُ من صناعة الكنيسة الغربية لصورةٍ مزيَّفةٍ مقصودةٍ عن الإسلام. لم تَمُتْ هذه الصورةُ، كما أسلفنا، ولم تنتهِ بل على العكس لقد عاشت ونمت وتطوّرت واستفادت من وسائل الإعلام والاتصال المعاصر حتى وصلت إلى أعماق الضمير المسيحي الغربّي المعاصر، في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية. من المؤسف فعلاً أن نسجّل هنا أنّه وبالرغم من الفشل المرير الذي مُنيت به الحركة الصليبية فإن المثال الصليبي تحوّلَ بمرور الوقت، تحت تأثير وسائل الإعلام إلى مثالٍ برّاقٍ يوحي بالشجاعة والتضحية بالنفس في سبيل المثل

---

[1] فندلي، بول، لاسكوت بعد اليوم مواجهة الصور المزيفة عن الإسلام في اميركا، ترجمة تحسين خياط، ص ٣٥، ٣٦ بتصرف واختصار، ط١، ٢٠٠٢، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر بيروت، لبنان.

الأعلى. واستقرَّ في الوجدان الشعبي الأوروبي أنَّ (الحملة الصليبية) لابدَّ من أن تكون بالضرورة حملةً خيرةً، نبيلةَ القصد والهدف، منزَّهةً عن الغرض مثل: رعاية المرضى، ومساعدة المنكوبين، أو جمع التبرعات ... وما إلى ذلك من أهداف. وربما يكون الموروث الشعبيّ الأوروبي المتداوَلُ حول الحروب الصليبية الذي حملته الأغنيات الشعبية الأوروبية وغيرها من عناصر هذا الموروث وراء تلك الصورة الأخّاذة التي ترتسم في أذهان الناس عامةً في أوروبا حين ترنُّ في آذانهم عبارة (الحملة الصليبية). إذ أنَّ الأغنيات والحكايات الشعبية الأوروبية عن الحروب الصليبية تخلّت عن الحقيقة التاريخية لصالح القراءة الشعبية لتاريخ تلك الظاهرة التي كانت في حينها تجسيداً لأحلام الفقراء والمعدمين من أبناء الغرب الأوروبي.

وربما يكون الحادث الوحيد الذي يتذكَّرهُ خِرِّيجُ الجامعة العادي في أوروبا من حوادث تاريخ العصور الوسطى هو الحروب الصليبية التي يتصوَّرُها في صورة فرسانٍ بواسل على جيادهم الفارهة، وقد فارقوا الأهل والوطن تحت راية الصليب ليطاردوا العرب ذوي البشرات الداكنة الذين يفرون أمامهم في جبنٍ وتخاذلٍ.

وعلى الرّغم من أنَّ هذه الصورة غيرُ صحيحةٍ جملةً وتفصيلاً، فإنّ الكثيرين من السياسيين ورجال الدّين المتنفّذين وقادة الرأي في أوروبا لا يعرفون غيرها؛ ولذلك فإن كثيراً من رجال السياسة والدِّين والقلم في الغرب يستخدمون مصطلح العصور الوسطى ومصطلح (الحملة الصليبية) بهذا المعنى الخيِّر والنبيل.

مات أوربان الثاني ولم تتوقف الحملات الصليبية بعده، ولكنّها أخذت تُعبِّر عن نفسها في قوالب جديدةٍ. ولم تتوقّف الكنيسة الكاثوليكيّة يوماً عن رصد الإسلام وانتشاره، ولم تتوقّف عن التخطيط لكيفيّة مواجهته واحتوائه؛ فهو كان ولا يزال في نظرها، الخطر العظيم القادم من الشرّق، وهو الخطرُ الذي ما فتئ يمثّلُ التحّدي الحضاريّ والعقديّ الأكبر للغرب، منذ بداية انتشاره في القارّة الأوروبيّة، حتى أنّ الخوف والقلق (المجبول بالجهل والكراهية طبعاً) أوصلَ هذه الكنيسة وبابواتها لإصدار أوامر إجباريّة التنفيذ بحقّ رعاياها، تمنعهم من كلِّ أنواع التعامل مع المسلمين، ومن ذلك التعليمات التي أصدرها مجمع لاتيران في كلٍّ من عام (١١٧٩م) وعام (١٢١٦م). وكانت هذه التعليمات مقصودةً لتحقير كلٍّ من المسلمين واليهود والحطِّ من شأنهم على السّواء "وكانت التعليمات تنصُّ على وجوب اعتزال المسلمين واليهود وتحظر أيَّ اتصالٍ طبيعيٍّ بهم أو تعايشٍ معهم. وتنصُّ على أنّ أيّ مسيحيٍ

يخدم في منزل مسلمٍ أو يهوديٍ يُلقى عليه الحرم الكنسي[1]؛ كما أن أيّ شخصٍ يعتني بأطفالهم أو يتاجر مع مسلمين، أو يحمل بضاعةً إلى بلاد إسلاميةٍ، أو يُسافر على متن سفنهم "القُرصانية"، يُحرَمُ كنسياً وتُصادر ممتلكاته. وحدهم المبشّرون ورجال الإرساليات، الذين كان يُنظَرُ إلى نشاطاتهم بعين الرِّيبة، كان مسموحاً لهم أن يتناولوا الطعام مع مسلمين أو يهود. وأصدر البابا غريغوري التاسع، الذي ارتقى السدّة البابويّة عام ١٢٢٧م، عدة مراسيم حبريّةٍ أضافت بعض التحريمات الجديدة وأعادت العمل بتعليمات لاتيران القديمة. فكان على المسلمين واليهود الذين يقيمون في بلادٍ مسيحيةٍ أن يرتدوا ملابس خاصّةً تميِّزهم بوضوحٍ عن السكّان المسيحيين، وقد كانت هذه طريقةً لعزل العدوّ ووسمه"[2].

وقد رصدت الأستاذة زينب عبد العزيز مواقف سبعةٍ وعشرين من أبرز البابوات من الإسلام في دراسة لها بعنوان (البابوات والإسلام)، وكانت هذه الدراسة الهامّة بمثابة التوثيق لمواقف البابوات وسياساتهم الثابتة التي لا تقبل التغيُّر من الإسلام، وما ذلك إلاّ لأنّها سياسةٌ قائمةٌ على أساسٍ عَقَدّيٍ ملخّصه أن الإسلام ليس ديناً سماوّياً موحىً به، بل هو تلفيقاتٌ وهرطقاتٌ مسيحيةٌ جمعها المهرطِق المزيّف محمدٌ، وصاغها على شكل دينٍ جديدٍ. ويفيدُنا في دراستنا هذه أن نقتطف من دراسة الأستاذة زينب ما يلي[3]:

١. يوحنا العاشر (٩١٤ – ٩٢٨م): كان أولَ من نادى بطرد المسلمين من الحوض الغربي للبحر المتوسط، من جنوب إيطاليا وجنوب غربي فرنسا، وما بينهما من جُزُرٍ كان التجار المسلمون يسيطرون عليها.
٢. إسكندر الثاني (١٠٦١ – ١٠٧٣م): كان أولَ مَن استخدام صكوك الغفران لدفع الأوروبيين لمحاربة المسلمين في إسبانيا، فقام نصارى أوروبا بقيادة رئيس فرسان البابوية بشن حرب على مدينة بربشترو شرق الأندلس (١٠٦٤م) راح ضحيتها أربعون ألفاً من المسلمين.
٣. جريجوار السابع (١٠٧٣ – ١٠٨٥م): يُعَدُّ مؤسس فكرة الحروب الصليبية على المسلمين في الشام ومصر.

[1] يعني الحرمان والعقاب الكنسي.
[2] آرمسترونغ، [م. س]، ص ٤٩٣ بتصرف.
[3] عبد العزيز، زينب، البابوات والإسلام، دراسة منشورة بتاريخ ٢٠٠٩/١/٢ على موقعها الإلكتروني www.dr-z-abdelaziz.com.

٤. أوربان الثاني (١٠٨٨ – ١٠٩٩م): وضع الحملة الصليبية الأولى موضع التنفيذ في مجمع كليرمونت عام ١٠٩٥ بزعم أن "الرب يريدها"، وأطلق على المشاركين فيها اسم "جنود المسيح"، وطالبهم بحياكة صليبٍ على ثيابهم ورسمه على كل مُعدّاتهم. ولأول مرةٍ في التاريخ، تُعلن حربٌ صليبية بآسم المسيح. كما قدّم الحماية والمغفرة لكل من يساهم فيها، وأطلق على خط سيرها عبارة "الطريق إلى الرب".

٥. كالكست الثاني (١١١٩ – ١١٢٤م): أنشأ جماعة فرسان المعبد وكانوا من أشدهم تعصباً ضد المسلمين، وتم وضعهم تحت الإشراف المباشر لبابا روما الذي أغدق عليهم الإقطاعات والامتيازات ليتفرّغوا لمحاربة المسلمين.

٦. جريجوار الثامن (١١٨٧/١٠/٢١ – ١١٨٧/١٢/١٧م): على الرغم من عدم بقائه إلاّ شهرين في منصب البابوية، إلا أنه سعى لإشعال الحرب الصليبية الثالثة على المسلمين وناشد حكَّام أوروبا وفرض عليهم ضريبة ١٠% على دُخُولهم عُرف بآسم "ضريبة صلاح الدين".

٧. إينوسنت الثالث (١١٩٨ – ١٢١٦م): يُعَدُّ أكثرَ البابوات محاربةً للمسلمين وشناً للحملات ضدّهم، وقام بتحويل الهجوم من الشام إلى مصر، ونجح في شن الحملة الرابعة.

٨. جريجوار التاسع (١٢٢٧ – ١٢٤١م): كان من أكثر البابوات عداوةً ضدَّ المسلمين، وأصدر مرسوماً لحرمان الإمبراطور فريديك الثاني لتردُّده في المشاركة في الحملة الصليبية، وأجبره على الإشتراك في الحملة السادسة، واستطاع فريدريك أن يستولي على بيت المقدس بالتفاوض مع محمد الأيوبي ملك مصر، بلا أيِّ معركةٍ حربيّةٍ فما كان من جريجوار التاسع إلاّ أن حرمه وأطلق عليه لقب الزنديق الأكبر، وهو يوبخه قائلاً: "إنَّ الملوك الصليبيين يذهبون لسفك دماء المسلمين وليس للتفاوض معهم"! وبعدها أبادت البابوية أسرة فريدريك الثاني.

٩. إينوسنت الرابع (١٢٤٣ – ١٢٥٤م): كان أولَ بابا يفكِّرُ في تشكيل حلفٍ مسيحيٍ وثنيٍّ ضد العالم الإسلامي، لمحاربة المسلمين وإبادتهم تماماً. لكنّ تلك الحملة فشلت ثم دعا إلى حملةٍ أخرى بقيادة لويس التاسع (١٢٤٩م) وأضفى عليه لقب قدّيس.

١٠. بونيفاس التاسع (١٣٩٨ – ١٤٠٤م): قام بتكوين حلفٍ ضمَّ فيه كلَّ الأوروبيين الكاثوليك والأرثوذكس، وكان أكبرَ حلفٍ في القرن الرابع عشر، في تاريخ صراع الكنيسة ضد المسلمين (١٣٩٦م) ... ولأول مرةٍ يحارب الكاثوليك جنباً إلى جنب مع الأرثوذكس ضد المسلمين. وانتصر بايزيد على هذا الحلف في معركة نيكوبولس.

١١. جريجوار الخامس عشر (١٦٢١ – ١٦٢٣م): أسَّسَ لجنة عقيدة الإيمان محاكم التفتيش الدينية، وأنشأ منظمة اليسوعيين وفرض الكاثوليكية على أوروبا وزايد على محاصرة الإسلام.

كانت تلك شواهد قليلةً على ما تحمله المؤسّسةُ البابوية لهذا الدّين منذ أزمانٍ متطاولةٍ غابرةٍ. وقد بقيت هذه المواقفُ البابويّة تجاه الإسلام قائمةً على الأسس القديمة نفسها، دون أن تتغيّر قيدَ أُنملةٍ ... بدأت مهاجمةُ كبار البابوات والقدّيسين والرّهبان للإسلام بالكلمة ثم تحوّلت إلى السّيف والسلاح ... ودارت الأيام وعادت الكلمةُ من جديد. لم تنقطع آثار البابوات السابقين بموتهم، بل استمّر الكثيرُ منها حتى يومنا هذا، فها هي منظمة (رابطة الرهبان لتنصير الشّعوب) التي أسّسها البابا بيوس بين عامي ١٥٦٦ – ١٥٧٢ والتي انبثقت عن رابطة الرُّهبان، لا زالت تحاول نشر المعتقدات المسيحية في العالم وتعملُ بجيشٍ من الأشخاص والرهبان يزيدُ تعداده عن المليون شخص للحدِّ من انتشار الإسلام في العالم. وهذه الرابطة هي المؤسسة الأبرز في العالم التي تتصدى بفاعليةٍ للصراع بين الديانة المسيحية والإسلامية، فهي لا تبحث العلاقة بين المسلمين والمسيحيين باعتبارها مؤسّسةً ثقافيةً أو بحثيةً، بل تعمل بصورةٍ عمليةٍ بجيشٍ يضمُّ أكثر من مليون شخصٍ للحدِّ من انتشار الإسلام في العالم، وعلى تشويه صورة النبي محمد ﷺ، ونعته بأبشع الصفات، وتسعى أيضاً لإعادة البشر في كل أنحاء العالم للمسيحية. "وهذا الصراع لا يخلو دون شكٍ من العنصر العسكري، فالكاردينال "كريشينسيو زيبه" رئيس هؤلاء المبشّرين الفاعلين يُسّمي العاملين معه بـ "قوّاتي"، وذلك ليس من قبيل الصدفة، كما أن العدد عنصرٌ مهمٌ في هذه الحرب حول العقيدة على مستوى العالم. ورابطة الرهبان لتنصير العالم موجودة وحدها في ٤٠% من العالم المسيحي، ومُعترَفٌ بها من ١٠٨١ أسقفيةٍ من ضمنها المُسمّاة "مناطق الصمت" وهي كل مناطق العالم التي تُحظرُ فيها الكنيسة الكاثوليكية واقعيا كما في الصين والسعودية وفيتنام واليمن وكمبوديا. ورابطة الرهبان تضم جيشاً قوامه ٨٥ ألف قسيس و٤٥٠ ألف جمعيةٍ دينيةٍ، وقدمت الرابطة أكثرَ من مليون مدرس تعليم مسيحي وتخرجوا في القسم المحارِب للرابطة وهم يجوبون كلَّ مكانٍ في العالم من قريةٍ لقريةٍ، ومن مدينةٍ لمدينةٍ لإقناع المتردّدين في الإيمان بالعقيدة المسيحية. أما عن تمويل هذا الجهاز العملاق فمن الصعب تقديره، فالكاردينال الحالي "زيبه" يرفض ذكر الرقم الصحيح ولكنه يقول [إننا نحتاج الكثير جداً من المال] ولأنه لا توجد شركاتٌ مساهمةٌ في الفاتيكان، فدولةُ الكنيسة ليست مُلزَمةً بنشر الميزانيات فهي تُقَدِّرُ فقط ما يتكلّفه جهاز الرابطة. والرقم الوحيد المؤَكَّدُ يظهر في يوم الإرسالية في يوم الأحد قبل الأخير

من شهر أكتوبر حيث تصل تكلفتها عالمياً إلى حوالي ٢٠٠ مليون دولار لعمل "زيبه"، ويُسمَحُ للنفقات أن يصل إجمالها إلى ما يزيد على ٥٠٠ مليون دولار. وذلك من أجل أن تسعى الرابطة لنشر العقيدة المسيحية حول العالم ولمواجهة الديانات العدوانية"[1].

ويكفينا في نهاية إيرادنا لأبرز عناصر هذه المقالة التي أثارت عاصفةً من الاحتجاج على عمل (رابطة الرّهبان) في العالم الإسلامي، يكفينا الإشارة إلى العبارة الأخيرة في هذه المقالة والتي تدلُّ وبكلٍّ وضوحٍ على أن الفاتيكان ينفقُ الملايين من الدّولارات على مؤسسةٍ واحدةٍ فقط وذلك لقيامها بواجبين، الأول: هو نشر العقيدة المسيحية حول العالم، والثاني: مواجهة الديانات العدوانية، والمقصود بهذه الديانات العدوانية هو الإسلام. كلُّ هذه الملايين ينفقها الفاتيكان سنوياً على واحدةٍ من مؤسّساته لتحارب ديانة الإسلام (العدوانية!!). قال تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ﴾[2].

[1] انظر ترجمة مقالة (مليون ضدّ محمد، الفاتيكان تسعى لوقف انتشار الإسلام حول العالم، منظمة معروفة ... بالكاد تُسهم بربع التكلفة) التي نشرتها صحيفة فليت إم زونتاج / الألمانية بتاريخ ٢٠٠٤/١/٣٠. منشورة على موقع www.islamdaily.net.

[2] سورة الأنفال، الآية ٣٦.

المبحث التاسع
دعوات كاثوليكية للحوار مع المسلمين

يُرجع سوذرن بواكير المؤتمرات التي انعقدت، وكان الإسلام والمسيحية الغربيّة أطرافاً فيها وأركاناً، إلى "المؤتمر الذي عُقد في الثلاثين من شهر أيّار عام ١٢٥٤ للميلاد. وقد انعقد هذا المؤتمر في مدينة "قراقورم" على الحدود المنغولية ـ السوفياتية"[١]. وقد وصف سوذرن هذا المؤتمر بأنّه أولُ مناظرةٍ عالميةٍ مفتوحةٍ بين الشرق والغرب في التاريخ. وكان سبب انعقاده إرسال البابا إينوسنت الرابع للراهب الفرانشيسكاني "فلهلم فون روبرك" إلى منغوليا آملاً في أن يُساعد المغولُ أوروبا في حربها ضدّ المسلمين. "حيث نظَّمَ "الخانُ الأكبر" هناك المناظرة التاريخيّة الضّخمة بين أهل الأديان، اشتركت فيها فئاتٌ أربع هي المسيحيّة اللاتينية (الكاثوليكية) والمسيحية الشرقية التي مثّلها بعضُ الآباء النساطرة والرهبان البوذيّون وبعض العلماء المسلمين"[٢]. عُقدتْ هذه المناظرة (أو المؤتمر كما أسماه سوذرن) في التاريخ المذكور واستمرَّت يوماً كاملاً. لسنا في معرض الخوض في تفاصيل هذه المناظرة لكننا نؤكِّدُ على أن سوذرن وصف المناظرة بأنّها انتهت بفوزٍ مشتركٍ للمسيحيين والمسلمين على البوذيين، وأنهم أقبلوا في الختام على الاحتفال بهذا النصر، وذلك بعد أن اتخذ المسيحيون الغربيون والشرقيون موقفاً موحّداً حيال الكثير من المواضيع التي تّمت مناقشتها في مواجهة البوذيين. وركَّز على رفض المسلمين للجدل مع النّساطرة بقولهم [إننا نؤمنُ بالتوراة والإنجيل ولا نريدُ التخاصم معكم][٣]، ومن ثمّ تأكيدهم على أنّ التصّور الإسلامي للموت وما بعده لا يختلفُ عن التصّور المسيحي ... مع تأكيده قبل ذلك على أنّ "فلهلم فون روبرك" كان يرى إتفاقاً بين المسلمين والمسيحيين، في القضايا الأساسية المتّصلة بطبيعة الله تعالى ووحدانيته، وأنّ النقاشات الحادّة حول طبيعة الألوهية والآراء المختلفة في الله أدّت إلى نشوء جبهةٍ واحدةٍ من اللاتين والنّساطرة والمسلمين في مواجهة البوذيين. وبالرغم مِن تشكيك سوذرن في أمانة ومصداقية التقرير الذي كتبه هذا الراهب "فلهلم" والذي رفعه إلى البابا إينوسنت إلاّ أنّه يؤكّدُ على تفوق المسيحيين الغربيين (اللاتين) في آداب البحث والمناظرة، رادّاً ذلك إلى الإعداد المنطقي الطويل الذي تابعته مدارس الغرب لأكثر من قرنٍ من الزمان، ويؤكدُ على أنّه "في

---

[١] سوذرن، [م. س]، ص ٩٠.
[٢] المرجع السابق، ص ٩١.
[٣] المرجع السابق، ص ٩٣.

حين كان "فلهلم" يعرفُ طرق الجدال في المسائل اللاهويتية، لم يكن خصومُه يعرفون ذلك..."[1].

إننا وبالرغم من تشكيكنا في وجود هذه المناظرة وانعقادها أصلاً، وذلك بسبب عدم ذكر "فلهلم" لأيٍّ من أسماء العلماء المسلمين الذي اشتركوا في هذه المناظرة، إلاّ أننا نُسَرُّ لوجود أدبيات الحوار والمناظرة مع المسلمين في كتب المسيحية الغربية، خصوصاً إذا ما تذكرنا أنّ ذلك كلّه كان يتمّ في فترة الحروب الصليبية، حيث تؤكد هذه الأدبيات على أنّه لا يزال هناك مجالٌ للجلوس والتحاور والتفاهم، رغم كلِّ الظروف التي كانت تحيط بالناس في الشرق والغرب...

ومن المفيد جداً في ذكرنا للجلوس والتحاور المسيحي اللاتيني مع الإسلام في العصور الوسطى، أن نقف عند محاولةٍ جادّةٍ من هذه المحاولات مهَّدَ لها صاحبُها وواضعها بالقول: إنّها مساهمةٌ حقيقيةٌ في حلّ "القضيّة الإسلامية"، وهو يقصدُ بذلك الحديث عن إنهاء وحلِّ الصراع المسيحي الإسلامي السائد آنذاك حّلاً سلمياً بالتفاوض والتحاور، وليس بالسلاح والحرب التي كانت كفّتها تميلُ لصالح المسلمين آنذاك؛ تلك هي دعوة "يوحنّا السيغوفي" لحلِّ المعُضلة والمشكلة الإسلامية بالوسائل السلميّة، حلاًّ فاصلاً يمكِّنُ الأوروبيين من الاتصال بالمسلمين بطرائق جديدةٍ كلّها تؤدي إلى عقد اجتماع أو "مؤتمر عام". وهي محاولةٌ، كما يراها صاحُبها، تبقى مهمّةً وتستحقُ التجربة حتّى وإن لم تَقُدْ إلى النجاح المطلوب المتمثّل في هداية المسلمين. "وقد انصرف يوحنا بطريقته المسهبة البلاغية لشرح فوائد المؤتمر مع المسلمين حتى في حالة الفشل؛ فذكر ثلاثين وجهاً إيجابياً لذلك! والحق أنّ هذا كان جديداً كله. فالرأي التقليدي السائد أنَّ مسوِّغ النقاش مع الكُفّار هو هدايتُهم فقط. أما يوحنا فلاحظ في نقاش المؤتمر فوائد أخرى جانبيةً ذات طابعٍ جزئيٍّ وعمليٍّ. إنّ المؤتمر هو أداةٌ سياسيةٌ ودينيةٌ في الوقت نفسه. وحتى لو استمرّ عشر سنواتٍ كاملة؛ فإنّ تكاليفه وآثاره ـ على حدّ قوله ـ لا تُقارَنُ بالتكاليف المُرعبة، والآثار السلبية الفظيعة لحربٍ لا تُبقي ولا تَذَر"[2].

وتأكيداً من "يوحنا السيغوفي" على المضي قدماً في الإعداد لفكرة هذا المؤتمر، فقد بعث مجموعةً من الرسائل إلى معاصريه من كبار الرهبان والعلماء اللاهوتيين المسيحيين

[1] المرجع السابق، ص ٩٤، بتصرف.

[2] المرجع السابق، ص ١٣٧.

الغربيين، وأبرزهما إثنان؛ الأول هو "الراهب نيكولاوس فون كيس" الضليع في الفلسفة الأفلاطونية صاحب المحاورات الهامة مع الهوسيين والإغريق، والذي كان قد كتب قبل وصول رسالة يوحنا السيغوفي إليه رسالةً تتضّمنُ حواراً مُفترَضاً بين أديان العالم، حاول من خلالها استخراج كل ما هو أساسيّ وجيّد في هذه الأديان، في مسعىً ومحاولةٍ منه لتوحيدها إيماناً وأخلاقاً. "وقد تلقى نيكولاوس مقترحات يوحنا برحابة صدرٍ وروحٍ عمليةٍ، وفكرّ في طرقٍ لتنفيذها. وهكذا اقترح، إعداداً للمؤتمر الإسلامي المسيحي، جَمْعَ تجارٍ من القاهرة والإسكندرية وأرمينية واليونان لشرح العقيدة الإسلامية والسّلوك الإسلامي. ثم إنَّ ما يتجمّعُ من معلوماتٍ ينبغي وضْعُهُ في تصرف رجالٍ أوروبيين مسيحيين، يفضِّل نيكولاوس أن يكونوا من الأمراء والنبلاء وليس من رجال الكنيسة؛ لأنّ هذا هو ما يفضِّله المسلمون. وبعد هذا الإعداد الجيّد على هؤلاء أن يزوروا السلاطين والأمراء المسلمين في ديارهم كمرحلةٍ أولى لشرح أهدافهم من المؤتمر ودعوتهم للمشاركة فيه"[١].

أمّا الراهب الآخر الذي بعث إليه يوحنا السيّغوفي برسالةٍ يدعوه فيها للمشاركة في الإعداد "للمؤتمر العام" فهو الراهب "جان جيرمان". وقد كان جان جيرمان مطران مدينة شالون ورئيس جمعية رهبان القديس "فليس"، أكثرَ الذين أُرسلتْ إليهم الرسائل تشكُّكاً في جدوى مقترحات يوحنا. كتبَ يوحنا إلى جان جيرمان مشدِّداً على أهمية الحوار مع المسلمين، وإن لم يحقق ذلك الهداية المطلوبة لأول وهلةٍ. "ونعى على الكنيسة والأمراء عدمَ اهتمامهم بالقضيّة الإسلامية، وقد وافقه "جان جيرمان" في إنكاره لإهمال أوروبا لخطر الإسلام، لكنه كان رجلاً قد وضع منذ البداية نصب عينيه هدفاً مختلفاً مع هدف "يوحنا السيغوفي"، حيث كان يرى أنَّ العلاجَ الوحيد الممكن للخطر الإسلاميّ هو في العودة لفضائل الكفاح والفروسية الأوروبية التي ردّدتها الملاحمُ مطالعَ العصور الوسطى، وكانت وراء الروح الصليبية التي غزت الشرق"[٢].

وقد أجاب "جان جيرمان" على دعوة "يوحنا السيغوفي" بأنه لم يتسنَّ له، بسبب احتفالات عيد الميلاد، أن يقرأ كلَّ ما أرسله إليه. ورغم أنه شجّعه على متابعة بحوثه ودعوته؛ فقد قال له: [إنه لا ينبغي تجاهُلُ القضية الملحّة والمتمثّلة في استمرار زحف الترك باتجاه أوروبا

(1) المرجع السابق، ص ١٣٨.
(2) المرجع السابق، ص ١٤٠.

الغربية؛ وسيبقى القلقُ سائداً حتى تُوجدَ الجهةُ التي تستطيع مقاومتهم وصدّهم][1]. ثم أتبع رسالته هذه برسالةٍ أخرى أوضح فيها خطَّته لحربٍ مقدسةٍ جديدة كان ملخّصها: "إنّ الحرب ضد الإسلام قد صارت مقدَّسةً منذ أصدر الباباوات السابقون عدة قراراتٍ بشأنها، ومنذ شارك فيها ملوكٌ وأمراءُ كثيرون صالحون. إنّ الكنيسة الرومانية الكاثوليكية منحت المقاتلين المشاركين في ضرب الإسلام امتيازاتٍ وحقوقاً استمدتها من سلطتها الكنسيّة الدينية"[2].

ومما هو واضحٌ أنّ "جان جيرمان" هذا، كان يرى الحرب الوسيلة الوحيدة للتعامل مع المسلمين، والحدّ من الإسلام ومواجهته. وكان يرى في اتجاه "يوحنا السيغوفي" للحوار مع المسلمين (كوسيلةٍ للمواجهة طبعاً) إساءةً لروح الكفاح الصليبيّة. كان "جان جيرمان" يرى أنّ المسوِّغ الوحيد للحوار والنقاش مع الكفّار (المسلمين) هو هدايتهم فقط. وبما أنّ حظوظ ذلك النجاح كانت ضيئلةً جدّاً فلا داعي إذاً ولا حاجة لمناقشة (فوائد الفشل). كان هذا الراهب يتمتّعُ بروحٍ صليبيّةٍ عميقةٍ ويرى أنَّ بعث روح الحماسة والفروسية هي وحدها الوسيلة الناجعة والناجحة لمواجهة الإسلام ...

يُستفادُ مما سبق أنّ هنالك محاولاتٍ جادّةً وُجدت لدى الكاثوليك للحوار مع المسلمين، وبالرغم من تصريح الرهبان القائمين على تلك المحاولات، بأنّ هدفها كان مواجهة الإسلام مواجهةً سلميةً عقائديةً فكريّةً ... فإنّ تلك المحاولات كلَّها انتهت بالفشل؛ حيث تُوفِّيَ "يوحنا السيغوفي" وفكرته لازالت وليدةً ضعيفةً سرعان ما ماتت بموته، وانتهت الحوارات السابقة كلُّها إلى الإخفاق. "صحيحٌ أنّه استمرَّ بينهم جدلٌ ونقاشٌ عنيفان، لكنّهم جميعاً لم يصلوا إلى مواجهةٍ فكريةٍ حقيقيةٍ مع الإسلام ولم تكن مشاريعهم المقترحةُ لحلّ القضيّة الإسلامية تملكُ مستقبلاً"[3].

شهدت حقبة الستّينات من القرن العشرين قفزةً نوعيّةً عاليةً في مجال الحوار مع المسلمين، والمُلفتُ في هذا الشأن، هو أنّ هذا الحوار إنّما تمّ بإشرافٍ مباشرٍ من الفاتيكان وبدعوةٍ منه. وقد تجلّى ذلك في فترة انعقاد مجمع الفاتيكان الثاني (أو المجلس العالمي الحادي والعشرين للكنيسة الرومانية الكاثوليكية). "وقد دعا إلى عقده البابا يوحنا الثالث والعشرون،

---

(1) المرجع السابق، ص ١٤٢.
(2) المرجع السابق، ص ١٤٢، ١٤٣ بتصرف.
(3) المرجع السابق، ص ١٤٩، بتصرف.

في الخامس والعشرين من شهر كانون الثاني عام ١٩٥٩م. وانعقد المجمع في الثاني عشر من شهر تشرين الأول عام ١٩٦٢م. وبعد وفاة البابا المذكور في الثالث من تموز عام ١٩٦٣م تابع أعمالَ المجمع بعده البابا بولسُ السادس. وعقد أربع جلسات استمرت حتى كانون الأول من عام ١٩٦٥م. وشارك في اجتماعاته ألفان وخمسمائة عضوٍ، وعددٌ كبير من غير الكاثوليك بصفة مراقبين"[١].

وقد أصدرَ المجمعُ ست عشرة وثيقةً وأربعةَ قوانين وثلاثةَ إعلانات. وكان من أهمها القوانين التي تناولت الطقوس الدينية والوحي والكنيسة ودور الكنيسة في العالم المعاصر.

ولعلّه من المفيد هنا أن نذكر أنّ هذا المجمع (الهامّ) قد استخدم أربعةَ أنواعٍ من الوثائق، وهي تشتملُ على دساتير ومراسيم وإعلاناتٍ ورسائل. فأما الدساتير فهي عَقَدَيةٌ ورعويةٌ أيضاً، وكانت الوثائق هي الأكثرَ سلطويةً وموجّهةً إلى الكنيسة العالمية.وأما المراسيم، فكانت وثائق مبنيّةً على المبادئ الدستورية، وموجّهةً نحو صنفٍ معيّنٍ من الأشخاص. وأما الإعلانات، مثل وثيقة "في عصرنا" (أو في زماننا هذا) Nostra Aetate، فكانت تصريحاتٍ متعلّقةً بالسياسات المتّبعة تُظهر تعاليم الكنيسة. وأمَّا الرسائلُ فكانت عبارةً عن مجرد حث.

والذي يهّمنا ويعنينا في دراستنا هذه، هو الوثائق التي صدرت عن هذا المجمع والمتعلّقة بالإسلام. وتنبعُ أهميّتها من كونها رسميةً صادرةً عن الفاتيكان؛ فلأوَّل مرَّةٍ في تاريخ الكّنيسة ناقش المجتمع الفاتيكاني الثاني مُشكلةَ العلاقة بين الكنيسة والدّيانات غير المسيحيّة؛ حيث خصَّص لهذه المسألة المُهمَّة تصريحاً خاصاً حول "علاقة الكنيسة مع الدّيانات غير المسيحيّة"، "والذي نُوقشت بعض جوانبه، بصورةٍ أو بأُخرى، في عددٍ من الوثائق الصّادرة عن المجمع: "في الدستور العقائدي في الكنيسة"، وفي "الدستور الرّعوي في الكَنيسة وعالم اليوم"، وفي القرارات المجمعيَّة: في "رسالة العلمانيين"، وفي "مهمَّة الأساقفة الرّعويَّة في الكنيسة"، وفي "نشاط الكَنيسة الإرسالي"، وفي البيانات والإعلانات الصّادرة عن المجمع "في الحُرِّيَّة الدِّينيَّة"، و"في التربيَّة المسيحيَّة""[٢]. كما أولى هذا المجمع اهتماماً خاصّاً للإسلام، فللمرَّة الأُولى، مُنذُ أربعة عشر قرناً من وُجُود المسيحيَّة والإسلام، يتحدَّث مجمع مسكوني كَاثُوليكي بصُورةٍ إيجابيَّةٍ عن المُسلمين، مُعترفاً بوَضْعهم الدِّيني المُتميِّز، "ولهذا؛ شَبَّهَتْ المطبوعات

---

[١] موقع الفاتيكان الرسمي www.vatican.va
[٢] جورافسكي، [م. س] ص ١٣٣.

الكاثوليكية التَّغيُّر الحاصل في موقف الكنيسة تجاه الإسلام بـ "الانقلاب الكُوبرنيكي" وهُو تشبيه غير مُبالغ فيه، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار، أنَّ رسالة البابا بيوس الثّاني عشر "Fidei Donum"، الصّادرة في أواخر الخمسينات (١٩٥٧)، رأت في انتشار الإسلام في أفريقيا "خطراً على الكنيسة"، وأنَّ كتاب "تاريخ الإرساليَّات الكَاثوليكيَّة"، المُؤلَّف من أربعة مُجلَّدات، والصّادر في المرحلة نفسها، نَظَرَ إلى نشاط الإسلام وفعَّاليَّته العالميَّة، ككارثةٍ، تضاهي خَطَر الشُّيُوعيَّة"[١].

إنَّ فكرة إصدار وثيقةٍ مُستقلَّةٍ، حول مُشكلة العلاقات بين الكَنيسة (الكَاثُوليكيَّة) والدّيانات غير المسيحيّة، وُلدت أثناء أعمال المجمع الفاتيكاني الثّاني، وبصُورةٍ مفاجئةٍ، حتَّى بالنّسبة لكثيرٍ من أعضائه؛ "ففي المرحلة التّحضيريّة للمجمع (١٩٦٠ – ١٩٦١م)، تحدَّث عدد محدودٌ من المؤتمرين (من أساقفة آسيا وإفريقيا بالدّرجة الأُولى) عن ضرورة إصدار مثل هذه الوثيقة، مع أنَّه كان بين هذا العدد (غير الكبير أصلاً) عدم اتّفاقٍ؛ حيثُ أنَّ بعضهم كان يرى وُجُوب التَّحدُّث عن المسلمين (في الوثيقة المُقترَحَة) برُوحٍ إيجابيَّةٍ، ولكنْ، دُون الوُقُوع في النّسبيَّة الدِّينيَّة المُطَلَقةِ، في حين تمسَّكَ آخرون بوجهة النظر التقليدية، التي ترى في الإسلام بدعةً خطيرةً وتهديداً حقيقيّاً للكنيسة، ومن ثمَّ فقد طالبوا بإدانته دُون تحفُّظٍ، عدا أنَّه لم يجرِ تكليف أيٍّ من لجان العمل المتفرعة عن الهيئة التحضيرية للمجمع بدراسة مثل هذه الوثيقة"[٢].

ولكن في عام ١٩٦٠م، كلَّف البابا يُوحنَّا الثالث والعشرون الكاردينال "بيا" إعداد مُسودة نصٍّ مجمعيٍ "عن اليهود"، يزيل عنهم تُهمة "قتل الله".

وبعد اتصالاتٍ ومداولاتٍ واستشاراتٍ دامت عامين، وضع الكاردينال "بيا" مسودة (مشروع) النص المجمعي في حزيران سنة ١٩٦٢م، التي عُرضت على اللجنة المركزية، لكن هذا المشروع وُضِع جانباً نظراً لما أثاره من احتجاجاتٍ واسعةٍ في البلدان العربية، وبرزت أصداؤها من خلال مُناقشات ومداخلات واعتراضات أساقفةِ هذه البُلدان المشتركين في المجمع "وقد أظهرت المناقشات مقاومةً قويةً من بطريرك أنطاكية للكاثوليك "طبوني" وبطريرك الأقباط الكاثوليك "إسطفانس الأول"، يؤازرهما عددٌ لا بأس به من

---

[1] المرجع السابق، ص ١٣٣.

[2] المرجع السابق، ص ١٣٤.

أساقفة الكاثوليك الشرقيين، الذين أجمعوا على أن التطرق إلى موضوع اليهود ونفي التهمة التاريخية عنهم قد يؤدي إلى الاعتراف بدولة إسرائيل من قِبَلِ الفاتيكان من جهةٍ، وقد يخدم مصلحة اليهود سياسياً في نزاعهم مع العرب من جهةٍ ثانيةٍ. أما بطريرك الروم ـ الكاثوليك مكسيموس الرابع، فقد أشار إلى أنَّ المسودة المقترحة "عن اليهود" يمكن أن تُقَرَّ وتُصْدَرَ فقط في حال إذا كانت الكنيسة ستتحدث عن دياناتٍ أخرى، بما في ذلك عن الإسلام. ورفع الكاردينال" بيا" إلى البابا كتاباً يُلِحُّ فيه على مُناقشة الموضوع نافياً عنه كُلَّ صبغةٍ أو توجهاتٍ سياسيةٍ، ونظراً لما أثاره المشروع من مُناقشاتٍ واعتراضاتٍ، فقد طُرِح على الآباء في دورة المجمع الثانية؛ ليشكِّلَ فصلاً من مرسوم الحركة المسكونية، وقوبل مُجدداً باعتراضاتٍ كثيرةٍ؛ مما أدى إلى رفضه وعزله عن المرسوم في ٢١ تشرين الثاني ١٩٦٣م. وقبل انعقاد الدورة الثالثة من المجمع، كانت اللجنة المختصة قد عمدت إلى إجراء تعديلاتٍ واسعةٍ في النَّص، بحيث حَذفتْ منه عباراتٍ خلافيةً مثل تلك التي تنفي عن اليهود تهمة "قتل الله"[(١)].

غير أنَّ تطوراتٍ مهمةً، جذبت اهتمام المجمع، أخيراً، صوب الإسلام؛ حيث جرت وقائعها في المرحلة بين الدورتين الثانية والثالثة للمجمع، ويأتي في مقدّمتها زيارة البابا بولس السادس إلى منطقة الشرق الأدنى في كانون الثاني من سنة ١٩٦٤، "إذ توجه في خطبه، التي ألقاها في عَمّان والقدس، "بتحيّةٍ أخويةٍ إلى المسلمين"، كما شَدَّدَ في رسالته في السادس من كانون الثاني ١٩٦٤، على احترام الكنيسة المسكونية الخاصة، لأولئك "الذين يعتنقون الأديان التوحيدية، والذين يعبدون معنا إلهاً واحداً وحقيقياً". وفي أيار من العام نفسه، أعلن البابا بولس السادس عن إنشاء أمانة سر (سكرتارية) لشؤون الديانات غير المسيحية، وحدَّدَ مهمَّتها الأساسية في إقامة "حوارٍ مُخلصٍ مع أولئك الذين يؤمنون بالله، ويعبدونه". وفي شهر آب من العام ذاته (١٩٦٤)، وجَّه البابا بولس السادس رسالةً كنسيّةً جامعةً، ركَّزت على ضرورة الحوار مع كل المؤمنين وذوي الإرادة الصّالحة، لإرساء علاقاتٍ جديدةٍ بين الكنيسة والديانات الأخرى القائمة في العالم، وعلى ضرورة التقارب والحوار مع المسلمين بصفةٍ خاصة"[(٢)].

"وكانت اللجنة المختصة قد اتخذت قراراً، قبيل انعقاد الدورة الثالثة من المجمع، بعزل الفصل الرابع عن مرسوم الحركة المسكونية في وثيقةٍ مستقلةٍ، ونشره تحت عنوان "تصريح

---

(١) رستم، سعد، [م. س]، ص ٩٣، ص ٩٤.

2 المرجع السابق نفسه، ص ٩٤.

عن اليهود وغير المسيحيين"، وقراراً آخر بتشكيل لجنةٍ فرعيةٍ حول مسألة الإسلام، كان من بين أعضائها خبراء من "المعهد الدومينيكاني للدراسات والأبحاث الشرقية" في القاهرة، ومن "المعهد البونتيفيكاتي (الآباء البيض / الكاثوليك) للدراسات الشرقية" في تونس، وفي الوقت نفسه، قررت اللجنة المكلَّفةُ بإعداد مشروع الدستور العقائدي "في الكنيسة" أن تضم إلى فصل "شعب الرب" قسماً عن غير المسيحيين؛ حيث يولي هذا القسم اهتماماً خاصاً للمسلمين: "وأولئك الذين لم يأخذوا بالإنجيل بعد، ولكنهم، بدرجةٍ مختلفةٍ أو بصورةٍ أُخرى، ينتمون إلى شعب الرب، وأولهم، ذلك الشعب، الذي منحهم الرب العهود والمواثيق، والذين منهم المسيح، حسب الجسد"[1].

"لأنَّ الخلاص سيشملُ أولئك الذين يعترفون بالخالق، وأوَّلُهم المسلمون الذين يعتقدون أنَّهم يتّبعون ملّة إبراهيم، ويعبدون معنا الإله الواحد الحيَّ القيّوم الرحيم، الذي سيحاسب الناس يوم الدين، الإله الذي خلق العالم وكلَّ ما فيه، الذي يعطي الجميع حياةً ونفساً وكلَّ شيءٍ، لأن المخلِّص يريد أن جميع الناس يُخَلَّصُون، أولئك الذين ليس بذنبهم لا يعرفون إنجيل المسيح وكنيسته، ولكنهم يبحثون بإخلاصٍ عن الربّ، وبتأثير النبل والخير يسعون لأن ينفِّذُوا بأعمالهم إرادته؛ حيث يقودهم إلى ذلك ضميرُهم، وبذلك يمكن أن يحوزوا على الخلاص الأبدي. فالإرادة الإلهيةُ لا ترفض منح المساعدة لأجل الخلاص لأولئك الذين ليس لهم ذنب في عدم بلوغهم المعرفة الواضحة للرب، ولكنهم يتبعون حياةً صحيحةً بعون الرب ذاته، والكنيسة تنظر إلى أن كل ما تمكنوا من بلوغه من خيرٍ وصالحٍ وحقيقيٍّ إن هو إلا تهيئة للإنجيل، وهبة من ذلك الرب، الذي يهدي كل فرد، وبالتالي؛ فإنه يملك الحياة ذاتها في نهاية المطاف"[2].

ومن اللافت للانتباه حقاً، أن المجمع أشار للمرة الأولى إلى المسلمين في إطار معالجته مكانة غير المسيحيين في عقيدة الخلاص، وأشار إلى خلاص المسلمين.

ويهمنا، في النهاية، الوقوف عند النص النهائيّ لتصريح المجمع بشأن دين الإسلام والمسلمين، الذي جاء فيه: "إن الكنيسة تنظر بعين الاعتبار، أيضاً، إلى المسلمين الذين يعبدون الإله الواحد الحيّ القيوم الرحيم القادر على كل شيءٍ، خالق السماء والأرض ومكلِّم البشر، الذين (أي المسلمين) يجتهدون في أن يخضعوا بكلّيّتهم حتى لأوامر الله الخفية، كما

---

(1) المرجع السابق، ص ٩٤، ٩٥، بتصرف.

(2) موقع الفاتيكان الرسمي www.vatican.va

خضع لها إبراهيم، الذي يُسندُ إليه، بطيبة خاطر، الإيمان الإسلامي، وأنهم يجلون يسوعَ كنبيٍّ، وإن لم يعترفوا به كإلهٍ، ويكرمون أُمَّهُ مريم العذراء، كما أنهم بتقوى يتضرعون إليها أحياناً، علاوةً على ذلك؛ فإنهم ينتظرون يوم الدين، عندما يُثيبُ الله كلَّ البشر القائمين من الموت، ويعظِّمون الحياة الأخلاقية أيضاً، ويؤدّون العبادة لله، لا سيما بالصلاة، والزكاة، والصوم. وإذا كانت قد نشأت ـ على مر القرون ـ منازعاتٌ وعداواتٌ كثيرةٌ بين المسيحيين والمسلمين، فالمجمعُ المقدس يحضُّ الجميعَ على أن يتناسوا الماضي، وينصرفوا، بإخلاصٍ، إلى التفاهم المتبادل، ويصونوا، ويعززوا، معاً، العدالة الاجتماعية، والخيور الأخلاقية، والسلام والحرية لفائدة الناس جميعاً"[١].

في ختام ما سبق وتلخيصاً له، فإنّ خلاصة ما ذكره الفاتيكان في مجمعه الثاني من نصوصٍ تتعلّقُ بالإسلام أو بالحوار مع المسلمين يمكن حصرها فيما يلي[٢]:

أولاً: في ٢١ تشرين الثاني من عام ١٩٦٤ نُشرت وثيقةُ المجمع الأولى حول الإسلام بعنوان نور الأمم Lumen Gentium وقد وردَ في الفقرة رقم ١٦ منها ما يأتي:

أخيراً، إنّ أولئك الذين لمّا يقبلوا الإنجيل مرتبطون بطرقٍ مختلفةٍ بشعب الله. ففي المقام الأول يجب علينا أن نتذكر الشعب الذي أُعطيَ له العهد والوعد والذين وُلِدَ منهم المسيح حسبَ الجسد فهذا الشعب يبقى عزيزاً على الله من أجل آبائهم، لأنّ عطايا الله ودعواته هي بلا ندامةٍ، ولكنَّ خطة الخلاص تشمل أيضاً أولئك الذين يعترفون بالخالق ففي الدرجة الأولى بين هؤلاء يأتي المسلمون، الذين يعترفون بأنهم على إيمان إبراهيم، وأنّهم يعبدون معنا الإله الواحد والرحيم، الذي سُيقاضي البشرية في اليوم الأخير.

---

(1) موقع الفاتيكان الرسمي www.vatican.va

(2) انظر:

أ. اللحام، كريم، موقف الكنيسة الكاثوليكية من الإسلام بعد المجمع الفاتيكاني الثاني، ص ٢٦، بتصرف، منشور ضمن سلسلة ورقات طابة، العدد ٢، شهر تموز، ٢٠٠٨. مؤسسة طابة، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة.

ب. هاغمان [م. س]، ص ١٦٥، ١٦٦.

ج. جورافسكي، [م. س]، ص ١٣٨، ١٣٩ بتصرف.

د. موقع الفاتيكان الرسمي www.vatican.va =

= هـ. عبد العزيز، زينب، وثيقة في زماننا هذا وعلاقة الكنيسة بالإسلام، مقالة منشورة على الإنترنت على موقعها الإلكتروني dr.abdelaziz@gmail.com بتاريخ ٢٠٠٨/١٠/٢٧.

و. بسترس، كيرلس سليم، نظرة الكنيسة الكاثوليكية إلى العلاقات المسيحية الإسلامية، بحث منشور ضمن كتاب "العيش المشترك في الإسلام والمسيحية" الصفحات ٤٢-٥١ بتصرف واختصار، ط١، ٢٠٠٢، من منشورات اللجنة الوطنيّة اللبنانية، بيروت.

ثانياً: في الإعلان المجمعيّ الثاني الذي تناول علاقةَ الكنيسة بالديانات غير المسيحيّة المعنون "في عصرنا" [في زماننا هذا] Nostra Aetate، والذي أعلنه البابا بولس السادس في ٢٨ تشرين الأول من عام ١٩٦٥، يبين الإعلان في المقطع رقم ٣ ما يأتي: إن الكنيسة تنظر إلى المسلمين أيضاً بعين التقدير، فهم يعبدون الله الواحد الحي القيوم، الرحيم القدير، خالق السماء والأرض، والذي تكلَّم إلى الناس؛ وهم يجتهدون في خضوعهم لأوامر الله من صميم قلوبهم دون تردّدٍ، تماماً كما كان يخضعُ لله إبراهيمُ الذي يحرص دين الإسلام على الارتباط به. ومع أنهم لا يقرون بيسوع كإله، لكنهم يوقرونه باعتباره نبياً. كما أنهم يكرمون أمه مريم العذراء، وأحياناً يستغيثون بها في تضرعهم. بالإضافة إلى ذلك، فهم ينتظرون يوم الحساب والثواب من الله بعد بعث الأموات. أخيراً، إنهم يقدرون الحياة الأخلاقية ويعبدون الله خاصّةً عن طريق الصلاة والزكاة والصوم. وبما أنه حصلت على مر القرون حالاتٌ ليست بالقليلة من النزاع والقتال بين المسيحيين والمسلمين فإنَّ هذا السينودس [المجمع] المقدّس يحثُّ الجميع على نسيان الماضي والعمل بإخلاصٍ من أجل التفاهم المتبادل وحفظ وتعزيز مصلحة العدالة الاجتماعية والخير الأخلاقي، والسلام والحرية، من أجل جميع البشر.

ثالثاً: في الرسالة التعميمية الأولى للبابا بولس السادس التي صدرت في ٦ آب من عام ١٩٦٤م بعنوان Ecclesiam Suam، عرض البابا على الكنيسة رغبته في الانخراط في حوارٍ مع العالم غير المسيحي، وقد وُصِفَ أطرافُ هذا الحوار على أساس دوائر عدة متّحدةِ المركز، وقد عُبِّرَ عن واحدةٍ منها بأولئك الذي يعبدون الإله الواحد الأعلى الذي نعبده نحن أيضاً. ويشير إلى المسلمين بالطريقة الآتية:

بعدها نلاحظ من حولنا دائرةً أخرى، وهذه بدورها واسعةُ المدى، ومع ذلك فهي أيضاً غيرُ بعيدةٍ عنا. وتضم الدائرة أولاً وقبل كل شيء أولئك الذين يعبدون الإله الواحد الأعلى، الذي نعبده نحن أيضاً، ويمكننا أن نذكر أولاً الشعب اليهودي، الذي ما زال يعتنق ديانة العهد القديم، وهو حقاً أهل لاحترامنا ومحبتنا.

لقد كانت النصوص القليلة السابقة المتعلّقة بالإسلام هامّةً جداً، لأنها، وكما ذكرنا، تعتبرُ وثائق رسميةً صادرةً عن الفاتيكان، تدعو إلى الحوار مع المسلمين والتعايش معهم في جوٍّ من العدالة والسلام ... وقد ثارت ثائرة الكثيرين من المسلمين والمسيحيين على السّواء فيما

يتعلق بهذا المجمع الفاتيكاني وقراراته، أمّا سبب ثورة المسلمين فكانت وبكلٍّ بساطةٍ نابعةً من عدم اعتراف هذا المجمع الفاتيكاني بسماوية الإسلام، بل نظر إليه على أنّه "أمرٌ واقع وموجود"، وكذلك فلم يعترف هذا المجمع بنبوّة سيدنا محمد ﷺ، وسكت عن أي إشارةٍ إلى الاعتراف بصدق نبوّته، ومكانته، مع أنَّ هذه المسألة جرى التعرضُ لها أثناء المناقشات والمداولات؛ حيث اقترح بعض المؤتمرين إدخال تعديلٍ على القسم السادس عشر من مسودة الدستور العقائدي "في الكنيسة" الذي يؤكد أن المسلمين "يعبدون معنا الإله الواحد الرحيم، الذي كلَّم الناس بالأنبياء"، إلاّ أن اللجنة اللاهوتية المختصة ألغت هذه العبارة، نظراً لأنها يمكن أن تؤولُ بشكلٍ مُثيرٍ للإشكال، كأن يفهم منها أن الله "تكلم عبر محمد"، في حين أن "التصريح" الختامي صاغ هذه العبارة بصورة مقتضبة: ".... الذي كلم الناس".

"إنّ قضيَّة الوضع الديني لنبي الإسلام محمد ﷺ، هي واحدةٌ من الإشكاليات المُعَقَّدة في الحوار المعاصر بين المسيحية والإسلام؛ فاللاهوتيون الكاثوليك يعترفون بـ "الدور الإيجابي التاريخي لمحَمَّدٍ" لكنَّهم لم يوفَّقُوا بعدُ إلى عباراتٍ إنشائيةٍ مناسبةٍ لوصف المآثر المحمدية بصيغٍ لاهوتيةٍ عقديةٍ مسيحيةٍ. ويحضرنا في هذا السياق مثال المؤتمر الإسلامي المسيحي الثاني، الذي عقد في آذار ١٩٧٧م (في قرطبة)، وكُرِّسَ لمناقشة موضوع "تبجيل محمد وعيسى في الإسلام والمسيحية"، والذي اشترك فيه أكثر من مائتي لاهوتي وعالم إسلاميات، ولكنَّ مجموعةً من الأقطار العربية رفضت إرسال مندوبين عنها إلى المؤتمر، محتجةً بعدم جدوى أيِّ حوارٍ بين الديانتين، "ما دام أنَّ الكنيسة لن تُغَيِّرَ ـ رسمياً ـ موقفها من النبي محمد ﷺ"[1].

وأمّا سببُ ثورة بعض المسيحيين واعتراضهم على نتائج هذا المجمع ومقرّراته فقد كانت راجعةً، وبالدرجة الأولى، إلى أنّ هذا المجمع قد اتخذ قراراً بتبرئة اليهود من دم المسيح عليه السلام بالرغم من أنَّ نصوصَ العهد الجديد واضحةٌ تماماً في تحميلهم المسؤولية عن ذلك، والآيات ٢٢ – ٢٦ في الإصحاح السابع والعشرين من إنجيل متى تروي حكاية الصلب وتسليم اليهود للمسيح ليُصلبَ كاملةً بأدقّ تفاصيلها، والتي كان نهايتها تطوّع جموع اليهود لتحمُّلِ المسؤولية عن صلب المسيح بقولهم [ليكن دمُه علينا وعلى أولادنا][2]. لقد ثارت ثائرة الكثيرين من المسيحيين في الشرق والغرب على قرار هذا المجمع بتبرئة اليهود من هذه

(1) جورافسكي [م. س]، ص ١٤٠.
(2) متى ٢٧: ٢٥.

المسؤولية؛ فقد أصدر البابا يوحنا بولس السادس والمجمعُ المسكوني المذكور الوثيقة التاريخية الأخطر في تاريخ الكاثوليكية؛ ألا وهي تبرئة اليهود من دم المسيح وصلبه، والمتضّمنة أنَّ المسيح وُلِدَ - من ناحية الجسد - في الشعب اليهودي وأنّ الكنيسة مَدِينَةٌ للشعب اليهودي بسبب ذلك، وأنّ المسيحيين قد تسلّموا تراثهم من الشعب اليهودي .... ومما جاء في تلك الوثيقة "تنظرُ الكنيسة باهتمامٍ أعظم إلى ما تكون عليه علاقاتها بالديانات غير المسيحية فهي نظراً لما تلتزم به في تقرير الوحدة والمحبة بين الناس، بل وبين الأمم، تصرفُ جُلَّ اهتمامها هنا إلى ما هو مشتركٌ بين بني البشر، وما من شأنه أن يُمَهِّد للتعايش ... - إلى أن تقول - ومع أنَّ الكنيسة هي شعبُ الله الجديد، فيجب ألَّا يُشَهَّرَ باليهود بحجة الاستناد إلى الكنيسة المقدّسة بأنهم عند الله ملعونون ... - وجاء في الخاتمة - إنَّ هذا المجمع المقدَّس يناشدُ المسيحيين أخيراً مناشدةً حارة أن يسلكوا بين الأمم مسلكاً حميداً، وأن يساعدوا جميع الناس ما أمكنهم ذلك، وما استطاعوا إليه سبيلاً..."[١] ولم يُصدر البابا الوثيقة بقرارٍ فرديٍّ منه بل جرى عليه تصويتٌ، كان خاصّاً بالديانات غير المسيحيةً، فأقر البيان في مجموعه بأغلبية ١٧٦٣ صوتاً مقابل ٢٥٠، وقد جرى التصويت على القرار فقرةً فقرةً. وهذه هي النتائج الخاصة بالجزء المتعلق باليهود "وأقر المجمع بأغلبية ١٩٣٧ صوتاً مقابل ١٥٣ المقدمة الخاصة بالديانة اليهودية، التي صرحت بأنه يوجد وثاقٌ روحيٌ بين المسيحيين واليهود، ودعت إلى الحوار الأخويّ فيما بينهم. وأقرَّ المجمعُ الفقرة التي تنفي المسؤولية الجماعيّة لصلب المسيح عن اليهود، بأغلبية ١٨٧٥ صوتاً مقابل ١٨٨"[٢].

وفي الرابع والعشرين من حزيران عام ١٩٨٥م صدرت وثيقةٌ رسميةٌ عن لجنة الفاتيكان للعلاقات الدينية مع اليهودية، برّأت اليهود في الأجيال كلها من دم المسيح عليه السلام، وقد تضمن النص الحرفي للوثيقة، كما نشرته صحيفة "أوبسيرفاتوري رومانو" الناطقة بلسان حال الفاتيكان في عددها الصادر بتاريخ الخامس والعشرين من حزيران عام ١٩٨٥م تعليماتٍ مشددةً لرجال الدين الكاثوليك كافّةً بشأن التعامل مع اليهود وتلاوة الصلوات المسيحية من الطقس الكاثوليكي بشكلٍ يضمن عدم التعرض لهم، وذلك في محاولةٍ لقطع جذور مظاهر معاداة السامية بين المسيحيين ومهّدت لها بالقول: "إنَّ الكنيسة التي ترفض اضطهاد الإنسان؛ وتدرك التراث المشترك مع اليهود، والتي لا تحركها أسبابٌ سياسيةٌ وإنما المحبة الروحية للأناجيل، تندد بالكراهية والعداء للسامية مع اليهود، وتستنكر اضطهادهم في

---

[١] القاسم، أنيس، نحن والفاتيكان وإسرائيل، ص ٧٣، ٧٤، بتصرف ط١، ١٩٦٦، منشورات مركز أبحاث منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت
[٢] المرجع السابق نفسه، ص ٧٤، ٧٥، بتصرف، واختصار.

جميع الأوقات، وفي أي مكان"[١]. لقد كان القرار الذي اتخذه هذا المجمع الفاتيكاني بتبرئة اليهود من دم المسيح ودعواته المجّانية وتنازلاته المتتالية للتسامح معهم والرفق بهم، كلُّ ذلك كان نسخاً صريحاً وواضحاً من أعضاء هذا المجمع ورئيسه البابا المعصوم للكثير من نصوص العهد الجديد الواضحة وضوح الشمس في ذمّ اليهود التي وردت في العهد الجديد، ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

أولاً: ورد على لسان المسيح، عليه السلام، في إنجيل "متى" "اتركوهم. هم عميانٌ قادة عميان. وإن كان أعمى يقود أعمى يسقطان كلاهما في حفرة"[٢].

ثانياً: ورد على لسان المسيح، عليه السلام، في إنجيل "متى" (يا أولاد الأفاعي كيف تقدرون أن تتكلَّموا بالصالحات وأنتم أشرار فإنّه من فضلةِ القلب يتكلَّمُ الفمُ)[٣].

ثالثاً: ورد في رسالة "بولس" الأولى إلى أهل تسالونيكي: كما هم أيضاً من اليهود الذين قتلوا الربَّ يسوعَ وأنبياءهم واضطهدونا نحن. وهم غيرُ مرضين لله وأضدادٌ لجميع الناس"[٤].

لقد تجرّأ هؤلاء القائمون على المؤتمر الفاتيكاني الثاني كلَّ الجرأة على نصوص العهد الجديد فعطّلوا منها ما عطّلوا، وأوّلوا منها ما أوّلوا لكنَّ الجرأة ما كانت لتواتيهم ليعترفوا برسالة محمدٍ ﷺ أو بسماوية الإسلام.

ويُشار في ختام الحديث عن هذا المجمع الفاتيكاني، إلى أنه "من بين الخمسة عشر وثيقة التي أصدرها المجمع بين عام ١٩٦٤م وعام ١٩٦٥م، فإن وثيقة "في عصرنا" "في زماننا هذا" Nostra Aetate التي تعنينا هنا قد تمَّ التوقيع عليها في ١٩٦٥/١٠/٢٨م. والنص النهائيّ للوثيقة وكلِّ محاضر الجلسات والتعليق عليها موجودةٌ في الكتاب الصادر عن دار نشر دي سير (du Cerf)، سنة ١٩٦٦، تحت عنوان: مجمع الفاتيكان الثاني وعلاقات الكنيسة مع الديانات غير المسيحية، وهو يمثل جزءاً من المجموعة الكنسية برقم ٦١ والكتاب يتكون

---

[1] الكيلاني، إسماعيل، الخلفيّة التوراتيّة للموقف الأمريكي، ص ١٦٤، ط١، ١٩٨٦، مكتبة الأقصى، الدوحة.
[2] متى ١٥: ١٤.
[3] متى ١٢: ٣٤.
[4] رسالة بولس الأولى إلى أهل تسالونيكي ٢: ١٤ – ١٥.

من ٣٣٥ صفحة، ومقسم إلى ثلاثة أجزاء بخلاف الملحقات. والجزء المتعلق بالإسلام يحتل الصفحات من ٢٠٠ إلى ٢٣٦. وقد قام بصياغته القس روبير كاسبار، أستاذ "علم اللاهوت الإسلامي" بالمعهد البابوي للدراسات العربية في روما، ومستشار السكرتارية الخاصة بغير المسيحيين، وأثناء انعقاد المؤتمر كان عضواً في اللجنة الفرعية الخاصة بالإسلام"[1]. كما يُشارُ ختاماً إلى لباقة اللهجة واللغة التي كان يتكلم بها البابا يوحنا بولس[٢] والناطقون بلسان الفاتيكان آنذاك (مقارنةً بالبابا الحالي بنديكتيوس) كما يُشار إلى الشخصية الهادئة المتوازنة التي كان يتمتّع بها البابا الراحل. وإننا وبالرغم من رفضنا الواضح والصريح لسكوت الفاتيكان والبابا يوحنا بولس عن التحدث بصراحةٍ وجرأةٍ عن نبوّة سيدنا محمد ﷺ وسماوية الدين الإسلامي، إلا أننا نسجّل له رفعةَ أسلوبه في التعامل مع أهل الأديان غير المسيحية (مقارنة بالبابا الحالي) هذا التهذيب وهذه الرفعة وهذا التوازن في التعامل مع (الآخر) الذي فقده الفاتيكان، وبامتيازٍ، في عهد البابا بنديكتيوس السادس عشر المثير للجدل.

---

(1) عبد العزيز، [م. س].

(2) يوحنا بولس الثاني: بابا الكنيسة الرومانية الكاثوليكية. ولد في بولندا، وأصبح أول بابا غير إيطالي منذ أدريان السادس (١٥٢٢ – ١٥٢٣م) الذي كان هولندياً. جعل يوحنا بولس البابوية جزءاً لا يتجزأ من العالم بالسفر إلى أكثر من ٦٠ دولة معظمها من الدول النامية، وهو بذلك أول بابا ينتهج هذا النهج في تاريخ الكنيسة في القرن العشرين. وقد شملت هذه الرحلات أمريكا الوسطى، عام ١٩٨٣م، والشرق الأقصى عام ١٩٨٩م، وإفريقيا عام ١٩٩٠م، وكوبا عام ١٩٩٨م. وقد استخدم البابا هذه الرحلات لإبراز الشخصية العالمية للكنيسة الرومانية الكاثوليكية، ولإيصال رسالة الإنجيل بنفسه إلى كثير من الناس.=

=تحدى يوحنا بولس كلاً من الماركسية والرأسمالية في أن يحسّنا من أوضاع فقراء العالم. ونادى بنظام عالمي جديد كان معارضاً لحكومة بولندا الشيوعية قبل انتخابه وبعده. وكان أيضاً مسانداً قوياً لحرية الأديان خلال مناقشة هذا الموضوع في مؤتمر الفاتكيان الثاني عام ١٩٦٢ – ١٩٦٥م.

المبحث العاشر

البابا بنديكتيوس السادس عشر يُهاجم الإسلام ويكرّس إشكالية الاعتراف بالآخر

يتحدث هذا المبحث عن آخر البابوات الذين يتربّعون على عرش الكرسي الرسولي في وقتنا الحاضر. وهو الألماني جوزيف ريتسنغر[١] الذي انتُخِب رأساً للكنيسة الكاثوليكية وأسقفاً لروما يوم الثلاثاء ٢٠٠٥/٤/١٩. وقد كان هذا البابا كاردينالاً لامعاً ومتعمقاً في اللاهوت، كما كان يرأسُ قبل رحيل البابا يوحنا بولس الثاني مجمعَ العقيدة والإيمان، الذي يحظى بنفوذٍ واسعٍ، وهو وريثُ المحاكم الدينية التي اشتهرَت بأحكام الإعدام عبر الحرق في نهاية القرون الوسطى.

من جهةٍ أُخرى أطلق عليه مناصروه اسم "المحقِّق الأكبر"، ورحبوا بعمله في سبيل "إسكات اللاهوتيين المنشقّين" و"سحق الهرطقة".

لقد وصفت تريسي راولاند هذا البابا بأنّه "أكبر مفكرٍ في تاريخ البابوية، فاطّلاعُه واسعٌ جداً، ليس فقط على العلوم الدينية وإنما أيضاً على الفلسفة وتاريخها ونظرّياتها العويصة والمعقّدة ولهذا السبب سلَّموه قسم الشؤون العقدية في الفاتيكان، لسنواتٍ طويلةٍ إبّان حكم البابا يوحنا بولس الثاني، الذي كان سياسيّاً بالدرجة الأولى. ويمكن القول إنّ البابا الحالي يستطيعُ أن يُناظر كبار علماء أوروبا وفلاسفتها"[٢]. وكان دليلها على وصفها السابق للبابا بهذه الأوصاف أنّه انخرط في مناظرةٍ فلسفيةٍ عميقةٍ مع أكبر فيلسوفٍ ألمانيٍ في وقتنا الحاضر:

---

[1] ولد جوزيف ريتسنغر في ١٦ نيسان ١٩٢٧ في ماركتل ـ ام ـ اين ضمن ابرشية باساو في بافاريا، وَوُسِّمَ كاهناً في ٢٩ حزيران ١٩٥١ ثم عُين رئيساً لأساقفة ميونيخ في أذار ١٩٧٧ وكردينالاً بعد أربعة أشهر من ذلك في ٢٧ حزيران ١٩٧٧ من قبل البابا بولس السادس، وكان أحد الكرادلة الثلاثة الناخبين الذين لم ينالوا رتبتهم من البابا يوحنا بولس الثاني. والكردينال ريتسنغر يلاقي معارضة شديدةً من قبل العديد من الكاثوليك التقدميين، ومنذ العام ١٩٨١ وحتى اليوم كانت ثوابته راسخة: لا لتنصيب النساء كهنةً ولا لزواج الكهنة ولا لمثلية الجنس ولا للشيوعية ولا لانضمام تركيا إلى أوروبا. ومواقفه قاطعة وكان من شأنها في غالب الأحيان أن تتسبب بازماتٍ سياسيةٍ ففي العام ٢٠٠٤ أبدى معارضته لانضمام تركيا المسلمة إلى الاتحاد الأوروبي ووصف ذلك بانه "خطأ فادح" و"قرار مخالف للتاريخ".

وهو يدعو إلى التقارب مع الحركات الكاثوليكية الأكثر تشدداً أي "الأصولية". وقال "إنّ الحركات المسيحية الجديدة مثل الحركات التبشيرية أو الكنائس الحرة في ألمانيا تزدهر لأنها تدافع بضرورة عن القيم الأخلاقية الكبرى".

[2] تريسي راولاند أستاذة علم اللاهوت والفلسفة السياسية في جامعة ملبورن في انجلترا. وهي تقدمُ دراسةً مستفيضةً عن عقيدة البابا الحالي بنديكتيوس السادس عشر، الذي أشعل المناقشات حوله في السنوات الأخيرة. وهي مؤلفة كتاب إيمان ريتسنغر: لاهوت البابا بنديكتيوس السادس عشر. وهو من مطبوعات جامعة اكسفورد، ٢٠٠٨.

يورغين هابرماس. وقد اعترف له هابرماس بسعة الاطلاع ورجاحة العقل. وقد اختار البابا لنفسه لقب بنديكتيوس والذي يعني المبارَك.

ولمزيدٍ من توضيح الأمور قبل الشروع في بيان موقف هذا البابا من الإسلام، فإنَّ مِن المفيد ذكر المحطّات الأكاديمية والدينية التي مرَّ بها هذا البابا ليتَّضِح لنا مدى تمكُّن وصلابة التركيب العقدي اللاهوتي لهذا الرجل وكذلك مدى النفوذ الذي كان ولا زال يتمتّع به في الفاتيكان.

١. تولّى، على امتداد ربع قرن، من عام ١٩٨١م حتى انتخابه بابا في نيسان عام ٢٠٠٥م، منصب "فرض النقاء العقديّ"، الذي هو امتدادٌ لمنصب "المفتش الأكبر" ... الذي هو امتداد "لمحاكم التفتيش"!.
٢. تولّى عمادة كليّة الكاردينالات.
٣. بتوجيهٍ منه، وتحت قيادته، ضيَّقت "لجنة الكرادلة لحماية مبادئ الدين" حدودَ الانشقاق المسموح به ... وتمّ استدعاء مَنْ شكَّ في أنّهم يقوِّضُون الدّين، إلى روما للخضوع للمُسَاءلة ... وأعلن أن عشرةً من الكرادلة لم يعودوا صالحين لتعليم الطلاب الكاثوليك ... وأُمِرَ آخرون بمراجعة كتبهم!.
٤. تكونت "أرثوذكسية كاثوليكية جديدة" داخل الكنيسة ... وساد تيار "الخوف من الإبداع" وكان الكاردينال الألماني "جوزيف ريتسنغر" هو المسئول عن قيادة هذا التيّار"[(١)].
٥. وعقب توليه للبابوية قام بما يلي:

أولاً: ألغى لجنة "حوار الأديان" وسمّاها "حوار الثقافات"!! ... وذلك تطبيقاً لوثيقة "المسيح المهيمن"، الرافضة لوجود أديان حقيقيّةٍ غير الكاثوليكية!.

ثانياً: ألغى صدور مجلة "إسلامو كريستيانا"![(٢)].

[(1)] عمارة، محمد، الفاتيكان والإسلام، الجزء الأول من سلسلة منشورة على الموقع الالكتروني لجريدة (المصريون) www.almesryoon.com وعلى موقع "نصرة رسول الله" الإلكتروني www.nosra.islammemo.com وهذه الدراسة في أصلها تلخيصٌ مأخوذ عن كتابه الفاتيكان والإسلام [م. س].
[(2)] عمارة [م. س].

ثالثاً: استقبل وفداً لممثلين مُسلمين في مدينة "كولونيا" وقال لهم: "إنّ على المسلمين نزعَ ما في قلوبهم من حقدٍ، ومواجهة كلِّ مظاهر التعصب، وما يمكن أن يصدر عنهم من عنف"!![١].

كلُّ المعطياتِ السابقةِ تشيرُ إلى أننا نتحدَّثُ عن رجلٍ، له وزنه واعتباره في عالم الكاثوليكية، رجلٍ من الوزن الثقيل المُعْتَبر، الذي يكون قوله مسموعاً إن تكلَّم، وأمُره مطاعاً إن أَمَرَ ... وباختصارٍ، فإنّه رجلٌ ذو أساسٍ أكاديميٍّ متينٍ، فهو يُدركُ ما يقول، ويقصدُ ما يقول ... استهلَّ هذا الرجلُ عهده في رئاسة الفاتيكان، كما قلنا، بإلغائه للجنة حوار الأديان وتحويلها إلى لجنة حوار الثقافات. وما ذلك إلاّ لأنّ هذا الرجل لا يعترفُ بدينٍ بعد المسيحيّة، وهو في تصرّفه واعتقاده هذا لم يأتِ بجديدٍ، ولكنّه كان يكرّسُ الاعتقاد البابويّ بأنّ الأديان التي جاءت بعد المسيحية ليست أدياناً سماوياً، بل هي منحولاتٌ وهرطقاتٌ مسيحيةٌ ... لقد كان الغاء هذه اللجنة مقدّمةً للحرب الإعلامية القالب، العقديّة المضمون التي أعلنها هذا البابا بكُلِّ صراحةٍ ووضوحٍ في محاضرته الشهيرة التي ألقاها في الثالث عشر من شهر أيلول عام ٢٠٠٦م في جامعة ريجنسبوغ الألمانية، والتي أثارت ضجَّةً وصخباً واعتراضاتٍ واسعةً في العالم الإسلامي؛ ذلك بسبب ما تضمّنتهُ من إساءاتٍ مقصودةٍ صدرتْ عن هذا البابا، طعنَ فيها ومن خلالها بالله تعالى رب العالمين (كإلهٍ للمُسلمين) وبرسوله محمد ﷺ، وبتشريع الجهاد في الإسلام، وافترى فيها على القرآن الكريم واصفاً آياته بأنّها (تعليمات أوامر اللئام التي أُثبتت في القرآن).

ولمّا رأى هذا البابا والكنيسةُ التي يرأسها الهبَّةَ المفاجئةَ في الشارع الإسلامي والملايين الذين خرجوا مُتظاهرين للتنديد به وبُمحاضرته، سارع هو ومستشاروه إلى تدارك الأمر، ونطقوا العبارات المزخرفة الجوفاء لتطييب خاطر المسلمين ... لكنّهم أصّروا على عدم الاعتذار وما ذلك إلاّ لأنّ البابا لم يعترف بارتكابه للخطأ أصلاً، بل إنّه تمادى في الخطأ عندما وصف هو ومستشاروه المسلمين بأنّهم أساؤوا فهمَ عباراته ومقصوده، وأنّهم يأسفون فقط لسوء الفهم هذا!! لقد دار جدلٌ كثيرٌ وطويلٌ حول مضمون هذه المحاضرة (الخطيرة) وكَثُرَ الخوضُ فيها بين مؤيدٍ لها من المسيحيين الكاثوليك وبين معارضٍ لها من المُسلمين وغيرهم. وحتّى تتجّلى الأمور فإننا نرى أنَّ عرض النصّ الكامل لهذه المحاضرة، ثم القيام بتحليل أبرز ما

---

[١] عمارة [م. س].

ورد فيها لهو الأسلوب الأمثل والأنجح لفهمها وتحديد المقصود منها مع التنويه لكتابة الأجزاء التي تهمّنا منها بخطٍ غامقٍ[1]:

(إنها لتجربة مثيرة بالنسبة لي، أن أقف لأحاضر بمدرج هذه الجامعة مجدداً. وإني لأعود إلى تلك السنوات عندما بدأتُ التدريس في جامعة "بون" بعد فترة رائعة قضيتها في "فرايز نجر هو شولة" لقد كان ذلك في عام ١٩٥٩، أيام كانت هيئة التدريس في الجامعة القديمة تتألف من أساتذة عاديين؛ فأساتذة الكراسي العديدون لم يكن لهم مساعدون ولا سكرتارية، ولكن في المقابل كان هناك تواصل مباشر أكبر مع الطلاب، وبين الأساتذة فيما بينهم، على الأخص حين كنا نلتقي قبل وبعد الدروس في حجرات هيئة التدريس، كما كان هناك تبادلٌ وتواصلٌ مع المؤرخين والفلاسفة وعلماء اللغة، وطبعاً بين الكلّيتين اللاهوتيتين، فبمجرد بدء الفصل الدراسي كانت تُعقدُ حلقات آكاديمية يلتقى فيها أساتذةُ كلِّ كليةٍ مع طلاب الجامعة كلهم، ليجعلوا التجربة الجامعية المتفردة ممكنةً، وهي حقيقة أنه بالرغم من تخصّصاتنا التي قد تجعل من تواصلنا معاً أمراً صعباً في بعض الأحيان، إلا أننا استطعنا أن نُكوِّنَ وحدةً واحدةً تعمل على أساسٍ من عقلانيةٍ منفردةٍ بنواصيها العديدة في كل الأمور، وتتشارك مسؤولية حقِّ إعمال العقل؛ حيث أصبحت هذه الحقيقة تجربةً حيةً، وقد كانت الجامعة كذلك فخورةً بكلّيتيها اللاهوتيتين. وكان من الواضح أنه، فيما يخص العقيدة، فقد قامت الكلّيتان بعملٍ هو بالضرورة جزءٌ من كلٍّ من العمل الجامعي، حتى لو لم يكن الجميع ينتمي للعقيدة التي يسعى اللاهوتيون لربطها بالعقل ككل، ولم يعترض هذا الحسَ الإدراكُ الفريد داخل محيط العقل للتأثر حتى عندما قيل: إنَّ أحد زملائنا يرى أن هناك شيئاً شاذاً بشأن جامعاتنا ألا وهو تكريس كلّيتيها لشيءٍ لم يوجد وهو الرب، فحتى أمام مثل هذه الريبة الأصولية لا يزال من الضروري والعقلاني أن نطرحَ مسألةَ الرب من خلال إعمال العقل، وأن نفعلَ ذلك في إطار تقليدية العقيدة المسيحية، فهذا كان مقبولاً دون نقاشٍ داخل الجامعة ككل.

مؤخراً تذكّرتُ هذا، لكن عندما قرأتُ ما دوَّنُه الأستاذ "ثيودور خوري" كجزءٍ من حوارٍ دار بين الإمبراطور البيزنطي الموسوعي مانويل الثاني باليجوس، هو ودارسٍ فارسيٍّ لشؤون المسيحية والإسلام وحقيقة كل منهما، وهو حوار دار بالأحرى عام ١٣١٩م في المنتجعات الشتوية بالقرب من أنقرة، وعلى الأرجح فإنَّ الإمبراطور نفسه هو الذي أرسى

[1] انظر الموقع الالكتروني لصحيفة الفاتيكان L'osservater Romano وانظر الموقع الرسمي للفاتيكان /www.vaticoan.va

هذا الحوار خلال حصار القسطنطينية في الفترة من عام ١٣٩٤م إلى ١٤٠٢م وهو ما يفسِّرُ سبب ذكر مساجلاته تفصيليّاً، بصورةٍ أكبر من ردود الفارسي المثقف، والحوار يمتد على نحوٍ واسعٍ ليتناول بناءات العقيدة المتضمَّنة في الكتاب المقدس وفي القرآن، ويتعلق بصورة الرب على نحوٍ خاصٍّ، وكذلك على صورة الإنسان، فيما يعودُ بشكلٍ متكررٍ بالضرورة إلى القوانين الثلاثة: العهد القديم والعهد الجديد والقرآن.

وفي هذه المحاضرة فإنني أودُّ مناقشة نقطةٍ واحدةٍ هامشيةٍ في حدّ ذاتها بالنسبة للحوار نفسه، والتي أجدُها مثيرةً للاهتمام في مجمل إطار قضية العقيدة والعقل والتي تصلح كنقطةِ بدايةٍ لمراجعاتي حول هذه المسألة.

في المحاورة السابعة التي حررها البروفيسور "خوري" فإن الإمبراطور يعرض إلى موضوع الجهاد "الحرب المقدسة"؛ فلا بدَّ أنّ الإمبراطور كان يعرفُ أنَّ السورة ٢ آية ٢٥٦ "تنص على أنه لا إكراه في الدين" وهي أحدى سور العصور الأولى من تاريخ الإسلام عندما كان محمدٌ لا يزال مهدداً وتعوزه القوة، ولكن من الطبيعي كذلك بالنسبة للإمبراطور أن يكون قد عرف التعليمات "أوامر اللئام" بشأن الحرب المقدّسة والتي ذُكِرتْ لاحقاً ودُونَتْ في القرآن، ودون الدخول في التفاصيل، مثل الاختلاف في المعاملة بين أصحاب الكتاب والمشركين، فإن "الإمبراطور" ينتقل إلى مُحَدِّثِهِ بخشونةٍ نوعاً ما للمسألة الجوهرية حول العلاقة بين الدِّين والعنف عموماً وفي هذه الكلمات:

"أرني ما الذي أتى به محمدٌ من جديدٍ، فهنا ستجدون أشياءَ شريرةً وغيرَ إنسانيةٍ مثل أمره بنشر العقيدة التي دعا إليها بحدِّ السيف". ويواصل الإمبراطور تفسيره تفصيليّاً لأسباب كون نشر العقيدة من خلال العنف أمراً يتنافى مع العقل، فالعنف أمرٌ لا يتماشى مع طبيعة الربّ وطبيعة الروح؛ فالرب لا ترضيه الدماء، وعدم التصرف بعقلٍ هو أمر يتناقض مع طبيعة الرب، فالإيمان يولد من داخل الروح وليس الجسد، فأيُّ شخصٍ يهدي آخر للإيمان هو بحاجةٍ إلى التحدُّث جيداً، وأن يعقل الأمور بشكلٍ ملائمٍ دون عنفٍ ودون تهديدٍ، فالمرء ليس بحاجةٍ إلى ذراع قوية أو أية أسلحة من أي نوع أو أيٍ من وسائل التهديد بالموت لإقناع روح متعلقة بالإيمان.

إنَّ القول الفصل من النقاش حول التحول العقائدي باستخدام العنف هو أنَّ عدمَ التصرف وفقاً للعقل هو أمرٌ مناهضٌ لطبيعة الرب. والكاتب "ثيودور خوري" يقول: بالنسبة لإمبراطورٍ بيزنطيٍّ صاغته الفلسفة الإغريقية، فإن هذه المقولة هي دليلٌ واضحٌ بذاته، ولكن بالنسبة للتعاليم الإسلامية فإن الربَّ مطلقُ السموِّ، فمشيئته لا تتماشى مع أيٍّ من خصائصنا بما فيها العقلانيّة، وهنا فإن "خوري" يقتبسُ كتابات الإسلاميّ الفرنسيّ المعروف "آر آرنادليز" الذي يشيرُ إلى أن "ابن حزم" ذهب إلى حدِّ الإقرار بأنَّ الربّ الله لا يلتزم حتى بكلمته الخاصة، وأنه ما من شيءٍ يُلزمه بكشف الحقيقة لنا، ففيما يتعلق بإرادة الله فإنه ينبغي علينا التعبدُ بشكلٍ وثنيٍّ أعمى.

وهنا نجد تشابهاً بين المعنى اليوناني والإنجيلي لتعريف "الإيمان بالله". ولقد غَيَّرَ جون الآية الأولى في كتاب "سفر التكوين" وبدأ مقدمة أحد الكتب الأربعة الأولى من العهد الجديد بـ "في البداية" التي استخدمها الإمبراطور: الإله يتصرف بالمبدأ الحاكم للكون ...

والمبدأ الحاكم يعني العقل والكلمة ... والعقل هنا يتميز بالإبداع والقدرة على التواصل الذاتي، وبذلك تحدث جون في كلماته الأخيرة في الإنجيل عن معنى "الإله" وقال: إنَّ كل الطرق غير المستقيمة للإيمان الإنجيلي وجدت استدلالها المنطقي.

ويقول إيفانجيليست: في البداية ظهر المبدأ الحاكم للكون، والمبدأ الحاكم للكون هو الله، كما أن التصادم الذي نشأ بين التفكير اليوناني والإنجيلي لم يكن من قبيل الصدفة، فالرؤية التي رآها القديس باول ـ وهي أنه رأى الطرق إلى آسيا مُغلقةً، وتوسَّل له رجلٌ مقدونيٌّ لكي يأتي لهم وينقذهم ـ يمكن أن تفسَّرَ على أنها خلاصةُ ضرورةِ وجودِ تواصلٍ بين الإيمان الإنجيلي واليوناني.

وفي الحقيقة تمَّ هذا التواصل لفترةٍ، ولكن الاسم الغامض "للرب" مختلف عن كل أسماء الآلهة التي ظهرت، لدرجة أن الفيلسوف سقراط أراد أن يصنع لغزاً مشابهاً لذلك ... وفي العهد القديم كان إله إسرائيل هو إله السماء والأرض، ومع بداية عصر التنوير ازدادت السخرية من الآلهة التي يصنعها الإنسان بيده، وبالرغم من التصادم الذي نشأ بين الإغريق والإنجيل في مسألة الإيمان، إلاّ أنه أسفر عن حركةٍ فكريةٍ ثريةٍ في الأدب ... واليوم نعرف أن ترجمة اليونان للعهد القديم في الإسكندرية ـ ترجمة يونانية للتوراة في القرن الثالث قبل الميلاد

ـ تُعَدُّ نموذجَ ترجمةٍ للنصّ العبريّ، وهذه خطوةٌ فريدةٌ ومهمةٌ في تاريخ ظهور حقائق إلهيةٍ، وخطوةٌ لظهور وميلاد المسيحية. وفي الحقيقة يوجد هنا تصادم بين الإيمان والعقل يتمثَّلُ في التصادم بين الحركة التنويرية والدِّين. وبأمانةٍ شديدةٍ يجب أن يلاحظ أيُّ إنسانٍ أنه في أواخر العصور الوسطى ظهرت اتجاهات دينيةٌ مختلفةٌ كان من الممكن أن تفصِّلَ هذا الاستدلال المنطقي بين الروح اليونانية المسيحية ... وفي عقلانية أوجوستاين وتوماس، ظهر مذهبُ الإرادة الذي أدى إلى ادّعاءِ أننا يمكننا معرفة إرادة الرب، ووراء ذلك تكمنُ حرّيةُ الإله، والتي تعنى أنّه يمكنُ أن يناقض أفعاله، وأن يتصرفَ بشكلٍ لا منطقي، وبذلك لا يمكن إضفاء صفة الألوهية والحقيقة عليه.

إن تجلّي الإله موجودٌ فقط في عقولنا؛ فإحساسنا بالحقيقة والخير لا يُعَدُّ مرآةً لصفات الرب، الذي تكمن إمكاناته وقدراته وحقائقه خلف قراراته الحقيقية ... وعلى النقيض من ذلك يؤكد إيمان الكنيسة أنه يوجد تجانس بين الإله وبيننا. كما أن صفة الألوهية لا تنطبق على الرب إذا ابتعدت كينونته عن البشر.

يُعَدُّ تناولُ الإيمان الإنجيلي والفلسفة اليونانية حدثاً مهماً ليس فقط دينيّاً، ولكن تاريخيّاً ... إنه حدثٌ ما زال يشغلنا حتى اليوم، وبالرغم من الإنجازات التي حقَّقَتْها الديانة المسيحية في الشرق إلا أنها بدأت مؤخراً تتسم بطابعٍ نهائيٍّ في أوروبا.

لقد كانت المطالبة بعدم أغرقة المسيحية، أي إبعاد المسحية عن الإغريقية، سبباً في مواجهة النظرية التي شكَّلها التراث اليوناني عن المسيحية.

لقد أَدَّتْ هذه المطالبة إلى مناقشاتٍ عديدةٍ منذ بداية العصر الحديث وبنظرةٍ أعمق، مرت مرحلةُ عدم "أغرقة" المسيحية بثلاث مراحل مختلفةٍ في الأهداف، بالرغم من اتفاقها من حيث المبدأ. وقد نشأت مرحلة عدم الأغرقة مع بداية الإصلاح في القرن السادس؛ فلقد شعر الإصلاحيون أنهم موجهون بإيمانٍ مرتبطٍ بالفلسفة، أي إيمانٍ مرتبطٍ بفكرٍ معيّنٍ واتجاهٍ معيّنٍ، وفي الوقت نفسه وجدوا أنهم يتطلعون إلى إيمانٍ بمعنى الكلمة في الإنجيل ... علاوةً على ذلك ظهر علمُ الغيبيات كعلمٍ مُنفصلٍ مشتقٍ من مصدرٍ آخر ... الأمر الذي يجب أن يتحرر منه الإيمانُ لكي يصبح مستقلاً. عندما قال الفيلسوف "كانت"، إنه

بحاجةٍ إلى إعادة التفكير لعمل غرفةٍ خاصّةٍ للإيمان، نَفَّذَ هذا البرنامج بتطرفيةٍ شديدةٍ لم يتوقعها الإصلاحيون.

ويُعَدُّ الاعتقادُ الحرُّ في القرن التاسع عشر والقرن العشرين، إحدى سمات المرحلة الثانية من عملية عدم أغرقة المسيحية، وكان العضو البارز في هذه المرحلة، هو أدولف فون هازاك، وعندما كنتُ طالباً وفي بداية سنوات تدريسي، كان هذا البرنامج مُؤَثِّراً لدرجةٍ كبيرةٍ في الاعتقاد الكاثوليكي، حيث تمَّ التمييزُ بين إله الفلاسفة وإله إبراهام وإسحاق ويعقوب ... وفي محاضرتي الإفتتاحية ببون عام ١٩٥٩م، حاولتُ التطرق لهذا الموضوع ... لن أكررَ ما قلته في هذه المحاضرة، ولكني أودُّ أن أصفَ بصورةٍ وجيزةٍ ما هو الجديد في هذه المرحلة الثانية من عدم أغرقة المسيحية ... لقد كانت الفكرةُ الرئيسية لهازاك هي الرجوع إلى السيِّد المسيح والاقتداء بنموذجه، وكانت هذه الفكرة ناتجةً عن تراكماتٍ دينيةٍ إنسانيةٍ... فلقد وضع السيدُ المسيحُ نهايةً للعبادة من أجل الأخلاق الإنسانية، وظهر كأبٍ للرسالة الأخلاقية الإنسانية، وكانت الغاية الأساسية هي الوصول بالمسيحية إلى شكل متجانسٍ من العقل الحديث، شكلٍ متحررٍ من العناصر الاعتقادية والفلسفية. ما أستطيعُ أن أقوله عن السيد المسيح، إنه رجل ذو عقلٍ عمليٍّ، وبالتالي فهو ذو مكانةٍ عاليةٍ في الجامعة ... بالإضافة إلى هذا يعتمد المفهومُ الحديثُ للعقل على مفهومٍ استدلاليٍ يتأرجح ما بين الأفلاطونية والتعبيرية، فمن ناحيةٍ، إنها تفترض البناء المادي للأشياء، ومن ناحيةٍ أخرى تُعَبِّرُ عن قدرة الطبيعة في أن تتحمل استقلالنا لها، ولا يبقى سوى أن تكون الاختباراتُ الحدَّ الفاصل النهائي للوصول إلى الحقيقة. وفي الواقع يؤدي هذا إلى بروز مبدأين خطيرين من خلال الموضوع الذي أثرناه وهما:

أولاً: تُعَدُّ الحقيقة الناتجةُ عن استخدام المنطق الماديّ والتعبيري حقيقةً علميةً بحتةً، فيجب أن يُنظَرَ لأيِّ شيءٍ علميٍّ على أنه مضادٌ للمعايير ... لذلك فإن العلوم الإنسانية مثل التاريخ وعلم النفس والفلسفة تُعَدُّ مجالاتٍ علميةً.

ثانياً: النقطة الأهم هي أن هذه الطريقة تستبعد "البحث عن ذات الإله الأمر الذي يجعله لغزاً غير علمي". سنعود إلى هذه المشكلة مؤخراً. حالياً يجبُ أن نلاحظ أنَّ أيَّ محاولاتٍ لجعل الاعتقاد "علميا" قد تنتهي بتقليص المسيحية، ولكن علينا أن نقول المزيد، فالإنسان هو الذي يقلل من نفسه نتيجة التساؤلات التي يطرحها عن أصله ومصيره

تلك الأسئلة التي طرحها الدِّينُ وعلم الأخلاقيات ... وفي النهاية تقرر تجاربه ما هو ماديّ وملموس في الشؤون الدينية، وفي الحقيقة "الضمير" هو الحكم الفاصل فيما هو أخلاقي، وفي هذا الاتجاه نلاحظ فقدان الأخلاق والدين قُوَّتها في تشكيل مجتمعٍ، واعتبارهما مجرد أشياء شخصيةٍ ... إنها حالة خطيرة وصلت إليها الإنسانية ... إن محاولات بناء علم أخلاقي يعتمد على علم النفس والاجتماع محاولاتٌ لن تثمر النتائج المرجوَّة منها. وقبل أن اختمَ يجبُ أن أشير إلى المرحلة الثالثة من عدم "أغرقة" المسيحية التي هي موجودة الآن ... ففي ظل تجربتنا الملموسة مع التعددية الحضارية، يُقالُ هذه الأوقات: إن التضامن الذي حدث بين الاستدلال المنطقي والإغريقي في أقدم الكنائس كان مزجاً تمهيديّا للحضارات، ويجب ألا يمتد لحضاراتٍ أخرى، وقد اقترح البعضُ الرجوعَ إلى رسالة العهد الجديد التي تسبق هذا المزج الحضاري ... والعهد الجديد كُتِبَ باليونانية؛ ولذلك نجده يحمل في طياته الإغريقية التي تطورت مثلما تطور العهد القديم .. نعم ... توجد بعض العناصر في مراحل تطور الكنيسة البدائية التي يجبُ ألاَّ تنضمَ إلى كل الحضارات، ومع ذلك فالقرارات الأساسية التي نتجت عن العلاقة بين الإيمان واستخدام الإنسان للعقل جزء من الإيمان نفسه.

وبهذا وصلت إلى نتيجة نهائية ... هذه المحاولة لا تعني الرجوع إلى عصر ما قبل التنوير ورفض العصر الحديث، فيجب استغلال المظاهر الإيجابية للحداثة ... فهذه نعمةٌ وهبها الإله لنا. فالقيم الأساسية العلمية هي عزيمةٌ يجب أن تُطَوَّعَ لصالح الحقيقة، وهي تعكس أحد المبادئ الأساسية للمسيحية ... لا أقصدُ هنا أن أوجِّه نقداً سلبيّاً، بل أريدُ أن نوسَّعَ مداركنا لمفهوم العقل وتطبيقاته ... فبينما نسعدُ بوجود احتمالاتٍ، نجد أخطاراً يجب أن نتغلّب عليها ... ولن يحدث ذلك إلا بإدماج العقل مع الإيمان في شكلٍ جديدٍ، والتخلي عن التقيد الفكري، وإذا قمنا بهذا سنجد الاعتقاد ينتمي للجامعة في شكله الصحيح مع وجود حواراتٍ لمختلف العلوم ... ولن يكون هذا مجرد نظامٍ تاريخيٍ وعلومٍ إنسانيةٍ بل اعتقاد.

إنَّ التحاور بين الحضارات والأديان هو ما نحتاجه في هذه الفترة. ففي العالم الغربي تم إثبات أنَّ استخدام العقل الإيجابي بجانب أشكال الفلسفة التي تعتمد على هذا العقل هو الطريق الأمثل.

ومع ذلك نجد أنَّ الدول ذات الحضارات الدينية ترفضُ استبعاد الألوهية عن عالميّة العقل، وتعتبر ذلك هجوماً حاداً على اعتقاداتها. إنَّ العقل الأعمى بمبدأ الألوهية، مَنْ يقسّم الدين إلى جماعاتٍ حضاريةٍ مختلفةٍ لا يستطيع التواصل مع مبدأ التحاور بين الحضارات. وفي الوقت نفسه، كما أشرتُ من قبل، العقل العلمي الحديث بعنصره الأفلاطوني يحمل في طياته سؤالاً أبعد من محتواه ... فالعقل العلمي الحديث عليه أن يقبل الترتيبَ المنطقيّ والعقلّي للأشياء والتواصل بين أرواحنا والطبيعة، فبالنسبة للفلسفة والاعتقاد يُعَدُّ الاستماع إلى الخبرات والتقاليد الدينية للإنسانية مصدراً هاماً للمعرفة، وتجاهلُ هذه الأشياء شيءٌ غيرُ مقبولٍ. ولقد تذكرتُ شيئاً قاله سقراط لفيدو في محادثتهما الأولى عندما أُثيرتْ آراءٌ فلسفيةٌ خاطئةٌ ... قال سقراط: "سيكون الأمر مفهوماً إذا أصبح شخصٌ ما متعصباً نتيجةً لكلِّ هذه الشعارات الخاطئة، ولكن في النهاية سيخسرُ الكثير بسبب هذا التعصب الذي سيُفقدهُ معرفة حقيقية الوجود" ... وتنطبق هذه المقولة على الغرب، فالشجاعة هي أن تستعملَ العقل، وهذا ما يعتمدُ عليه الإيمان الإنجيلي ... لا تتصرف بالمبدأ الحاكم للكون؛ لأن ذلك فيه تعارض لطبيعة الإله ... وفقط باستخدام العقل يمكننا استقبال شركائنا في حوار الحضارات، وإعادة اكتشاف هذا هو مهمة الجامعة.)(*)

لقد سبقَ أن تحدّثنا عن المكانة العلميّة والدِّينيّة التي يحتلها البابا بنديكتيوس في الفاتيكان، كما سبق القول بأنّه يعي ما يقول، ويقصدُ ما يقول. وإنّه لمن البدهيّ ولمن نافلة القول التذكير بأنّ إلقاء محاضرةٍ كهذه وفي موضوعٍ كهذا ليحتاجُ إلى تحضيرٍ مُسَبَّقٍ وتوثيقٍ معّمقٍ وتوخٍّ للحذر في عرض المضامين، فلا يُصارُ إلى إلقائها على مسامع الحضور إلاّ بعد التنقيح الضروري اللازم، وهنا نؤكّدُ على أنها كانت محاضرةً مكتوبةً وليست مرُتجلةً يلقيها المحاضِرُ من ذهنه وذاكرته. ويمكننا بعد ذكر النصّ الكامل لهذه المحاضرة أن نُسَجِّلَ الملاحظات ونطرح التساؤلات التالية:

إن كان العنوان الذي حملته هذه المحاضرة هو (الإيمان والعقل والجامعة، ذكريات وانعكاسات) وإن كان موضوعها الرئيس علاقة العقل بالإيمان المسيحي وتفعيل ذلك في الحياة الجامعية فلماذا يا ترى استشهد البابا بنصوص، تتعلّقُ بالإسلام وبالله تعالى ومشيئته الإلهية واستعمال محمدٍ للعنف والسيف وتعليمات القرآن الكريم؟!! ما علاقة كلّ هذه المواضيع

(*) هنا ينتهي نص المحاضرة كاملةً.

بموضوع المحاضرة وعنوانها، لقد كان من الجدير بهذا الأكاديمي الفذّ، أن يستشهد بنصوصٍ تدعم وتؤكِّدّ عنوان محاضرته لا أن يوظّف "مائة سطرٍ من أصل أربعمائة سطرٍ، وهي مجموع سطور محاضرته"[1]، في موضوع الإسلام والذي ليس هو موضوع المحاضرة ولا علاقة له بعنوانها.

لقد ذكر البابا في دفاعه عن نفسه بعد ثورة الغضب التي اجتاحت الشوارع في العالم الإسلامي، اعتراضاً على ما قاله فيما يتعلّق بالإسلام، ذكر أنّه استشهد بهذه الشواهد عَرَضَاً وأنها لم تكن مقصودةً لذاتها ... وهو لم يكن صادقاً في تبريره هذا، حيث بلغ حديثُه العرضيُّ، عن الإسلام في محاضرته رُبعَها!!.

نقول: إنّ الاستشهادات السابقة لم تكن عرضيةً البتة، وإنما كانت مقصودةً لذاتها، بدليل أنّها تناولت الطعن في نفس النقاط والمحاور التي كانت كنيسة العصور الوسطى تطعنُ في الإسلام من خلالها، وهي (الله والقرآن ومحمد والجهاد). نعم، لقد تقصّد هذا "المعصوم" الطّعن غير الصحيح وغير المبرر في العناصر السّابقة؛ فهو قد كذبَ، وطعن وافترى على المولى سبحانه وتعالى حينما اختار القولَ بعقلانيّة الإيمان المسيحي وبتسامي المشيئة الإلهية لربّ المسلمين (الله) وبأنْ لا علاقة لها بالمنطق ولا بالعقل!! ممّا أدّى في النهاية لكون إيمان المسلمين نوعاً من الإيمان الأعمى والوثنيّ. وهو كذلك قد كذب وطعن وافترى عندما ذكر عبارة الإمبراطور إيمانويل الثاني بأنّ محمداً لم يأتِ إلاّ بكُلِّ شريرٍ وسيئٍ ولا إنساني، ويشهد على ذلك نشره للإسلام بقوة السيف. ومع أن البابا صرَّح بعد عودته لروما أنّه لم يعتقد بصحّة ما وردَ في كلام الإمبراطور السابق فلماذا يا ترى استشهد بقوله ذاك!!! لماذا اختار من كلِّ التّرجمات الموجودة في الغرب لنصوص الإسلام وتاريخه وتراثه العبارات السابقة بالذات؟

لماذا؟ **﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾**[2]!!

غريبٌ هذا البابا الذي أوقعته أحقادُه وكراهيته للإسلام في خلطٍ ولبسٍ كبيرٍ بين مفهوم الجهاد في الإسلام وبين مفهوم الحرب المقدّسة، والذي سبق وأن فصّلنا القول فيه في مبحثٍ سابقٍ، بل إنّه ذهب إلى أبعد من هذا الخلط فقرّر وبطريقةٍ عجيبةٍ الحقيقة التالية: إنّ الإيمان بالإسلام إنما يمهِّدُ ويؤسِّسُ للعنف وممارسة الإرهاب ضد الآخرين!!! فسبحان الله

---

(1) عمارة، [م. س]، ص ٢١.

(2) سورة آل عمران، الآية ١١٨.

المعبود!!؟؟ وأخيراً فقد قفز البابا وبكلِّ رشاقة عن حواجز العقل والمنطق وقرر النتائج دون أدنى ذكرٍ للمقدّمات فقرر أنَّ آيات القرآن إنما هي آياتٌ أُثْبِتَتْ فيها أوامر اللئام!!!. وهو يقصدُ بذلك طبعاً محمداً ﷺ وصحابته المجاهدين رضوان الله عليهم.

إننا نقف لنقرّر هنا، أنّ اقتباسات البابا لم تكن عرضيّةً وغيرَ مقصودةٍ لذاتها، بل إنها كانت مُنتقاةً بعنايةٍ ودقّةٍ، لأنها توافق هواه ومعتقده، ممّا يُثبتُ عدم موضوعيّته وعدم تجرّده في البحث، ويشهدُ لعدم الموضوعية هذه، كتاب الأستاذ ثيودور خوري (الصليبيّ الحاقد) والمعنون (حوارات مع مسلم، المناظرة السابعة)، وهو كتابٌ قدّمه خوري ونشره في الستّينات عندما كان يعمل مدرّساً بجامعة مونستر. وقد وقع اختيار البابا على هذا الكتاب ليستشهدَ بمضمونه متناسياً عشرات الألوف من الكتب الأخرى ومن المخطوطات التي تحتوي عليها مكتبة الفاتيكان؟!!.

وقد علَّق الأستاذ محمد عمارة على ذلك بقوله[1]: "وكان أخطر ما في هذه المحاضرة، ليس اقتباس البابا من الإمبراطور البيزنطي "مانويل الثاني" [١٣٩١ – ١٤٢٥م] ـ كما حَسِبَ كثيرٌ من المعلّقين ـ وإنما تعليقات البابا على الاقتباس!. لقد استشهد البابا بكلمات الإمبراطور البيزنطي ـ في معرض ربط الجهاد الإسلامي "بالحرب المقدسة المسيحية". وأورد الكلمات التي قال فيها هذا الإمبراطور لأحد المثقَّفِين الفرسِ المسلمين: "أرني ما الذي أتى به محمدٌ من جديدٍ؟! فهنا ستجدون أشياءَ شريرةً وغيرَ إنسانيةٍ، مثل أمره بنشر العقيدة التي دعا إليها بحد السيف". ولقد وصف البابا الإمبراطورَ "مانويل الثاني" بالموسوعيّ!... وأغفل ذكر ردِّ المثقّف الفارسيّ المسلم على هذا الإمبراطور!... ثم مضى ـ مُعَلِّقاً ...ومؤيداً ـ فقال: [لا بدَّ أن الإمبراطور كان يعرف أن السورة ٢ آية ٢٥٦ تنصُّ على أنه "لا إكراه في الدين" وهي إحدى سور العصور الأولى من تاريخ الإسلام، عندما كان محمدٌ لا يزال مهدَّداً، وتعوزه القوة. ولكن من الطبيعي كذلك، بالنسبة للإمبراطور، أن يكون قد عَرَف التعليمات "أوامر اللئام" بشأن الحرب المقدسة، والتي ذُكِرتْ لاحقاً ودُوِّنَتْ في القرآن].

من الغريب جداً في محاضرة هذا البابا، والذي كان قد عمل أستاذاً للفلسفة واللاهوت في الجامعات الألمانية فيما سبق الاستشهادُ بعبارات مزّيفةٍ تمّت فيها الإشارة إلى

[1] عمارة، [م. س]، ص ٢١، ٢٢.

[أنَّ إبنَ حزم ذهبَ إلى حدِّ الإقرار بأنّ الربّ الله لا يلتزمُ حتّى بكلمته الخاصّة وأنّه ما من شيءٍ يُلزِمه بكشف الحقيقة لنا، ففيما يتعلّقُ بإرادة الله فإنّه ينبغي علينا التعبُّدُ بشكلٍ وثنيٍّ أعمى]!!. لقد كان حريّاً بهذا البابا أن يلتزم ولو أدنى آداب وأخلاق الأساتذة فيشيرُ إلى المصدر الذي تمّ اقتباس قول ابن حزمٍ هذا منه!! هو لم يفعل، ولن يفعل ذلك لأنّ ابن حزمٍ، بصراحةٍ، لم يقل (ونكرر لم يقل) هذه الأكاذيب والافتراءات. ولو فرضنا جدلاً أنّ البابا كان صادقاً في صحّة هذا الاقتباس (المزعوم) لوضَّح المصدر الذي تمّ منه الاقتباس في دعواته وكلماته التي ألقاها بعد عودته إلى روما وتقديمه التبريرات لما قال. وبمناسبة الحديث عن آداب وأخلاقيات الأستاذية، فإننا نشيرُ هنا إلى أنّ مِن أخلاقيات الاستشهاد بنصٍّ مُعيّنٍ بعد صحّةِ توثيقه توظيفَهُ في موضعه الصحيح، وتوجيهُ التوجيه السليم، وشرحه شرحاً صحيحاً يناسبُ السّياق الذي ورد فيه، أو الجوَّ الذي تحدَّث عنه. ومن هنا فإنّه من المرفوض ومن المغالطات قوله (إنّ آية لا إكراه في الدِّين) كانت إحدى سور العصور الأولى من تاريخ الإسلام عندما كان محمدٌ لا يزال مهدَّداً وتعوزه القوّة؟!!! حيثُ يُفهمُ من كلامه هذا، وبصورةٍ تلقائيةٍ، أنّ محمداً، ﷺ، قد تناسى هذه الآية بل وعمل بخلافها. بعد أن اشتدَّ عوده وانتشر دينه وتقوّى جيشه!!! **﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ﴾**[1]. إننا نستطيعُ أن نفهم ونتصّور مدى الغيظ والغضب والحقد الذي يثور في وجدان البابا بنديكتيوس كلّما يسمعُ اسم النبي ﷺ، ولا عجبَ في ذلك فقد أُشربوا كراهيته في صدروهم منذ كانوا أطفالاً صغاراً ... ولا نجدُ مبرراً لذلك سوى المخاوف التي يتردّدُ صداها في جوف هذا الحبر الأعظم؛ إنها المخاوف التي سبقَ وأن عبَّر عنها أكثرَ من مرّةٍ في كتابة المُسّمى (بلا جذور: الغرب، النسبيّة، الإسلام، المسيحيّة)[2] وقد أكدّ هذا الحبرُ الأعظمُ في كتابه هذا على أنّ هنالك ثلاثةَ مخاوف تُسيطرُ عليه، وهي التالية:[3]:

أولاً: الانقراض السكانيُّ للأوروبيين المسيحيين بسبب العلمنة التي أشاعت الأنانية وتفكك الأسرة، فانخفضت الخصوبة والمواليد أحياناً إلى أقل من ١%. ذلك أن معدلات المواليد في غالبية الدول الأوروبية تراجعت، الشيء الذي أثَّر على استمرار التوازن

---

(1) سورة القلم: الآية ٥١.

(2) ألف هذا الكتاب البابا بنديكتيوس السادس عشر بالاشتراك مع مارسيلو بيرا ونشرته (Basic Books) في نيويورك عام ٢٠٠٦ وقدّم له جورج ويغل وترجمه إلى الإنجليزية مايكل مور.

(3) انظر جريدة الشرق الأوسط، الملحق الثقافي، منتدى الكتب، بتاريخ ٢٠٠٦/٤/٢٦م.

السكاني ... وجعل عدة شعوبٍ أوروبيةٍ، خصوصاً الألمان والإيطاليين والأسبانيين، ربما لا تعودُ موجودةً قبل نهاية القرن الحالي، أو في أحسن الأحوال والتكهنات، تصبحُ هذه الشعوب أقليات داخل دولها.

ثانياً: إنّ المكان الذي تتركه الأجيال الأوروبية الجديدةُ شاغراً يملؤه المهاجرون المسلمون، خصوصاً من إفريقيا والعالم العربي ... الأمر الذي يفتح الباب لاحتمال أن تصبح أوروبا مُستقبلاً جزءاً من دار الإسلام!!.

ثالثاً: تراجعُ المسيحية من الفضاء الأوروبي ... فبسبب العلمانية أصبحت مسيحيّةُ غالبية الأوروبيين تقتصر على انتماء الأسرة التقليدي للمسيحية أي أنّهم مسيحيون فقط بحكم النسب والتاريخ فقط!! الأمر الذي أدى إلى افتقار أوروبا إلى القدرة والرغبة والشجاعة الأخلاقية في القتال من أجل أيِّ شيءٍ، حتّى حريّتها"!!.

ولعلّ هذه المخاوف السّابقة تؤكِّدُ ما كنا قد ذكرناه عن خوف الكنيسة من الإسلام، لأنّه يمثلُ التحدّي الأكبر لها، ولكونه البديل الأنسبَ عنها في الحياة المعاصرة، ويبرز لدينا الآن عنصرٌ آخر على لسان البابا بنديكيتوس يؤكد خوفه وخوف الكنيسة من أن يكون الإسلام هو الوريث للكنيسة ومن أن يجعل أوروبا جزءاً من داره (دار الإسلام). ومَن يدري فلعلَّ ذلك يكون؟ ومن يدري فما ذلك على الله بعزيز ...إنّ الفهم الصحيح لمخاوف البابا بنديكتيوس السابقة يُعيننا وبكل ثقةٍ على فهم الدوافع التي أدّت به لأن يقول ما قال في محاضرته السّابقة.

لقد أثارت محاضرة البابا السابقة استياء العديد من المراقبين والمتابعين لموضوع علاقة الشرق بالغرب، وموضوع الإسلام في القارّة الأوروبية، ومن ذلك مجلة (News Week) الأمريكية التي أبدت استغرابها ممّا جاء في محاضرة البابا السابقة، فوضعت صورته على غلاف عددها الصادر بتاريخ ٢٠٠٦/٩/٢٦ وعنونت له (بنديكتيوس السادس عشر ما الذي دهاه؟؟) وهاجمت أسلوبه وطريقته ووصفته بالأسلوب الأخرق، كما أنّ العالِمَ اللاهوتي الكاثوليكي السويسري الكبير "هانز كونج" "عاب على أسلوب محاضرة البابا ومنحها درجة ضعيف قائلاً إنه إذا كان من الضروري أن يقتبس البابا عن ذلك الإمبراطور البيزنطي، فإنه كان يجب عليه أن ينقلَ ردَّ أحد المسلمين على تلك الاتهامات أيضاً. وقال أن رد فعل العالم

الإسلامي ليس مثيراً للدهشة. وأشار إلى أن سياقاً تاريخياً معيّناً قد ظهر منذ زمن الحروب الصليبية، موضحاً أنه لا يمكن تجاهل تلك الحروب التي شُنَّتْ ضدَّ الإسلام عند الحديث عن العنف الذي يمارسه الإسلام"[١].

لقد أثارت المحاضرة السابقة العديد من الانتقادات، كما أثارت العديد من الدعوات المنادية بضرورة اعتذار البابا بنديكتيوس للمسلمين عمّا سبق إيراده من النصوص والاستشهادات في محاضرته، ولكن هل اعتذر البابا؟ هل اعتذر صراحةً أو ضمناً على لسانه أو على لسان أيٍّ من مستشاريه ومعاونيه؟ الإجابة هي لا. لم يعتذر، بل إنّه، ومعاونيه، اتّهموا المسلمين بإساءة فهم مقصوده. لم يعتذر الرجلُ المعصوم بتاتاً ولكنّه أبدى أسفه لأنّ بعض مقاطع محاضرته بدت وكأنّها تؤذي مشاعر المسلمين، وتمَّ فهمها بطريقةٍ لا تعكس نواياه. جاء ذلك في البيان الذي ألقاه "تارسيزيو برتوني" وزير الدولة بالفاتيكان "... لذا فإن البابا آسفٌ للغاية على أنَّ بعض المقاطع من كلمته بدت وكأنها تؤذي مشاعر المسلمين، وتم فهمها بطريقةٍ لا تعكس نوايا البابا". وجاء في البيان: إنّ موقف البابا حيال الإسلام يتمثل بدون أيِّ التباسٍ في الوثيقة المجمعية "في عصرنا". وتنظرُ الكنيسة بعين الاعتبار أيضاً إلى المسلمين الذين يعبدون الإله الواحد القيّوم الرحيم، الضّابط الكل، خالق السماء والأرض المكلِّم البشر. ويجتهدون في أن يخضعوا بكلِّيتهم حتى لأوامر الله الخفية، كما يخضع له إبراهيم الذي يُسندُ إليه بطيبة خاطر الإيمان الإسلامي. ولأنهم يُجلّون يسوع كنبّي، وإن لم يعترفوا به كإلهٍ ويكرمون مريم أمه العذراء كما أنهم يدعونها أحيانا بتقوى، وعلاوةً على ذلك أنهم ينتظرون يوم الدين عندما يثبت اللهُ كل البشر القائمين من الموت. ويعتبرون أيضاً الحياة الأخلاقية، ويؤدّون العبادة لله لا سيما بالصلاة والزكاة والصوم".

كما جاء في البيان: "إنّ البابا، إذ يؤكد احترامه وتقديره للمؤمنين المسلمين، يأمل بأن يتفَّهموا كلماته بمعناها الصحيح"[٢].

ولمّا اشتدّت الاعتراضات، وزاد عدد المتظاهرين في العالم الإسلامي الرافض لما جاء في محاضرة البابا السابقة، هبَّ البابا لتنقيح محاضرته تلك، ونشَر الموقعُ الرسمي للفاتيكان نصَّ المحاضرة بعد تنقيحها، فماذا كانت التعديلات والتضحيات؟ لقد كانت إضافةَ أربعِ كلماتٍ

---

(1) جريدة الرأي الأردنية، بتاريخ ٢٠/٩/٢٠٠٦.

(2) موقع الفاتيكان الرسمي: www.vatcan.va.

فقط، تتعلق بالحوار الذي دار بين الإمبراطور البيزنطي "مانويل باليولوجوس الثاني" والمثقف الفارسي على الكلمات التالية: "إنَّ باليولوجوس "خاطب محاوره بشكلٍ فظٍّ مروّعٍ وهي فظاظةٌ وجدناها غيرَ مقبولةٍ وذلك حول مسألة العلاقة بين الدِّين والعنف بشكل عام". ولم تكن عبارة فظاظة وجدناها غيرَ مقبولةٍ موجودةً في النص الأصلي[١].

والذي نراه، تعليقاً مناسباً على ما سبق من التبريرات هو أنّها محضُ أكاذيب، كما نرى أنَّ البابا كان يقصدُ كلَّ كلمةٍ تفوّه بها، لا بل إنَّ سكرتيره الخاص الذي لا يفارقه الأب "جورج غانسفاين" كان يرى تلك المحاضرة بمثابة النّبوّة، "فقد حَذَّرَ السكرتيرُ الخاصُّ لبابا الفاتيكان بنديكتوس السادس عشر من أسلمه الغرب، مُعتبراً أنَّ خطاب البابا في راتيسبون الذي أثار ثائرة العالم الإسلامي كان بمثابة رؤيةٍ تنبؤيةٍ. وذلك في حديثٍ نشرته صحيفة سودوتش تسيتونغ. وقال جورج غانسفاين الذي يُعدُّ أقرب معاوني البابا، في حديث لملحق الصحيفة الأسبوعية ينبغي أن لا نستهين بمحاولات أسلمة الغرب ... وأن لا نتجاهل خطرها على هوية أوروبا بذريعة مجاملةٍ تُفهَمُ بشكلٍ خاطئ. الكاثوليكيةُ ترى ذلك جلياً وتقوله بوضوحٍ. وأشار الأب غانسفاين إلى المحاضرة التي ألقاها البابا أمام مجموعةٍ من الطلبة في راتيسبون وأثارت غضب قسمٍ كبيرٍ من العالم الإسلامي وقال كانت بمثابة نبوءة"[٢].

إنّ أكثر ما نراه استفزازياً في المحاضرة السابقة، ليس الإساءة للإسلام فقط، فهذا أمرٌ قد مرَّ معنا مراراً في مباحث سابقةٍ، ما هو أسوا منه وأدهى، ولكنَّ الأكثر استفزازاً، حسبَ رأينا، هو قول البابا السابق [إنّ التحاور بين الحضارات والأديان ما نحتاجُه في هذه الفترة، ففي العالم الغربيّ تمّ إثبات أنّ استخدام العقل الإيجابي بجانب أشكال الفلسفة التي تعتمدُ على هذا العقل هو الطريق الأمثل، ومع ذلك نجدُ أنّ الدُّول ذات الحضارات الدينية ترفضُ استبعاد الألوهية عن عالميّة العقل وتعتبرُ ذلك هجوماً حادّاً على اعتقاداتها]. وواضحٌ من خلال هذه الفقرة أنّه يلمز الحضارة الإسلامية والعربية، وهذا أمر متوقعٌ منه ولكنَّ المثير هو دعوته للتحاور بين الحضارات والأديان وتأكيده على أنّ ذلك هو ما نحتاجه الآن!! مِن المستغرَب أن يقول ذلك البابا الذي ألغى لجنة حوار الأديان وسمّاها حوار الثقافات!! مِن المستغرَب أن يقول ذلك الشخصُ الذي أمر بإيقاف صدور مجلة (إسلامو كريستيانا) التي حاولت التوفيق والتقريب بين أتباع المسيحية والإسلام!! من المستغرب أن يقول ذلك

---

[١] موقع الفاتيكان الرسمي: www.vatcan.va.

[٢] جريدة الرأي الأردنية، بتاريخ ٢٠٠٧/٧/٢٨.

الرجلُ الذي لا يعترفُ بسماوية وشرعيّة الإسلام بل ينظر إليه على أنّه مجردُ ثقافةٍ شرقيةٍ، ويشترطُ هو وكنيستُه شروطاً مُجحِفةً مُهينةً بحقّ المسلمين الذين أعربوا عن رغبتهم في محاورته ومناقشته.

إننا ومع تسليمنا بصحّة نوايا هؤلاء المسلمين، واحترامنا لرغبتهم الصادقة في تعريف الفاتيكان بطبيعة وحقيقة ديننا السّمح، إلاّ أننا ننصحُهم بمزيدٍ من توخّي الحذر، والتريُّث؛ فأهل الكتاب يعرفون محمداً ويجدونه مكتوباً عندهم في كتابهم، ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم، ولكنّهم يصرّون على المكابرة والعناد.

ولكن، هل يفهمُ ممّا سبق أن البابا الحالي والفاتيكان لا يؤيدون الحوار مع المسلمين ولا يدعون إليه؟؟ الإجابة هي قطعاً لا، ولكنّ مؤسَّسة الفاتيكان الحاضرة وعلى رأسها البابا بنديكتيوس السادس عشر يضعون شروطاً (صعبةً) مطلوبةَ التنفيذ كمقدمةٍ للحوار مع المسلمين. وقد انتقد العديدُ من العلماء والأساتذة والمفكرين المسلمين هذه الشروط "الفاتيكانية" ووصفوها بالمُذِلّة والمُهينة، والتي تَعَبِّرُ عن الرّوح الصليبية غير المقبولة للبابا بنديكتيوس السادس عشر. ولكنْ ما حكاية هذه الشروط وهل اشترطها الفاتيكان فعلاً أم أنها مجرّدُ إشاعاتٍ وفقاعاتٍ هوائيةٍ يطلقها الخط المعارِضُ دوماً للحوار مع غير المسلمين؟

نوضِّحُ في البداية، أنّ محاضرة البابا السّابقة في جامعة ريجنسبورغ الألمانية قد لاقت معارضةً شديدةً وامتعاضاً واستهجاناً في الشارع المسلم، فهبّت مجموعةٌ من العلماء والمفكرين وأساتذة الجامعات في العالم الإسلامي للردّ على أبرز مضامين هذه المحاضرة، وقد أُطلق على هؤلاء مُسمى (مجموعة ألـ ١٣٨)، وقد صاغ هؤلاء العلماء والمفكّرون المسلمون ردّهم في وثيقةٍ هامّةٍ حملت عنوان (رسالة مفتوحة إلى قداسة البابا بندكت السادس عشر) وقد نشرت مجلة (Islamica magazine) النصّ الحرفيّ الكامل لهذه الوثيقة موشّحة بأسماء وتواقيع مائةٍ من هؤلاء الأساتذة والمفكرّين الأفاضل، وكذلك فقد نشر موقع (كلمة سواء)[1] نصَّ هذه الوثيقة كاملاً مرفقاً بتواقيع ثمانيةٍ وثلاثين من علماء العالم الإسلامي بمختلف طوائفه ... ونشيرُ قبيل التعليق على مضمون الوثيقة، وموقف الفاتيكان منها إلى أننا من المؤيّدين والدّاعين لكلّ حوارٍ مثمرٍ ومفيدٍ ـ يلتزمُ ضوابط الشرع الإسلامي في الحوار ـ وقدوتنا في إجراء الحوارات

---

[1] انظر الموقع الإلكتروني لكلمة سواء للوقوف على النص الكامل للوثيقة.

والمناظرات مع غير المسلمين هو الحبيبُ المصطفى ﷺ ومَنْ جاء بعده من كبار الصّحابة، الذين حاوروا أهل الكتاب وناقشوهم ودعوهم إلى الإسلام وأقاموا عليهم الحجّة.

نعم نحن ندعو إلى حوارٍ ـ ونكرِّرُ مثمرٍ ومفيدٍ وملتزمٍ ـ، وذلك لما للحوار من دورٍ في تدعيم العلاقات الإنسانية ومواجهة التعصُّب الأعمى، وتجنُّب الصراعات وحل المشكلات بعيداً عن العنف والتشدّد والاتّهام والتشكيك في النيّات،ومستندنا في ذلك قوله تعالى **(قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءِۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)**[1]، وقوله تعالى **(ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ)**[2].

إننا، وكما قدّمنا، نؤمن بالحوار المثمر المفيد، بين طرفين يعترفُ كلٌّ منهما بالآخر، حوارٍ قائمٍ على الإرسال والاستقبال من الطرفين بهدف التفاعل والوصول إلى نتيجةٍ وفائدةٍ. وبالعودة للحديث عن الوثيقة السابقة (وثيقة الـ ١٣٨) أو وثيقة (كلمة سواء) فإنّها كانت أشبه برسالةٍ مفتوحةٍ موقّعةٍ من مجموعةٍ من مفكرّي وعلماء العالم الإسلامي من أربعٍ وأربعين دولةً مُسلمةً مختلفةً، وكانت موجَّهةً لقادة الكنائس والطوائف المسيحيّة في العالم كلّه، وعلى رأسهم البابا بنديكتيوس السادس عشر، وهي في أساسها تؤكّدُ على أنّ الإسلام والمسيحية يشتركان في مرتكزاتها الأساسية في وصيتين "ذهبيتين" بالغتي الأهمية، وهما حُبّ الله وحُبّ الجار، وبناءً على هذه الأرضية المشتركة فقد دعت وثيقة "كلمة سواء" إلى السلام والتآلف والانسجام بين المسلمين والمسيحيين في كل أنحاء العالم.

"ومنذ إطلاقها في تشرين الأول، استجابت أكثرُ من ستّين شخصيةً مسيحيةً رئيسيةً للمبادرة، بشكلٍ أو بآخر، بمن فيهم البابا بنديكتيوس السادس عشر، والبطريرك

---

(1) سورة آل عمرآن، الآية ٦٤.

(2) سورة العنكبوت، الآية ٤٦.

أليكسي الثاني والدكتور روان وليامز رئيس أساقفة كانتربيري، والمطران مارك هانسون، رئيس الاتحاد اللوثري العالمي. وفي تشرين الثاني من عام ٢٠٠٧م قام أكثر من ثلاثمائةٍ من القادة الإنجيليين الأمريكيين البارزين بالاستجابة للمبادرة عبر رسالةٍ مفتوحةٍ نُشرت في صحيفة "النيويورك تايمز"، وفي هذه الأثناء، ارتفع عدد العلماء المسلمين الموقّعين على المبادرة إلى حوالي ثلاثمائة، بينما زاد عدد المنظمات والروابط الإسلامية التي أيدت المبادرة على أربعمائةٍ وستين"[١].

وأدت المبادرة إلى ظهور عددٍ من المبادرات المجتمعيّة والشعبيّة المحلية في جميع أنحاء العالم، بالإضافة إلى عقد مؤتمراتٍ دوليةٍ في جامعتي ييل وكمبريدج وفي قصر لامبيث. وكانت المبادرةُ الأساسَ لعقد المنتدى الكاثوليكي الإسلامي السنويّ الأول في الفاتيكان شهر تشرين الثاني. كما منحتها جمعية علماء الاجتماع المسلمين في بريطانيا جائزة بناء الجسور لعام ٢٠٠٨م. وكلُّ ما سبق يدلُّ على أنّ هذه الرسالة المفتوحة من هؤلاء العلماء لاقت التأييد والاستحسان بشكلٍ عامٍّ من الكثير من القيادات الدينية في العالمين الإسلامي والمسيحي.ولكنّ السؤال المُلِحَّ الآن هو كيف كانت استجابة الفاتيكان والبابا بنديكتيوس لهذه الرسالة؟؟

لقد أعرب البابا عن تقديره العميق لهذه اللفتة وللروح الإيجابيّة التي ألهمت خطاب المسلمين ... وبعد تذكيره بالخلافات العقدية بين المسيحيين والمسلمين أشار إلى أن ما يجمع هاتين العقيدتين (المسيحية والإسلام) هو: "الإيمان بالإله الواحد"، الذي "في نهاية الزمان سوف يحاكم كل إنسان وفقاً لعمله" ... وهذه العبارة ليست جديدةً؛ فقد وردت في وثيقة "في زماننا هذا" الصّادرة عن مجمع الفاتيكان الثاني عام ١٩٦٥، التي سبق ذكرنا لها، كما أعرب البابا عن رضاه لأن المسلمين قد اختاروا أن يكون موضوع "محبة الله ومحبة الجار"، التي كانت محور خطابه الرسوليّ الأول، هي نفسها محور خطاب المسلمين "ثم راح يُملي شروطه من أجل إمكانية عمل حوارٍ مشتركٍ، وهي: احترام كرامةِ كلّ إنسانٍ، والمعرفة الموضوعية لديانة الآخر، وتقاسم التجربة الدينية. وبعد تطبيق ذلك، أوضحَ أنه يمكن التعاون "في المجالات الثقافية والاجتماعية من أجل دعم العدالة والسلام" موضحاً أنَّ آفاق التعاون هي "ثقافية

---

[١] جريدة الدستور، بتاريخ ٢٠٠٨/١١/٢٣، بتصرف واختصار.

وإجتماعية وليست لاهوتية" أي ما معناه أنه لا نقاش في العقيدة، التي هي الخلاف الأساس بين المسيحية والإسلام!!!"[1].

ثم أوكل البابا إلى الدكتور عارف علي النايض، الذي كان يعملُ في المعهد البابوي للدراسات العربية والإسلامية، اختيارَ وفدٍ من الموقّعين على وثيقة "كلمة سواء" للقائه، موضحاً أنّ هذا الوفد سيمكنّه من الاجتماع بحوالي عشرةٍ من الخبراء الكاثوليك، تحت قيادة المجلس البابوي للحوار الديني، برئاسة الكاردينال جان لوي توران، والجامعة البابوية الجريجورية، والمعهد البابوي للدراسات الإسلامية والعربية.

"وفي الثلاثين من الشهر، أي في ثاني يومٍ لإعلان رد البابا، علّق الكاردينال جان لوي توران، الذي سيترأس الحوار، قائلاً في حديثٍ له مع جريدة "أفنيري" (Avvenire) الإيطالية: "لدى المسلمين يمكننا تقدير حجم إعلائهم لله، وقيمة الصلاة والصوم، وشجاعة إعلانهم عن إيمانهم في الحياة العامة". ثم أضاف قائلاً: "ومن جانبهم يمكنهم أن يتعلّموا مِنّا قيمة العلمانية الصحيحة (!) وأنه يتعيّن على المسلمين أن يكتشفوا قيم عدم إجبار أو حرمان شخصٍ من ممارسة دينٍ ما ... فما هو مباح لطرفٍ يجب أن يكون مباحاً للطرف الآخر، ومن هذا المنطلق إن كان مِن الصواب أن يكون للمسلمين مسجدٌ كبيرٌ وجميلٌ في روما، فمن الصّواب أيضاً ومن الضروري أن يكون للمسيحيين كنيستهم في الرياض"! ثم أشار إلى أن "مبدأ المبادلة هذا يمكن أن يتمَّ بصورةٍ فعالةٍ عبر الحوار الدبلوماسي والكرسيّ الرسوليّ وحكومات البلدان ذات الأغلبية المسلمة" ... ثم أوضح الكاردينال أنه لا حوار ممكنٌ مع "إسلام يُبَشِّرُ ويمارس الإرهاب، الذي هو ليس إسلاماً أصليّاً وإنما تحريفٌ للإسلام ... وكان البابا قد أعرب بأوضح الصور عن معنى الحوار الذي يريده مع الإسلام في الخطاب الذي ألقاه أمام الإدارة البابوية يوم ٢٠٠٦/١٢/٢٢، بمناسبة تقديمه التهنئة بأعياد الميلاد إلى أعضاء لجنة اللاهوت الدولية، حيث قام بشرح الوصايا العشر وأنها تمثل "أساساً لقيم أخلاقية عالمية" ويمكن تلخيصها في أهم نقطتين هما: حب الله وحب القريب، ثم أعرب عن رأيه في الحوار مع المسلمين قائلاً: "في الحوار الذي يجب علينا تكثيفه مع الإسلام، علينا أن نضع أمام أعيننا واقع أن العالم الإسلامي يجد نفسه اليوم أمام مهمةٍ شديدة الشبه بتلك التي تمَّ فرضها على

---

[1] عبد العزيز، زينب، ردّ الفاتيكان على خطاب ألـ ١٣٨، مقالة تحليلية منشورة بتاريخ ٢٠٠٧/١٢/١٠ على موقع وكالة الأخبار الإسلامية (نبأ) www.islamicnews.net

المسيحيين ابتداءً من عصر التنوير والتي أتى لها مجمع الفاتيكان الثاني بحلولٍ جذريةٍ للكنيسة الكاثوليكية بعد أبحاثٍ طويلةٍ مُضنيةٍ"[1].

وفي ختام الحديث عن موقف الفاتيكان الحالي ممثّلاً بالبابا والكاردينالات وكبار الرهبان من الحوار مع الإسلام نجدُ أن المؤسسة البابوية قد اشترطت من أجل إمكانية عمل حوارٍ مشتركٍ مع المسلمين ما يلي:

١. احترام المسلمين لكرامة كلّ إنسان.
٢. المعرفة الموضوعية لديانة الآخر.
٣. تقاسم التجربة الدينيّة.

مع الأخذ بعين الاعتبار أنّ الحوار بعد تحقيق المسلمين لهذه الشروط، يمكن أن يؤدي إلى تعاونٍ في المجالات الاجتماعية والثقافية فقط! إذاً فالموافقة على إجراء الحوار مع المسلمين مشروطةٌ بتحقيقهم لمطالب مُسبقةٍ، مطالب متعاليةٍ تطعنُ أكثر ما تطعن في فهمهم لمعنى كرامة الآخر وديانة الآخر وتقاسم التجربة الدينيّة معه!!! مع الأخذ بعين الاعتبار كذلك أنّ ما تقدّم كلّه مندرجٌ تحت مُسمّى الإسلام كدينٍ وضعيٍّ لا سماويٍّ، ودون أدنى اعترافٍ بنبوّة الحبيب المصطفى ﷺ!!. أي أنّه حوارٌ مع طرفٍ لا يعترفُ بك ولا يؤمنُ بصدقيّة قرآنك ولا يظنُّ خيراً برسولك الكريم!! لم يعترف البابا الحالي بخلاص[2] المسلمين، وهو نفسه كان المسؤول عن صياغة وثيقة الخلاص للمؤمنين التي حملت اسم (دومينوس يزوس) أيام كان رئيساً لمجلس مجمع العقيدة والأيمان في ظل البابا الراحل يوحنا بولس السادس!! ولا غرابة في موقفه هذا، فكيف سيعترف بخلاص المسلمين في ذات الوقت الذي لم يعترف فيه بخلاص غير الكاثوليك حتى ولو كانوا مسيحيين. نعم لقد أثار هذا البابا الكثير من القلاقل والمشكلات والاحتجاجات منذ جلوسه على عرش البابويّة، فبعد هجومه على الإسلام، في المحاضرة التي تحدّثنا عنها، نراه قد تَحَوَّلَ للهجوم على الكنائس المسيحية غير الكاثوليكية

---

(1) المرجع السابق نفسه.

(2) الخلاص في اللاهوت هو مصطلح يدل على حالة الخروج من حالةٍ أو وضعٍ وظرفٍ غير مقبول أو غير محبب، وهو قضية أساسية ومحورية في المسيحية تشير إلى خلاص الإنسان من خطاياه أو خلاصه من سلطانها عليه، حيث تؤمن بأنه قد تم ذلك الخلاص بعملية الفداء التي قام بها المسيح على الصليب. وقد تقررت عقيدة= =الفداء والخلاص في مجمع نيقية المنعقد في عام ٣٢٥م، ومن تلك المقررات (الذي من أجلنا= =نحن البشر، ومن أجل خلاصنا نزل وتجسّد وتأمل ومات) ولكن تختلف آراء المذاهب المسيحية حول الكيفية التي يقبل أو ينال بها الإنسان هذا الخلاص.

واصفاً إيّاها بالخاطئة وحاصراً للخلاص لكلّ المؤمنين بالمسيح في ظل الكنيسة الكاثوليكية فقط. بدأ هذا الرجل المحافظ المتشدّد بمهاجمة المسيحيين غير الكاثوليك وإثارة القلاقل للمسيحيين في عام ٢٠٠٠م عندما صاغ وثيقة أو إعلان دومينوس يزوس[1]، وهذه الوثيقة تقول في فصلها الرابع تحت عنوان "مدينة ووحدة الكنيسة": إنّ المسيح لم يبنِ فقط مجتمعاً من الأتباع، ولكنه أسَّسَ كنيسة، وَتَجَسَّدَ بنفسه فيها وتجسَّدتْ فيه، لذا لا يمكن فصلهما. وتضيف الوثيقةُ أنه للأسباب السابقة وللعلاقة الوثيقة بين عالمية وسائط الخلاص للمسيح ووحدة الكنيسة التي أسَّسها بنفسه فإنه يجب أن يكون هناك إيمان ويقين بأن كنيسة المسيح موجودة فعلياً وحصرياً في الكنيسة الكاثوليكية، ولأنه لا يوجد سوى مسيحٍ واحدٍ، فبالتالي لا يوجد سوى جسدٍ واحدٍ له، ولا توجد سوى كنيسةٍ رسولية واحدةٍ هي الكنيسة الكاثوليكية، وحسبما يقول الرب فإن المسيح لن يترك الكنيسة، ولكن سيرشدها بروحه وهذا يمثل، حسب العقيدة الكاثوليكية، حقيقةً واحدةً، وهي أنَّ وحدة الكنيسة لا يمكن أن تتأثر أو تتغير. وتؤمن العقيدة الكاثوليكية، حسب وثيقة دومينوس يزوس، بأن هناك امتداداً تاريخياً مستمراً وخلافةً رسوليةً بين الكنيسة التي أسّسها المسيح والكنيسة الكاثوليكية ... الكنيسة الوحيدة للمسيح التي صمدت في كل العصور كدعامةٍ رئيسيةٍ للحقيقة.

وتشير الوثيقة إلى أن المجلس الثاني للفاتيكان يريد ترسيخ حقيقتين واضحتين، الأولى أن كنيسة المسيح برغم الانشقاقات والانقسامات الموجودة بين المسيحيين مستمرةٌ وموجودةٌ فقط في الكنيسة الكاثوليكية. والحقيقة الثانية، أنه بعيداً عن هيكل وقوام الكنائس والجماعات الكَنَسيّة الأخرى، فإن عدداً من عناصر الحقيقة والقدسية يمكن أن يوجد في هذه الكنائس، بالرغم من عدم اتساقها الكامل مع الكاثوليكية، لكن ومع الاحترام الكامل، حسب نص الإعلان، فإنه يجب الإقرار بأن هذه الكنائس فقدت فاعليتها من النعمة الإلهية والحقيقة الكلية التي تختص بها الكنيسة الكاثوليكية.

انطلاقاً من هذا، وكما تشير وثيقة "دومينوس يزوس"، فإن كنيسة المسيح موجودة فقط في الكنيسة الكاثوليكية، والتي يحكمها خليفة المسيح وأتباعه، أما باقي الكنائس، وإن كانت لا تتمتع بالحقيقة الكاملة ولا تتوحَّدُ بالكامل مع الكاثوليكية، فإنها تظل مرتبطةً بها

---

[1] انظر موقع الفاتيكان الرسمي للوقوف على نص هذه الوثيقة كاملاً www.vatican.va

بصلاتٍ وثيقةٍ، وتتمثل فيها أيضاً كنيسة المسيح حتى لو لم تقبل بالعقيدة الكاثوليكية كمذهبٍ وسلطةٍ.

وتوضح الوثيقة أنه غير مسموحٍ في العقيدة المسيحية بتصور أن كنيسة المسيح تم توزيعها على الكنائس التي ظهرت عبر الانشقاقات التي حدثت على مر التاريخ المسيحي، كما لا يمكن قبول فكرة أنه لم تكن هناك كنيسة من الأساس للمسيح. وتؤكد أنَّ الدين المسيحي يشدد على حقيقةٍ واحدةٍ، وهي أنَّ جميع عناصر كنيسة المسيح موجودة متوحدة في كيان واحد هو الكنيسة الكاثوليكية، وهذه العناصر غير متوفرة في الجماعات الكنسية الأخرى. وتقول الوثيقة استناداً إلى ذلك فإنه، في ظل إيماننا الكامل بوجود عيوبٍ في الكنائس والجماعات الأخرى، فإنها في كلِّ الأحوال محرومةٌ من أسرار الخلاص، لأن روح المسيح عزفت عن استخدامها كوسائط للخلاص، ووضعت كل النعمة الإلهية والحقيقة المجردة في الكنيسة الكاثوليكية.

لقد أثار نشر هذه الوثيقة زوبعةً من الاحتجاجات في العالم المسيحي عام ٢٠٠٠م والفضل في ذلك كلّه يعود لهذا البابا بنديكتيوس الذي كان يحمل لقب كاردينال، ويشغل منصب رئيس مجمع العقيدة والإيمان. ثم عاد بعد أن أصبح بابا لروما عاد في عام ٢٠٠٧م لنشر وثيقة مشابهةٍ للوثيقة السابقة وتؤكّد على مضمون الوثيقة السابقة في تأكيدها على أفضلية الكنيسة الكاثوليكية الرومانية على غيرها من الكنائس واعتبارها كنيسة المسيح الحقيقية والطريق الحقيقي الوحيد للخلاص في حين تُعتبرُ بقية الكنائس إمّا معيبةً أو غير حقيقيةٍ، وهذه الوثيقة الجديدة حملت اسم "احتكار روح المسيح"[1]، وقد نشرها الفاتيكان على موقعه الرسمي بسبع لغاتٍ في شهر تموز عام ٢٠٠٧ وكانت هذه الوثيقة قد "تضمنت ١٢٠٠ كلمةٍ قوّيةٍ حول استئثار "الفاتيكان بالخلاص وأسرار المسيح"، وأحدثت ردود فعل عنيفةً لدى الكنائس الأخرى التي هاجمتها وأطلقت ألفاظاً ساخنةً على البابا بنديكت واعتبرت الكنائس البروتستانتية والأرثوذكسية أنَّ وثيقة الفاتيكان تعكس رغبة البابا بنديكت السادس عشر في العودة إلى الطقوس والممارسات الكاثوليكية الرومانية في عصور الظلام حتى لو كان ذلك يسبب ألماً وإهانةً لآخرين. وقال القس "ولفانج هيوبر" راعي الكنيسة الإنجيلية في ألمانيا لصحيفة "الجارديان" البريطانية إنَّ إعلان الفاتيكان يُعدُّ انسحاباً وارتداداً عن الفكر المنفتح

---

[1] انظر موقع الفاتيكان الرسمي للوقوف على نص الوثيقة كاملاً www.vatican.va

الذي تبنّاه المجمع الفاتيكاني الثاني في الستّينات، وقضى على الأمل في تحريك المياه الراكدة بين الكنائس، وأشار إلى أنَّ الوثيقة تكرر الإهانات التي سبق إصدارها ضمن إعلان "دومينوس يزوس" عام ٢٠٠٠م تحت مسؤولية البابا الحالي حينما كان رئيساً لمجمع العقيدة والإيمان وحمل اسم الكاردينال جوزيف راتسينجر"[١].

وحسب موقع كاثوليك "أون لاين" فإنَّ الوثيقة التي صِيغت بسبع لغات في ١٢٠٠ كلمة تؤكّدُ أنَّ الكنائس والجماعات الكنسية الأخرى محرومةٌ من أسرار الخلاص، لأنَّ روح المسيح أحجمت عن استخدامها كأدواتٍ للخلاص وخصّت الكنيسة الكاثوليكية فقط بهذه النعمة الإلهية.

وقال مجمع العقيدة والإيمان التابع للفاتيكان إنّه من الصعب قبول استخدام كلمة كنيسة لوصف الجماعات غير الكاثوليكية والتي اعتبرها الكنيسة الوحيدة للمسيح.

"ومن جانبه، أكَّدَ الأب "أوجستين دي نويا" أحد المسؤولين البارزين في الفاتيكان أنَّ الكنيسة الكاثوليكية لم تتراجع عن رغبتها في الحوار مع الكنائس الأخرى لكن كان من المهم للغاية أن يوضّح كل طرفٍ من المشاركين في هذا الحوار موقفه.

"وفي إطار ردود الأفعال، أصدر الاتحاد العالمي للكنائس الإصلاحية بياناً مساء أمس الأول يقول فيه: إن وثيقة الفاتيكان تجعلنا نشك في إذا كنا جميعاً نصلي من أجل وحدة المسيحية أم لا. وأكَّدَ رئيس اتحاد الكنائس الإنجيلية في إيطاليا "باستور دومينيكو ماسيني" أن الفاتيكان اتخذ خطوةً واسعةً إلى الوراء وزاد من اتساع الفجوة التي تفصل الكنيسة الكاثوليكية الرومانية والمجتمعات المسيحية الأخرى وحذَّر الاتحاد الفرنسي البروتستانتي من عواقب الإعلان الكاثوليكي"[٢].

هذا الذي أحدثه وبرع فيه البابا بنديكتيوس السادس عشر، مزيدٌ من الانقسامات والانشقاقات في العالمين الإسلامي والمسيحي، وهذا الذي تشهد له التصريحات السّابقة كلّها وبلسان أبناء المسيحية أنفسهم قبل ألسنتنا. لقد هاجم البابا الإسلام واتّهمه بفرياتٍ كثيرةٍ،

---

[1] فودة، محمد، الفاتيكان ينشر وثيقة "إحتكار روح المسيح" مقالة منشورة في الموقع الإلكتروني www.google.com
[2] فودة، [م. س].

سبق إيرادها، كما هاجم كلاً من الكنيستين البروتستانتيّة والآرثوذكسية (الكنيسة الأم) بكلِّ جرأةٍ وشدّةٍ لا لين فيهما، في الوقت الذي عجزَ فيه عجزاً كاملاً عن ذِكرِ اليهود ذكراً لا يرضون عنه في تاريخهم أو حاضرهم؛ فأكَّد من جديدٍ على براءتهم الكاملة من المسؤولية التاريخية عن صلب المسيح، كما أكّد على تجريم كلٍّ من يُعادي السّاميّة ووصف ذلك بالقول (أن تكون معادياً للساميّة يعني أن تكون معادياً للمسسيحيّة). "فقد أعلن البابا بنديكتيوس السادس عشر أمس في اليوم الأول من زيارته إلى فرنسا خلال لقائه مع ممثلين عن المجموعة اليهودية أنَّ المعاداة للسامية تعني ايضاً معاداةً للمسيحية. وقال بابا الفاتيكان: "إن الكنيسة تعارض أيَّ نوعٍ من أنواع معاداة السامية التي لا يبررها أيُّ تفسير لاهوتي، قبل أن يستشهد باللاهوتي "هنري دي لوباك" الذي قال: [أدرك أنكَ في حال كنتَ معادياً للسامية فأنت أيضاً معاد للمسيحية].وأضاف البابا "مرةً أخرى أنا حريصٌ على توجيه تحيَّةٍ عميقةٍ إلى الذين قتلوا بشكلٍ ظالمٍ وإلى الذين عملوا لكي لا تدخل أسماءُ الضحايا غياهبَ النسيان" كما شدَّد البابا على "الدور الجليل" الذي قام به يهود فرنسا في تاريخ هذا البلد "ومساهمتهم العظيمة في تراثه الروحي". وقال الحاخام الأكبر لفرنسا "جوزيف سيتروك" "إنه يتصرف بتواضعٍ وهو رجلٌ بسيطٌ للغاية واستقبلنا كأصدقاء، صراحةً لقد انجذبتُ إليه كثيراً، وتكلم الحاخام في نهاية اللقاء عن "تقاربٍ تاريخيٍ بين اليهودية والكنيسة"[1].

وفي استمراريةٍ لمسلسل التقارب بين الفاتيكان واليهود في ظل البابا الحالي بنديكتيوس فقد أقدم هذا البابا على سابقةٍ في تاريخ الفاتيكان، فلأول مرةٍ في تاريخ الفاتيكان يوجه البابا دعوةً إلى حاخامٍ يهوديٍ لحضور مؤتمرٍ للأساقفة الكاثوليك، وكان عنوان المؤتمر كلمة الله في العهدين القديم (التوراة) والجديد (الانجيل) "وكان الحاخام المدعو إلى المؤتر هو "شيريا شوف كوهين"، حاخام مدينة حيفا. وبموجب ترتيبات المؤتمر أُعطيتْ الكلمة للحاخام كمشاركٍ في المؤتمر. ولكنَّه ما أن اعتلى المنصة حتى فاجأ الجميع بشنّ حملةٍ على البابا الراحل بيوس الثاني عشر، مجدِّداً اتهامه بأنه تواطأ مع النازية خلال حملة الإبادة التي تعرض لها اليهود أثناء الحرب العالمية الثانية.

فوجئ البابا بنديكتوس السادس عشر، كما فوجئ مجلس الأساقفة الكاثوليك بالحملة التي شَنَّها الحاخام كوهين على البابا بيوس الثاني عشر؛ ذلك أن هذه التهمة كانت في نظر

---

(1) جريدة الرأي الأردنية، بتاريخ ٢٠٠٨/٩/١٢.

الفاتيكان تهمةً باطلةً، ثم أنها وُجِّهتْ في مؤتمر للأساقفة وفي وجه البابا وفي عقر دار الكنيسة الكاثوليكية، الأمر الذي أثار الاستغراب والاستهجان معاً. لم يتولَّ أيٌّ من الأساقفة الردَّ المباشر على اتهامات الحاخام كوهين، ولكن البابا بنديكتيوس السادس عشر تعمَّد الخروج من قاعة المؤتمر وتوجَّه مباشرةً إلى ضريح البابا بيوس الثاني عشر ومن هناك جدّد التعليمات الرسمية بتسريع إجراءات تطويبه قديساً"[١].

لقد فوجئ البابا هذه المرّة ولكنه لم يتجرّأ على قول كلمةٍ واحدةٍ للحاخام كوهين أو أن يوجّه ولو كلمةً واحدةً للكيان العبري الذي ينتمي إليه هذا الحاخام!! فُوجئت المؤسسة البابوية بتصرُّف الحاخام هذا وثار استغرابها واستهجانها، لكنّها التزمت الصمت، ووقفت مكتوفة الأيدي ... ولكنها لم تصمت بل أوقعت الحرمانَ الكنسيَّ على الأسقف وليامسون الذي أنكر وقوع محرقة لليهود في عهد حاكم ألمانيا النازي أدولف هتلر، وكان هذا الأسقف قد أدلى بتصريحٍ للتلفاز السّويدي في تشرين الثاني من عام ٢٠٠٨ قال فيه: [إنّ غُرَف الغاز لم تكن موجودةً حقيقةً وإنّ المحرقة مُبالَغٌ فيها] و[إنّ ثلاثمائة ألف يهوديٍ فقط هم الذين هلكوا في المعتقلات النازيّة وليس ستة ملايين]. ولم يرفع البابا قرار الحرمان عن هذا الأسقف المسكين "ريتشارد ولياموسن" إلاّ بعد أن قام بالاعتذار عن تصريحه السابق وطلب الصّفح بطريقةٍ مذلّةٍ ومُهينةٍ. "طلب الأسقف ريتشارد وليامسون "الصفح أمام الله" مِن كلِّ مَن آذتهم تصريحاته النافية لمحرقة اليهود، وذلك في رسالةٍ وجّهها إلى الفاتيكان ونشرتها وكالة زينيث الكاثوليكية في روما ... وأعرب الأسقفُ في رسالته عن أسفه على "الألم" الذي تسبب به "للكنيسة أولاً، وكذلك للناجين وأهالي الضحايا الذين عانوا من الظلم تحت حكم الرايخ الثالث" وأضاف "أطلبُ الصفح أمام الله من كافة النفوس التي هالها ما قلتُ، موضحاً أنه "عبَّر ببساطة عن رأيٍ غيرِ تاريخي"[٢]. ولم يتمّ رفعُ قرار الحرمان عن هذا الأسقف مباشرةً بعد هذا الاعتذار، وإنما بعد سلسلةٍ من الاعتذارات المُهينة؛ حيث تمَّ وصفُ هذا الاعتذار الأول بأنّه مرفوضٌ وغيرُ كافٍ لأنّه اعتذارٌ من الدرجة الثالثة!!!.

---

[١] السماك، محمد، "ماذا بين الفاتيكان وإسرائيل"، مقالة منشورة في جريدة المستقبل بتاريخ ٢٠٠٨/١١/٢٨.

[٢] جريدة الدستور الأردنية، العدد ١٤٦٤٨، بتاريخ ٢٠٠٩/٢/٢٧.

الفصل الثاني

الفكر الرؤيوي وتوظيفه في الفهم الخاطئ للإسلام في العصور الوسطى

المبحث الأول
الفكر الرؤيويّ وتطبيقاته

يكاد هذا الفصل يكون أكثر فصول هذه الدراسة غموضاً، وذلك نابعٌ من طبيعة الموضوع الذي يتحدّث عنه؛ ألا وهو الفكر الرؤيوي، أو الفكر النّبوئي كما يُسمّى في معتقد الكثير من الطوائف المسيحيّة. وتشيرُ مقدمة إنجيل يوحنّا (أو بالأصح رؤيا يوحنّا) إلى أنّه ليس من السّهل تحديد الفرق بين الرؤيا والنبؤة[١]، وتشيرُ مقدمة هذا الإنجيل كذلك إلى أنّه "كان الأنبياء الأقدمون يسمعون كلام الوحي سماعاً، ويبلّغونه الناس بأقوالهم، في حين أنّ أصحاب الرؤيا كانوا يشاهدون كشفاً إلهياً يدّونونه في كتبهم، وما يشاهدونه يكاد أن يكون كله رموزاً، فالأرقام والأشياء وألوانها وأعضاء الأجسام نفسها كلها رمزية"[٢].

"والرؤيا (Apocalypse)، هي تعبيرٌ مشتقٌّ من اللغة اليونانية، وتعني الوحي أو الكشف عن المُستقبل"[٣]. وتُطلقُ بصورةٍ عامّةٍ على الاعتقاد بنهاية العالم كما نعرفه، والتنبؤ بأحداث نهاية الزمان. والرؤيويّة هي: "قطعة أدبية مكتوبة، تحتوي أساساً على مقولات رؤيوية؛ مقولات حول "الأشياء الأخيرة"، التي تمس المصير الأخير والنهائي للإنسان الفرد وللعالم بأسره، وفي الإغريقية، الرؤيوية هي علم الأشياء الأخيرة"[٤].

ويرى صاحب "النهايات، الهوس القيامي الألفي" أنّ هناك فرقاً بين النبؤة وبين الرؤيا، وأنّ هذا الفرق نابع من طبيعة فعل النبي واختلافه عن فعل الرؤيوي؛ فيرى أنّ الأنبياء إنّما أرادوا فعل شيءٍ يدرؤون به الأخطار، ثم أَعلَموا الشعب بما توصّلوا إليه، ودعوه إلى الندم والرجوع عن طريق الآثام. أمّا الرؤيويون فلا يرون فائدةً تُرتجى من هذا، لأنّ الكارثة آتيةٌ لا ريبَ فيها، وجهودُ البشر لدرئها عبثٌ لا طائلَ منه، ولأنه لم يعد هناك ما يمكنه الحيلولة دون الاندثار، الذي يرجع سببُه الأعمق إلى الشرِّ المتوطّن داخل الإنسان!! ويلخّص

---

(1) بحسب قاموس الكتاب المقدّس فإن كلمة رؤيا تستعملُ لمعنيين، هما: الإعلان الإلهي، والحلم في المنام، والواقع أنّهما معنى واحدٌ؛ لأنّ الله يستخدم كليهما لإعلان إرادته وحكمه، وذلك عن طريق أشخاص أتقياء تقدّست حياتهم وصفت من أدناس العالم.

(2) إنجيل يوحنا: المقدّمة، ص ٩٥٩ من الكتاب المقدس، العهد الجديد، ط٨، ١٩٨٢ منشورات دار المشرق، بيروت.

(3) انظر:

أ. شعبان، فؤاد، من أجل صهيون، ص ٣٩٦، ط١، ٢٠٠٣، دار الفكر، دمشق.

ب. تسمرلينغ، دتر، النهايات، الهوس القيامي الألفي، ترجمة ميشيل كيلو، ص ٣٦، ط١، ١٩٩٩، دار قدمس للنشر، بيروت.

(4) تسمرلينغ، [م. س]، ص ٣٦، بتصّرف.

"صاحب النهايات" التعبير عمّا سبق من فرقٍ بين عمل النبي (صاحب النبوّة) وبين عمل الرؤيوي (صاحب الرؤيا) بقوله: "لا ينصرف اهتمام الرؤيوي إلى تعويق الكارثة، بل إلى حسابها فقط، وفي حين تريد النبوّة جعل الإنسان يتوب، يجهل الرؤيوي أيَّ شيءٍ عن تحوّله الداخليّ"[1].

ومهما يكن من أمر نتيجة التفريق السابق بين عمل الرائي وعمل النبيّ، فإنّ الذي يعنينا وبالدرجة الأولى، هو أنّ هذا النوع من الفكر الرؤيوي (أو التّبوئي) كان سائداً في العصر الأوروبي الوسيط بدرجةٍ كبيرةٍ يصعبُ علينا تصوّرها في عصرنا هذا، نعم، قد يبدو هذا النوعِ من الفكر سطحيّاً وسخيفاً بالنسبة لنا ونحن نعيش في القرن الحادي والعشرين حيث ثبتَ لنا بالدليل العملي الواقعي عدم صدقيّته وموثوقيّته، وذلك راجعٌ إلى أنّ أيّاً من نبؤاته أو رؤاه لم تتحقّق حتّى يومنا هذا، إلاّ أنّ الأمر لم يكن كذلك بالنسبة لأهل ذاك العصر؛ حيث كان الفكر الرؤيوي بالنسبة لهم شغفاً، بل يقيناً لا يقبل التشكيك.

ولعلَّ أكثر مواضيع الفكر الرؤيوي شيوعاً آنذاك كانت الرؤى التي تتحدّثُ عن نهاية العالم، والمجيء الثاني للمسيح المخلِّص الذي سيأتي من كلِّ بُدٍّ، ليُخَلِّص المؤمنين ممّا يعانونه من آلامٍ في عصور الضِّيق التي يعيشونها. ومن المهم هنا التنبيه إلى أنّ العهد القديم كان الرَّحِمَ الذي تولّدت فيه هذه الرؤى والنّبوّات كلُّها، لقد كان الفكر الرؤيوي التّابعُ من الكتاب المقدَّس يتوهّجُ ويشتدُ كلّما دعت إليه الحاجة، وفي الأغلب الأعمّ، كانت هذه الحاجة وقوع ظروفٍ وأحداثٍ تفرضُ نفسها بقوّةٍ على حياة الناس في العصر الأوروبي الوسيط، فكان الناس، كما ذكرنا، يلجؤون إلى الكتاب المقدّس ليلتمسوا في نصوصه ما يُعينهم على فهم أحداث ومشكلات ومستجدّات الحاضر والمُستقبل؛ لأنّ الكتاب المقدس كما سبق وأن ذكرنا، وكما وصفه سوذرن، كان الأداة الفكرية الوحيدة الفعّالة في أوروبا في مطلع العصور الوسطى.

ومع أنّ فكرة فهم الحاضر والمستقبل من خلال الكتاب المقدّس وعبر جسر الفكر الرؤيوي قد تبدو فكرةً غير مقنعةٍ كما نراها اليوم، إلا أنّها وللأسف تركت آثاراً مُرعبةً لا يُستهانُ بها على تطوّر الفهم الأوروبي للإسلام. "لقد بلغت نسبة المواد النّبوئيّة في الكتاب

---

(1) تسمرلينغ، [م. س]، ص ٣٨.

المقدس ٢٧% من مجموع موادّه، كما بلغت نسبة المواد النبويّة في العهد القديم ٢٨.٥% من مجموع موادّه، كما بلغت نسبة المواد النبويّة في العهد الجديد ٢١.٥% من مجموع موادّه، أمّا عن الأسفار التي تحتوي على أكبرِ نسبةٍ من المواد النبوئية فهي كما يلي:

١. في العهد القديم: سفر حزقيال ٨٢١ عدداً.

سفر ارمياء ٨١٢ عدداً.

سفر اشعياء ٧٥٤ عدداً.

٢. في العهد الجديد: إنجيل متى ٢٧٨ عدداً.

إنجيل الرؤيا (يوحنا) ٢٥٦ آية.

إنجيل لوقا ٢٥٠ عدداً"[١].

وثمّة أسئلةٌ مُلحّةٌ تطرحُ نفسها في بداية هذا الفصل، وهي متعلّقةٌ بالحديث عن رؤى ونبؤات العهد القديم، وهي: لماذا كان المسيحيون يرجعون دائماً للعهد القديم ويستلهمون منه هذه الرؤى؟؟ وهل يجبُ على المسيحيّ دراسة وفهم العهد القديم؟ وما الذي يترتّبُ على عدم قيامه بذلك؟؟ في الواقع، لقد كان الناس يرجعون وبكثرةٍ للعهد القديم ويتداولون موادّه ونصوصه في عصورٍ سابقةٍ، ولكننّا نرى في زماننا هذا انصرافاً كبيراً من أبناء الطوائف المسيحيّة عن الاهتمام بالعهد القديم، اللهمَّ باستثناء البروتستانت، ولعلّ هذا الانصراف راجعٌ لكون معظم المسيحيين ينظرون إليه على أنّه كتابُ قصصٍ وحكاياتٍ وخرافاتٍ قديمةٍ، كما ينظرون إليه على أنّه كتابٌ خاصٌّ باليهود.

وفي محاولةٍ منها لصرف أتباعها عن مثل هذا الفهم (الخاطئ) قامت معظم الكنائس، ومن خلال بوّاباتها ومواقعها الإلكترونية، بإفراد مساحاتٍ خاصّةٍ للحديث عن أهميّة العهد القديم وكونه مقدّمةً ضروريّةً وهامّةً لفهم العهد الجديد، إضافةً إلى محاولة هذه المواقع التركيز على نبؤات ورؤى العهد القديم، والتي بلغ عددُها المئات، والتي بشّرت، على حدِّ قولهم، بقدوم المسيح ـ عليه السلام ـ ويمكننا استخراجُ خلاصةٍ من هذه المواقع الكَنَسيّة الإلكترونية حول مدى وجوب وأهمية دراسة وفهم العهد القديم بالنسبة لكلِّ مسيحيٍّ، وذلك على النحو التالي[٢]:

---

[1] شعبان، [م. س]، ص ٤٠٣، ٤٠٤ باختصار وتصرّف.

[2] انظر: =

إنَّ الكتاب المقدس هو وحيٌ تدريجيٌ. فإن تجاهلتَ قراءة الجزء الأول من أيِّ كتابٍ جيدٍ فستجدُ أنه من الصعب أن تفهمَ كلَّ الشخصيات الموجودة في الكتاب والقصة ونهايتها، فيمكن استيعاب ما هو موجود في العهد الجديد عندما نتعامل معه كتكملةٍ للأساس المبنيّ على الأحداث والشخصيات والقوانين والأنظمة والعهود والوعود الموجودة في العهد القديم. فإن كان لدينا العهد الجديد فقط، فإنّنا كنّا سنقرأ الأناجيل من غير أن نفهم سبب انتظار اليهود للمسيا (المخلِّص الملك). ولم نكنْ سنفهم سببَ مجيء المسيّا للأرض، ولن نتمكنَ من التعرف على يسوع الناصري كالمسيا المنتظَرِ من خلال النبوءات العديدة التي سبقت مجيئه، والتي تناولت ميلاده وموته وقيامه وكل الأحداث المتعلقة بحياته، فإنه من غير العهد القديم، لا يمكننا أن نتعرَّفَ على العادات اليهودية، والتي تُذكَرُ بصورةٍ عابرةٍ في العهد الجديد، ولن نتمكَّنَ من تمييز العادات المُضَافة لشريعة الله، والتي قام الفريسيون بخلطها مع كلمة الله. ولن نتمكنَ من فهم سبب غضب يسوع عند تطهير الهيكل. ولن نتمكَّن من فهم الحكمة التي تكلَّم بها يسوع للردّ على معارضيه (البشر والأرواح الشريرة).

وبنفس الطريقة، فإنّه بدون دراسة العهد القديم، لا يمكننا التعرُّفُ على تفاصيل النبوءات المدوَّنة والتي يعني تحققها أنَّ الكتاب المقدس هو حقاً كلمة الله، وتتعلق هذه النبوءات بنشأة وسقوط أمّةٍ، وما سيحدثُ إن قامت ثانيةً، والشخصيات الهامة مثل (الإسكندر الأعظم، ... الخ) وما سيحدث لمالكهم عند موت الملك. وأثارت هذه النبوءات تكهناتٍ عديدةً بما يختصُ بتوقيت كتابة النبوءات.

ويحتوي العهد القديم على تعاليمَ كثيرةٍ، ويمكننا أن نتعلَّم منها أنه من الأفضل أنْ نعترف بالخطأ بدلاً من إلقاء اللوم على الآخرين، وألاّ نتلاعب بالخطيئة، وأن نثق ونطيع إن كنّا نريدُ أن نعاينَ "أرض الميعاد" بعد أن نعيش في هذه الحياة ثم ننتقل إلى سماه. كما يحتوي العهد القديم على قدرٍ عظيمٍ من الحكمة غير المدوّنة في العهد الجديد، وتوجد معظمها في سفر المزامير والأمثال. وتعلِنُ هذه الأسفار لنا تعاليم عن أهميةِ تعلُّمِ الحكمة، ونتائج الخطيئة بأشكالها المتنوّعة. ومن غير وجود العهد القديم لن يكون لنا أساسٌ أو قاعدةٌ نرتكز عليها، ومن غير أن ندرسَ العهد القديم لا يمكننا فهمُ الوعود الموجودة فيه، والتي تخصُّ شعب إسرائيل، ولا أن

= أ. موقع أسئلة من الكتاب المقدس وأجوبتها www.gotquestions.org
ب. سؤال وجواب على موقع www.thirdmill.org
ج. أسئلة وأجوبة على موقع الكنيسة القبطية www.copticchurch.net

نفهم أنه سيكون هناك سبعةُ سنين من الاضطرابات، فيها سيعمل الله على إرجاع شعب إسرائيل إليه، وهم الذين قاموا برفضه عند مجيء ابنه يسوع، وكيف أنَّ الله سيملك لمدّة ألفِ عامٍ على اليهود والأمم، ولن نتمكَّن من أنْ نرى كيف أنّ نهاية الكتاب تتفق مع بدايته حيث تكتمل الصورة ويسترد الإنسانُ علاقته مع الله ويتمتَّعُ بالشركة معه في جنّته.

وأخيراً، فإنَّ العهد القديم يعمل كمرآةٍ يمكن لنا من خلالها رؤية أنفسنا من خلال قصص الآخرين الموجودين فيها، وأن نتعلَّم من تجاربهم. ويقوم العهد القديم بإلقاء الضوء على شخص المسيح، والعجائب التي صنعها، والخلاص الممنوح للناس. ويعزّي ويشجّع الذين هم تحت الاضطهاد والتعذيب. ويعلنُ العهد القديم من خلال النبؤات الموجودة فيه، أنّ الكتاب المقدس هو كتابٌ منفردٌ، إذ أننا نرى تحقيق الوعود الموجودة فيه، ونرى أنَّ الكتاب المقدّس هو حقاً كلمة الله الموحاة".

لقد وقفنا في الفصل الأول من هذه الدراسة على النتائج التي تمخّضت عن قراءة الكتاب المقدّس ومحاولة الربط بين أحداثه ونصوصه وبين الدِّين الإسلامي، وقلنا إنّ أبرز تلك النتائج كانت:

أولاً: إنَّ ظهور محمّدٍ ودولته الإسلامية القوية وانتصارها إنما هو مقدّمةٌ وتمهيدٌ لظهور المسيح الدجّال، وفي هذا إشارةٌ واضحةٌ لقرب نهاية الزمان.

ثانياً: إنّ محمّداً ومملكته إنّما هما التفسير الحقيقي لمعنى الوحش الرابع الذي ورد ذكره في سفر دانيال.

كما ذكرنا في الفصل الأول من هذه الدراسة أنّ الأوروبيين لمّا فسّروا أحداث زمانهم طبقاً لإشاراتٍ وردت في الكتاب المقدّس فإنهم قد فسّروا ظهور الإسلام بأنه ظهور نقيض المسيح وعدوّه. وقد وجدوا ما يثبت زعمهم هذا في كتابهم المقدس، وبالتحديد في (سفر دانيال، الإصحاح السابع الفقرات ١٥ – ٢٥) والتي جاء فيها: أمّا الحيوانُ الرابع فتكون مملكةً رابعةً على الأرض مخالفةً لسائر الممالك فتأكل الأرض كلّها وتدوسها وتسحقها. والقرون العشرة من هذه المملكة هي عشرةُ ملوكٍ يقومون، ويقوم بعدهم آخر، وهو مُخالِفُ الأولين، ويُذِلُّ ثلاثةَ ملوك، ويتكلم بكلامٍ ضدَّ العليّ، ويبلي قديسي العلي، ويظنُّ أنه يغير الأوقات والسَّنة

ويسلمون ليده إلى زمانٍ وأزمنة ونصف زمان. وبموجب فكر العصر الوسيط فإنَّ الحيوان الرابع يتَّمثَّلُ في الإمبراطورية الرومانية التي جاءت بعد إمبراطوريات: الأشوريين والفرس واليونان، وأن القرون العشرة للمملكة هم البرابرة الذين غزوا أوروبا، ومن بعدهم جاء أتباعُ محمدٍ ﷺ، الذين اكتسحوا اليونان والفرنجة والقوط، وأنهم مختلفون عن البقية، وأنهم غيَّروا الأوقات والقوانين. وقد ثارت في نهاية ذكرنا لهذه الرؤى والإشارات أسئلةٌ عديدةٌ ارتأينا الإجابة عنها في هذا المبحث، ولعلَّ أبرز هذه الأسئلة هو: هل كان الناس في العصور الوسطى قادرين على هذا النوع من الفهم والتفسير لنصوص الكتاب المقدّس من خلال قراءتهم المباشرة له؟؟ أو بعبارةٍ أخرى: هل كان الناس قادرين على فهم الفكر الرؤيوي؟؟ الإجابة هي لا. ولكنّ الذي حدثَ أنَّ هنالك وسطاء من الرهبان والمفكّرين الكاثوليك كانوا قائمين على نشر مثل هذا الفكر الرؤيوي والترويج له. ولعلَّ أبرز هؤلاء على الإطلاق كان بيدا المبجّل، وأوغيليوس وباول ألفاروس.

ومن المستحسن قبل الخوض في تفاصيل أبرز الرؤى والنبوءات أن نتوقّف قليلاً عند هؤلاء الرجال الثلاثة؛ وذلك لخطورة الدّور الذي لعبوه في تكريس مثل هذا النّمط من فكر الرؤى والتنبؤات.

أولاً: بيدا المبجّل: هذا الرجل هو "مؤرخٌ بريطانيٌ من أصول اسكتلندية، عاش في الفترة ما بين ٦٧٢م – ٧٣٥م"[١]. أي في الفترة الزمنيّة التي كانت الحضارة الإسلامية فيها تحقق أكبر إنجازاتها، وتقدّم للعالم كلَّ المبتكرات والإبداعات العلمية والأدبية والثقافية، وبالذات في الأندلس. كان هذا المؤرخ من أكبر العلماء الدارسين للكتاب المقدّس في مطالع العصور الوسطى، وقد وصفه سوذرن بأنه "كان محيطاً بكل التفكير حول الكتاب المقدّس حتّى أيّامه. وأنَّ ما كتبه في تفسيره وشرحه والتحشية والتأريخ له، ظلّ العمدة في بابه حتى القرن الثاني عشر"[٢].

---

[1] فلوري، جان، الحرب المقدّسة، الجهاد، الحرب الصليبيّة، العنف والدّين في المسيحية والإسلام، ترجمة غسان مايسو، ص ١١٠، ط١، ٢٠٠٤، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، بيروت.

[2] سوذرن [م. س]، ص ٥٢.

"وكان هذا الرجل أولَ من أدخل المسلمين في تفسير العهد القديم، وصار الأمر بمثابة (كليشية) يستعمله الجميع في القرن التاسع الميلادي"[١].

كان هذا الرجل ينظر بقلقٍ وخوفٍ بالغَين للفتوحات الإسلامية المتواصلة في زمانه، والتي بلغت أقصى مدىً لها قبل وفاته. ولكنَّ تراجُعَ المدِّ الإسلامي في معركة بلاط الشهداء أعاد له شيئاً من السكينة والاطمئنان. كان هذا الرجل يكره المسلمين كراهيةً بلا حدود "ويرى فيهم كُفَّاراً متبربرين، وأنّ وحشيتهم كبيرةٌ، وقد تحدّث في كتابه المُسمّى (التاريخ) عن هجماتهم وتخريبهم وعن العقوبة الإلهية التي نزلت بهم في معركة بواتييه"[٢]. وكان يرى أنّ الانتصارات التي حققها المسلمون ليست سوى عقابٍ مؤقَّتٍ من الله. "وفي عام ٧٢٩م وضع بيدا مؤلَّفاً بعنوان "تاريخ كنيسة إنكلترا" دوَّن فيه ظهور مذنَّبينِ كان يرى فيهما علامةً على اجتياح المسلمين في ذاك الحين، الذين، كما قال، كانوا ينساقون في مدينة غاليا إلى مذابحَ هائلةٍ"[٣]. ساهم هذا المؤرخ البريطاني في تكريس تسمية السراسنة [أو السرازانيين] للمُسلمين، وكانت كتاباته عن المسلمين والرسول محمد ﷺ سلبيّةً جدّاً، ووصل به الحدُّ أنْ "يصف محمداً ﷺ بأنّه رجلٌ من الصّحراء ويشبهُ جدَّهُ إسماعيل، والذي كانت يدُه ضدّ كل إنسان، ويقول: إنّ إسماعيل لا يشمله وعدُ الرب، الذي وعد به إبراهيم ومن بعده إسحق ويعقوب. ويصفُ "السراسنة" بالوقاحة والبربرية وحبِّ الحرب. وعلاوةً على ذلك قال: إنَّ محمداً أميٌّ، وأنَّ وضعه الاجتماعيّ كان وضيعاً، وكان جاهلاً بالعقيدة المسيحية، ويتعطّش للسلطة المطلقة، مما ساعده ليصبح حاكماً ادّعى النبوة"[٤].

أمّا في شروحه على الكتاب المقدس، والتي قلنا بأنها ظلّت العمدة في هذا الباب حتى القرن الثاني عشر الميلادي، فقد بدا بيدا المبجّل هذا شديد الاهتمام بأمر المسلمين، "وذكر في عدّة مواطن من شروحه أنّ السرازانيين هم أعقابُ هاجر، زوجة إبراهيم المصريّة، التي تردُ قصّتُها في سفر التكوين ضمن قصّة إبراهيم"[٥]. وفي معرض تعليقه على ربط بيدا المبجّل بين المسلمين [أو السرازانيين كما سمّاهم] وبين أعقاب هاجر ـ عليها السلام ـ يذكر سوذرن كلاماً هامّاً وخطيراً ملخّصه: "ترمُزُ الشروح الإنجيلية القديمةُ بإسحاق للمسيح،

---

[1] المرجع السابق نفسه، ص ٥٣.
[2] سوذرن، [م. س]، ص ٥٣، والمقصود بمعركة بواتييه معركة بلاط الشهداء.
[3] فلوري، [م، س]، ص ١١١، بتصرّف.
[4] الفرا، [م، س]، ص ٥٥.
[5] سوذرن، [م. س]، ص ٥٣.

وبأعقاب إسحاق للكنيسة، أمّا إسماعيل وأعقابه فهم اليهود في نظر هذه الشروح. وكان هذا هو التأويل المجازي للأحداث المذكورة في سفر التكوين، بيدَ أنّ المفسّرين الأوائل [يقصد بيدا المبجّل ومعاصريه] هؤلاء آمنوا حرفياً بأنَّ أعقاب إسماعيل الحقيقيين هم السرازانيون، وقد رأوا في القليل الذي عرفوه عن العرب ما يؤيّد هذا التأويل لنصوص العهد القديم، فقد طُرد إسماعيل إلى الصحراء، وجاء العربُ من الصحراء، وذكر العهد القديم عن إسماعيل أنه كان بدوياً شرساً رافعاً يده على الجميع. فهل هناك ما يمكن وصف السرازانيين به أدقّ مما وُصِفَ به جدُّهم إسماعيل؟! وما كان إسماعيلُ داخل العهد، كذلك هم السرازانيون. وهكذا فإنه في ضوء العهد القديم، الذي جُعل فيه المسلمون أعقاباً لإسماعيل، أمكنَ فهم أخلاق وسلوك هؤلاء؛ وما كان بيدا أولَ مَن فعل ذلك؛ كما لم يكن الأخير، بيدَ أنّ أهمية ما قام به تكمن في أنه أولُ من أدخل المسلمين في تفسير العهد القديم"[١]. وفي الإجابة عن التساؤل حول مصدر معلومات هذا البيدا المبجّل عن الإسلام، بالرغم من أنّه "قد عاش في منطقةٍ منزويةٍ جدّاً في أقاصي اسكتلندا"[٢] نقول: إنَّ المصدر الأبرز والأهم لمعلومات بيدا عن الإسلام كان مؤلفات القدّيس يوحنّا الدمشقي، الذي كان معاصراً لبيدا وعاش في الفترة (٦٧٦ – ٧٤٩م)، وبالذات كتاب (الهرطقات)، والذي هو جزءٌ من كتابه الضّخم كتاب (ينبوع المعرفة).

ثانياً: يوحنّا الدمشقي: بالرغم من أن دراستنا هذه تختصُ بموقف الكنيسة الغربية من الإسلام ونبوّة محمدٍ، إلاّ أننا ارتأينا أنّه من المستحسن التعريج، ولو في صفحاتٍ قليلةٍ جداً، على سيرة هذا القديّس المسيحي، وذلك لخطورة موقفه المتعلّق بالإسلام ونبوّة سيدنا محمد ﷺ، ولما كان لأفكاره تلك من انعكاساتٍ وتأثيراتٍ كبيرةٍ على أفكار الرهبان الكاثوليك، والمساهمة في صياغتهم لموقفٍ معادٍ تجاه الإسلام والرسول ﷺ، وأيضاً لأقدميّته في وضع مؤلَّفٍ كاملٍ ضدَّ الإسلام وشخصية الرسول الكريم، "وهو كتاب (De Haere Sbius) أو الهرطقات، الذي هاجم فيه الرسول محمداً شخصّياً ووصفه فيه باستغلاله الدّين لمصالحه الشخصيّة، كما ذكر فيه أنّ الراهب النسطوري بحيرا قد قام بمساعدته في كتابة القرآن. واتُّهِمَ الرسول باقتباسه بعضٍ من كتابات ورقة بن نوفل، الذي كان حسب زعم الدمشقي، قسّاً نسطوريّاً يترجمُ بعض الأناجيل المحرّفة إلى العربيّة"[٣].

---

[١] سوذرن، [م. س]، ص ٥٣.
[٢] فلوري، [م. س]، ص ١١١.
[٣] انظر الموسوعة الحرّة ويكيبيديا، تحت عنوان (تاريخ الإساءة إلى شخصيّة محمد بن عبد الله).

الاسم الحقيقيّ ليوحنّا الدّمشقي هو منصور بن سرجون بن منصور، المولود في دمشق حوالي عام ٦٧٦ للميلاد، كان والده مسيحياً ذا نفوذٍ عند الأمويين، حيث كان يعمل في منصبٍ رفيعٍ في ماليّة الخلافة الأموية في عهد عبد الملك بن مروان. "وقام والد يوحنا الدمشقي بالبحث عن معلّمٍ لابنه ليعلّمه أصول الدين المسيحي، فاختار عن طريق الصّدفة أحد الأسرى الذين تمّ القبضُ عليهم أثناء المدّ الإسلامي والمعارك على سواحل أوروبا، وكان اختيار والد الدمشقي لهذا الشخص من باب الشَّفقة، واستطاع أن يستعمل نفوذه لإطلاق سراح هذا السجين الذي كان اسمه كوسماس Cosmas، الذي ظهر فيما بعد أنه قسٌّ مشهورٌ من صقلية، وقام هذا القس بتعليم يوحنا الدمشقي أصول الديانة المسيحية"[1].

بعد وفاة والده، تولّى يوحنا الدمشقي منصب والده في خزانة الدولة، وأثناء فترة توليه المنصب قام أحد البطاركة في كنيسة القسطنطينيّة بإصدار تعليماتٍ تمنع المسيحيين من تقديس صور المسيح أو مريم العذراء، ولم تعجب هذه الأفكارُ يوحنا الدمشقي الذي بدأ بكتابة رسائل ومخطوطاتٍ ضدّ هذا المرسوم، فقام الإمبراطور البيزنطي "ليو الثالث" بتقديم شكوى للخليفة الأمويّ، بدعوى أنَّ الدمشقي يحرِّضُ على ثورةٍ ضدّ الإمبراطورية. فقام الخليفة بعزله وقطع يديه. [وفي روايةٍ أخرى للحادثة نفسها أن الخليفة قطع واحدةً فقط من يديه]. وبعد تلك الحادثة اعتكف يوحنّا في صومعته بدير مار سابا، وانكبَّ على الكتابة والتأليف، وكانت معظم مؤلفاته تتعلّق باللاهوت المسيحي، وكان من أشهرها وأخطرها على الإطلاق كتاب الهرطقات وهو جزءٌ وفصلٌ من كتاب (ينبوع المعرفة)، وكتاب (جدالٌ بين مسلم ومسيحي) أو (جدال بين سرازاني ومسيحي)، أمّا كتابه الأول (الهرطقات) والذي هو جزءٌ من كتاب (ينبوع المعرفة)، فكان "قد أفرد فيه فصلاً عن الإسلام أطلق عليه اسمَ (هرطقة الإسماعيليين)، ويقصد بالإسماعيلين العرب من أبناء إسماعيل بن إبراهيم ـ عليهما السلام ـ وهذا الفصل شديد الطعن، اتّهَمَ فيه يوحنا العربَ بالهرطقة والضَّلال والخرافة، واعتبرهم فرقةً نصرانيةً متهرطقةً، وزعم أنَّ محمداً كان رسولاً زائفاً ادَّعى النبوّة زمن الإمبراطور هرقل، بعد أن قرأ العهد القديم والعهد الجديد وتعلّم من راهبٍ آريوسيٍّ، فتظاهر بالتقوى حتى استمال العرب إليه، وأخبرهم أنه تلقَّى كتاباً من السماء، وقدّم فيه تلك الشرائع المضحكة ـ على حدِّ قوله ـ التي تُسمّى الإسلام. ومن التلفيقات التي وضعها يوحنّا في فصله هذا لتشويه صورة النبي زعمه الكاذب أنَّ النبيَّ دخل إلى بيت زينب بنت جحش في غياب زوجها فافتتن

---

[1] المرجع السابق نفسه.

بها وخرج وهو يقول سبحان مقلِّب القلوب ... إلى آخر القصة التي تسربت إلى بعض كتب التفسير، وأدرك ابنُ كثير زيفها فأعرض عن ذكرها في تفسيره وأشار إلى أنها ملفقة لا تصح"[١].

وكان هدف يوحنا الدمشقي من ذلك التشويه، تحصين النصارى من أهل الذمة والحيلولة بينهم في بلاد الشام وبين اعتناق الإسلام حين رأى تسامح المسلمين مع أهل الذمة، ودخول كثير من النصارى في الإسلام فلم يجد وسيلةً لتثبيت النصارى على دينهم سوى اتهام الإسلام بالهرطقة وتشويه سيرة النبي ﷺ، لتكون صورته في نظر النصارى صورةً كريهةً حتى لا يُقْبلوا على اعتناق الإسلام. "وقد انتشر هذا الكتاب في بلاد الدولة البيزنطية (دولة الروم) واستخدمه الكُتَّابُ البيزنطيون في هجماتهم الفكرية على الإسلام، ثم تُرجِمَ إلى اللاتينية، وأسهم في صياغة العقيدة الغربية تجاه الإسلام والمسلمين طوال العصور الوسطى وحتى العصر الحاضر"[٢].

أمّا كتابه الثاني (جدال بين مسلمٍ ومسيحيٍّ)، فكانت الفكرة الأساسية التي يقوم عليها هي الدفاع عن تجسّد الربّ في جسمٍ المسيح، عليه السلام، ومهاجمة الفهم الإسلامي للقضاء والقدر.

أمّا عن كتابه الثالث (ينبوع الحكمة)، فقد كان موسوعةً لاهوتيّةً كتبها في أواخر أيام حياته، وقد ضمَّن هذا الكتاب فصلاً (أو جزءاً) عن الهرطقات (أو هرطقة الإسماعيليين كما سّماها)، كما ذكرنا، كما خصصّ الأجزاء الأخرى للحديث عن بعض التعريفات الفلسفيّة، وللحديث عن الإيمان المسيحي الآرثوذكسي.

وبالعودة للحديث عن (الهرطقات) فقد خصّص هذا اليوحنا الدمشقي الجزء، السابق ذكره، من كتابه للردّ على المسلمين ومجادلتهم، وقد ردّد جميعُ المجادلين ضد الإسلام

---

[1] عودة، علي بن محمد، العدوان الفكري الغربي على الإسلام وعلى نبيّه محمد ﷺ، ص ٣، ٤، دراسة منشورة على الإنترنت على موقع نصرة رسول الله ﷺ. www.nosra.islammemo.com

[2] المرجع السابق نفسه.

بعده بعضَ أو كلَّ قوالب الدمشقيّ هذه. ويمكننا تخليصُ رؤية يوحنا الدمشقي للإسلام ونبيِّه وكتابه فيما يلي[1]:

أ. التشكيك في كون الإسلام امتداداً لحنيفية إبراهيم، لذلك نراه يصف المسلمين على نحوٍ لا يخلو من الخبث، بالسرازانيين، ويُعَدُّ أول كاتبٍ مسيحيٍّ يستخدم هذا التشويه لأغراض الجدل العنيف، كذلك يصف المسلمين بـ (المفسدين) وهي التسمية التي ستكثر في الجدليات التالية ليوحنا.

ب. يعالج الإسلام على أنه هرطقة مسيحية.

ج. يقدِّمُ الإسلام على أنه مُؤذنٌ بالمسيح الدجّال.

د. يجعل الرسول، ﷺ، أحد أتباع آريوس، كما يجعله على عقيدة المذهب النسطوري، وذلك بسبب تأكيده على أنَّ المسيح مخلوق وإنسان مجرد، وذلك ما قال به آريوس ونسطور.

هـ. يحصر ما جاء به النبي، ﷺ، في أمرين؛ أولهما: معرفته الضحلة بما قَلَّتْ قيمته من أسفار العهدين القديم والجديد اللذين وقع عليهما النبي، ﷺ، مصادفةً، والثاني: ما أخذه النبي، ﷺ، عن الراهب الآريوسي (بحيرا).

و. القرآن نِتاجٌ لأحلام اليقظة؛ لأنَّ الرسول، ﷺ، تلقَّاه وهو نائم.

إنّ مقارنةً بسيطةً نعقدُها بين ما كتبه يوحنا الدمشقي عن الإسلام، وبين ما كتبه المؤرخون مثل بيدا المبجّل والرهبان الكاثوليك الغربيون عن الإسلام تكشف لنا وبسهولةٍ عن مدى التشابه الكبير والواضح في مضامين كتبِ كلٍّ منهم، وهذا يدعونا للاعتقاد بأنّهم أخذوا عنه جُلَّ ما كتبوه عن الإسلام ورسوله الكريم ﷺ ... هكذا ردّ يوحنّا الدمشقي الجميل للمُسلمين الذين احتضنوه واحتضنوا والده وجدّه من قبله ووظّفوه في واحدةٍ من كبريات مؤسّساتهم وجعلوه من كبار موظفي بلاط الخلافة الأموي.

لقد دشّن هذا (القديس) حملات الافتراء على الإسلام ورسوله، ليس بعد الحروب الصليبيّة، وإنما قبلها بمئات السنوات فكان بامتيازٍ، وبلا منازعٍ، من أوائل، إن لم يكن أولَ مَن، سلكوا هذا الدرب. وانتشر إرثه الثقافي، إرث الحقد والكراهية في الغرب قبل

---

[1] عبد المحسن، عبد الراضي محمد، الغارة التنصيرية على أصالة القرآن الكريم، بحث من بحوث ندوة العناية بالقرآن الكريم وعلومه المنشورة على موقع المفكرة الدّعوية، www.dawahmemo.com ص ٢٠، ٢١، ٢٢.

الشرق، حيث تلقَّفَ الحاقدون من أمثال بيدا المبجل إرثه وكتبه، واجترّوها، وألّفوا على غرارها كتباً ساهمت وبفاعليّةٍ في تشويه صورة الإسلام والمسلمين، علماً بأنّ بيدا لم يرَ مُسلماً ولم يلتقِ بواحدٍ من المسلمين طيلة أيّام حياته!!!.

ثالثاً: المطران أوغيليوس وتلميذه باول ألفاروس[1]: تحدثنا في الفصل الأول عن ظاهرةٍ عُرفت في التاريخ المسيحي باسم (ظاهرة شهداء قرطبة)، وهم أولئك المسيحيّون الذين كانوا يتطوّعون للذهاب إلى المساجد أو دار القضاء أو الأماكن العامّة، لتجمّع المسلمين في مدينة قرطبة، ويشرِّعون علناً في مسبّة الرسول، ﷺ، وشتمه بأقذع الألفاظ، حتّى يقوم المسلمون بقتلهم فيكونون بذلك قد نالوا الشهادة في سبيل المسيح!! "وقد كان هؤلاء "الشّهداء" ينتمون لشتى المستويات الاجتماعية، فكانوا من الرّجال والنساء، ومن الرهبان والقسس، ومن غير رجال الدين، ومن البسطاء ومن كبار العلماء، وكان يبدو أنَّ الكثيرين منهم يسعون لتحقيق هويةٍ غربيةٍ متميزةٍ واضحةٍ. ويبدو أنّ بعضهم كان ينتمي إلى أُسرٍ مختلطةٍ، حيث أحد الأبوين مسلمٌ والآخرُ مسيحيٌّ"[2].

ومع أنّ ذاك الحدث لم يكن ظاهرةً بالمعنى المتعارَف عليه لكلمة (ظاهرة)، حيث بلغ عدد هؤلاء المُضَلَّلين ما يقارب الخمسين فقط، إلاّ أنّ المُهِمَّ في هذا الحدث، والذي لأجله ذكرناهُ، هو الأصابع التي كانت تحرّك هؤلاء البُسطاء السّذَّجَ، وتحرِّضهم وتدفع بهم إلى الموت تحت مُسمّى الشّهادة. لقد كان أوغيليوسُ المحرّضَ المحرّكَ الأول لهؤلاء، وكان يُفتيهم بأنّ الجنّة وحدها هي جزاءُ عملهم البطوليّ (شتيمة محمد ﷺ)!! وكان هذا الأوغيليوس يُفتي بعد قتل هؤلاء وموتهم بأنّ هؤلاء (الشهداء) إنّما هم من جنود الله الذين كانوا يقاتلون ببسالةٍ دفاعاً عن عقيدتهم، و"إنَّهم شنّوا هجوماً معنَويّاً معقَّداً على الإسلام، عجزت السلطات الإسلامية عن ردِّه، لأنَّه كان فيما يبدو، سُيثبتُ أنّها على خطأ"[3]. ولعلَّ الحديث عن أوغيليوس هذا مرتبطٌ ارتباطاً عضويّاً كاملاً بالحديث عن "باول ألفاروس"، حيث "تتشابه آراء الرجلين وتصوّراتهما في النقاط كلِّها تقريباً، ولذلك نستطيعُ أن نعرضَ آراء أحدهما باعتبارها ممثِّلةً للموقف كلِّه بما

---

[1] تختلف كتابة اسم هذا المطران حسبَ اللغة التي تمت الترجمة عنها، وقد رُسم اسمهُ بعدّةِ صورٍ منها (أولوخيو) و(يولوجيو) و(أويليغوس) و(أولوج) وكذا الحال بالنسبة لباول الفاروس، فقد كتب اسمه بعدةِ صورٍ منها (بول الفارو) و(بول الفاروسي).

[2] آرمسترونج، سيرة النبي محمد [م. س]، ص ٣٤، ٣٥.

[3] آرمسترونج، [م. س]، ص ٣٤.

فيه موقفها هما"[١]. وقد كان أوغيليوس كاهناً يشغل منصبَ مطرانِ مدينة طليطلة، واستطاع أن يجذب إليه العديد من الرهبان والناس العاديين والنُّبلاء وكان من هؤلاء "باول الفاروس"، وهو أحد النبلاء "كتبَ عملاً جدليّاً ضدَّ الإسلام سمّاه (Indiculus Luminosus) هاجم فيه المسيحيين الذين دعوا إلى الاعتدال والتأني، وكانوا كثرةً كاثرةً بين الإسبان"[٢].

"تنبعُ أهميّةُ الحديث عن "شهداء قرطبة" من أنّ "صيحات التهجّم التي أطلقها هؤلاء ضد النبي ﷺ، كانت تستند إلى تلك السيرة القائمة على "الرؤيا". وصوَّرَ الوهمُ للأذهان التي سيطر عليها الرعب أنَّ محمداً دجّالٌ كاذبٌ، نصَّبَ نفسه نبياً ليخدع العالم، وصوَّرَ لها الوهمُ أنه فاسقٌ يستمرئ الفسق البذيء ويدفع أتباعه إلى محاكاته، وصوَّر لها الوهم أنه كان يُجْبِرُ الناس على اعتناق عقيدته بحدِّ السيف. وانتهت هذه الأوهامُ إلى القول بأنَّ الإسلام ليس ديناً مستقلاً منزَلاً، بل بدعةٌ، أو صورةٌ مشوّهةٌ من صور المسيحية، وأنه دينُ عنفٍ يؤمن بالسيف ويمجِّدُ الحرب والقتل"[٣].

وإضافةً لذلك، فقد كان هؤلاء "الشهداء" متشبّعين تماماً بمضُمون المقالة الإسبانية التي ظهرت في أواخر القرن الثامن الميلادي في إسبانيا في أحد الأديرة الشمالية، وهي نصٌّ هجوميٌّ بذيءٌ على النبي ﷺ، عُرفت باسم المقالة الإسبانيّة عن محمّدٍ ﷺ ولا يُعرَفُ كاتبُها. ويرجِّحُ ناشرِها "دياز" أنها من عمل أحد النصارى المستعربين. "وهذه المقالة تصوِّر النبي ﷺ بصورةٍ مجافيةٍ للذوق ومعاكسةٍ لصفاته، فتزعم زوراً وبهتاناً أنه كان كاذباً مُبتدِعاً شهوانياً، وأنه دعا عربه المتوحشين إلى أن يتخلّوا عن الوثنية، وأن يعبدوا إلها مادياً في السماء على شكل كرةٍ ماديّةٍ، وتزعم هذه المقالة الزائفة أنّ إبليسَ ظهر لمحمدٍ ﷺ مدعياً أنه الملَكُ جبريل، وأخبره أنَّ الربَ أرسله ليبشِّر العرب بما كان قد سمعه في مدارس المسيحيين ويدعوهم إلى عبادة ذلك الإله الماديّ في السماء وهجر عبادة الأوثان. وتزعم المقالةُ البذئية أنّ محمداً ﷺ، عندما مات تعفَّنت جثته فقامت الكلاب والخنازير بالتهام الجثة العفنة"[٤].

---

[١] سوذرن، [م. س]، ص ٥٩.
[٢] سوذرن، [م. س]، ص ٥٩.
[٣] آرمسترونغ، [م. س]، ص ٣٧.
[٤] عودة، علي بن محمد، [م. س]، ص ٣، ٤.

في الواقع، لقد أكدَّ أوغيليوس في أعماله الدفاعَ عن هؤلاء الشهداء، وانتقدَ فيها الإسلام انتقاداً جذرياً، وقد شبهه بعقيدةٍ للأبالسة، منوطةٍ بالمسيح الدجّال. وقام بوصفٍ مقرفٍ لمحمد، ﷺ، قريبٍ جداً من الأوصاف السّابقة في المؤلفات الشرقية: فجعله هرطوقياً، نبياً مزيّفاً، شهوانياً، مفسداً، جشعاً، استقى أفكاره من الكتب المسيحية المقدَّسة مشوّهاً أسسها بوحيه المزعوم. "لكن أولوج يؤكد أنه عثر على المعلومات حول محمد في مخطوطٍ لاتينيٍّ استمد عونه في دير لير، إبان سفره إلى مدينة بامبيلونة، عام ٨٥٢م تقريباً"[١].

وكذلك فقد رسم تلميذه ألفاروس صورةً للإسلام ونبيه محمّدٍ، ﷺ، من النمط نفسه، مشدّداً على السمات الكاريكاتورية ذاتها. فالتحق في العديد ممّا كتبه، بالوصف الذي أعطاه في الشرق يوحنا الدمشقي، فهو يندد بشهوانية المسلمين ومحمّدٍ الذي يجعل منه هرطوقياً ونصيراً شريراً للمسيح الدجال. وفي هذا الشأن، قلّما قام ألفاروس بشيءٍ آخر سوى تكراره صورة الإسلام "الشائعة" في هذه الأوساط المسيحية. "غير أن ألفارو أدخل عنصراً جديداً بالغ الأهمية: فهو الأول في الغرب الذي ربط بوضوحٍ السيطرة العربية بنبوءة دانيال، ونسب إليها دوراً في الخطة الإلهية للتاريخ المقدس، دوراً يشتمل على مدىً أُخَرويٍّ هامٍ. فرأى كما فعل العديد من المؤلفين المشرقيين، أنَّ الاجتياح العربيّ يؤذّن بنهاية الأزمنة، ويسبقها بقليلٍ، فلا جرم أنَّ محمداً في نظره هو "القرن الصغير" الذي يصفه النبي دانيال و"الرؤيا"، وهو صورةٌ رمزيةٌ لسلطةٍ ذات طبيعةٍ شريرةٍ وشيطانيةٍ سوف تسيطرُ على العالم في "نهاية" الأزمنة، لكنها بدورها سوف تُقهرُ قبل عودة المسيح الظافرة. وإنَّ بعض الحسابات لحوادثَ تاريخيةٍ قد أفضت بألفارو إلى أن ينسب مدةً تدوم ٢٤٥ سنةً إلى هذه السيطرة الإسلامية، وإلى إعلان نهايتها العتيدة عام ٨٧٠م"[٢].

وحتّى نضعَ النقاط على حروفها وتتضّح لدينا الصورة بكامل تفاصيلها فإننا نلخِّصُ خلاصة معتقدات كلٍّ من هذين الرجلين (أوغيليوس وألفاروس) فيما يتعلّقُ بالإسلام ونبوّة محمدٍ ﷺ، والتي استخرجاها من الكتاب المقدِّس، وقاما بصياغتها من خلال الفكر الرؤيوي، نلخّصها فيما يلي[٣]:

---

(1) فلوري، [م. س]، ص ١١٣، بتصرف.

(2) المرجع السابق نفسه، ص ١١٣، ١١٤، بتصرف.

(3) انظر:

أ. آرمسترونغ [م. س]، ص ٣٦، ٣٧. =

كان أوغيليوس وألفارو يعتقدان أنّ سطوع نجم الإسلام يبشِّرُ بقدوم المسيح الدجّال، وهو الدجّال العظيم الذي ورد وصفه في العهد القديم، والذي يُنذرُ حكمه بحلول الأيام الأخيرة للبشرية. وقد أوضح مؤلف الرسالة الثانية إلى أهل تسالونيكي أنّ المسيح لن يعود إلى الأرض حتى تقع "الرّدةُ الكبرى"، إذ يأتي "أثيم" ويقيم ملكه في هيكل أورشليم ليُضلَّ كثيراً من المسيحيين "بآياتٍ وعجائبَ كاذبةٍ" وقد ورد في سفر "رويا يوحنا اللاهوتي" أيضاً ذكر وحشٍ عظيمٍ، "سمتهُ عجيبةٌ" وهي العدد ٦٦٦، يخرج من الهاوية ويتوّج نفسه على عرش جبل المعبد، ويحكم العالم. وكان يبدو أنَّ الإسلام يتّفقُ اتفاقاً تاماً مع هذه الرؤى القديمة؛ إذ فتح المسلمون بيتَ المقدس في عام ٦٣٨م، وبنوا مسجدينِ عظيمين على جبل المعبد، وبدا أنهم حقاً يحكمون العالم، وقيل أيضاً إنَّ محمداً قد أتى بعد المسيح، حيث انتفت الحاجة إلى تنزيلٍ جديدٍ، ولكنّه نَصَّب نفسه نبيّاً وارتدَّ كثيرٌ من المسيحيين واعتنقوا الدّين الجديد. وكان بحوزة أوغيليوس وألفارو سيرةٌ مختصرةٌ لحياةِ محمّدٍ ﷺ تقولُ إنه توفي في عام ٦٦٦م من التاريخ الإسباني، وبذلك تسبقُ الحسابَ التقليديّ بثمانيةٍ وثلاثين عاماً. وكانت تلك السيرة النبوية التي كتُبتْ في أواخر القرن الثامن من وجهة نظرٍ غربيّةٍ، قد قام بإعدادها أحدُ الأديرة، ويدعى "دير لير" بالقرب من بامبلونا في براغيل العالم المسيحي، الذي كان يرتعد فرقاً أمام العملاق الإسلامي الجبار.

إذاً، فقد خَلُصَا إلى أنّ السيطرة الإسلامية هي المقدمة الضرورية لظهور المسيح الدجّال، ووجدا الأدلة على ذلك في الكتاب المقدّس، ولم يكن ذلك صعباً!! ولو كانا إنسانين ذوي عقلٍ نقديٍّ لشكّكَتْهُما في الأمر كلّه السهولةُ التي وجدا بها الإشاراتِ في العهدين لظهور الدجال، لكنهما لم يكونا ذوي عقلٍ متفحّصٍ؛ كما أنّ كثيرين ممن جاؤوا بعدهما اتّسموا بسرعة التصديق مثلهما. فعندما قرأ ألفاروس بعض الفقرات في سفر دانيال (بالعهد القديم) عرف ماذا تعني، ورأى فيها إيضاحاً كاملاً لما كان يجري في زمانه!!!.

ويعلّق سوذرن على ما سلف ذكره من تصّورات أوغيليوس وباول ألفاروس للإسلام وربطهما له برؤى ونبؤات الكتاب المقدّس بقوله(1): "علينا أن نعترف بدايةً أنّ هذه التصورات الغريبة تُشكِّلُ أول منظومةٍ شاملةٍ ومتماسكةٍ نسبياً عن الإسلام وصورته التي

= ب. سوذرن [م. س] ص ٥٩ – ٦٢ بتصرف وآختصار.
ج،. الفرّا [م. س]، ص ٦٣.
(1) سوذرن، [م. س]، ص ٦٢.

بدأت تطلع في الغرب وسط متغيرات الأحداث. لقد كانت ولا شكّ نتاجاً للجهل المطبق بالإسلام مضامينَ وتاريخاً، لكنه جهلٌ ذو طبقاتٍ ومراحل بالغة التعقيد. فالصورةُ صادرةٌ عن رجالٍ كانوا يؤمنون إيماناً عميقاً بما يكتبون، وقد كان همُّهم الأول إقامة تآلفٍ بين ما تصوَّروه وما في الكتاب المقدَّس الذي كان مرجعهم الوحيد المعترف به لديهم".

وعلى كلٍّ، لقد انتهى الأمر، وانتهت حركة شهداء قرطبة بإعدام أوغيليوس ودفعه الثمن لكلِّ ما قام به من تحريضٍ وتطاولٍ واستفزازٍ لمشاعر المسلمين. كان هذا الأوغيليوس يركِّزُ على رفض الإسلام لفكرة الثالوث واعتبار الإسلام للمسيح مُجَرَّدَ نبيٍّ أو رسولٍ. وقام بكتابة العديد من الرسائل مشدِّداً فيها على أنّ محمداً هو رسولٌ كاذبٌ وانه مدّعٍ للنبوة وأنه اغلق الباب لأيِّ نبيٍّ يأتي بعده، ووصف الرسول في كتاباته "بالذئب المختبئ بين الخرفان".

وختاماً فقد كتب هذا الأوغيليوس روايةً عن حركة شهداء قرطبة وسبَّ فيها الرسول ﷺ، فَحُكِمَ عليه بالإعدام عام ٨٥٩م "وكان مما أورده في روايته عن الحركة أنّ ثلاثةً من الرّهبان الأسبان هم جورجيوس، وأورليوس، وناثاليا كتبوا نصّاً عن آلام المسيح. وقد احتوى النص على هجومٍ متعصِّبٍ حاقدٍ على الإسلام ونبي الإسلام ﷺ، فوصفَ الإسلام بأنه العقيدة الضالّة، وخدعة الشيطان الماكرة وأن الإسماعيليين [أي العرب أبناء إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام] يُجلّون نبيّاً كاذباً، صدَّقوا أنه من خلاله يكون طريق الخلاص، وأنَّ نبيَّ المسلمين إنما هو، بزعمهم، غادرٌ بطبعه ومؤمنٌ بإبليس، وهو وكيل المسيح الدجال، والمستنقع لكل الرذائل، والذي سوف يُلقى به في جهنم، ومن خلال تعاليمه العقيمة كتب على أتباعه عذاب النار السرمدي، وأنّ الذي تراءى له في هيئة ملاكٍ إنما هو الشيطان"[1]. ولا شكَّ أنَّ هذه الحركة الحاقدة المتعصّبة في قرطبة وما صاحبها من كتابات الرهبان المقيتة قد أسهمت بدورٍ كبيرٍ في صياغة العقيدة الغربية تجاه الإسلام والمسلمين في أوروبا طوال العصور الوسطى وإلى اليوم.

وبالرغم من كلِّ ما تقدَّم من أحقاده وكراهيته ومعاداته للمسلمين، فقد "طلب القاضي إليه أن ينجو بأن يُعلِنَ رسميّاً قبول الإسلام ـ إذ لن يتحققَ أحدٌ من سلوكه الدينيّ

---

[1] عودة، [م. س]، ص ٤.

بعد ذلك ـ وألاّ يستسلم "لتلك التصرفات المؤسفة الانتحارية المهلكة" مثل غيره من "المغفلين والبلهاء" ولكن ردَّ يولوجيو اقتصر على أن طلب منه شحذ السيف"[(١)].

مات أوغيليوس، وماتت معه أحقادُه وكراهيته وتعصُّبُه الأعمى. مات وهو لا يعرف عن حقيقة الإسلام شيئاً، لا لأنّه كان بعيداً عن الإسلام؛ فقد كان يعيشُ وسط الإسلام نفسه في الأندلس المسلمة، ولكن لأنّه لم يكن يريدُ أن يعرف عن الإسلام شيئاً ... مات أوغيليوس شأنه شأن من سبقوه من الذين أضلَّهم بغير علمٍ ولا هدىً، وقد تمّ اعتباره واعتبار أنصاره من "شهداء قرطبة" في الغرب "مُتكافئين مع الشهداء الأقدمين الذين ذبَحَهمُ الوثنيون الرومانيون بسبب إيمانهم، فثمّة تشبيهٌ ذهنيٌ للمسلمين بالوثنيين في العصور القديمة، وهو تشبيهٌ بليغ الدلالة جداً لذهنيّة ذاك العصر الدينية. ومن جهةٍ أخرى، من المرجَّح بمقدارٍ أوفر أنَّ الراهبين قد جلبا معهما من إسبانيا صورة الإسلام والمسلمين الكاريكاتورية ذاتها التي تصوَّرها أنصار أولوج المتشيعون له: إنها في نظرهم هرطقة أثارها الشيطان، وتُشيرُ إلى مجيء المسيح الدجال، وليس المسلمون في واقع الأمر، سوى وثنيين يعبدون الأصنام"[(٢)].

[(١)] آرمسترونج [م. س]، ص ٣٥.
[(٢)] فلوري، [م. س] ص ١١٥.

المبحث الثاني
رؤيا حزقيال [١]

ذكرنا في المبحث السابق أنّ الفكر الرؤيوي إنّما نبعَ واستُمِدَّ من الكتاب المقدّس بعهديه القديم والجديد. كما ذكرنا أنّ العديد من الرهبان الرؤيويين، الذين قاموا بنشر هذا الفكر والترويج له ربطوا بين العديد من نبوءات الكتاب المقدّس وبين ظهور الإسلام، واعتبروا ظهوره وقيام دولته مقدّمةً لظهور عدِّو المسيح (المسيح الدجّال). وأنّهم قاموا بإسقاط هذه الرُّؤى والنبوءات على الإسلام ورسوله الكريم ﷺ، في محاولةٍ (ناجحةٍ طبعاً) منهم لتشويه صورة الإسلام، وتحريض الناس ضدَّ المسلمين، واستنهاض هممهم للقيام ومحاربتهم. وقد اخترنا عرض أبرز هذه النبوءات والرؤى والتعريف بها وبأصحابها لنرى إن كانت تنطبق على الإسلام والحبيب المصطفى ﷺ، ولنرى قبل ذلك موقف الكنيسة الكاثوليكيّة من هذه النبوءات والرؤى ..

والمنهج الذي تعتمده هذه الدراسةُ في عرض كلٍّ من هذه النبوءات سهلٌ وواضحٌ ويقوم أولاً على الترجمة لحياة وأعمال صاحب النبوءة، ومن ثمّ عرض نصوصها (أو الشاهد في نصوصها) ومن ثمّ تحليل مضمونها والتّعليق عليها.

حزقيال اسمٌ عبريٌّ يعني (قوّة الله) أو (الله يقوّي) أو (تقوى بالله). اسمُ أبيه بوزي، وهو من عشيرةٍ كهنوتيةٍ، وُلِدَ ونشأً وكبر في فلسطين، وربَّما في أورشليم في بيئة الهيكل، أثناء خدمة النبي ارميا. ثم حُمِل مسبياً من يهوذا مع يهوياكين[٢] في سنة (٥٧٩ ق.م.) أي بواقع ثماني سنواتٍ بعد نفي دانيال، وكان شاباً في ذلك الوقت، وعاش مع المسبيين اليهود على نهر خابور أو (كبار)، وهو قناةٌ في أرض بابل.

---

(1) انظر
أ. مقدمة نبوّة حزقيال في الكتاب المقدس نسخة المطبعة الكاثوليكية عام ١٩٦٠م، بيروت.
ب. قاموس الكتاب المقدّس، النسخة الإلكترونية الموجودة في موقع www.st-takla.org التابع للكنيسة القبطية.
ج. تفسير القمص انطونيوس فكري للكتاب المقدس، النسخة الإلكترونية الموجودة في موقع www.arabchurch.com.
د. تفسير سفر حزقيال النبي المنشور في موقع كلمة الحياة www.kalematalhayat.org.

(2) يهوياكين: ابن يهوياقيم، وكان شريراً. وحاصر نبوخذ نصر أورشليم ثانيةً في أيامه، فاستسلم هو ومن معه، فسباهم نبوخذ نصر إلى بابل مع آخرين. (وكان هذا السبى الثالث) وملك متانيا عمه باسم صدقياً، وفي هذا السبى الثالث تم سبي حزقيال

تزوّج مُبكِّراً في السنة السادسة، أو على الأكثر في السنة التاسعة من السبي، بدأت خدمته النبويةُ في السنة الخامسة لسبي يهوياكين، أي بزمنٍ مدته سبع سنين قبل خراب الهيكل في أورشليم. وكان في السنة الثلاثين من عمره، صرّح حزقيال بنبؤاته بحريةٍ كاملةٍ بالرغم من أنّه كان في السبي، وكان شيوخ الشعب الإسرائيلي في السبي يرجعون إليه لطلب النصيحة. استمرت فترة نبوّته مُدّةً زادت عن اثنتين وعشرين سنةً.

أمّا بالنسبة لوفاته فتذكر المصادر اليهودية أنَّ المسبيين قتلوه في بابل بسبب أمانته وجرأته وتوبيخه لهم، ويقال إنهم سحبُوه على الأحجار وظلّوا يسحبونه حتى تحطّم رأسه. أمّا عن زمن كتابة نبؤته ومكانها، فإنها كُتبتْ أثناء سبي بابل حيث استعبد شعب إسرائيل. لذلك كُتبتْ للمسبيين هناك. ومن المعروف أنَّ حزقيال ودانيال هما النبيّان الوحيدان اللذان تنبآ خارج إسرائيل باستثناء "النبي يونان"، الذي أرسل إلى نينوى. وقد ذهب الشعب الإسرائيلي للسبي بسبب سقوطهم في العبادات الوثنية واحتقارهم للأنبياء وخطاياهم المتعددة. ولكنَّ الله لم يتركهم بل أرسل لهم هذا النبيَّ وسط أحزانهم وآلامهم في السبي ليقنعهم بالتوبة، وليتأكدوا أنَّ ما يحدث لهم ليس هدفه إفناءهم، بل تأديبهم. وفي السنة الخامسة من السبي (أي الخامسة من ملك صدقيا، وقبل خراب أورشليم النهائي سنة ٥٨٦ ق. م.) انفتحت السموات لأولِّ مرةٍ أمام حزقيال ليرى رؤيا الربّ والمركبة الإلهية الناريّة.

الأقسام التي يتكون منها سفر حزقيال

١. تهديداتٌ قبل سقوط أورشليم، وإنذاراتٌ بعقوبة الخطيئة، ودعوةٌ للتوبة. وذلك كلّه موجّهٌ للشعب الإسرائيلي وهي تقع في الإصحاحات (١ – ٢٤).
٢. نبؤات ضد الأمم الذين ظَلَموا شعب إسرائيل، وهي تقع في الإصحاحات (٢٥ – ٣٢).
٣. نبؤات عن الرّجوع من السبي، وفضحُ حالتهم الراهنة، ووصفٌ لرجوع اليهود في المستقبل، وهلاك أعدائهم وسعادتهم الروحية. وهي نبؤاتٌ تتكلَّمُ عن عودة اليهود من بابل، لكنها، كما يرى المسيحيون، تشير لزمان ملك المسيح في كنيسته، وهي تقعُ في الإصحاحات (٣٣ – ٣٩).
٤. حديث عن الهيكل الجديد وأورشليم، وهو يقع في الإصحاحات (٤٠ – ٤٨).

والذي يعنينا في هذه الدراسة هو الفصْلُ الأول فقط من هذه الرؤيا، والذي زعمَ أصحابُ الفكر النبوئي أنّ مضمونه يتحدّث عن نبيِّ الإسلام محمدٍ!! وسنعرض له تالياً بكامل إصحاحاته الثمانية والعشرين:

رؤيا حزقيال / الفصل الأوّل

(١) كَانَ فِي سَنَةِ الثَّلاَثِينَ، فِي الشَّهْرِ الرَّابعِ، فِي الْخَامِسِ مِنَ الشَّهْرِ، وَأَنَا بَيْنَ الْمَسْبِيِّينَ عِنْدَ نَهْرِ خَابُورَ أَنَّ السَّمَاوَاتِ انْفَتَحَتْ، فَرَأَيْتُ رُؤَى اللهِ . (٢) فِي الْخَامِسِ مِنَ الشَّهْرِ، وَهِيَ السَّنَةُ الْخَامِسَةُ مِنْ سَبْيِ يُويَاكِينَ الْمَلِكِ. (٣) صَارَ كَلاَمُ الرَّبِّ إِلَى حِزْقِيَالَ الْكَاهِنِ ابْنِ بُوزِي فِي أَرْضِ الْكِلْدَانِيِّينَ عِنْدَ نَهْرِ خَابُورَ. وَكَانَتْ عَلَيْهِ هُنَاكَ يَدُ الرَّبِّ . (٤) فَنَظَرْتُ وَإِذَا بِرِيحٍ عَاصِفَةٍ جَاءَتْ مِنَ الشِّمَالِ. سَحَابَةٌ عَظِيمَةٌ وَنَارٌ مُتَوَاصِلَةٌ وَحَوْلَهَا لَمَعَانٌ ,وَمِنْ وَسَطِهَا كَمَنْظَرِ النُّحَاسِ اللاَّمِعِ مِنْ وَسَطِ النَّارِ . (٥) وَمِنْ وَسَطِهَا شِبْهُ أَرْبَعَةِ حَيَوَانَاتٍ. وَهَذَا مَنْظَرُهَا: لَهَا شِبْهُ إِنْسَانٍ . (٦) وَلِكُلِّ وَاحِدٍ أَرْبَعَةُ أَوْجُهٍ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ أَرْبَعَةُ أَجْنِحَةٍ. (٧) وَأَرْجُلُهَا أَرْجُلٌ قَائِمَةٌ، وَأَقْدَامُ أَرْجُلِهَا كَقَدَمِ رِجْلِ الْعِجْلِ، وَبَارِقَةٌ كَمَنْظَرِ النُّحَاسِ الْمَصْقُولِ . (٨) وَأَيْدِي إِنْسَانٍ تَحْتَ أَجْنِحَتِهَا عَلَى جَوَانِبِهَا الأَرْبَعَةِ. وَوُجُوهُهَا وَأَجْنِحَتُهَا لِجَوَانِبِهَا الأَرْبَعَةِ . (٩) وَأَجْنِحَتُهَا مُتَّصِلَةٌ الْوَاحِدُ بِأَخِيهِ. لَمْ تَدُرْ عِنْدَ سَيْرِهَا .كُلُّ وَاحِدٍ يَسِيرُ إِلَى جِهَةِ وَجْهِهِ . (١٠) أَمَّا شِبْهُ وُجُوهِهَا فَوَجْهُ إِنْسَانٍ وَوَجْهُ أَسَدٍ لِلْيَمِينِ لأَرْبَعَتِهَا، وَوَجْهُ ثَوْرٍ مِنَ الشِّمَالِ لأَرْبَعَتِهَا، وَوَجْهُ نَسْرٍ لأَرْبَعَتِهَا . (١١) فَهذِهِ أَوْجُهُهَا. أَمَّا أَجْنِحَتُهَا فَمَبْسُوطَةٌ مِنْ فَوْقُ. لِكُلِّ وَاحِدٍ اثْنَانِ مُتَّصِلاَنِ أَحَدُهُمَا بِأَخِيهِ، وَاثْنَانِ يُغَطِّيَانِ أَجْسَامَهَا . (١٢) وَكُلُّ وَاحِدٍ كَانَ يَسِيرُ إِلَى جِهَةِ وَجْهِهِ. إِلَى حَيْثُ تَكُونُ الرُّوحُ لِتَسِيرَ تَسِيرُ. لَمْ تَدُرْ عِنْدَ سَيْرِهَا . (١٣) أَمَّا شِبْهُ الْحَيَوَانَاتِ فَمَنْظَرُهَا كَجَمْرِ نَارٍ مُتَّقِدَةٍ ,كَمَنْظَرِ مَصَابِيحَ هِيَ سَالِكَةٌ بَيْنَ الْحَيَوَانَاتِ. وَلِلنَّارِ لَمَعَانٌ، وَمِنَ النَّارِ كَانَ يَخْرُجُ بَرْقٌ . (١٤) الْحَيَوَانَاتُ رَاكِضَةٌ وَرَاجِعَةٌ كَمَنْظَرِ الْبَرْقِ . (١٥) فَنَظَرْتُ الْحَيَوَانَاتِ وَإِذَا بَكَرَةٌ وَاحِدَةٌ عَلَى الأَرْضِ بِجَانِبِ الْحَيَوَانَاتِ بِأَوْجُهِهَا الأَرْبَعَةِ . (١٦) مَنْظَرُ الْبَكَرَاتِ وَصَنْعَتُهَا كَمَنْظَرِ الزَّبَرْجَدِ. وَلِلأَرْبَعِ شَكْلٌ وَاحِدٌ، وَمَنْظَرُهَا وَصَنْعَتُهَا كَأَنَّهَا كَانَتْ بَكَرَةً وَسَطَ بَكَرَةٍ . (١٧) لَمَّا سَارَتْ سَارَتْ عَلَى جَوَانِبِهَا الأَرْبَعَةِ. لَمْ تَدُرْ عِنْدَ سَيْرِهَا . (١٨) أَمَّا أُطُرُهَا فَعَالِيَةٌ وَمُخِيفَةٌ. وَأُطُرُهَا مَلآنَةٌ عُيُوناً حَوَالَيْهَا لِلأَرْبَعِ . (١٩) فَإِذَا سَارَتِ الْحَيَوَانَاتُ سَارَتِ الْبَكَرَاتُ بِجَانِبِهَا، وَإِذَا ارْتَفَعَتِ الْحَيَوَانَاتُ عَنِ الأَرْضِ ارْتَفَعَتِ الْبَكَرَاتُ . (٢٠) إِلَى حَيْثُ تَكُونُ الرُّوحُ لِتَسِيرَ يَسِيرُونَ. إِلَى حَيْثُ الرُّوحُ لِتَسِيرَ وَالْبَكَرَاتُ تَرْتَفِعُ مَعَهَا .لأَنَّ رُوحَ الْحَيَوَانَاتِ كَانَتْ فِي الْبَكَرَاتِ . (٢١) فَإِذَا سَارَتْ تِلْكَ سَارَتْ هَذِهِ، وَإِذَا وَقَفَتْ تِلْكَ وَقَفَتْ.

وَإِذَا ارْتَفَعَتْ تِلْكَ عَنِ الأَرْضِ ارْتَفَعَتِ الْبَكَرَاتُ مَعَهَا، لأَنَّ رُوحَ الْحَيَوَانَاتِ كَانَتْ فِي الْبَكَرَاتِ . (٢٢) وَعَلَى رُؤُوسِ الْحَيَوَانَاتِ شِبْهُ مُقَبَّبٍ كَمَنْظَرِ الْبَلُّورِ الْهَائِلِ مُنْتَشِراً عَلَى رُؤُوسِهَا مِنْ فَوْقُ . (٢٣) وَتَحْتَ الْمُقَبَّبِ أَجْنِحَتُهَا مُسْتَقِيمَةٌ الْوَاحِدُ نَحْوَ أَخِيهِ. لِكُلِّ وَاحِدٍ اثْنَانِ يُغَطِّيَانِ مِنْ هُنَا، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ اثْنَانِ يُغَطِّيَانِ مِنْ هُنَاكَ أَجْسَامَهَا . (٢٤) فَلَمَّا سَارَتْ سَمِعْتُ صَوْتَ أَجْنِحَتِهَا كَخَرِيرِ مِيَاهٍ كَثِيرَةٍ، كَصَوْتِ الْقَدِيرِ ,صَوْتَ ضَجَّةٍ كَصَوْتِ جَيْشٍ. وَلَمَّا وَقَفَتْ أَرْخَتْ أَجْنِحَتَهَا .(٢٥) فَكَانَ صَوْتٌ مِنْ فَوْقِ الْمُقَبَّبِ الَّذِي عَلَى رُؤُوسِهَا. إِذَا وَقَفَتْ أَرْخَتْ أَجْنِحَتَهَا . (٢٦) وَفَوْقَ الْمُقَبَّبِ الَّذِي عَلَى رُؤُوسِهَا شِبْهُ عَرْشٍ كَمَنْظَرِ حَجَرِ الْعَقِيقِ الأَزْرَقِ، وَعَلَى شِبْهِ الْعَرْشِ شِبْهٌ كَمَنْظَرِ إِنْسَانٍ عَلَيْهِ مِنْ فَوْقُ . (٢٧) وَرَأَيْتُ مِثْلَ مَنْظَرِ النُّحَاسِ اللاَّمِعِ كَمَنْظَرِ نَارٍ دَاخِلَهُ مِنْ حَوْلِهِ، مِنْ مَنْظَرِ حَقَوَيْهِ إِلَى فَوْقُ، وَمِنْ مَنْظَرِ حَقَوَيْهِ إِلَى تَحْتُ . رَأَيْتُ مِثْلَ مَنْظَرِ نَارٍ وَلَهَا لَمَعَانٌ مِنْ حَوْلِهَا (٢٨) كَمَنْظَرِ الْقَوْسِ الَّتِي فِي السَّحَابِ يَوْمَ مَطَرٍ. هَكَذَا مَنْظَرُ اللَّمَعَانِ مِنْ حَوْلِهِ. هَذَا مَنْظَرُ شِبْهِ مَجْدِ الرَّبِّ. وَلَمَّا رَأَيْتُهُ خَرَرْتُ عَلَى وَجْهِي. وَسَمِعْتُ صَوْتَ مُتَكَلِّمٍ.

بعد القراءة المتأمّلة الهادئة للفصلِ الأول من هذه الرؤيا، وبالاستعانة بالتفسير المسيحي[1] لها فإنه من الممكن لنا أن نستنتج الأسباب التي لأجلها منَّ اللهُ بالرؤيا على نبيّه حزقيال وهي:

١. يعطي الله لحزقيال فكرةً عظيمةً ومؤثّرةً عن نفسه، ليشعرَ بشرف خدمة الله، وكأنَّه أصبح أحد ملائكته المرسَلين، وليعُطي حزقيال قوةً قادرةً أن تدفعه خلال سنوات خدمته، فلا يعتذرُ عن هذه الخدمة الثقيلة بسبب غلظة الشعب الإسرائيلي.
٢. يستثيرُ خوف الشعب سواءً في أورشليم أو في بابل، الشاعرين بالأمان الزائف بالرغم من خطاياهم مستهينين بتحذيرات الأنبياء من أنَّ أورشليم ستخرب.
٣. يُعزّي الخائفين الذين ارتعدوا من كلامه وتواضعوا أمام يده القديرة.

---

[1] خلاصة هذا التفسير التفاسير التي تليه لنصوص الكتاب المقدّس في هذا المبحث والمبحثين التاليين مأخوذةٌ من المصادر التالية:
أ. مقدمة نبؤة حزقيال في الكتاب المقدس نسخة المطبعة الكاثوليكية عام ١٩٦٠م، بيروت.
ب. قاموس الكتاب المقدّس، النسخة الإلكترونية الموجودة في موقع www.st-takla.org التابع للكنيسة القبطية.
ج. تفسير القمص انطونيوس فكري للكتاب المقدس، النسخة الإلكترونية الموجودة في موقع www.arabchurch.com.
د. تفسير سفر حزقيال النبي المنشور في موقع كلمة الحياة www.kalematalhayat.org.

٤. يعطي فكرةً كإعلانٍ مسبقٍ أنَّ الكنيسة ستكون في كلِّ مكانٍ ولجميع شعوب الأرض، ونؤكِّدُ في هذه النقطة على أننا إنما نقوم بعرض الفهم المسيحي لهذه الرؤيا.

يقوم التفسير المسيحي المعاصر لهذه الرؤيا العجيبة على أنّ السموات فُتِحتْ لحزقيال ليرى أموراً سماويّةً رمزيّةً عجيبةً كمقدّمةٍ لإرسال الله له بقوّةٍ، وإعطائه دفعةً معنويةً كبيرةً وإعداده ليسمع صوت الله مباشرةً، ممّا يزيده امتلاءً بالقّوة في دعوته للناس ونُصحهم. ولعلَّ أسهل طريقةٍ لفهم معاني ومدلولات الكلمات الواردة في هذه الرؤيا هي عرض الكلمات والمصطلحات وشرح المقصود منها والمراد بها في مقابلها.

* وكانت عليه هناك يد الرب: أي أنَّ يد الرب كانت عليه لتفتح عينيه وأذنيه فيرى ويسمع ويدخل كل هذا لقلبه فيفهم. ويد الربِّ كانت عليه لتحفظه فلا يهلك حين يرى مجدّ الربِّ.
* ريح عاصفة ... نار متواصلة ... سحابة: في الإعلان عن مجد الرب، غالباً ما تظهر هذه الأمور الثلاثة كما حدث عندما كلَّم الربُ أيوبَ من العاصفة، وعندما حلَّ مجد الرب على جبل سيناء وغطاه السحاب ... وهذه السحابة التي ظهرت مع الريح كانت لتحجب نورَ الله ومجده عن حزقيال فلا يموت، وهي مثلُ السّحاب الذي يحجب نور وحرارة الشمس فلا نرى سوى نورٍ بسيطٍ. إذاً فقد حجبت السحابة عن حزقيال مالا يستطيع أن يراه كيلا يموت، فما رآه حزقيال كان قدر ما تحمّل بشريته، إذاً الريح العاصفة كانت لإعداد حزقيال ليرى، والسحابة كانت لتحديد ما يراه حزقيال لكي لا يهلك.
* نار متواصلة: هذه النار المتواصلة إشارةٌ إلى أنّ الله قادرٌ أن يملأ قلوب شعبه بمحبةٍ ناريّةٍ إن هم لم يقاوموا عمل الروح القدس فيهم، فمن لا يمتلئ قلبه بالمحبَّة لا يستطيع أن يعمل لحساب الله.
* وحولها لمعانٌ: أي حول النار، فنحن لا يمكننا في بحثنا عن الله أن نراه عياناً، كما لا يمكننا رؤية مجده، ولكنَّ الذي نستطيعُ أن نراه من بهاء مجده هو هذا اللمعان، هذا هو ما أمكن النبيّ أن يراه من خلال السحابة.
* وسط النار كمنظر النحاس اللامع: في هذا إشارةٌ لطبيعة عمل الملائكة المزمع أن يقوموا به ضدَّ أورشليم، وسيكون هذا بتحريك جيش بابل ضدَّ أورشليم. فالنحاسُ اللامع هذا يشير للملائكة في هذه الرؤيا.

* شبه أربعة حيوانات: رأى حزقيال شبهَ أربعة مخلوقاتٍ حية، فكلُّ ما كان يراه هو أشباه الحقائق لأنه يستحيل رؤية السماويات ونحن مازلنا في هذه الحياة. وهذه الحيوانات الأربعة هي الكاروبيم[1] كما رآهم يوحنا اللاهوتي في رؤياه. وقيل عنهم في الرؤيا إنهم مملؤون عيوناً، وذلك إشارةً لمعرفتهم غير المحدودة لله، إذاً الحيوانات الأربعة هم ملائكة، وقد رآهم حزقيال في هذا الشبه.
* هذا منظرها لها شبه إنسان: هذه إشارةٌ إلى أنّهم، أي الكاروبيم، مخلوقاتٌ عاقلةٌ مدركةٌ. وفي ظهورهم في شبه إنسانٍ كرامةٌ للإنسان، ويشير هذا أيضاً إلى أنَّ الله يستخدمهم لتدبير أمور البشر بحسب مشيئته الإلهية.
* أما شبه وجوهها فوجه إنسان ووجه أسد ووجه ثور ووجه نسر: بالإضافة للمظهر الإنساني العام، كان للكاروبيم أربعةُ وجوهٍ تفهمُ على النحو التالي:

١. حين يستخدمهم الله في تنفيذ قضائه ضدَّ أعدائه فهم أقوياء كالأسد، وهم لهم حدّةُ نظرٍ في تتبُّع الفريسة كالنسر. وحين يستخدمهم الله لخدمة شعبه فهم كالثّور في القوة والتحمّل في العمل، ولهم وعيٌ وإدراكٌ كالإنسان، عموماً، فمع أنّ لهم منظر إنسان، إلاّ أنّ إمكانياتهم تفوق قدرة البشر بمراحل. ففي القوة هم كالأسد وفي حدةّ البصر هم كالنّسر ويرون الأسرار الإلهية من بعيدٍ، أي أنّ لهم حدةَ بصرٍ في الأمور السماوية يعبّر عنها بالنسر ولكن مع أنّ لهم قوة الأسد وتحُّمِل الثور، فهم لهم رقّةُ الإنسان.
٢. يرى بعضُ آباء الكنيسة أنّ كلمة "كاروب" تعني معرفة، لذلك قيل عنهم إنّهم مملوؤون عيوناً والمعنى أنهم يعرفون الله فهم يرونه.
* لكل واحدٍ أربعةُ أجنحة: تصويرهم هنا بأجنحةٍ إشارةٌ إلى أنّهم يطيرون صعوداً لله وينزلون على البشر لتنفيذ مشيئة الله، وبعد أن ينفذوا مشيئة الله يصعدون ثانيةً ليقدِّموا حساباً

[1] الكاروبيم: حسبَ تعريف قاموس الكتاب المقدس هم ملائكة يُرسلون من قبل الله أو يقيمون في حضرته تعالى، أقامهم الله على أبواب جنة عدن عندما طرد آدم وحواء منها، ويقال عنهم أنهم ذوو جناحين. أما أشباههم فكانت من ذهب وأوقفت على غطاء تابوت العهد. وكان جناحا= =الكروبين يظللان التابوت. وكانت الكاروبيم تحت عرش الله لما ظهر لحزقيال. وربما كان المقصود بأجنحة الريح الكروبيم. وفضلاً عن شبهي الكروبيم على غطاء التابوت كان مصوراً على حجاب خيمة الاجتماع صورة كاروبيم، وكان في هيكل سليمان كروبان كبيران مغشيان بذهب يظلل جناحاهما التابوت الذي كان بينهما وبين قدس الأقداس، وحيطان البيت كانت أيضاً منقوشة بكروبيم مع نخيل وكذلك مصراعا الباب كانا منقوشين بكروبيم، وكان نقش أتراس الحواجب ثيران وأسود وكروبيم، والمقصود بكل= =ذلك هو الدلالة على وجود الله في الهيكل. وكان وجود الكروبيم فوق التابوت لتظليل ظهور مجد الله عن الناظرة كما غطى السحاب مجده في الجبل. وقد رأى حزقيال الكروبيم في رؤيا عند نهر كبار، ولكلٍ أربعة أوجه وأربعة أجنحة، وكانت الأوجه شبيهة بالمخلوقات التي رآها النبي قبلاً في رؤياه وهي وجه إنسان ووجه أسد ووجه ثور ووجه نسر.

عن عملهم لله، حيث نجد أنّ السرافيم[1] لهم ستة أجنحةٍ باثنين يغطّي أحدُهم وجهه وباثنين يغطّي رجليه وباثنين يطير.

* وأجنحتها متصلة الواحد بأخيه: هذا تعبيرٌ عن الوحدة بينهم والاتفاق العام حيث أنّ هناك سلاماً كاملاً في السموات.
* أما أجنحتها فمبسوطة: غيرُ مطويةٍ، وهذا إشارةٌ إلى أنّهم في حالة استعدادٍ دائمٍ لتنفيذ أوامر الله فوراً.
* أرجلها أرجل قائمة: اي مستقيمة ثابتة، ولا تُثنى بسبب صعوبة الخدمة ولا تكلّ.
* أقدام أرجلها كقدم رجل العجل: فالعجل مشقوق الحافر وهذا إشارة لطهارة الحيوان بحسب شريعة العهد القديم. والمقصود طهارة اتجاهاتهم وحركاتهم. أي استعدادهم لتنفيذ مشيئة الله بلا أيِّ ترددٍ.
* أيدي إنسان تحت أجنحتها: أي أنّ الذي يحرّك أجنحة الملائكة ويعطيها القدرة هو المسيح.
* كل واحد يسير إلى وجهة وجهه: أي إلى حيث وجّهَهُ المسيح، الذي يده تحت أجنحتهم.
* الحيوانات تنطلق وترجع كمنظر البرق: فهم لا يطيقون الابتعاد عن الربّ، ولا يطيقون أيضاً إلاَّ أن ينفذوا إرادته، لذلك يذهبون للتنفيذ ويعودون كالبرق.
* البكرات: هي العجلات، وهذه البكرات أو العجلات تعبِّر عن تنفيذ المشيئة الإلهية على الأرض.
* رآها بكرة واحدة: هذا يعني أنّ هناك خطةً واحدةً أزلية تشملُ كلَّ العالم في كل زمانٍ وفي كل مكانٍ، ولأنها تشمل كلَّ العالم قيل إنَّ المركبة لها جوانبها الأربعة، فكما أن للملائكة أربعة وجوه، فإنّ للبكرات أربعة جوانب، وفي هذا توجيهٌ إلى أنَّ عناية الله هي موجهةٌ لاتجاهات الأرض الأربعة.

---

[1] السّرافيم: حسبَ تعريف قاموس الكتاب المقدّس السرافيم (السراف أو الساراف) كلمة عبرانية يغلب أن يكون معناها "كائنات مشتعلة" أو ربما كان معناها "شرفاء" وهي في صيغة الجمع، ولم ترد إلا في نبوة إشعياء ٦: ٢ و٦ تسمية للأرواح التي كانت تخدم = = عرش الرب وظهرت لإشعياء في رؤياه. ويصف إشعياء السرافيم دون أن يذكر عددهم، فيقول أن لهم وجوهاً وأيدي وأرجلاً وأجنحة، ولكل منهم ستة أجنحة، باثنين يغطي وجهه وباثنين يغطي رجليه وباثنين يطير، وذلك لأنه لا يستحق أن يرى وجه الله، ولأنه لا يريد أن يرى الله رجليه، ولأنه يطير ليصنع مشيئة الله. وقد طار واحد منهم بجمرةٍ من على المذبح ووضع على شفتي إشعياء لتطهيرها.

ويبدو أن السرافيم كالكروبيم نوعانساميان من الملائكة الذين يخدمون الله. ويقول لنا اشعيا إن السرافيم كانوا يرنّمون ويرددون "قدوس ..." تمجيداً لله. وكما كان اليهود يتكلمون عن الكروبيم في حلوله على التابوت في سحاب، هكذا تكلم اشعياء عن السرافيم على أنهم لامعون ساطعون.

ويتحدث سفر الرؤيا عن الحيوانات ذات الأجنحة والعيون، والتي تخدم الله ولكننا لا نجد معلومات أكثر من هذه في الكتاب المقدس عن أيٍّ من هذه المخلوقات.

(يُكتب أيضاً: سرافيم، سارافيم، سيرافيم، ساروفيم، السارافيم، السيرافيم، الساروفيم).

* كمنظر الزبرجد: الزبرجد هو حجرٌ كريمٌ لونه أخضر، واللون الأخضر يشير للحياة. وإرادة الله هي الحياة، وكون أن البكرات لونها أخضر، فهذا يعني أنَّ أعمال الله هي بهدف الحفاظ على حياتهم، وليس حياتهم فقط على الأرض، بل أن تكون لهم حياة أبدية.
* منظر البكرات وصنعتها كمنظر الزبرجد: وهي بكرة واحدة فالله له هدفٌ واحدٌ، ألا وهو حياةٌ للبشر هنا على الأرض وحياةٌ أبديةٌ لأولاده في السماء. وكلُّ الأمور والبكرات تدور حول هذا المحور.
* للأربع شكل واحد: أي عمل الله في كل أنحاء العالم هو وفق خطةٍ واحدةٍ محكمةٍ ثابتةٍ.
* لم تدر عند سيرها: إشارةٌ لثبات أحكام الله وعدم تغيُّرِها.
* أُطُرُها عاليةٌ ومخيفةٌ: أي محيطها واسعٌ جداً، وحينما تحركت وارتفعت خاف النبيُّ جداً، وهذا يعني أنَّ علم الله عالٍ عن مستوانا بما لا يُقاس، والوصول لمخططاته البعيدة هو فعلاً أمر مدهش يعجز عنه العقل البشري الضئيل.
* أطرها ملآنة عيوناً: أي أنَّ عنايته الإلهية كلّها فهمٌ وحكمةٌ ورؤيةٌ. وكلُّ الأحداث تحت سيطرة وتحكُّم الله، لا شيء يتحرك سوى بسماحٍ منه.
* ملاحظةٌ هامةٌ حول قوله "بكرة داخل بكرة": قالوا إنَّ هذه البكرات هي كلمة الله التي قُدِّمَتْ في العهدين، وكُتبتْ لنا في لغتنا البشرية، وبكرةٌ داخل بكرةٍ تعني أنّ العهد الجديد تمَّ التنبؤُ عنه في العهد القديم، وأنَّ العهد القديم يكشفُ أسرار العهد الجديد. عموماً فالكتاب المقدَّس هو كشفٌ لعمل الله مع شعبه في كل زمانٍ ومكانٍ.
* فإذا سارت الحيواناتُ سارت البكرات بجانبها: أي أنّ الحيوانات هي التي تعنى بالبكرات لتوجيه حركتها، فالملائكة هم خدّامُ الله في توجيه المسببات بغرض خدمة الأهداف الإلهية والخطة الإلهية التي يعرفونها. والبشر يكونون كأدواتٍ في أيدي الملائكة.
* وإذا ارتفعت تلك عن الأرض: وحينما ترتفع المخلوقات الحيّة عن الأرض لعمل أيِّ خدمةٍ فوق مستوى القوانين الطبيعية، وهذا ما نسميه معجزات مثل شق البحر ووقوف الشمس، فإن العجلات تتوافق في تناغم،وتصعد معها، أي تنفِّذُ مشيئتها وإنْ كان هذا ضدّ اتجاهها الطبيعي.
* لأن روح الحيوانات كانت في البكرات: أي أنَّ الروح القدس هو الذي يقود الحيوانات، وهي بالتالي تُحَرِّكُ البكرات.
* سمعت صوت أجنحتها كخرير مياهٍ كثيرةٍ: تصدر الملائكةُ هذه الأصوات لِتُلقيَ الخشوعَ في قلب النبيّ،حتى يستطيع أن يسمع صوت الله إذا تكلَّم.

* صوت القدير: في رؤيا القدّيس يوحنا، سمع يوحنا صوت الله كصوت مياهٍ كثيرةٍ؛ فصوت الملائكة يشبهُ صوتَ الله.
* صوتُ خرير المياه الكثيرة مخيف: صوتُ ضجّةٍ كصوتِ جيش: هذا الصوت كناية عن الكنيسة في قوّتها بمسيحها الذي فيها تكون للشيطان مُرهِبةً كجيشٍ بألويةٍ.
* أرخت أجنحتها: سكتت عن الصوت ليسمعَ النبيُّ صوتَ الله لذلك نسمع بعد ذلك مباشرة فكان صوت من فوق الجلد.
* من فوق الجلد: أي صوتُ مَنْ يجلس على العرش.

ملاحظة هامة جدّاً:

إن كلَّ ما سبق وتقدم من هذه الرؤيا كان مقدمةً لهذه الآيات، أي إعداد النبيِّ ليسمعَ صوتَ كلمة الابن الجالس على العرش.

* شبهُ عرشٍ عليه كمنظر إنسان: ما يراه النبيُّ هو أشباه الأشياء، لأنه وهو في الجسد، لا يستطيع أن يرى الحقائق. وهذا يرمز لأحد ظهورات المسيح في شكل إنسان قبل أن يتجسَّد، والربّ جالسٌ على عرشٍ إعلاناً لسلطته الملكيّة.
* النحاس اللامع كمرأى نارٍ: النحاس يشير لناسوت المسيح والنار تشيرُ للاهوته وفي هذا إشارة للتجسُّد. واتحاد النار بالنحاس إشارةٌ لاتحاد اللاهوت بالناسوت.
* لها لمعان من حولها: أي مجد.
* كمنظر قوس الغمام: يعني قوس قزح.

وخلاصة معنى هذه الرؤيا هو:

إنّ المسيح السماويّ الجالس على العرش والملائكة خاضعةٌ له، وأنه سيتخذُ جسداً (نحاس) يتحدُ بلاهوته (النار). ويكون هذا التدبير (البكرات) ليعطي حياةً للإنسان حتى لا يهلك الإنسان بل تكون له حياةٌ أبدية ...

بعد استعراضنا لمضمون الفصْل الأول من رؤيا حزقيال وبعد عرض شرح إصحاحاته كاملةً فإنَّ من المفيد أن نُسَجِّلَ الملاحظات التالية:

أولاً: لا توجدُ في رؤيا حزقيال أيّةُ إشارةٍ تتعلّق بالرسول محمدٍ ﷺ أو بظهور الإسلام ودولته لا من قريبٍ ولا من بعيدٍ.

ثانياً: إنّ التفسير والفهم المسيحي لنصوص هذه الرؤيا يدلُّ بكُلِّ صراحةٍ ووضوحٍ على أنّ المقصود (بشبه الأربعة مخلوقات حيّة) الواردة في هذه الرؤيا الملائكة وبالذات ما يسمّونه الكاروبيم(١).

ثالثاً: ينصرف الفهم الكنسيّ لهذه الرؤيا على أنها من المبشّرات بالمسيح السّماويّ الجالس على العرش وأنّ (أيدي الإنسان تحت أجنحتها) السابق وروده في الرؤيا تدلُّ على المسيح في أحد ظهوراته قبل التجسُّد، وأنَّ (بكرة داخل بكرةٍ) السابق ورودها تعني العهد الجديد (الإنجيل) الذي تمَّ التنبؤ عنه في العهد القديم (التوراة)، وأنَّ العهد القديم يكشفُ أسرار العهد الجديد.

رابعاً: إن التفسير الكنسيّ لـ (روح الحيوانات) أو (شبه الأربعة مخلوقات الحيّة) هو الروحُ القُدُس.

خامساً: تؤكِّدُ شروح وتفاسير الكتاب المقدّس على أنّ مضمون هذه الرؤيا هو أمورٌ سماويّةٌ رمزيّةٌ عجيبةٌ، فهي ليست حقيقيّةً، إضافةً لتأكيد هذه التفاسير على عدم القدرة على تصوُّرِ هذه الرؤيا بوضوحٍ تامٍّ، وذلك لكثرة الرمزية المستعملة فيها بالرغم من دقّة الأوصاف التي أعطاها النبيُ حزقيال فيها. "ويجتهد حزقيال في أن يستذكر كُلاً من هذه الرؤى من خلال صورٍ خياليةٍ مشبعة معنىً روحياً، كالحيوانات الأربع في عربة يهوه. والعظام التي انتعشت من نفخة روح الله، والهيكل العتيد الذي يتدفّق منه رمزياً نهرُ الماء الحي. فهذه القوةُ البصريةُ تجعل من حزقيال بادئ التيار الرؤوي [الرؤيوي] وتمهّدُ للوحات سفر دانيال الرمزية العظيمة ولرؤيا يوحنا، ومن وجهةٍ أخرى إنّهُ أجرأ الأنبياء عبارةً وأكثرهم خيالاً في إنشائه، وحيث أنّه لم يكن مُفكراً مثل إشيعا، فكان يحتاج إلى تصوير أفكاره تصويراً واقعياً وخيالياً، لذلك قد أتى بأعمالٍ رمزيةٍ كثيرةٍ ذكرت خاصة في الفصول ٤، ٥، ١٣"(٢).

(1) سبق التعريف بهم.

(2) انظر مقدمة رؤيا حزقيال، الكتاب المقدس، [م. س].

وبالرغم من أنّ مقدمة هذه الرؤيا تذكر "أنّ الرؤيا الافتتاحية التي يُعلِنُ فيها الله لحزقيال رسالته هي من مشاهير الرؤى، وعلى الرغم من الوصف الدقيق الذي يعطيه النبي عنها فلا نستطيع أن نتصوَّرها بوضوحٍ تامٍ"[1].

نقول: بالرغم من ذلك، نرى الرؤيويين في العصور الوسطى قد سمحوا لأنفسهم بفهم خاصٍّ وتفسير شاذٍّ لهذه الرؤيا، وصرفوا فَصْلها الأول (الذي سبق إيراده وشرحه) للدلالة على رسول الله محمد ﷺ!!! وإنما هي محضُ أكاذيب اخترعوها ولفَّقوها لتنفير الناس من الإسلام ورسول الله ﷺ. نعم، لم يكن هؤلاء الرؤيويون ذوي عقولٍ متفحِّصةٍ، لكنَّ المصيبةَ كانت تكمُنُ في أنّ كثيرين من الذين جاؤوا بعدهم اتّسموا بُسرعة التصديق لهذه الأكاذيب والافتراءات مثلهم تماماً!!!.

---

[1] المصدر السابق نفسه.

المبحث الثالث

رؤيا دانيال[1]

تواجه معظم الدارسين لسفر دانيال إشكاليةٌ تتعلّقُ بحقيقة هوية الشّخص الذي كتب هذا السِّفر؛ أهو دانيال الكاهن الذي كان من رؤوس الآباء الذين صعدوا مع عزرا من بابل؟ أم هو دانيال، الابن الثاني للملك داود والمولود في حبرون؟ أم هو دانيال الذي ذكره سفرُ حزقيال أكثرَ من مرّةٍ ووصفه بأنه حكيمٌ وبأنّه لا يخفى عليه سرٌّ، والذي كان سابقاً لحزقيال من حيث الترتيب الزمني؟ أم أنَّه دانيال النبيّ صاحب السِّفر وهو رابع الأنبياء الأربعة (الكبار)[2] إشعياء وإرميا وحزقيال؟؟؟ لن نخوض في موضوع الترجيح بين الاحتمالات السابقة لأنّ القطع أيُّها الأصحّ هو غايةٌ في الصّعوبة، هذا إضافةً لكون الكثير من المصادر المسيحية مازالت لم تقدّم إجابةً قاطعةً حول هذا الموضوع.

إنّ الذي يعنينا في هذه الدراسة الحديثُ عن مضمون رؤيا دانيال النبيّ الذي يحمل هذا السفرُ اسمَه ويتحدّث عنه حتى لو لم يكن هو كاتبَه، حيث أنّ النبي دانيال هو الشخصيّة الرئيسيّة والمحوريّة في هذا السِّفر. ودانيال اسمٌ عبريٌّ معناه (الله قضى). كان دانيال من عائلةٍ شريفةٍ، وأغلب الظنّ أنه وُلِدَ في أورشليم، كما أنّه كان شريفاً من أشراف سبط يهوذا، ومن النسل الملكيّ ممن سُبُوا مع أشرافٍ كثيرين آخرين، في السنة الثالثة من مُلِك يهوياقيم مَلكِ يهوذا.

إنّ سفر دانيال مكتوبٌ في الأصل بلغتين؛ حيث كُتِبَ جزءٌ منه بالآرامية وكُتِبَ جزءٌ آخر بالعبريّة، ويحتوي سفر دانيال المدوَّن في طبعة دار الكتاب المقدس على اثني عشَر إصحاحاً، غير أن الكنائس الآرثوذكسية والكاثوليكية تضيفُ إليه تتِمَّةً حَذفها البروتستانت رغم تصديق المجامع وآباء الكنيسة الأولى على صحّتها وقانونيّتها، وهذه الإضافات موجودة أصلاً في

---

(1) انظر:

أ. تفاسير وشروحات الكتاب المقدس: التفسير الكامل لسفر دانيال/ الفصل السابع (الحيوانات الحاكمة) على موقع كلمة الحياة [م. س].

ب. مقدمة سفر دانيال في الكتاب المقدس نسخة المطبعة الكاثوليكية، ١٩٦٠ بيروت.

ج. قاموس الكتاب المقدس [م. س].

د. تفسير القمص انطونيوس فكري للكتاب المقدس [م. س] تفسير سفر دانيال.

(2) جاءت تسمية الأنبياء الكبار تعبيراً عن طول أسفارهم بالمقارنة مع أسفار الأنبياء الآخرين حسب الاعتقاد اليهودي.

الترجمة السبعينية التي تُرْجِمَت من خلالها التوراة إلى اليونانية في حوالي القرن الثالث قبل الميلاد.

يوضَعُ سفر دانيال في الكتاب المقدس باللغة العربية، وكذلك في اللغات الحديثة كالإنجليزية والفرنسية والألمانية، ضمن الأنبياء الكبار، فيأتي في الترتيب بعد حزقيال، وفي هذا تتبع هذه الترجمات الترتيب الذي سارت عليه الترجمة السبعينية ومن بعدها ترجمة الفولجاتا اللاتينية. أما موضعُ السِّفر بحسب ترتيب الأسفار في العهد القديم كما جاء في الأصل العبري فيقع في القسم الذي يُسمّى "الكتوبيم" أي "الكتب"، وهو القسم الثالث من العهد القديم في اللغة الأصلية.

أقسام سفر دانيال

ينقسم السفر بالنسبة لمحتوياته إلى قسمين رئيسين وهما:

أولاً: الأجزاء التاريخية.

ثانياً: الأجزاء الرؤيوية (أو النبوئية) وهي التي تهمّنا في هذه الدراسة، وتحتوي هذه الأجزاء على أربعِ نبؤاتٍ ورؤىً عظميةٍ رآها دانيال وهي:

١. رؤيا تُمَثّلُ قوى العالم الأربع العظمى في شكل أربعة حيواناتٍ، ثم تزول هذه القوى، ومن بعدها تثبت مملكةُ الملكوت الأبدي.
٢. الرؤيا التي يرى فيها القوة التي يمِّثلُها تيسُ المَعزِ تتغلّب على قوةٍ أخرى هائلةٍ يمثلها كبش، والقوة التي يمِّثلها تيسُ المعز تنقسم إلى أربعةِ أقسامٍ، ومَلكُ أحد هذه الأقسام ينجِّسُ الهيكل.
٣. أما الرؤيا الثالثة فقد جاءت استجابةً لصلاة التوبة التي قدَّمها دانيال، وهي عبارةٌ عن رسالةٍ حملها إليه الملاك جبرائيل تتعلَّقُ بمملكة المسيح العتيدة التي تأتي بعد سبعين أسبوعاً.
٤. في الرؤيا الرابعة تأتيه رسائل من الله تؤَكِّدُ له محبة الله للمؤمنين الأمناء في شعبه، وفيها يرى صورةً للمظالم التي يرتكبها ملكُ الشمال.

وحتى يكون الكلام أكثر تخصيصاً وانضباطاً فإننا سنعمدُ إلى إيراد الفصل السابع فقط من رؤيا دانيال؛ لأنَّهُ الفصل الذي زعم أصحابُ الفكر الرؤيوي أنَّ مضمونه والوحوش التي يتحدّث عنها تنطبق أوصافها على رسول الله ﷺ ودولة الإسلام، وسنعرضُ له تالياً بكامل إصحاحاته الثمانية والعشرين.

رؤيا دانيال / الفصل السابع

(١) فِي السَّنَةِ الأُولَى لِبَيْلْشَاصَّرَ مَلِكِ بَابِلَ رَأَى دَانِيآلُ حُلْماً وَرُؤَى رَأْسِهِ عَلَى فِرَاشِهِ. حِينَئِذٍ كَتَبَ الْحُلْمَ وَأَخْبَرَ بِرَأْسِ الْكَلاَمِ . (٢) قَالَ دَانِيآلُ: [كُنْتُ أَرَى فِي رُؤْيَايَ لَيْلاً وَإِذَا بِأَرْبَعِ رِيَاحِ السَّمَاءِ هَجَمَتْ عَلَى الْبَحْرِ الْكَبِيرِ . (٣) وَصَعِدَ مِنَ الْبَحْرِ أَرْبَعَةُ حَيَوَانَاتٍ عَظِيمَةٍ هَذَا مُخَالِفٌ ذَاكَ . (٤) الأَوَّلُ كَالأَسَدِ وَلَهُ جَنَاحَا نَسْرٍ. وَكُنْتُ أَنْظُرُ حَتَّى انْتَتَفَ جَنَاحَاهُ وَانْتَصَبَ عَنِ الأَرْضِ وَأُوقِفَ عَلَى رِجْلَيْنِ كَإِنْسَانٍ وَأُعْطِيَ قَلْبَ إِنْسَانٍ . (٥) وَإِذَا بِحَيَوَانٍ آخَرَ ثَانٍ شَبِيهٍ بِالدُّبِّ فَارْتَفَعَ عَلَى جَنْبٍ وَاحِدٍ وَفِي فَمِهِ ثَلاَثُ أَضْلُعٍ بَيْنَ أَسْنَانِهِ فَقَالُوا لَهُ: [قُمْ كُلْ لَحْماً كَثِيراً . (٦) وَبَعْدَ هَذَا كُنْتُ أَرَى وَإِذَا بِآخَرَ مِثْلِ النَّمِرِ وَلَهُ عَلَى ظَهْرِهِ أَرْبَعَةُ أَجْنِحَةِ طَائِرٍ. وَكَانَ لِلْحَيَوَانِ أَرْبَعَةُ رُؤُوسٍ وَأُعْطِيَ سُلْطَاناً . (٧) بَعْدَ هَذَا كُنْتُ أَرَى فِي رُؤَى اللَّيْلِ وَإِذَا بِحَيَوَانٍ رَابِعٍ هَائِلٍ وَقَوِيٍّ وَشَدِيدٍ جِدّاً وَلَهُ أَسْنَانٌ مِنْ حَدِيدٍ كَبِيرَةٌ. أَكَلَ وَسَحَقَ وَدَاسَ الْبَاقِيَ بِرِجْلَيْهِ. وَكَانَ مُخَالِفاً لِكُلِّ الْحَيَوَانَاتِ الَّذِينَ قَبْلَهُ. وَلَهُ عَشَرَةُ قُرُونٍ . (٨) كُنْتُ مُتَأَمِّلاً بِالْقُرُونِ وَإِذَا بِقَرْنٍ آخَرَ صَغِيرٍ طَلَعَ بَيْنَهَا وَقُلِعَتْ ثَلاَثَةٌ مِنَ الْقُرُونِ الأُولَى مِنْ قُدَّامِهِ وَإِذَا بِعُيُونٍ كَعُيُونِ الإِنْسَانِ فِي هَذَا الْقَرْنِ وَفَمٍ مُتَكَلِّمٍ بِعَظَائِمَ . (٩) كُنْتُ أَرَى أَنَّهُ وُضِعَتْ عُرُوشٌ وَجَلَسَ الْقَدِيمُ الأَيَّامِ. لِبَاسُهُ أَبْيَضُ كَالثَّلْجِ وَشَعْرُ رَأْسِهِ كَالصُّوفِ النَّقِيِّ وَعَرْشُهُ لَهِيبُ نَارٍ وَبَكَرَاتُهُ نَارٌ مُتَّقِدَةٌ . (١٠)نَهْرُ نَارٍ جَرَى وَخَرَجَ مِنْ قُدَّامِهِ. أُلُوفُ أُلُوفٍ تَخْدِمُهُ وَرَبَوَاتُ رَبَوَاتٍ وُقُوفٌ قُدَّامَهُ. فَجَلَسَ الدِّينُ وَفُتِحَتِ الأَسْفَارُ . (١١) كُنْتُ أَنْظُرُ حِينَئِذٍ مِنْ أَجْلِ صَوْتِ الْكَلِمَاتِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي تَكَلَّمَ بِهَا الْقَرْنُ. كُنْتُ أَرَى إِلَى أَنْ قُتِلَ الْحَيَوَانُ وَهَلَكَ جِسْمُهُ وَدُفِعَ لِوَقِيدِ النَّارِ . (١٢) أَمَّا بَاقِي الْحَيَوَانَاتِ فَنُزِعَ عَنْهُمْ سُلْطَانُهُمْ وَلَكِنْ أُعْطُوا طُولَ حَيَاةٍ إِلَى زَمَانٍ وَوَقْتٍ . (١٣) كُنْتُ أَرَى فِي رُؤَى اللَّيْلِ وَإِذَا مَعَ سُحُبِ السَّمَاءِ مِثْلُ ابْنِ إِنْسَانٍ أَتَى وَجَاءَ إِلَى الْقَدِيمِ الأَيَّامِ فَقَرَّبُوهُ قُدَّامَهُ . (١٤) فَأُعْطِيَ سُلْطَاناً وَمَجْداً وَمَلَكُوتاً لِتَتَعَبَّدَ لَهُ كُلُّ الشُّعُوبِ وَالأُمَمِ وَالأَلْسِنَةِ . سُلْطَانُهُ سُلْطَانٌ أَبَدِيٌّ مَا لَنْ يَزُولَ وَمَلَكُوتُهُ مَا لاَ يَنْقَرِضُ . (١٥) أَمَّا أَنَا دَانِيآلَ فَحَزِنَتْ رُوحِي فِي وَسَطِ جِسْمِي وَأَفْزَعَتْنِي رُؤَى رَأْسِي . (١٦) فَاقْتَرَبْتُ إِلَى وَاحِدٍ مِنَ الْوُقُوفِ وَطَلَبْتُ مِنْهُ الْحَقِيقَةَ فِي كُلِّ هَذَا. فَأَخْبَرَنِي وَعَرَّفَنِي تَفْسِيرَ الأُمُورِ : (١٧) هَؤُلاَءِ الْحَيَوَانَاتُ

الْعَظِيمَةُ الَّتِي هِيَ أَرْبَعَةٌ هِيَ أَرْبَعَةُ مُلُوكٍ يَقُومُونَ عَلَى الأَرْضِ . (١٨) أَمَّا قِدِّيسُو الْعَلِيِّ فَيَأْخُذُونَ الْمَمْلَكَةَ وَيَمْتَلِكُونَ الْمَمْلَكَةَ إِلَى الأَبَدِ وَإِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ . (١٩) حِينَئِذٍ رُمْتُ الْحَقِيقَةَ مِنْ جِهَةِ الْحَيَوَانِ الرَّابِعِ الَّذِي كَانَ مُخَالِفاً لِكُلِّهَا وَهَائِلاً جِدّاً وَأَسْنَانُهُ مِنْ حَدِيدٍ وَأَظْفَارُهُ مِنْ نُحَاسٍ وَقَدْ أَكَلَ وَسَحَقَ وَدَاسَ الْبَاقِيَ بِرِجْلَيْهِ (٢٠) وَعَنِ الْقُرُونِ الْعَشَرَةِ الَّتِي بِرَأْسِهِ وَعَنِ الآخَرِ الَّذِي طَلَعَ فَسَقَطَتْ قُدَّامَهُ ثَلاَثَةٌ. وَهَذَا الْقَرْنُ لَهُ عُيُونٌ وَفَمٌ مُتَكَلِّمٌ بِعَظَائِمَ وَمَنْظَرُهُ أَشَدُّ مِنْ رُفَقَائِهِ . (٢١) وَكُنْتُ أَنْظُرُ وَإِذَا هَذَا الْقَرْنُ يُحَارِبُ الْقِدِّيسِينَ فَغَلَبَهُمْ (٢٢) حَتَّى جَاءَ الْقَدِيمُ الأَيَّامِ وَأُعْطِيَ الدِّينُ لِقِدِّيسِي الْعَلِيِّ وَبَلَغَ الْوَقْتُ فَامْتَلَكَ الْقِدِّيسُونَ الْمَمْلَكَةَ . (٢٣) فَقَالَ : أَمَّا الْحَيَوَانُ الرَّابِعُ فَتَكُونُ مَمْلَكَةٌ رَابِعَةٌ عَلَى الأَرْضِ مُخَالِفَةٌ لِسَائِرِ الْمَمَالِكِ فَتَأْكُلُ الأَرْضَ كُلَّهَا وَتَدُوسُهَا وَتَسْحَقُهَا . (٢٤) وَالْقُرُونُ الْعَشَرَةُ مِنْ هَذِهِ الْمَمْلَكَةِ هِيَ عَشَرَةُ مُلُوكٍ يَقُومُونَ وَيَقُومُ بَعْدَهُمْ آخَرُ وَهُوَ مُخَالِفٌ الأَوَّلِينَ وَيُذِلُّ ثَلاَثَةَ مُلُوكٍ . (٢٥) وَيَتَكَلَّمُ بِكَلاَمٍ ضِدَّ الْعَلِيِّ وَيُبْلِي قِدِّيسِي الْعَلِيِّ وَيَظُنُّ أَنَّهُ يُغَيِّرُ الأَوْقَاتَ وَالسُّنَّةَ وَيُسَلَّمُونَ لِيَدِهِ إِلَى زَمَانٍ وَأَزْمِنَةٍ وَنِصْفِ زَمَانٍ . (٢٦) فَيَجْلِسُ الدِّينُ وَيَنْزِعُونَ عَنْهُ سُلْطَانَهُ لِيَفْنُوا وَيَبِيدُوا إِلَى الْمُنْتَهَى . (٢٧) وَالْمَمْلَكَةُ وَالسُّلْطَانُ وَعَظَمَةُ الْمَمْلَكَةِ تَحْتَ كُلِّ السَّمَاءِ تُعْطَى لِشَعْبِ قِدِّيسِي الْعَلِيِّ. مَلَكُوتُهُ مَلَكُوتٌ أَبَدِيٌّ وَجَمِيعُ السَّلاَطِينِ إِيَّاهُ يَعْبُدُونَ وَيُطِيعُونَ . (٢٨) إِلَى هُنَا نِهَايَةُ الأَمْرِ. أَمَّا أَنَا دَانِيآلَ فَأَفْكَارِي أَفْزَعَتْنِي كَثِيراً وَتَغَيَّرَتْ عَلَيَّ هَيْئَتِي وَحَفِظْتُ الأَمْرَ فِي قَلْبِي.

تفسير النّصوص السّابقة[١]

إنّ رياح السماء المذكورة في (دانيال ٧: ٢)، والتي هجمت على البحر الكبير، ترمز إلى القوى التي يستخدمها الله لتنفيذ مقاصده سواءً في السماء أو على الأرض، وهي بغير شكٍّ قوىً ملائكيةٌ؛ حيث أنَّ هناك ملائكةٌ مكّلفون بتنفيذ مقاصد الله في السماء وعلى الأرض، وكلُّ فريقٍ منهم يقوم بعمله بحسب الخطّة الإلهية المرسومة، أما البحر الكبير الذي ذكره دانيال فهو البحر الأبيض المتوسط، ويرمز البحر أيضاً في مواضع أخرى من الكتاب

---

[١] انظر:
أ. تفاسير وشروحات الكتاب المقدس: التفسير الكامل لسفر دانيال/ الفصل السابع (الحيوانات الحاكمة) على موقع كلمة الحياة [م. س].
ب. مقدمة سفر دانيال في الكتاب المقدس نسخة المطبعة الكاثوليكية، ١٩٦٠ بيروت.
ج. قاموس الكتاب المقدس [م. س].
د. تفسير القمص انطونيوس فكري للكتاب المقدس [م. س] تفسير سفر دانيال.

المقدس إلى القوى الأممية المعادية لله، ومن وسط الأمم المضطربة التي تسكن على شواطئ البحر الأبيض المتوسط خرجت الحيوانات الأربعة، واضطربت هذه الأمم.

يقول دانيال النبي "وصعد من البحر أربعة حيوانات عظيمة هذا مخاف ذاك. الأول كالأسد وله جناحا نسر. وكنت أنظر حتى انتتف جناحاه وانتصب عن الأرض وأوقف على رجلين كإنسان وأعطى قلب الإنسان" (دانيال ٧: ٢ - ٤)

هذا الحيوان الأول الذي رآه دانيال كالأسد له جناحا نسر، يرينا بصورته هذه الجلال الملكيّ والقوة العسكرية الباطشة، وفي ذلك الوقت البصر الحاد وسرعة الانقضاض التي يتميز بها النسر. وهذا الحيوان الأول يرمز إلى الإمبراطورية البابلية التي رمز إليها التمثال العظيم بالرأس من ذهب. وقد يردُ على هذا التفسير سؤالٌ هو:

كيف يمكن أن يكون حلم دانيال نبوياً يتحدث عن ممالك مستقبلية، بينما الحيوان الأول الذي رآه يرمز إلى الإمبراطورية البابلية التي كانت عندئذ موجودة على الأرض كما يؤكد دانيال في كلماته "في السنة الأولى لبيلشاصر ملك بابل رأى دانيال حلماً" (دانيال ٧: ١)؟!؟

والجواب على ذلك أن الإمبراطورية البابلية كانت موجودة في الوقت الذي رأى دانيال فيه حلمه النبوئي، وذلك لإعطاء القارئ أو السامع صورةً متكاملةً للإمبراطوريات التي حكمت وستحكمُ الأرض خلال أزمنة الأمم.

يستطرد دانيال قائلاً: "كنت أرى... وإذ بحيوان آخر ثان شبيه بالدب فارتفع على جنب واحد وفي فمه ثلاث أضلع بين أسنانه فقالوا له هكذا، قم كل لحماً كثيراً" (دانيال ٧: ٥).

هذا الحيوان الثاني كان شبيهاً بالدبّ، والدبُّ أقلُّ قوةً من الأسد، تماماً كما أنّ الفضة في التمثال العظيم الذي رآه نبوخذ نصر الملك أقلُّ قيمةً من الذهب. وهنا نرى بداية التدهور في الحكم الأممي خلال أزمنة الأمم، هذا الحكم الذي سيصل في نهايته إلى الحديد المختلط بالطّين.

هذا الحيوان الثاني الشّبيهُ بالدبِّ يرمز إلى مملكة مادي وفارس، ويُشارُ إليها في التمثال بالصدر والذراعين من فضّةٍ، وقد كانت هذه المملكة مكوّنةً من اتحاد شعبين.. الماديّ والفارسيّ، والشعبُ الماديُّ من نسلِ "ماداي ابن يافث". أما الشعب الفارسي فهو من أصلٍ آريٍ، قريبٍ من العنصر المادي، ولكن لم يُذكَرْ أصله في جدول الأمم في سفر التكوين. وقد أصبحت فارس هي القوة الأكثرَ تسلُّطاً؛ وهذا يظهرُ في النبوّة في ارتفاع الدب على جنبٍ واحدٍ وهو جنب الفارسي، أما الثلاثةُ أضلعٍ بين أسنان الدب فهي تشير إلى الممالك التي هزمها الدبّ الماديّ الفارسيّ.... بابل، ومصر، وليديا. وكانت ليديا واقعةً على ساحل آسيا الصغرى عاصمتها ساردس، ومن مدنها أيضاً ثياتيرا وفيلادلفيا، وقد انتصر كورش الفارسيُّ على ملكها كريسوس وأصبحت ليديا مستعمرةً فارسيةً، ولم تسترد حريّتها منذ ذلك الحين.

وبسبب استخدام الأعداد الضّخمة من الجيوش الفارسية نقرأ الكلمات "قم كل لحماً كثيراً" (دانيال ٧: ٥)؛ مما يؤكد مدى فداحة الخسائر البشرية في حروب مادي وفارس.

ولقد كانت النّبوّة دقيقةً كل الدقة في تصويرها مملكة مادي وفارس بالصّدر والذراعين من فضة في التمثال العظيم، فمع أنها كانت مملكة واحدة إلا أنها تكونت من شعبين أشير إليهما بالذراعين. ويستطرد دانيال فيقول "وبعد هذا كنت أرى وإذ بآخر مثل النمر، وله على ظهره أربعةُ أجنحة طائرٍ، وكان للحيوان أربعةُ رؤوسٍ وأعطيَ سلطاناً" (دانيال ٧: ٦)

النمر وحشٌ مفترسٌ يتميز بخفة الحركة والذكاء، وفي النّبوّة نجد أنَّ هذا النّمر له على ظهره أربعة أجنحة طائر مما يظهر سرعته الفائقة الحدود.

هذا الحيوان الثالث يرمز إلى الإمبراطورية اليونانية التي تميَّزَتْ بسُرعةِ توسُّعها وانقضاضها تحت قيادة الإسكندر الأكبر. ولقد هزمت الإمبراطورية اليونانية أعداءها بسرعة منقطعة النظير تحت قيادة هذا الإمبراطور الشاب.

أما أربعةُ رؤوس هذا النّمر فهي تشير إلى تقسيم الإمبراطورية اليونانية بين أربعة من قادة الجيش اليوناني.... حكموا سوريا ومصر ومكدونية وآسيا الصغرى، هم بطليموس

وسيلوقوس وفيليب وأنتيجونوس. ويعتقد إدوارد يونج[1] أنَّ الأربعة رؤوس تشير إلى أطراف الأرض الأربعة، ويبنى اعتقاده على أن الملوك يشار إليهم بالقرون في سفر دانيال، ويقول أن الرؤوس الأربعة تشير إلى تسلط الإمبراطورية اليونانية على الأرض.

وقد استمرت الإمبراطورية اليونانية في الوجود حتى هزمتها الدولة الرومانية.

أما عبارة "فأعطى سلطاناً" فهي ترينا سيادة الله المطلقة، فهو الذي يُعطي للملوك والرؤساء السلطة على شعوبهم..... إنَّ هذا النمر الخفيف الحركة، يسير جنباً إلى جنب مع ما رآه نبوخذ نصر في التمثال العظيم "بطنه وفخذاه من نحاس" (دانيال ٢: ٣٢).

"وبعد هذا كنت أرى في رؤى الليل وإذا بحيوانٍ رابعٍ وهائلٍ وقويٍ وشديدٍ جداً، وله أسنان من حديدٍ كبيرة، أكل وسحق وداس الباقي برجليه، وكان مخالفاً لكل الحيوانات التي قبله، وله عشرة قرون" (دانيال ٧: ٧).

لقد سكتت النبّوة عن إظهار شخصيّة هذا الحيوان الرابع، وكل ما قالته أنه "قوي وشديد جداً وله أسنان من حديد كبيرة، وأنه أكل وسحق وداس الباقي برجليه، وأن له عشرة قرون" فالحيوان الموصوف هنا مخيف يأكل بأسنانه الحديدية، ويدوس من لا يأكله برجليه.

وهذا الحيوان الباطش يتفق تماماً مع ساقي التمثال العظيم "ساقاه من حديد. قدماه بعضها من حديد والبعض من خزف" (دانيال ٢: ٣٣)، فالأسنان الحديدية الكبيرة تشير إلى القوة العسكرية الساحقة التي تميز بها الحيوان، وتصرُّفاته تعلن عن جبروته وقسوته، أما العشرةُ قرون فهي ترمز إلى عشرةِ ملوكٍ سيظهرون من الدِّول التي ستحكمها هذه الإمبراطورية الأخيرة في صورتها النهائية، ويلعبون دورهم المخطط لهم مع الوحش الذي تحدث عنه يوحنا في الإصحاح الثالث عشر من سفر رؤيا يوحنا، وبما أن هذا الوحش سيصعد من الهاوية (رؤيا ١١: ٧ و ١٧: ١٨)، وهو أحد أباطرة الدولة الرومانية، إذاً يمكننا القول بأنَّ هذا الحيوان

[1] إدوارد يونج: (١٦٨٣ – ١٧٦٥) شاعر إنجليزي، كانت قصائده الشعرية تنزع نحو التفكُّه وسرعة الخاطر، مقلداً شعر عصر أوجستن الإنجليزي. اكتسب يونج سمعته بعد نشر مؤلَّفين ما بين بين عامي ١٧٤٢ و١٧٤٥م، هما: الشكوى أو أفكار الليل عن الحياة والموت والخلود، وهي تأملات نظمها في مسلسلٍ من تسع قصائد مرسلة، دافع فيها عن النصرانية ضد أدعياء الفكر الحر من الملحدين، وادعياء الأصالة في التأليف. ولد يونج في أوبهام بالقرب من ونشستر، في هامبشاير بإنجلترا، ثم أصبح قسيساً في عام ١٧٣٠م في ولوين في هيرفورد شاير.

الرابع يشير إلى الإمبراطورية الرومانية التي امتد ووجودها حتى زمن المسيح والتي منها سيخرج الحاكم العالمي القادم الذي سيحكم الأرض خلال الضّيقة العظيمة[١].

"كنت متأملاً بالقرون، وإذا بقرن آخر صغير طلع بينها، وقلعت ثلاثة من القرون الأولى من قدامه، وإذا بعيون كعيون الإنسان في هذا القرن، وفم متكلم بعظائم.كنت أرى أنه قد وضعت عروش وجلس قديم الأيام، لباسه أبيض كالثلج وشعر رأسه كالصوف النقي وعرشه لهيب نار وبكراته نار متقدة. نهر نار جرى وخرج من قدامه، ألوف ألوف تخدمه، وربوات ربوات وقوف قدامه. فجلس الدين وفتحت الأسفار. كنت أنظر حينئذ من اجل صوت الكلمات العظيمة التي تكلم بها القرن. كنت أرى إلى أن قتل الحيوان وهلك جسمه ودُفِعَ لوقيد النار. أما باقي الحيوانات فنزع عنهم سلطانهم ولكن أعطوا طول حياة إلى زمان وَقّت" (دانيال ٧: ٨ - ١٢)

المنظر الذي رآه دانيال في حلمه وسجَّله هنا بكلماته هو منظرُ محكمةِ السماء، وقد انعقدت لتحكم على حكومات الأرض وتعلن مصيرها المحتوم.

والمنظر الذي رآه دانيال هو منظر الدينونة المُعدّةِ للحكومات، وسيتم قبل الألف سنة، أما المنظرُ الذي رآه يوحنا هو منظر الدينونة الأخيرة بعد الألف سنة وهو دينونةٌ للأفراد. أما الجالس على عرش الدينونة هنا فهو القديم الأيام، "لباسه أبيض كالثلج"، اللباس الأبيض يشير إلى الجلال والوقار والطُّهرِ، "وشعر رأسه كالصوف النقيّ"، وهذا يعني أنه الأزلي القديم الأيام، "وعرشه لهيب نار" والنار دائماً ترتبط بحضور الله، "وبكراته نار متقدة"، وهذا يرينا أنَّ العرش كان كأنه مركبةٌ ملكيةٌ يحيطها المجد والجلال، وتكرار ذكر النار، يُرينا أنَّ حضور الله هنا كان للدينونة. وفي المنظر نفسه رأى دانيال ألوف ألوف الملائكة تخدم الله، وربوات ربوات وقوف قُدَّامهُ، أي ملايين الملائكة وقوف قُدَّامه، فالسماء ممتلئةٌ بالحركة التي لا نستطيع تصورها، وبأعداد من الملائكة لا يمكن حصرها.

ومن المفيد قبل أن نترك هذا النص أن نقول: إنَّ الوصف الذي سجَّله دانيال عن الله الآب القديم الأيام، يقارب الوصف الذي سجله يوحنا عن المسيح في سفر الرؤيا.

---

(١) يعتقد المسيحيون بقدوم ظروفٍ مؤلمةٍ ستستمر سبعَ سنواتٍ، وتأتي بعد الاختطاف الإلهي لجميع المؤمنين بشخص وعمل المسيح وتسبقُ مجيئه الثاني، وهي بحدِّ ذاتها إدانةٌ من الله لغير المؤمنين بالمسيح كلّهم.

ملاحظة هامة:

إنَّ الأسفار التي فُتِحَتْ ورآها دانيال ليست هي الأسفار التي انفتحت ورآها يوحنا، فالأسفار التي رآها دانيال كانت أسفار هذه الحيوانات الحاكمة التي ذكرها في نبوّته، والحكم الذي صدر ونفذ اختصَّ بها وحدها، أما الأسفار التي رآها يوحنا فقد فُتِحت بعد القيامة الثانية، وكانت أسفار أولئك الذين وقفوا أمام العرش العظيم الأبيض وقد انفتح معها سفر الحياة.

وفي الاعتقاد والتفسير المسيحي المعاصر لهذه الرؤيا، أنَّ المنظر الذي رآه دانيال هو منظر الدينونة التي تمت في السماء، وهو منظر المحكمة الإلهية هناك، والحكم الذي أصدرته ونَفَّذَتهُ هذه المحكمة هو حكم القضاء على الحيوان الرابع الذي هلك جسمه ودفع لوقيد النار "وهو الحكم بنزع السلطان عن الحيوانات الثلاثة الأولى". وهكذا نرى نهاية الإمبراطورية الرومانية كقوةٍ سياسيةٍ وعسكريةٍ.

وقد يردُ على هذا التفسير سؤالٌ هو: إذا كانت هذه الحيوانات التي رآها دانيال في حلمه وتحدَّثَ عنها بإيجازٍ في هذا الإصحاح تشير إلى الإمبراطوريات المتتابعة في التاريخ..... الإمبراطورية البابلية، والإمبراطورية المادية الفارسية، والإمبراطورية اليونانية، والإمبراطورية الرومانية.....، وقد قضت كلُّ إمبراطوريةٍ على سابقتها، فكيف بقت هذه الإمبراطورياتُ الثلاثُ بعد القضاء على الإمبراطورية الرابعة كما يسجل دانيال بكلماته "وأما باقي الحيوانات فنزع عنهم سلطانهم ولكن أعطوا طول حياة إلى زمان ووقت"؟ (دانيال ٧: ١٢).

والجواب على ذلك: أنَّ الإمبراطورية الرومانية وهي آخرُ الإمبراطوريات العالميّة المذكورة، والقرنُ الصغيرُ أحد أباطرتها وهو الذي سيقوم بالدور الأخير في المأساة العالمية القادمة خلال الضِّيقة العظيمة، وقد تبنَّتِ الحضاراتُ السابقة والمدنيّاتُ التي تميزت بها الإمبراطورياتُ التي سبقتها ومع انتهاء سلطان هذه الإمبراطوريات عسكرياً، إلاّ أنَّ حضارتها ومدنيتُّها وديانتها بقت إلى زمانٍ ووقت، والكلمات "أعطوا طول حياة إلى زمان ووقت" تُعبِّرُ عن التخطيط الإلهي المحدّد بوقتٍ معيَّنٍ لكل هذه الإمبراطوريات.

ويستطرد دانيال فيقول "كنت أرى في رؤى الليل وإذا مع سحب السماء مثل ابن الإنسان أتى وجاء إلى القديم الأيام فقرَّبوه قدَّامه، فأعطى سلطاناً ومُجِّد ملكوتاً لتتعبَّدَ له كلُّ الشعوب والأمم والألسنة، سلطانه سلطان أبدي ما لن يزول وملكوته ما لا ينقرض" (دانيال: ١٣ و ١٤).

هذه الرؤيا ترينا المسيح آتياً كالملك، ونحن نراه هنا "مثل ابن إنسان" وهو ليس مجرَّدَ إنسان، "فأعطى سلطاناً ومجداً وملكوتاً لتتعبد له كل الشعوب والأمم والألسنة".

"وأما أنا دانيال فحزنتْ روحي في وسط جسمي، وأفزعتني رؤى رأسي، فاقتربتُ إلى واحدٍ من الوقوف وطلبتُ منه الحقيقة في كلِّ هذا، وعرّفني تفسير الأمور، هؤلاء الحيوانات العظيمة هي أربعة ملوك يقومون على الأرض، أما قديسو العلى فيأخذون المملكة ويمتلكون الملكة إلى الأبد وإلى أبد الآبدين؟ حينئذ رمت الحقيقة من جهة الحيوان الرابع الذي كان مخالفاً لكلها وهائلاً جداً وأسنانه من حديد وأظفاره من نحاس وقد أكل وسحق وداس الباقي برجليه. وعن القرون العشرة التي برأسه وعن الآخر الذي طلع فسقطت قدامه ثلاثة وهذا القرن له عيون وفم متكلم بعظائم ومنظره أشد من رفقائه. وكنت أنظر وإذا هذا القرن يحارب القديسين فغلبهم حتى جاء قديم الأيام وأعطى الدين لقديسي العلى وبلغ الوقت فامتلك القديسون المملكة. فقال هكذا. أما الحيوان الرابع فتكون مملكة رابعة على الأرض مخالفة لسائر الممالك فتأكل الأرض كلها وتدوسها وتسحقها. والقرون العشرة من هذه المملكة هي عشرة ملوك يقومون ويقوم بعدهم آخر وهو مخالف الأولين ويذل ثلاثة ملوك. ويتكلم بكلام ضد العلى ويبلي قديسي العلى ويظن أنه يغير الأوقات والسنة ويسلمون ليده إلى زمان وأزمنة ونصف زمان. فيجلس الدين وينزعون عنه سلطانه ليفنوا ويبيدوا إلى المنتهى. والمملكة والسلطان وعظمة المملكة تحت كل السماء تعطى لشعب قديسي العلى. ملكوته ملكوت أبدي وجميع السلاطين إياه يعبدون ويطيعون. إلى هنا نهاية الأمر" (دانيال ٧: ١٥-٢٨).

طلب دانيالُ تفسيرَ ما رأى، وكان ما رآه سبباً في حزن روحه وفزعه.

بشعور الحزن الذي غمر دانيال، والفزع الذي ملأ كيانه، اقترب إلى واحدٍ من الوقوف، ولم تذكر التفاسير المسيحيةُ حقيقة أو وصفَ "أحدِ الوقوف" هذا، وقد أخبره هذا الواحدُ وعرَّفه تفسير الأمور. وكان أول ما قال: "إنَّ الحيوانات العظيمة هي أربعةُ ملوك

يقومون على الأرض"، أو بتعبيرٍ آخر أربعة ممالك فلا ملوك بغير ممالك، وإذا عدنا إلى الإصحاح الثاني لرأينا أنَّ الممالك والملوك مترادفان، فالحيوانات الأربعة تشير إلى أربعة ممالك تقوم على الأرض، إحدى هذه الممالك هي المملكة البابلية التي كانت موجودة وقت أن رأى دانيال الحلم.

الحيوان الرابع والقرن الصغير

وهذا أهمُّ ما يعنينا الوقوف عنده وشرح معناه الوارد في التفاسير المسيحيّة، وأهمية الحديث عنه نابعةٌ من زعم وادّعاء أصحاب الفكر الرؤيويّ أن المقصود به محمدٌ ﷺ.

لقد كان أهم ما شغل دانيال معرفة حقيقية الحيوان الرابع الهائل، والقرون العشرة التي برأسه، والقرن الصغير المتكلم بعظائم، وقد راعه أن هذا القرن يحارب القديسين ويغلبهم. تكلَّم الواحد الذي اقترب منه دانيال فقال " أمَّا الحيوان الرابعُ فتكون مملكةٌ رابعةٌ على الأرض مخالفةً لسائر الممالك، فتأكل الأرض كلَّها وتدوسها وتسحقها." (دانيال ٧: ٢٣) هذه المملكة هي الإمبراطورية الرومانية التي كانت مخالفةً لسائر الممالك في قوّتها العسكرية، وقوانينها الصارمة، والنبؤة تتحدث في هذا الإصحاح، عن هذه المملكة في صورتها النهائية التي ستكون عليها في الأيام الأخيرة، التي تسبق مباشرةً عودة المسيح. وتركِّزُ النبؤة حديثها في القرن الآخر الصغير الذي له عيونٌ وفم متكلّم بعظائم ومنظرهُ أشدُّ من رفقائه، وتقول النبؤة: "وكنتُ أنظر وإذا هذا القرن يحاربُ القدّيسين فغلبهم" وبهذا ترينا أن هذه الحرب ستستمر إلى أن يأتي المسيح ليملك في ملكه الألفي السعيد (دانيال ٧: ٢١- ٢٢)، ومن هنا يتضح أن هذه النبؤة ترتبط بأحداث الضّيقة العظيمة.

يقول الواحد الذي عَرَّفَ دانيالَ تفسيرَ الأمور: "والقرون العشرة من هذه المملكة هي عشرة ملوك يقومون، ويقوم بعدهم آخرُ وهو مخالف الأولين، ويذلُ ثلاثة ملوك. ويتكلَّمُ بكلامٍ ضد العليِّ ويظن أنه يغير الأوقات والسنة ويسلمون ليده إلى زمان وأزمنة ونصف زمان" (دانيال ٧: ٢٤- ٢٥).

القرن الصغير

الملك الآخر المُسمّى بالقرن الصغير سيظهرُ من بين أباطرة الإمبراطورية الرومانية، ونلاحظ في ظهوره ما يلي: [١] يقوم قبله عشرة ملوكٍ من الإمبراطورية ذاتها، ويذلّ ثلاثةً منهم، ويتحدون معه عند ظهوره، والملوك برأسه؛ وهذا يعني أنه سيكون صاحب السلطة العليا عليهم، وهو القوة المفكِّرةُ الموجِّهةُ لهم، وهؤلاء الملوك العشرة يُشَارُ إليهم أيضاً بأصابع التمثال [٢] يتكلم بكلام ضد العليّ. [٣] يظنَّ أنه يغيِّرُ الأوقات والسنة. [٤] يسلم القديسون ليده إلى زمان وأزمنة ونصف زمان.

ويؤكد التفسير المسيحي القديم والمعاصر لهذا القرن الصغير على أنّه هو نفسه الوحش الذي ذكر يوحنا أوصافه في سفر الرؤيا بالكلمات: "ثم وقفتُ على رمل البحر. فرأيتُ وحشاً طالعاً من البحر له سبعة رؤوسٍ وعشرةُ قرونٍ، وعلى قرونه عشرةُ تيجانٍ، وعلى رؤوسه اسم تجديف. والوحش الذي رأيته كان شبه نمر (الإمبراطورية اليونانية)، وقوائمه كقوائم دب (الإمبراطورية الفارسية)، وفمه كفم أسد (الإمبراطورية البابلية)" (رؤيا ١: ١-٢).

ومن هذا الوصف يرى المفسّرون المسيحيّون أنَّ الحاكم العالمي القادم، القرن الصغير، سيتبنى الفلسفة اليونانية، والقوة الباطشة الفارسية، والديانة البابلية، ديانة عبادة الإنسان. ويسترعي انتباههم أنَّ الإمبراطوريات القديمة تُذكر بترتيبٍ عكسيٍّ، فتبدأ باليونان وتنتهي ببابل، مما يؤكد لديهم أنَّ فلسفة الإنسان ستطغى خلال حكم هذا الحاكم القادم وتلعب دوراً هاماً في تضليل الجماهير.

ويؤكد يوحنا في سفر الرؤيا أنَّ هذا الحاكم سيصعد من الهاوية فيقول: "الوحش الصاعد من الهاوية" (رؤيا ١١: ٩) "الوحش الذي رأيت كان وليس الآن، وهو عتيد أن يصعد من الهاوية" (رؤيا ١٧: ٨). ويؤكد يوحنا كذلك أنَّ هذا الوحش هو أحدُ أباطرةِ الرومان السّابقين "الوحش الذي رأيت كان وليس الآن.. والوحش الذي كان وليس الآن فهو ثامنٌ، وهو من السّبعة ويمضي إلى الهلاك" (رؤيا ١٧" ٨- ١١).

وما قيل عن تجديف القرن الصغير ومحاربته الحاكم العالمي القادم ومحاربته للقديسين "وأُعْطِيَ فماً يتكلم بعظائم وتجاديف.. ففتح فمه بالتجديف على الله ليجدّف على اسمه وعلى

مسكنه وعلى الساكنين في السماء. وأُعْطِيَ أن يصنع حرباً مع القديسين ويغلبهم وأعطى سلطاناً على كل قبيلة ولسان وأمة. فسيسجد له جميع الساكنين على الأرض الذين أسماؤهم مكتوبة منذ تأسس العالم في سفر حياة الخروف الذي ذبح" (رؤيا ١٣: ٥- ٨). مملكة هذا الحاكم إذاً ستشمل العالم كله بكل قبائله، ولغاته، وأممه، وسيحاول هذا الحاكم أن يغير الأوقات والسنة، أي سيحاول تغيير الأسسِ التي عاش بها الناس، كما سيحاول تغيير ناموس الله الأزلي الذي أعطاه للناس، ولعلَّ المعنى يفيد تغييرَ الأوقات التي حدَّدها الله لإتمام مقاصده وخططه. وزمان سيادة هذا الحاكم القادم محددّةٌ بدقّةٍ من الله، "ويسلمون ليده إلى زمان وأزمنة ونصف زمان" (دانيال ٧: ٢٥) "وأُعطِيَ سلطاناً أن يفعل اثنين وأربعين شهراً" (رؤيا ١٣: ٥)، فمدةُ حكم هذه الطاغية، حسبَ التفسير المسيحي، ستكون ثلاث سنين ونصف، خلالها يعلن نفسه إلهاً ويسجد له الساكنون على الأرض. وسيستمر هذا الحاكم في استبداده، وإيذائه وتقتيله، وإذلاله للقديسين إلى أن يأتي يسوع المسيح.

"فيجلس الدِّينُ وينزعون عنه سلطانه..، والمملكة والسلطان وعظمة المملكة تحت السماء تُعْطَى لشعب قديسي العليّ. ملكوته ملكوت أبدي وجميع السلاطين إياه يعبدون ويطيعون" (دانيال ٧: ٢٦- ٢٧). هنا نرى محكمة المسيح، وقد جلس هو على كرسي القضاء، وحكم لصالح القديسين "وأعطى الدّين لقديسي العلى" (دانيال ٧: ٢٢).

وبالقضاء على الوحش، وببدء مملكة من نوعٍ جديد تتميز بالعظمة والعدل والجلال، يختم دانيال الإصحاح بكلماته: "أما أنا دانيال، فأفكاري أفزعتني كثيراً وتغيرت على هيئتي وحفظت المر في قلبي".

كانت هذه خلاصة التفاسير التي اعتمدتها الكنائسُ الكاثوليكيّة والآرثوذكسيةُ والقبطية (الآرثوذكسيّة) في كتبها وعلى مواقعها وبواباتها الإلكترونية. وهذه التفاسيرُ مُتشابهةٌ، وبدرجةٍ كبيرةٍ، وتكاد تكون متطابقةً، وهي كذلك لا تختلفُ البتة عن تفاسير الكنيسة الكاثوليكية لهذه الرؤيا، والتي كانت سائدةً في العصور الوسطى.

ولكنّ المروِّعَ والمُقلق هو انتشار بعض التفسيرات الشاذّة لهذه الرؤيا، وهي تفسيراتٌ أطلقها بعضُ أصحاب الفكر الرؤيوي الحاقدين على الإسلام والدّاعين لمحاربته آنذاك. وقد ربط هؤلاء في تفاسيرهم، وبشكلٍ ليس له أدنى دليلٍ معقولٍ أو منقولٍ، بين (المَلِكِ الذي

يقوم بعد الملوك العشرة ويخالف الأوّلين ويُخضِعُ ثلاثةَ ملوكٍ) وبين (أتباع محمدٍ ذوي الدولة المترامية الأطراف التي سادت الإغريق والفرنجة والقوط)[1]!!! كما ربط أصحابُ الفكر الرؤيوي هؤلاء ربطاً عجيباً آخر بين هذا المَلك، (الذي يتكلّمُ بكلامٍ ضدَّ العليّ ويُبلي قدّيسي العليّ ويظنُّ أنّه يُغيِّرُ الأوقاتِ والسّنة) وبين رسول الله محمدٍ ﷺ، فقالوا بأنّ محمداً والقرآن أتيا ببدعة التاريخ الإسلامي (التاريخ الهجري). ويعلّق سوذرن على ذلك بقوله[2]: "شرح ألفاروس هذه الفقرة الغامضة بأنها تعني ثلاثة أوقاتٍ (أدوار) ونصف وقتٍ (دور)؛ وكلُّ دورٍ يمتدُ سبعين سنةً. هكذا يستمرُّ الإسلام خمساً وأربعين ومائتي سنة، ولأنه كان يكتب تأويله عام ٨٥٤م، وفي اعتقاده أنَّ التاريخ الهجري بدأ عام ٦١٨م وليس عام ٦٢٢م؛ فقد اعتقدَ أنَّ نهاية العالم هي على وشك الحدوث. وكأنما أثمرت الظروف لتجعل اعتقادَ الفاروس أقربَ للتصديق؛ إذ تُوفِّيَ أميرُ قرطبة عبد الرحمن الثالث عام ٨٥٣م، وخلفه على العرش محمد الأول "لعْنة زماننا" واسم صاحب قرطبة المطابق لاسم نبي الإسلام ـ المجرم الأكبر في نظر ألفاروس ـ دفع أُناساً آخرين أكثر حَذراً من المؤلِّف للتصديق باقتراب نهاية الأشياء".

ونستطيعُ في نهاية استعراضنا لمضمون الفصل السابع من رؤيا النبي دانيال، وبعد عرض آياته وشرحها بالكامل أن نُسجِّلَ الملاحظات الهامّة التالية:

أولاً: ليست هناك في رؤيا النبي دانيال ـ حسبَ التفسير المسيحي المعتَمد ـ أيّةُ إشارةٍ تتعلّقُ بالرسول محمدٍ ﷺ أو بظهور دولة الإسلام لا من قريبٍ ولا من بعيدٍ.

ثانياً: إنّ التفسير المسيحي القديم والمعاصر الذي تعتمده الكنيسة الغربيّةُ لمعنى الملك المُسمّى (القرن الصغير) الوارد في رؤيا دانيال أنّه رجلٌ سيظهرُ من بين أباطرة الإمبراطوريّة الرومانيّة، كما تؤكدُ هذه التفاسير نفسُها على أنّ الحيوان الرابع الذي لم يُسمِّه دانيال في هذه الرؤيا إنما هو المملكةُ الرومانيّة، كما تؤكِّدُ هذه التفاسير عينُها أنّ القرن الصغير، السابق ذكره، هو عينهُ الوحش الذي ذكره يوحنّا في رؤياه بكلِّ أوصافه، وسمّاه الوحش الطّالع من البحر، والذي على رؤوسه اسمُ تجديف، وليست هناك إيّةُ

(1) سوذرن، [م. س]، ص ٦٠.
(2) المرجع السابق، ص ٦١.

إشارة في هذه المصادر يُفهَمُ منها أنّه رسولُ الله محمد ﷺ. وقد اختار بعضُ مفسّريهم القول بأنَّ المقصود به إشارةٌ للهرطقات التي تُنكرُ ألوهية المسيح.

ثالثاً: ينصرفُ التفسير الكَنَسيّ لهذه الرؤيا بكاملها على أنّها تسودها من أولها إلى آخرها فكرة انتظار ملكوت الله، مع أنّ هذه الفكرة، كما ذكرت مقدّمة السفر، لم يُعَبَّرْ عنها بوضوحٍ إلاّ نادراً.

رابعاً: تؤكِّدُ مقدمة سفر دانيال على أنّ الرؤى المنسوبة إلى دانيال في الفصول ٧ – ١٢ هي أغنى بالرموز من أحلام ملوك بابل، لكنّ الموضوع العام لم يتغيّر؛ فهو دائماً إعلانُ سيادة الله على التاريخ. غير أنّ النّطاق التاريخيّ يتسع. فلا ذكر لمصير دانيال الفردي، بل لمصير إسرائيل بأجمعه والمدينة المقدّسة وهيكلها.

خامساً: تذهب بعض التفاسير المسيحية إلى أبعد من ذلك وتقول[1]: إنَّ هذا السّفر تنبأ بنبؤاتٍ تفصيليةٍ ودقيقةٍ عن السيد المسيح؛ فقد تنبّأ عن تأسيس ملكوته "ملكوت السموات" وتكلّم عن كونه ملك الملوك وربَّ الأرباب الآتي على سحاب السماء لتتعَبَّد له كلُّ الخليقة، ومنه أخذَ لقبَ ابن الإنسان، اللقب الذي كان مُحبَّباً إلى قلب المسيح. كما حدّد سنة مجيئة بتفصيلٍ دقيقٍ. وهو السفر الوحيد في العهد القديم الذي تنبّأ بنبؤاتٍ تفصيليةٍ دقيقةٍ عن ملوكٍ وممالكَ حدَّد بعضها بالاسم مثل الفرس واليونان، الذين كانت أحوالهم أبعد ما تكون عمّا تنبأ به دانيال النبي، كما تذهب هذه التفاسير كذلك إلى القول بأنَّ المسيح نفسه شَهِدَ لهذا السِّفر وأشار إلى حتمية تحقيق نبؤته عن دمار أورشليم ونهاية العالم، كما استخدم المسيحُ نفسُه صورَ السِّفر، وتشبيهاته الأخروية والمسيانية.

سادساً: لقد رأينا في المبحث السابق كيف كذب الرؤيويون في العصور الوسطى عندما سمحوا لأنفسهم بالربط الكاذب بين نبوّة حزقيال وبين سيدنا محمدٍ ﷺ وظهور الدولة الإسلامية، وها نحنُ نراهم يكذبون مرّةً أُخرى ويربطون ربطاً كاذباً شاذاً بين نبوّة

[1] أبو الخير، عبد المسيح بسيط، إعجاز الوحي والنبوّة في سفر دانيال، المقدمة، ط١، ١٩٩٥، مطبعة المصريين، مصر.

دانيال في فصلها السّابع وبين سيّدنا محمدٍ ﷺ وظهور الدّولة الإسلامية الفتيّة في الأندلس آنذاك.

المبحث الرابع
رؤيا يوحنّا اللاهوتي[(١)]

يوحنّا اسمٌ عبريٌ معناه "الله حنان" أو "الله يتحنن"، ويُلَقَّبُ بالرَّسول والإنجيليّ والرائي، ويُلقبُ كذلك بالحبيب، لاتكائه على صدر المسيح دون غيره من التلاميذ.

وُلِدَ يوحنّا في مدينةٍ على شاطئ بحيرة طبريّة يُقالُ أنّها بيت صيدا مدينة القِدِّيسَين بطرس وأندراوس، وكان أبوه زبدي صياداً عنده سفينة وأُجَراءُ، وكانت أمُّه سالومي واحدةً من النساء القدِّيسات اللواتي تبعن المسيح وساعدنه بأموالهنَّ وكنَّ يخدمنه، وكان أخوه يعقوب بن زبدي (يعقوب الكبير) صديقاً حميماً للمسيح، وقد عمل يوحنا وأخوه يعقوب مع أبيهما زبدي في صيد السمك، ويُقال أنّهما كانا شريكَيْ سمعان بطرس.

تتلمذ يوحنّا الحبيبُ أولاً على يد يوحنا المعمدان قبل أن يتتلمذ على يد المسيح، تعلّم في مدارس المدراش التي يلتحق بها أولادُ الأشراف. وكان من تقاليد العائلات في ذلك الزمان أن يتَعَلَّمَ أولادها حرفةً ما، فاختار يوحنا حرفة صيد السمك. وكان قد بلغ الخامسة والعشرين من العمر عندما اختاره المسيحُ ليكون أحد تلاميذه، وكان حينَها أصغر الإثني عشر رسولاً سنّاً.

أُلقي القبضُ عليه لقيامه بنشر الديانة المسيحية في فترة حكم الإمبراطور الروماني دوميتان (٨١ – ٩٦م)، وأُرسلَ مُقيّداً إلى روما. ثم عاد الإمبراطور وأمر بنفيه إلى جزيرة "بطمس"، وهي إحدى جزر بحر "إيجه"، وتقع إلى الجنوب الغربيّ من مدينة أفسس، وتُعرفُ الآن باسم "باتوما" أو "بالموسا" وما زال بالجزيرة، بعضُ معالم أثريّةٍ عن سُكنى القدّيس يوحنّا بها. وقد مكثَ بالجزيرة حوالي سنةٍ ونصف، كتب أثناءها رؤياه حوالي سنة ٩٥م. ثم أُفرِجَ عنه في زمن الإمبراطور نرفا (٩٦ -٩٨م) الذي خلف دومتيان، حيث أصدرَ

---

(١) انظر:

أ. تفاسير وشروحات الكتاب المقدس: التفسير الكامل لسفر يوحنا/ الفصل الثالث عشر.

ب. مقدمة سفر يوحنا في الكتاب المقدس نسخة المطبعة الكاثوليكية، ١٩٦٠ بيروت.

ج. قاموس الكتاب المقدس [م. س].

د. تفسير القمص انطونيوس فكري للكتاب المقدس [م. س] تفسير سفر يوحنا.

مجلسُ الشيوخ الروماني قراراً بعودة جميع المنفيين إلى أوطانهم. وبالإفراج عنه عاد إلى أفسس ليمارس نشاطه في الدعوة إلى المسيحيّة.

كتب يوحنّا إنجيلاً ورؤيا وثلاثَ رسائل تحملُ اسمَهُ، وقد ظلَّ حيّاً حتى عصر الإمبراطور تراجان، ومات حوالي سنة مائة للميلاد ودُفِن في مدينة أفسس.

تُعتبرُ رؤيا يوحنّا السفرَ الأخيرَ من العهد الجديد. ويتضمَّنُ هذا السّفر، حسب تعبير كاتبه، (إعلان يسوع المسيح الذي أعطاه إياه الله ليرى عبيدَهُ ما لابدَّ أن يكون عن قريب). وقد أرسل المسيحُ هذا الإعلانَ لعبده يوحنّا بيد ملاكه لينقُلَه هو بدوره إلى الكنيسة ويشهد بكل ما رآه. وقد وجّه الحديثَ إلى سبع كنائسَ في آسيا، والغايةُ الرئيسية من هذا السفر هي تعزيةُ الكنيسة وتحذيرُها وسطَ صراع العالم، وإعدادُها للمجيء الثاني للمسيح.

أقسام سفر يوحنّا

إذا قمنا باستثناء المقدّمة والتحيّة فإننا نلحظُ وبكلِّ وضوحٍ أنّ هذا السّفر يشتملُ على سبعِ رؤىً متسلسلةٍ على النحو التالي:

١. رؤيا المسيح المُمَجَّدِ وسط كنيسته، ويتبعها سبعُ رسائلَ إلى الكنائس السبع التي في آسيا، والغاية من هذه الرسائل تعليم الكنيسة في حالتها الحاضرة وتحذيرها وتشجيعها.
٢. رؤيا الله يسيطر على مصير الأرض، ورؤيا حَمَلِ الله بيده السِّفر المختوم بسبعة ختوم والمتضمِّن الأوامر الإلهية، ويتبع ذلك فتحُ الختوم في سبع رؤىً تعلنُ قصدَ الله من خروج المسيح ليغلب إلى يوم الدينونة العظيمة. وبين الختم السادس والختم السابع نجدُ رؤيا تبيِّنُ سلامة شعب الله وسط الضِّيقة العظيمة التي تحلُّ بالعالم.
٣. رؤيا السبعة ملائكة الذين أُعطوا سبعة أبواقٍ. وتبدأ هذه برؤيا ملاكٍ يقدِّم لله صلوات القدّيسين ويتبع كل بوق رؤيا خرابٍ يَحِلُّ بالعالم الشرير، وينتهي الكلُّ بالدينونة الأخيرة. وبين البوق السادس والبوق السابع تتوسط رؤيا أخرى تعلنُ حفظ الكنيسة الشاهدة.

٤. رؤيا الكنيسة تُرمَزُ إليها بامرأةٍ تلدُ المسيح ويشهر عليها التنينُ (أي الشيطان) حرباً، ويتبع ذلك رؤيا الوحشين اللذين سيخدمهما الشيطانُ لمعاونته، ورؤيا الكنيسة المجاهدة ورؤيا الخطوات المضطردة لنصرة المسيح.
٥. رؤيا الجامات المحتوية الضربات الأخيرة، وتمثِّلُ الرؤيا الأولى نصرةَ القديسين، أمّا الجامات السبعة فتمثّلُ ضربات الله السبع على العالم الشرير.
٦. رؤيا المدينة الزانية، (بابل) ويتبعها نصرة المسيح عليها وعلى أعدائه المتحالفين معها، وتُختَمُ أيضاً بالدينونة الأخيرة.
٧. رؤيا الكنيسة المثالية، عروس المسيح، أو أورشليم الجديدة ويتبعها وصفٌ لأمجادها.

والذي يعنينا في دراستنا هذه هو الفصل الثالث عشر فقط من هذه الرؤيا، والذي أكّد أصحابُ الفكر الرؤيوي انطباقَ أوصاف الوحش الواردة فيه على رسول الله محمدٍ ﷺ. وسنعرض لهذا الفصل تالياً بكامل آياته، ومجموعها ثماني عشرة آية.

رؤيا القدّيس يوحنّا / الفصل الثالث عشر

(١) ورَأيتُ وَحشًا خارِجًا مِنَ البحرِ، لَه سَبعةُ رُؤوسٍ وعَشَرَةُ قُرونٍ، على قُرونِهِ عَشَرَةُ تيجانٍ، وعلى رُؤوسِهِ أسماءُ التَّجديف. (٢) وهذا الوَحشُ الذي رَأيتُهُ كانَ يُشبِهُ النَّمِرَ، ولَه قَوائِمُ كقَوائِمِ الدُّبِّ وفَمٌ كفَمِ الأسَدِ. فأعطاهُ التِّنّينُ قُدرَتَهُ وعَرشَهُ وسُلطانًا واسِعًا. (٣) وظهَرَ أحَدُ رُؤوسِ الوَحشِ كأنَّهُ مَجروحٌ حتى المَوتِ فشُفِيَ مِنْ جُرحِهِ المُميتِ، فتَعَجَّبَتِ الأرضُ كُلُّها وسارَت وراءَ الوَحشِ. (٤) وسجَدَ النـاسُ لِلتِّنّينِ لأنَّهُ أعطى الوَحشَ سُلطانَهُ، وسَجَدوا لِلوحَشِ وقالوا: «مَنْ مِثلُ الوَحشِ؟ ومَنْ يَقدِرُ أنْ يُحارِبَه (٥) وأُعطِيَ الوَحشُ فَمًا يَنطِقُ بِكلامِ الكِبرياءِ والتَّجديفِ، وأُعطِيَ سُلطانًا أنْ يَعمَلَ مُدَّةَ اثنَينِ وأربعينَ شَهرًا. (٦) فأخَذَ يجدِّفُ على الله، فجَدَّفَ على اَسمِهِ ومَقامِهِ وعلى السَّاكِنينَ في السَّماءِ. (٧) وأُعطِيَ القُدرَةَ على أنْ يُحارِبَ القِدِّيسينَ وَيَغلِبَهُم، كما أُعطِيَ سُلطانًا على كُلِّ قَبيلَةٍ وشَعبٍ ولِسانٍ وأُمَّةٍ، (٨) فيَسجُدُ لَه سُكانُ الأرضِ كُلُّهُم، أولَئِكَ الذينَ أسماؤُهُم غَيرُ مكتوبَةٍ مُنذُ بَدءِ العالَمِ في كِتابِ الحياةِ، كِتابِ الحَمَلِ الذَّبيح. (٩) مَنْ كانَ لَه أُذنانِ فليَسمَعْ (١٠) مَنْ كُتِبَ علَيهِ أنْ يُساقَ إلى الأسرِ، فإلى الأسرِ يُساقُ، ومَنْ كُتِبَ علَيهِ أنْ يُقتَلَ بِالسَّيفِ، فبِالسَّيفِ يُقتَلُ. هُنا صَبرُ القِدِّيسينَ وإيمانُهُم. (١١) ثُمَ رأيتُ وَحشًا آخرَ خارِجًا مِنَ الأرضِ، ولَه قَرنانِ كَقَرنَي

الخَروفِ، ولكِنَّهُ يَنطِقُ مِثلَ التِّنِّينِ. (١٢) فمارَسَ كُلَّ سُلطَةِ الوَحشِ الأوَّلِ بِمَحضَرٍ مِنهُ، فحَمَلَ الأرضَ وسُكانَها على السُّجودِ لِلوَحشِ الأوَّلِ الذي شُفِيَ مِنْ جُرحِهِ المُميتِ، (١٣) وصنَعَ مُعجِزاتٍ عَظيمَةً حتى إنَّهُ أنزَلَ على الأرضِ نارًا مِنَ السَّماءِ بِمَشهَدٍ مِنَ الناسِ، (١٤) وخدَعَ سُكانَ الأرضِ بِهذِهِ المُعجِزاتِ التي نالَ القُدرَةَ على أنْ يَصنَعَها بِمَشهَدٍ مِنَ الوَحشِ الأوَّلِ. وأمَرَ سُكانَ الأرضِ بأنْ يَصنَعوا صُورَةً لِلوَحشِ الذي جَرحَهُ السَّيفُ ومعَ ذلِكَ عاشَ (١٥) ونالَ القُدرَةَ على أنْ يَنفُخَ في صُورَةِ الوَحشِ رُوحًا حتى تتَكَلَّمَ، وأنْ يَقتُلَ جميعَ الذينَ لا يَسجُدونَ لِصُورَةِ الوَحشِ، (١٦) وأنْ يَحمِلَ جميعَ الناسِ، صِغارًا وكِبارًا، أغنياءَ وفُقَراءَ، عَبيدًا وأحرارًا، على أنْ يَضَعوا سِمَةً على يَدِهِمِ اليُمنى أو جَبهَتِهِم، (١٧) فلا يَقدِرُ أحدٌ أنْ يَشترَيَ أو يَبيعَ إلاّ إذا كانَ علَيهِ سِمَةِ باَسمِ الوَحشِ أو بِعَدَدِ اَسمِهِ. (١٨) وهُنا لا بُدَ مِنَ الحِكمَةِ: مَنْ كانَ ذَكِيًا فليَحسبْ عدَدَ اَسمِ الوَحشِ. هوَ عدَدُ اَسمِ إنسانٍ وعدَدُهُ سِتُّمئةٍ وسِتَّةٍ وسِتُّونَ.

بعد القراءة الهادئة المتأنيّة لهذا السِّفر المليء بالصِّور والتشبيهات الصّعبة، والرموز ذات المدلولات والمعاني الخفيّة، وبعد الاستعانة بالعديد من التفاسير المسيحيّة[1]، فإنّه من الممكن تقديم تفسير لِهذه الرؤيا على النحو التالي:

آية (١) "ثم وقفتُ على رمل البحر فرأيتُ وحشاً طالعاً من البحر له سبعة رؤوسٍ وعشرة قرونٍ، وعلى قرونه عشرةُ تيجانٍ وعلى رؤوسه اسم تجديف".

إنّ هذا الوحش له نفس مواصفات التنين المذكورة في (سفر الرؤيا ١٢: ٣). والتنينُ هو الشيطان؛ بمعنى أنَّ الشيطان أعطى كل قُوَّتِهِ لهذا الوحش، وهذا ما سيتَّضح من الآية الثانية. ولكنَّ هناك اختلافاً في عدد التيجان. ففي (سفر الرؤيا ١٢: ٣) كان على رؤوسه سبعةُ تيجانٍ وهنا نجدُ على قرونه عشرةُ تيجانٍ. والسبب أنه في (سفر الرؤيا ١٢: ٣) كان يتكلم عن حرب إبليس ضدَّ الكنيسة عبر العصور، مستخدماً في ذلك سبعَ ممالكَ عظيمةٍ مثل بابل والدولة الرومانية. أمّا هنا فنرى أنَّ الوحش له سبعة رؤوس دون ذكر تيجانٍ، وهذا يعنى غالباً أنَّ القوى العالمية كلّها ستؤيده، وهذا معنى رقم (٧). وأمّا القرون

[1] انظر:
أ. تفسير القمص أنطونيوس فكري والقمص تادرس يعقوب ملطي كما هو منشور في موقع الكنيسة العربية الإلكتروني: www.arabchurch.com
ب. تفسير موقع كلمة الحياة www.kalematalhayat.com

العشرة فهم عشرةُ ملوك سيظهرون في فترة ظهور الوحش. وهؤلاء الملوك سيعطون قوتهم أو سيكونون بقوَّتهم العسكريّة تابعين للوحش. والقوة شبهها بقرنٍ والملوكُ العشرةُ رمزهم عشرة تيجان، وهؤلاء الملوك العشرةُ لن يكتفوا بالتأييد بل سيعطون الوحش كلّ قوَّتهم.

على رؤوسه اسم تجديف[1] فهو لا يفكِّر سوى في التجديف على المسيح وإنكار لاهوته، والرأس هنا يشير للفكر؛ فهذا الوحش يخترع التجديف ضدَّ المسيح، بوصفه إلهاً حسبَ الاعتقاد والتفسير المسيحي.

آية (٢) "والوحش الذي رأيتُه كان شبه نمرٍ وقوائمه كقوائم دبٍّ وفمه كفم أسدٍ وأعطاه التنين قدرته وعرشه وسلطاناً عظيماً"

شبه نمر: مواصفات هذا الوحش هي أنه نمرٌ أُرقطُ، أي به بقع سوداء. وهذا الوحش مشوّهٌ بالرذائل، سريعُ الحركة كالنّمر في اضطهاده للكنيسة. بلا حنان ولا رحمة. قوائمه كقوائم دب: إشارةٌ لعنفه في حربه ضد الكنيسة. فمه كفم أسد: إشارةٌ لكونه مفترساً. والتنين أعطاه قدرته وعرشه: الشيطان سكن في هذا الوحش ليُضِلَّ به العالم، وأعطاه كلَّ قوَّته وسلطانه بعد أن أُطْلِقَ من سجنه، وسيستخدم الشيطان كل قوته وخداعاته ليُضلَّ الناس. وعرشه: إشارة إلى أنّ الشيطان يكون بمنزلةِ رئيس العالم، ويُفْهَمُ من هذا أنَّ وحش البحر سيكون له سلطانٌ على العالم أي أنّه زعيمٌ عالميٌّ، وهو سيمارس كلَّ أنواع الاضطهاد ضد الكنيسة وبوحشيةٍ ليسقط أكبرُ عددٍ ممكنٍ في عبادته تاركين المسيح، فيهلكوا معه في بحيرة النار. ويلاحظُ هنا أنَّ وحشية هذا الوحش اجتمع فيها وحشية النمر والدب والأسد كلّهم.

آية (٣) "ورأيتُ واحداً من رؤوسه كأنه مذبوحٌ للموت وجرحه المميت قد شفي وتعجّبتْ كلُ الأرض وراء الوحش"

ورأيت واحداً من رؤوسه كأنه مذبوح للموت: هذه إشارةٌ إلى إحدى القوى السياسية أو العالميّة التي قد انحدرت، ربّما بسبب حربٍ أو أزمةٍ اقتصاديةٍ، ثم يساندها الوحشُ، مما يثير إعجاب العالم وراءه، مُعجبين بقوّته، ويرون هذا كأنه معجزة. وقد يُفهَمُ من

[1] التجديف: كلمة يُقصدُ بها في الكتاب المقدس كلام غير لائق في شأن الله، وفي شريعة موسى، كان عقاب التجديف الرجم وقد اتُّهِمَ بها نابوت أليزرعيلي زوراً واستفانوس ويسوع المسيح نفسه، ومن أنواع التجديف على الروح القدس الطعن في معجزات المسيح.

ذلك أنَّ أحد الملوك الذين يتبعونه يُجرحُ جرحاً شديداً ثم يشفى بقوّةٍ غريبةٍ فيدهش الناس، وهو بهذا يحاول أن يقلِّد المسيح.

آية (٤) "وسجدوا للتنين الذي أعطى السلطانَ للوحش وسجدوا للوحش قائلين من هو مثل الوحش مَن يستطيع أن يحاربه"

يعتقدُ المسيحيّون أنّ هذه العبارة يُعْجَبُ بها إبليسُ ومّن يتبعه من مثل الوحش، وأنّها العبارة التي أسقطت إبليس قديماً حينما قال أصيرُ مثلَ العليّ، وقال الملاك ميخائيل مَن مثل الله؟ وبهذه الحيلة أسقط إبليسُ آدم وحواء إذ قال لهما إنْ أكلتُما تكونان كالله.

آية (٥) "وأعطيَ فما يتكلم بعظائم وتجاديف وأعطي سلطاناً أن يفعل اثنين وأربعين شهراً"

الشيطان أعطى للوحش أن يُجَدِّفَ على الله اثنين وأربعين شهراً، وهي مُدّةُ دوس الأمم لأورشليم. وقد يعني هذا إهانةَ المقدسات المسيحية، وربمَّا كان هذا ما قصده دانيال حين قال: "وتقوم منه أذرع وتنجس المقدَّسَ الحصينَ". وهذا ما أشار إليه المسيح في نبؤته (متى ٢٤: ١٥)، "فمتى نظرتم رجسة الخراب التي قال عنها دانيال النبي قائمةً في المكان المقدس، [ليفهم القارئ]، فحينئذٍ ليهرب الذين في اليهودية إلى الجبال". وربما يكون المقصودُ بهذا أنَّ ضدَّ المسيح (المسيح الدجّال) يفرضُ سيطرته على الكنائس، وهو نفس الرجس المخرِّب الكنائس، وتكون هذه علامةً على هروب المرأة للبرية لكي يعولها الله إلى ١٢٦٠ يوماً، مدّةَ دوس الأمم لأورشليم.

آية (٦) "ففتح فمه بالتجديف على الله ليُجَدِّفَ على اسمه وعلى مسكنه وعلى الساكنين في السماء"

ليُجَدِّفَ على اسمه: حينما سأل موسى اللهَ عن اسمه، أجابه بأنه يهوه، حسبما ورد في العهد القديم. وهذا يعني "أنا هو" والمسيح دائماً كان يقول عن نفسه: أنا هو. مثلاً أنا هو النور ... أنا هو الطريق والحق والحياة. وحين قال لمن أتوا ليقبضوا عليه في بستان جشيماني

"أنا هو"، فإنّه كان بهذا يعلن لاهوته وأنه يهوه العظيم. وبهذا يُفهَمُ أنَّ ضد المسيح حين يجدف على "اسمه" فإنه بهذا يجدِّفُ على المسيح.

وعلى مسكنه: أي على الكنيسة التي قد يحتلها وينجّسها. وعلى الساكنين في السماء: أي الملائكة والقدّيسين.

آية (٧) "وأُعطِيَ أن يصنع حرباً مع القديسين ويغلبهم وأُعطي سلطاناً على كل قبيلةٍ ولسانٍ وأُمّةٍ".

يغلبهم يُقصدُ بذلك أنّه سيغلبهم جسدياً فقط وأنّه يضطهدهم ويقتلهم، بل سيتعقبهم في كلّ بلدٍ وكلّ أمةٍ. هو سيغلبهم جسدياً، ولكنهم سيغلبونه روحياً.

آية (٨) "فسيسجدُ له جميعُ الساكنين على الأرض الذين ليست أسماؤهم مكتوبةً منذ تأسيس العالم في سفر حياة الخروف الذي ذبح"

سيسجد له المخدوعُون فقط أما المؤمنون فلن ينخدعوا به. ولن يُحِبّوا حياتهم حتى الموت. ويعتقد المسيحيونُ أنّ أسماءهم تُكتبُ في سفر حياة الخروف يوم المعمودية.

آية (٩) "من له أذنٌ فليسمع"

من له أُذنٌ فليسمع. لها معنيان:

الأول: هذا تحذيرٌ للمؤمنين حتى لا يتَّبعوا الوحش مهما هدَّد حياتهم.

الثاني: هناك أخبارٌ مؤلِمةٌ ولكن المؤمن حقّاً يسمع كلمات الرب ووعوده، وأنَّ فترة الآلام مؤقتةٌ، وأنَّ مَن يصبر إلى المنتهى فسوف ينال الخلاص.

آية (١٠) "إن كان أحدٌ يجمع سبياً فإلى السبي يذهب، وإن كان أحدٌ يَقتلُ بالسيف فينبغي أن يُقتَلَ بالسيف، هنا صبرُ القديسين وإيمانهم"

على القدّيسين أنّ يؤمنوا أن نهاية هذا الوحش مؤلمةٌ، فمن يَقْتُل فلا بدَّ أن يُقْتَل، ومن يقود للسبي فإنّه سوف يُسبى.

آية (١١، ١٢) "ثم رأيتُ وحشاً آخرَ طالعاً من الأرض، وكان له قرنان كشبه خروف، وكان يتكلَّمُ كتنين، ويعملُ بكلِّ سلطان الوحش الأول أمامه، ويجعلُ الأرض والساكنين فيها يسجدون للوحش الأول الذي شُفِيَ جُرحُه المميت".

هذا الوحش أسماه الكتاب المقدّس "النبيَّ الكذاب"، وقد ورد ذكره في سفر الرؤيا في الفصول ١٦، ١٩، ٢٠ وقد سبَقَ لنا أن تحدّثنا عن الأنبياء الكذبة في مبحثٍ سابقٍ.

شبه خروف: يحاول أن يتظاهر بالوداعة مُقَلِّداً السيّد المسيح. لكنه يتكلم كتنين: أي بخُبثٍ ومكرٍ واقتدار. وكان له قرنان: القرن علامةُ القوة. والقرنان هما:

١. له كلُّ سلطان الوحش، أي أنه يضربُ مَن يقاومه بقوةٍ ووحشيةٍ.
٢. هو قادرٌ على عمل معجزاتٍ وآياتٍ خادعةٍ لإثبات كلامه.

وهذا النبيُّ الكذّابُ يعمل لحسابِ ضدِّ المسيح (المسيح الدجّال) وبسلطانه، ويستحثُ النّاس للإيمان به وللسجود للوحش الأول.

آيات (١٣ – ١٥) "ويصنع آياتٍ عظيمةً، حتى أنّه يجعل ناراً تنزل من السماء على الأرض قُدّام الناس. ويُضِلُّ الساكنين على الأرض بالآيات التي أُعْطِيَ أن يصْنعها أمام الوحش، قائلاً للساكنين على الأرض أن يصنعوا صورةً للوحش الذي كان به جرح السيف وعاش، وأُعْطِيَ أن يُعطيَ روحاً لصورةِ الوحش حتى تتكلَّم صورة الوحش ويجعلَ جميع الذين لا يسجدون لصورة الوحش يُقتَلون".

فهو قادرٌ، بقوّة الشّيطان، أن يعمل آياتٍ بالسحر، فُينزلُ ناراً من السماء، ويجعلُ صورةَ الوحش تتكلّم.

آيات (١٦، ١٧) "ويجعلُ الجميعَ، الصغار والكبار والأغنياء والفقراء والأحرار والعبيد تُصْنَعُ لهم سِمَةٌ على يدهم اليمنى أو على جبهتهم، وأن لا يقدر أحدٌ أن يشتري أو يبيعَ إلاّ مَنْ له السمّةُ أو اسم الوحش أو عدد اسمه".

اليد اليمنى رمز للعمل. والجبهة رمز للتفكير. أي أنَّ مَن سيكون لهم السّمةُ على يدهم اليمنى وعلى جبهتهم، سيكونون بنشاطهم وعملهم وخدمتهم (اليد). وبتفكيرهم وولائهم وإيمانهم (الجبهة) في خدمة ضدِّ المسيح (المسيح الدجّال). ويعتقدُ المسيحيون أنّ سمة أولاد الله هي ختم الروح القدس. أمّا سمة أولاد الشيطان فهي علامةُ أو اسم الوحش أو عدد اسمه. والنبيُ الكّذابُ هو الذي سيعمل هذه السّمةَ، ويجعل الناس يضعونها على جباههم وأيديهم، ولا يستطيع مَنْ ليس له هذه السمة أن يشتري أو يبيع أو يقضي مصالحه. وهذا يُظهِرُ لنا صعوبة هذه الأيام، لذلك قال عنها دانيال النبي "يكون زمانُ ضيقٍ لم يكن منذ كانت أمّةٌ إلى ذلك الوقت".

وقبل الشروع في الحديث عن تفسير وشرح الآية الثامنة عشرة من هذا الإصحاح، فإنّ من المفيد والهامّ جدّاً التنبيه على خطورة أمرٍ قامَ به أصحابُ الفكر الرؤيوي في العصر الوسيط ومن سار على نهجهم في وقتنا الحاضر؛ حيث قام هؤلاء باستغلال تفسير هذه الآية، واستغلال كيفيّة التعامل مع الحسابات التي وردت فيها، أو بالأصحِّ تلاعبهم بكيفيّة حساب أرقام الأسماء. ولكي نتجنَّبَ أيَّ اتهامٍ بالتلاعب أو الاجتزاء أو عدم الحياد والموضوعية فقد ارتأينا ذكر التفسير المسيحي لهذه الآية بنصّه الحرفي كاملاً[1].

آية (١٨) "هنا الحكمة، من له فَهمٌ فليحسب عددَ الوحش، فإنهُ عددُ إنسانٍ وعددهُ ستُ مئةٍ وستةٌ وستون".

والتفسير المسيحيُّ الحرفيُّ لهذه الآية هو: "كانت الحروف الأبجديةُ لها دلالاتٌ رقميةٌ قبل اختراع الأرقام، وكان ذلك في اللغات اليونانية والرومانية والقبطية والعبرية، وكان الحرف يُميَّزُ عن الرقم بوضع شَرْطَةٍ فوقه فيصيرُ رقماً مثال:

---

[1] انظر

أ. تفسير القمص أنطونيوس فكري والقمص تادرس يعقوب ملطي لهذه الآية كما هو منشور على موقع الكنيسة العربية الإلكتروني www.arabchurch.com.

ب. تفسير موقع كلمة الحياة www.kalematalhayat.com.

30 = l/ 5=e/ 4=d/ 3=g/ 2= b/ 1=a/

وكان كلُّ إنسانٍ يقوم بحساب رقم اسمه. ولنأخذ مثالا عن إنسانٍ اسمه عادل، وهكذا يكتب اسمه بالقبطية adel فيكون رقم إسمه 40=30+5+4+1=l/+e/+d/+a/

والله يعطينا هنا دليلاً لاكتشاف شخص الوحش أو ضدِّ المسيح. وذلك بأن نكتب اسمه باليونانيّة ونحسب أرقامه فسيكون عدد اسمه ٦٦٦.

ورقم ٦ هو رقم الإنسان الناقص، فالإنسان مخلوقٌ في اليوم السّادس، ولكنَّ الإنسان بقوَّةِ الله الواحد (ورقم ١ يشير لله) يصبح كاملاً لذلك حُسِبَ رقم ٧ = ٦ + ١ وهو رقم الكمال. أما رقم ٨ فيشيرُ للأبدية، أي بعد أن ينتهيَ أسبوعُ هذا العالم (أي سبعة أيام الخليقة) يبدأ يوم الأبدية الثامن الذي لن ينتهيَ، لذلك قام المسيحُ في يوم الأحد وهو اليوم الثامن، لأنَّ الأسبوع اليهودي ينتهي باليوم السابع أي يوم السبت. مبتدئاً أسبوعاً جديداً أيْ حياةً جديدةً في الأبدية.

وحينما نحسب اسم يسوع نجده ٨٨٨، أي هو الحياة الأبدية وكمال الحياة.

ونعود لرقم ٦٦٦ فهو كمالُ النَّقصِ والشرِّ أو الشر مجسَّماً. فحينما يأتي الرقمُ ثلاثياً يكون تجسيماً للشيء ورقم ٦ = ٧ – ١، أيْ هو رقمُ نقصٍ، فهو أقلُّ من رقم الكمال.

هناك عدد من الأشخاص عبر التاريخ كان عدد اسمهم ٦٦٦. وليس معنى هذا أنَّ كُلّاً منهم هو ضد المسيح (الوحش) بل حينما يظهر هذا الشخص (الوحش) سيكون لنا عدد اسمه ٦٦٦ علامةً مُميِّزَةً نميزهُ بها ...، والحكمة هنا أنّ الدّارسَ للكتاب المقدس سيعرفُ العلامات التي تُميزُ هذا الوحشَ ولن يسيرَ وراءه أو ينخدع به فإنه عددُ إنسانٍ، حيث أنّ الوحش سيكون إنساناً عادياً وليس قوةً معنويةً، أي دولةً أو قوةً اقتصاديةً، بل هو إنسان وله اسم. وعموماً فإنّ كلمة "أنا أدحض" باليونانية مجموعها ٦٦٦، فضدُّ المسيح سيأتي ناكراً

وداحضاً للإيمان بالمسيح مُنَصِّباً نفسهَ إلهاً، والوحش هو ضد المسيح ANTICHRIST"[١]

إننا ولو فرضنا صحّة طريقة حساب الأسماء الواردة في هذه الآية فإنها لن تنطبق على رسول الله ﷺ بحالٍ من الأحوال؛ فهو عليه الصلاة والسلام كان قد توفّي في عام ٦٣٢م، فقام هؤلاء الرؤيويون المزّورون دون أدنى موضوعيةٍ أو أخلاقٍ أو أمانةٍ علميةٍ بنشر الإشاعات والتزييفات التي تفيدُ بأنّ محمداً نبيَّ الإسلام قد مات في عام ٦٦٦ للميلاد حتى ينطبق هذا الرقمُ على عدد الوحش السالف ذكره!!!.

ممّا لا شكَّ فيه أنّ عمل هؤلاء الرؤيويين يثبتُ مدى إفلاسهم، ويدلُّ على سذاجة وسطحيّة تفكيرهم؛ فهم قد حاولوا ربط أوصاف الرسول محمد ﷺ بأوصاف الأنبياء الكذَبة تارةً، وحاولوا ربطها بأوصاف عدوِّ المسيح (المسيح الدجّال) تارةً أخرى، ثم ربطوها بأوصاف الوحش السابق ذكره في الإصحاح السابق تارةً ثالثةً، كلُّ تلك المحاولات كانت لجعل الناس في الغرب يكرهونه ويُعرِضون عن رسالته ودينه. ولمّا فَشِلتْ كلُّ محاولاتهم السّابقة حاولوا اللجوء إلى ربط سنة وفاته بالعام ٦٦٦ للميلاد، وقد استعانوا في ذلك بتزوير وقلب الحقائق والوقائع التاريخيّة. وقد أجهدوا أنفسهم تمام الإجهاد في البحث عن شخصٍ يُسقطون عليه هذه الأوصاف أو بعضاً منها في محاولةٍ منهم لإثبات صدقيّتها وواقعيّتها، مع أنّها كلّها تندرج تحت مُسمّى النثر القصصيّ الرمزيّ.

وخلاصةُ القول في هذه الرؤيا كلِّها يمكنُ أن يُستنتَجَ من مقدِّمتها الموجودة في الكتاب المقدَّس نفسه؛ فهي وبكامل تفاصيلها تحكي عن المسيح الآتي في نهاية الزمان ليُقيمَ المملكة الألفيّة، ويحكم فيها بالعدالة المطلقة. نعم، هذه هي الأحلام التي كانت تُراودُ القدّيس يوحنّا، خصُوصاً إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أنّه كتبَ هذه الرؤيا كردِّ فعلٍ على النفي والاضطهاد الذي كان يعيشه في ظل الحاكم الروماني الجائر آنذاك.

---

[١] المرجع السابق نفسه.

وهذا الكلام تدعمه وتؤكّدُ صحّته مقدمة هذه الرؤيا المدوّنة في الكتاب المقدّس، والتي جاء فيها[١]: "كتب يوحنا رؤياه في أيامٍ اشتدّ فيها اضطهادُ السلطة الرومانية للكنيسة، رؤسائها وأبنائها، فارأد أن يشدد عزائمهم ويثبت إيمانهم بالسيد المسيح ابن الإنسان وابن الله، والملك الأعظم الذي في يده مصير الناس، يسوع هو الحَمَلُ الذي تلقّى من أبيه كتاباً فيه قضاء العدل الإلهي على المضطهدين، أما المؤمنون بالله فإنهم ينجون من المحن والهلاك حتى يأتي يومٌ ينالون فيه الظفر والغلبة في السماء. على أن الله عزّ وجلّ لا يريد هلاك الخاطئين، بل خلاصهم، ولذلك يُنزِلُ بهم النوازلَ لكي ينذرهم، كما أنذر فرعون والمصريين، لكنَّ هؤلاء يقسُّون قلوبهم ويُعرِضون عن التوبة، ويحاولون إفساد الأرض وحمل أهلها على عبادة الشيطان. ذلك ما فعل القياصرة، إذ أرادوا أن يُلزِموا الناس بالسجود لهم. إن السيّد المسيح سيخرِّب مدينتهم بابل رمز رومة الوثنية، فيبتدئ عهداً جديداً تزدهر فيه الكنيسة، وعبثاً يحاول فيه الشيطان شنَّ غارةٍ جديدةٍ عليها. ويتبع ذلك العهد إبادةُ العدو، وقيامةُ الأموات، ويومُ الدّين، وقيامُ الملكوت السماويّ في الفرح التام والابتهاجُ بزوال الموت، وينتهي الكتاب بوصف ما سيكون لأورشليم الجديدة، أي الكنيسة، من الكمال والبهاء في أيام ملكها".

إنّ الذي نراه واضحاً في نهاية حديثنا عن الرؤى أنّها جميعاً خرجت من رحم ظروف العذاب والاضطهاد والسبي والنفي، وأنها جميعاً كُتِبَتْ في المنفى بعيداً عن الوطن، وأنها جميعاً تمثِّلُ أحلام العودة والانتصار وجلاء الظلم ولو بعد حين، فهي لم تَرِدْ ابتداءً، وإنما وردت كردودِ فعلٍ على أحداثٍ حزينةٍ مؤلمةٍ.

ما من شكٍّ أن القدّيس يوحنّا كان واقعاً تحت تأثير التراث النبوئي اليهودي بدرجةٍ كبيرةٍ جدّاً، والدليلُ على ذلك تطابقُ العديد من تفاصيل رؤياه السّابقة مع تفاصيل كلٍّ من رؤيا حزقيال ورؤيا دانيال السابقتين، وللتدليل على ذلك، سنعرضُ للمقارنات التي ذكرها شفيق مقار[٢] بين هذه الرؤى الثلاث.

---

(١) انظر مقدمة رؤيا القديس يوحنا في الكتاب المقدس.

(٢) انظر المسيحية والتوراة، [م. س]، ص ٢٣٩، ٢٤٠.

أولاً: المقارنة الأولى بين رؤيا يوحنّا اللاهوتي وبين رؤيا حزقيال:

رؤيا اللاهوتي	رؤيا حزقيال
"نظرت وإذا باب مفتوح في السماء" (٤: ١)	"كان ... إن السماء انفتحت" (١: ١)
"كنت في الروح في يوم الرب" (١: ١٠)	"فرأيتُ رؤى الله" (١: ١)
"رأيت ... شبهَ ابن إنسان" (١: ١٣)	"رأيتُ ... شبه كمنظر إنسان" (١: ٢٦)
"وصوته كصوتِ مياهٍ كثيرة" (١: ١٥)	"كصوت مياه كثيرة صوتُ القدير" (١: ٢٤) "وصوته كصوت مياهٍ كثيرة" (٤٣: ٢)
"ورجلاه شبهُ النّحاس النّقيّ كأنهما محميّتان في أتون" (١: ١٥)	"ومِن منظر حقويه إلى فوق ومن منظر حقويه إلى تحت مثلُ منظرِ نارٍ ولها لمعان النحاس من حولها" (١: ٢٧)
"هوذا يأتي مع السحاب" (١: ٧)	"سحابة عظيمة ونار متواصلة" (١: ٤)
"وإذا عرشٌ موضوعٌ في السّماء وعلى العرش جالس" (٤: ٢)	"وفوق المقبب (قبة السماء) شبهُ عرشٍ وعلى شبه العرش شبه كمنظر إنسان عليه من فوق" (١: ٢٦)
"وكان الجالس في المنظر شبهُ حجرِ اليشب والعقيق وقوس قزح حول العرش في المنظر شبه الزمرد" (٤: ٣)	"عرش كمنظر حجر العقيق الأزرق ... ومنظر كمنظر القوس التي في السحاب يوم مطر" (١: ٢٦ و٢٨)
"ومن العرش تخرج بروقٌ ورعودٌ وأصوات" (٤: ٥)	"لمعان ومن النار يخرجُ برقٌ" (١: ١٣)
"وقدّام العرش بحر زجاج شبه البللور" (٤: ٦)	"شبه مقبب كمنظر البللور الهائل" (١: ٢٢)
"وفي وسط العرش وحول العرش أربعة حيوانات" (٤: ٦)	"ومن وسط النار شبه أربعة حيوانات" (١: ٥)
"(والحيوانات) مملؤة عيوناً من قدّام ومن وراء" (٤: ٦)	"ملآنة عيوناً حواليها للأربع" (١: ١٨)
"الحيوان الأول شبه أسدٍ. والحيوانُ الثاني	"أما شبه وجوهها فوجهُ إنسانٍ ووجهُ أسدٍ

رؤيا اللاهوتي	رؤيا حزقيال
شبهُ عجلٍ. والحيوان الثالث له وجهٌ مثلُ وجه إنسان. والحيوانُ الرابع شبه نسرٍ طائرٍ" (٤: ٧)	لليمين لأربعتها، ووجهُ ثورٍ ووجهُ نسرٍ من الشمال (اليسار) لأربعتها" (١: ١٠)
"ولكل واحد منها ستةُ أجنحةٍ حولها ومِنْ داخلها مملوءةٌ عيوناً" (٤: ٨)	"ولكلِّ حيوانٍ أربعةُ أجنحةٍ وأيدي إنسانٍ تحت أجنحتها على جوانبها الأربعة" (١: ٦ و٨).
"فلما رأيتهُ سقَّطتُ عند رجليه كميّتٍ فوضعَ يده اليُمنى عليّ قائلاً لا تَخَفْ" (١: ١٧)	"ولمَّا رأيتهُ خررتُ على وجهي ... فقال لي يا ابن آدم قُمْ على قدميك فأتكلم معك" (١: ٢٨ و٢: ١)
"فاكتب ما رأيتَ وما هو كائنٌ وما هو عتيد أن يكونَ بعد هذا" (١: ١٩)	"قال لي أنا مُرْسِلُكَ إلى بني إسرائيل" (٢: ٣)

ثانياً: مقارنة بين رؤيا يوحنّا اللاهوتي ورؤيا دانيال[1]

رؤيا اللاهوتي	رؤى سفر دانيال
"رأيت ... شبه ابن إنسان " (١: ١٣)	"وإذا مثل ابنِ إنسانٍ أتى" (٧: ١٣)
"وأمّا رأسه وشعره فأبيضان كالصوف الأبيض كالثلج وعيناه كلهيب نار" (١: ١٤)	"لباسه أبيضُ كالثلج وشعرُ رأسه كالصوف النقيّ وعرشه لهيب نار" (٧: ٩)
"وإذا عرش موضوعٌ في السماء ... وحول العرش أربعة وعشرون عرشاً" (٤: ٢ و٤)	"وكنت أرى أنه وُضِعَتْ عروشٌ وجلسَ القديم الأيام" (٧: ٩)
"وإذا جمعٌ كثيرٌ لم يستطع أحد أن يعدّه ... وقوفاً أمام العرش ... هم أمام عرش الله ويخدمونه ليلاً ونهاراً في هيكله والجالس على العرش يحلّ فوقهم" (٧: ٩ و١٥)	"(أمام العرش) الوف ألوفٌ تخدمهُ وربوات ربوات وقوفٌ قدّامه" (٧: ١٠)

(1) المرجع السابق نفسه ص ٢٤٦.

"أربعة حيوانات حول العرش ... الحيوان الأول شبهُ أسدٍ، والحيوانُ الثاني شبهُ عجلٍ. والحيوان الثالث له مثلُ وجهِ إنسانٍ. والحيوان الرابع شبه نسرٍ طائرٍ" (٤: ٦ و٧)	"وصعد من البحر أربعةُ حيواناتٍ عظيمةٍ هذا مُخالِفٌ ذاك. الأول كأسدٍ وله جناحا نسر .. وحيوانٌ ثانٍ شبيهٌ بالدبّ ... وآخرُ مثلُ النّمر وعلى ظهره أربعة أجنحةٍ طائر وله أربعة رؤوس وأعطي سُلطاناً ... وحيوان رابعٌ هائلٌ وقوي وشديد جداً وله أسنان من حديد كبيرة ... وله عشرة قرون". (٧: ٣ و٤ و٥ و٦و٧).

تَبَيَّنَ لنا مما سبق زيفُ ادعاءات أصحاب الفكر الرؤيوي فيما يتعلق بفهمهم للإسلام وطريقة عرضهم له أمام الناس. وكما مرَّ معنا فقد قامت طريقة عرضهم تلك على أساسٍ واحدٍ، هو الإلصاق الكاذب للنبوءات المرعِبة بشخص رسول الله ﷺ، ومحاولة إسقاط تفاصيلها عليه وعلى الدولة الإسلامية، وبالذات في عهود الفتح الإسلامي وازدهار الحضارة الإسلامية، ووصولها إلى قلب القارة الأوروبية التي كانت تسبح في عصور الظلمات الوسطى آنذاك. وكان أكثر ما يُقلق الكنيسة ورهبانها ويربكهم سرعة انتشار الإسلام وازدياد أعداد الداخلين فيه بشكلٍ مُلفتٍ، وقد "تصاعد الارتباكُ إلى رعبٍ صحيحٍ بسبب سرعة انتشار الإسلام في العالم، بفضل الحملات السلمية، والفرسان الذين يمتشقون السيف، ويمتطون جياداً سريعةً كالريح، تحمل راية النبي. كان المسلمون يخوضون حرباً مقدسةً (الجهاد) إطاعةً لأوامر نبيٍّ وعدهم بسببه "تحت ظلال السيوف"[(١)].

وكما أسلفنا لم يقف الرهبان الكاثوليك مكتوفي الأيدي، بل شاركوا في محاربة الإسلام عسكرياً من خلال دورهم الخطير في الحروب الصليبية، كما حاربوه عقدياً وإعلامياً من خلال الحملات التشهيرية التي تزعَّموها ضدَّه وضدَّ الرسول الكريم ﷺ، وهي الحملات التي عملوا من خلالها على ربط العسكريّ بالعقديّ، وعملوا على استنهاض الأحلام النبوئية والفكر الرؤيوي في محاولةٍ منهم لتخويف الناس من الإسلام، وتشويه صورته ولتشجيعهم على قتاله من خلال الانضمام للحملات والجيوش الصليبية. صحيحٌ أنَّ ربط هذه الرؤى بالإسلام كان محلَّ رفضٍ واستهجانِ الكثيرين من مفكري ومؤرخي العصور الوسطى، إلا أنّه،

---

(1) تسمرلينغ، [م. س]، ص ١١١

وللأسف، اتَّسَمَ بسرعة التصديق والانتشار بين الناس.كان تخويف الناس من "المحمّديّة" الطريقة المثلى التي اختارها هؤلاء لاستنهاض الهمم بُعيدَ فشل كلِّ حملةٍ صليبيةٍ.

"إن فشل الحملات الصليبية جعل "المحمّديّة" مُخيفةً لا بل مُرعِبةً بطريقةٍ جديدةٍ، نظراً إلى أنّ انتصار المسلمين قد هدَّدَ وحدة وسلامة العالم المسيحي بالذات. فكان مجرد التفكير بالإسلام يثير في النفوس فزعاً مستطيراً مِن أن يكون الربُّ قد تخلى عن شعبه، وتضاعف هذا الرعب عام ١٤٥٣م، عندما غزا الأتراك العثمانيون بيزنطة، حاملين معهم الإسلام إلى عقر دار أوروبا. ومن دون السُّورِ الواقي الذي كانت تؤمِّنُهُ بيزنطة المسيحية، بدت شعوب العالم المسيحي أكثرَ عرضةً للعطب من أي وقتٍ مضى، وبدا كما لو أنّ الكابوس القروسطي القديم على وشك أن يتحقق فعلاً. الإسلامُ يتهيأ لابتلاع أوروبا الصغيرة المسكينة! وفي مناخٍ مِن الرعب كهذا، من المستحيل أن يقومَ فهمٌ جديدٌ للإسلام، ومنذ ذلك الحين فصاعداً سَيُعرفُ المسلمون الأشرار للغاية بـ"الأتراك الذين لا يصحُّ ذِكْرهم"، لقد باتت "المحمّديّة" تشكِّلُ تهديداً وتبثّ رعباً مُخيفينِ إلى درجةٍ لا تسمح بالتحدث عنها بصوتٍ عالٍ" [1].

وفي معرض الحديث عن الفكر الرؤيوي ومساهمته في التشجيع على الحملات الصليبية، نرى أن نتوقفَ قليلاً عند رؤيا "عرّافات سيبيلين"[2]؛ فقد انبعثت حوالي العام ١٠٠٠ للميلاد أسطورةٌ قديمةٌ كانت لها أهميتها الفائقة فيما بعد إبّانَ الحروب الصليبية، ومفادُ تلك الحكاية الخرافية أنَّ "عرّافات سيبيلين" العجائز قد تنبأنَ في أواخر الحقبة الرومانية بأنه قُبيلَ نهاية العالم، سَيُتَوَّجُ إمبراطورٌ من الغرب[3] في أورشليم، وأنّه سيحاربُ المسيح الدجَّالَ هناك. فشرع الناس يبحثون من حولهم عن إمبراطورٍ يأخذ على عاتقه هذه المهمَّة.

---

(1) آرمسترونج، الحرب المقدسة [م. س] ص ٥٤٢

(2) عرّافات سيبيلين: أنتجت اليهودية الهلينستية كتباً حُفظت في روما، وادعت أنها أقوالُ كاهناتٍ أو متنبئاتٍ موحىً إليهن. أمّا النصوص "السيبيلنيّة" المسيحية فبدأت تظهر في القرن الرابع، وآمن عدد كبير من المسيحيين في أوروبا بأنها تمثل حقيقةَ الإنجيل، وقد تكهنت تلك= =النصوص بمجيء إمبراطورٍ سيوحد الشرق والغرب، اسمه (الإمبراطور الأخير)، ويذبح أعداء الله، ويتوَّجُ في القدس، وعندئذٍ سيظهر المسيح الدجال، لكن الملاك ميكائيل سيقضي عليه، ويعود المسيح مكللاً بالمجد.

(3) الإمبراطور الأخير: هو الإمبراطور الذي تنبأت بمجيئه "عرافات سيبيلين"، والذي انتظره على أحرّ من الجمر المسيحيون السُّذج والبسطاء في أوروبا خلال العصور الوسطى. كان يُتوقَعُ من هذا الإمبراطور عندما يأتي أن يوحّد الشرق والغرب، ويقضي على أعداء المسيح، ويزحف على القدس ليتوجّ فيها، ويستعجل ظهور "المسيح الدجال" وبذلك يؤذن بقرب قيام الساعة(الأيام الأخيرة، آخر الزمان..ألخ) تمهيدا للعهد المجيد، عهد المجيء الثاني للمسيح

"وأخذ الناس يشعرون أنّ عليهم أن يحاولوا إنقاذ أنفسهم من خلال تحقيق تلك التنبؤات القديمة، وفي ذلك مبادرةٌ ذاتيةٌ إلى تقرير المصير. وبعد ثلاثين سنةً على الحجّ الكبير إلى أورشليم عام ١٠٣٣م، حدث "خروج" ضخم آخر من أوروبا، حين غادرها حوالي ٧٠٠٠ حاجٍّ قاصدين الأراضي المقدسة، وربما كان ذلك بدافعٍ من الرغبة الرؤيوية ذاتها في أنْ يُجبروا المسيح الدجال على إشهار نفسه"[1].

لقد أصاب الفكر الرؤيوي المسيحيين بالهوس في العصور الوسطى وزمان الحروب الصليبية، حيث كان المسيحيون الأوروبيون على قناعةٍ راسخةٍ بأنَّ المسيح الدجّال سوف يظهر في أورشليم قبل القيامة النهائية، ويُنَصِّبُ نفسه في الهيكل، ويدخلُ مع المسيحيين هناك في معارك ضاريةٍ، وردت نبوءة بها في سفر الرؤيا "ولسوف تؤذن هذه الحروب البشعة بقيام الساعة وبالمجيء الثاني للمسيح، بعض الناس رأى المسيح الدجّال على هيئة وحشٍ شيطانيٍّ شبيهٍ بالبهيمة الوارد ذكرها في "سفر الرؤيا"، فيما رآه بعضهم الآخر كبشرٍ عاديٍّ، لكنه شريرٌ إلى أقصى حدٍّ وشبيهٌ بالعاصي المحكيِّ عنه في "الرسالة الثانية إلى أهل تسالونيكي". هذا ولطالما جرت المماثلة والمطابقة ما بين القادة السياسيين والمهرطِقين من جهةٍ، والمسيح الدجّال من جهةٍ أخرى، وما يمكن لنا تسميته "رصد المسيح الدجّال" بات تقليداً مُتَّبَعاً في أوروبا الغربية، وقد كان للاعتقاد بالمسيح الدجّال أهميةٌ فائقة في أيديولوجية الحروب الصليبية"[2].

---

[1] آرمسترونغ، [م. س] ص ٩٨

[2] آرمسترونغ، [م. س]، ص ٥٧.

الفصل الثالث

الاستشراق الدّيني ودوره في تدعيم الفهم الخاطئ للإسلام ونبوّة محمدٍ ﷺ

المبحث الأول
الاستشراق الدِّيني
جذوره، غايته، دور الكنيسة فيه

تقدّم الحديثُ فيما سبق عن دور الرهبان الكاثوليك في إعلان حربٍ مسلّحةٍ وأُخرى إعلاميةٍ على الإسلام، استهدفت تشويه صورته والتخويف منه والصدَّ عنه. وذلك، كما أسلفنا، من خلال إسقاط بعض نبؤات الكتاب المقدّس على الإسلام ورسوله الكريم ﷺ. ومن العدالة والأمانة القولُ: إنّ تلك المحاولات الرؤيوية كانت وبالدرجة الأولى، أعمالاً فرديّةً ومحاولاتٍ غير مترابطةٍ، تظهر وتتوهج كلما دعت إليها الحاجةُ واستدعتها الظروف. ولكننّا في هذا الفصل بصدد الحديث عن وجهٍ آخر من وجوه مواجهة رجال الكنيسة ورهبانها للإسلام؛ وهي مواجهةٌ عقديّةٌ وفكريّةٌ بالدّرجة الأولى، كما أنّها نوعٌ من المواجهات التي اتَّسمت بالفرديّة حيناً وبالمؤسّسية والرسميّة حيناً آخر ... وهذه المواجهة التي نحن بصدد الحديث عنها هي الاستشراق[1]. والنوع الذي يعنينا هنا هو الاستشراق الدّيني بالذات، دون غيره من أنواع الاستشراق، ونقصدُ على وجه الخصوص المحاولات الاستشراقية التي ظهرت إلى الوجود بدعمٍ رسميٍّ ومباشرٍ من الكنيسة أو من كبار الرهبان ورؤساء الأديرة الشهيرة آنذاك. "وقد اختلف المؤرخون في تحديد البداية الحقيقية للاستشراق زمنياً ومكانياً، فمنهم من يرى أنّها كانت على أيدي طلاب العلم الأوروبيين الذين توافدوا إلى الأندلس العربية ونهلوا من منابع المعرفة فيها ونقلوها إلى أوروبا منذ القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي، ومنهم من يرى أنّ البداية جاءت من بيزنطة التي قهرها العرب المسلمون، وانتزعوا منها أراضي واسعةً في بلاد الشام ومصر والمغرب العربي، والتي توقَّفتْ لاستكناه طبيعة هذا الفاتح العظيم، ومنهم من يرى أنّ بداية الاستشراق كانت وليدة الحروب الصليبية والاحتكاك المباشر بين شعوب غرب أوروبا والعرب. ويرى البعضُ أنّ بداية الاهتمام الفعليّ الغربيّ بالإسلام والمسلمين كانت عند مجابهة الخطر العثماني الذي جاس خلال الأراضي الأوروبية وأَسقط ممالك وأزاح عروشاً، وأصبح حقيقةً من حقائق السياسة الأوروبية"[2]. ولعلّ القاسم

---

(1) كلمة الاسْتشرَاق مأخوذة ومشتقَّة من كلمة الشَرْق، والشرق والمشرق بكسر الراء وهو الأكثر، وبالفتح وهو القياس ولكنَّه قليل الاستعمال - اسم الموضع، أيّ جهة شروق الشمس، فكلمة استشراق مشتقة من كلمة (شرق)، وهي تعني ناحية شروق الشمس. والسين في الكلمة للطلب، أي طلب ما في الشرق. والاستشراق في الإصطلاح يطلقُ على تلك المحاولة التي قام بها ويقوم بها بعض مفكريّ الغرب للوقوف على معالم الفكر الإسلامي وحضارته وثقافة الشرق وعلومه. فالاستشراق: هو علم يدرس لغات الشرق ودينه وتراثه وحضارته ومجتمعاته وماضيه وحاضره.

(2) انظر: =

المشترك الذي يجمعُ بين الآراء السابقة كلها هو انطلاق هذا النمط من الدراسة لتراث الشرق ودينه الإسلامي وحضارته من بلاد الغرب، والتأكيدُ على أنّ الدِّين الإسلامي وحركة الفتوحات الإسلاميّة آنذاك هي السبب الأبرز والدافع المحرِّك لاتجاه الغربيين نحو دراسة الإسلام، ديناً وحضارةً وتاريخاً ... وممّا لا شكَّ فيه أنّ الدافع الدينيَّ كان أقوى الدوافع لقيام الاستشراق، حيث يربط كثيرٌ من الباحثين المهتمّين بالدراسات الاستشراقية بين نشأة الاستشراق وبداية ظهوره وبين الفشل الذريع الذي مُنيث به أوروبا في الحروب الصليبية؛ ذلك أن الحملات الصليبية لم تحقق للغرب طموحاته، ولم تسعفه بالسيطرة على الشعوب العربية واستخلاص بيت المقدس من أيدي المسلمين. "ولقد تغيَّر أسلوبُ المواجهة بين العالم الإسلامي والغرب بعد الحروب الصليبية، فاحتلت الكلمة والحوار واستخدام المنهج العلمي المكانةَ الأولى في دراسةٍ نفسيةٍ للشرق لمعرفة الأسلوب الأمثل للمواجهة، وكان ذلك بديلاً عن المواجهة بالسلاح والقوة العسكرية"[1]. ولقد فرض هذا الأسلوب الجديد في المواجهة العكوف على دراسة أحوال الشرق؛ لغته ودينه، حضارته وتاريخه، فلسفته وعلومه، عقيدته وأصولها، وأن توضع المناهج الدراسية المناسبة لاستكشاف عوامل هذه القوة الصّلبة التي تكسَّرت عليها تلك الحملات الصليبية المتكررة، ومحاولة فهمها وتحليلها نفسياً لمواجهتها بأسلوبٍ يختلف تماماً عن المواجهة العسكرية. "ولـمّا كان القائمون على أمر الحروب الصليبية والمحركون لها هم رجال الكنيسة وسدنتها، فإن ذلك جعل رجال الكنيسة في طليعة المهتمّين بأمر الشرق ودراسة أحواله، ومن هنا، فإنّ طليعة المستشرقين كانوا في معظمهم من القساوسة ورجال الدين المسيحي"[2].

إذاً فقد كان الاستشراقُ الديني هو الحل الأمثل، والبديل الأنسب للمواجهة مع الإسلام. وهذه حقيقةٌ أكّدها أكثر من مرّةٍ المؤرخ ريتشارد سوذرن؛ "وقد أدرك ألَدُّ أعداء الإسلام بين الأوروبيين أنَّ الصّراع العسكريّ معه لا يكفي لإسقاطه، وأنه لابدَّ من اشتغالٍ أعمقَ بفهم مضامينه ومحاولة نقضها. وكانت حجَّتُهم في إقبالهم على دراسة الإسلام ضرب إرادة المقاومة عند الخصم عن طريق تشكيكه بصحّة عقيدته، ودفع الجنود الأوروبيين لمزيدٍ من الضراوة والانتظام عن طريق التركيز على قوَّة الإسلام العسكرية. ومن نافلة القول هنا

= أ. الملا جاسم، ناصر عبد الرزاق، الإسلام والغرب، دراسات في نقد الاستشراق، ص ١٤، ط١، ٢٠٠٤، دار المناهج، عمّان، بتصرف.
ب. زقزوق، محمود حمدي، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص ١٨، بلا تاريخ نشر ولا رقم طبعة، دار المعارف، القاهرة.
[1] الجليند، محمد السيّد، الاستشراق والتبشير قراءة تاريخيّة موجزة، ص ١٢، ١٣، ط١، ١٩٩١، دار قباء، القاهرة.
[2] المرجع السابق نفسه، ص ١٣.

الاستنتاجُ أنَّ الفريق الذي كان يُعارضُ العمل العسكري ضد الإسلام كان أكثر إقبالاً على التصدي للإسلام فكرياً بعد أن فقد إيمانه بالعمل المسلح"[1].

ومن أجل تحقيق الهدف العقدي من الاستشراق فقد سلك المستشرقون الأوائل من الرهبان الكاثوليك المسالك الأربعة التالية:

المسلك الأول: الحرص الكامل على حجب حقيقة الإسلام وأهدافه النبيلة عن جمهور العوام المسيحيين في أوروبا، وذلك من خلال قلب الحقائق وتشويهها وإبراز ما كانوا يرون أنّه نقاط ضعفٍ وتناقضٍ في الإسلام، وقد تحقّق ذلك من خلال إشاعتهم وإحيائهم للفكر الرؤيوي، الذي سبق الحديثُ عنه، ومن خلال مؤلفاتٍ جدليّةٍ باطلةٍ وضعها الرهبان لهذه الغاية، وبالذات الترجمات الزائفة المغلوطة للقرآن الكريم، وتزوير وقائع وأحداث السيرة النبوية الشريفة.

المسلك الثاني: حرصُ الكنيسة ورهبانها الدائم على تشويه صورة المسلمين، وذلك من خلال التأكيد على وصفهم بالعديد من الأوصاف المنفِّرة القبيحة المُخيفة، كوصفهم بالمقاتلين المحمّديين الأشدّاء الذين لا يعرفون الرحمة، والسراسنة المتخلّفين الذين لا يفقهون سوى القتال وحمل السيف وقتل الآخرين، وكذلك وصفهم بأنهم غيرُ متحضّرين يسكنون الصحراء ويقتتلون فيما بينهم.

المسلك الثالث: أفنى هؤلاء المستشرقون الرهبان أعمارهم، وضيّعوا أوقاتهم في دراسة الإسلام للبحث عمّا يطعنون في الإسلام من خلاله؛ ومثال ذلك، إجهاد أنفسهم في البحث عن تناقضاته، أو البحث في إثبات كون الإسلام ديناً منحولاً من اليهودية والمسيحيّة والمصادر الأُخرى المليئة بالهرطقات والبدع.

المسلك الرابع: التخطيط لبدء حملاتٍ خبيثةٍ تستهدف تبشير المسلمين (أو بالأصح تنصيرهم)، وهو الأمر الذي تقررّ بشكلٍ رسميٍّ وواضحٍ من خلال مؤتمراتٍ ومجامع كنسيّةٍ خُصِّصت لهذا الأمر.

---

[1] سوذرن، [م. س]، ص ٨٦.

وما من شكٍّ في أنّ هذه المسالك السابقة كلّها كانت تتحرّك بدافع الكراهية للإسلام، وبدافع الخوف من انتشاره السريع في كلّ أرضٍ كان يطؤها المسلمون، وكان من أبرز أهداف هؤلاء المستشرقين الرهبان "منع انتشار الإسلام في أوروبّا وغيرها، حفاظاً على سلطة الكنيسة ومفاهيمها ... فَقَد كَانَ أعداء الإسلام يروون غليلهم بمنع النَّاس وصدِّهم عنه، حَيْث كَانَ الإسلام، مِن غَيْر شَكٍّ، يشكل استفزازاً مقلقاً بطرقٍ عديدةٍ، فَقَد كَانَ قريباً مِن المسيحيَّة قُرباً مقلقاً جغرافياً وثقافياً، فمنذ نهاية القرن السَّابع عَشَر كَانَ الإسلام في شكله العربيّ العثماني، أَو في الشمال الإفريقي الإسباني، قَد هَدَّدَ المسيحيَّة الأوروبِّيَّة تهديداً فعّالاً، ولم يَكُن ممكناً أَن يغيب عَن ذهن أَيّ أوروبِّيٍّ ماضياً أو حاضراً كون الإسلام قَد فاق روما إشعاعاً وسما عليها"[1].

تبيَّن لنا ممّا سبق أنّ نشأة الاستشراق كانت دينيّةَ الدافع، وكانت الكنيسةُ الكاثوليكيّة ورهبانها المحرِّكَ والدّاعم له، وذلك في واحدٍ من فصول حربها المُعلَنة ضدَّ الإسلام والمُسلمين؛ تلكُمُ هي الحربُ الإعلاميّة التضليليّة التي اختارتها الكنيسة ولجأ إليها رجالاتها بعد العجز المُبين لهم ولجيوشهم الصليبيّة أمام الآلة العسكرية الإسلامية في العصور الوسطى. إنّ القول بدينيّة الدّافع وصليبيّة المحرِّك للاستشراق ليس إلقاءً للكلام على عواهله، ولا هو من باب الجُزاف، إنما هو قولٌ يتبعُه الدليلُ الذي يدعمهُ ويشهد لصحّته؛ والذي يشهدُ لصحّة هذا الكلام جغرافيّةُ المكان الذي انطلقت منه الدعوة الاستشراقية، وتشهدُ له الحقائق التاريخية التالية:

أولاً: إنّ البداية الحقيقيّة للاستشراق على المستوى الفرديّ كانت على يد الراهب الكاثوليكي الفرنسي جربر دي أولياك[2] الذي انتُخِبَ لاحقاً حبراً أعظم لكنيسة روما، وحمل لقب سلفستر الثاني في العام ٩٩٩م. كان هذا الراهب أولَ المشتغلين بعلوم الشرق، وارتبطت باسمه بداية حركة الاستشراق؛ حيث رحل من فرنسا إلى إسبانيا، مهد الحضارة الإسلامية في حينه، فتَعلَّمَ اللغة العربيَّة، ووقف على علوم

(1) سعيد، إدوارد، الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، ص ١٠١، ط١، ١٩٨١م، من منشورات مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت.

(2) انظر:

أ. عربي، محمد ياسين، الاستشراق وتغريب العقل التاريخي العربي، ص ١٣٧، ط١، ١٩٩١م، من منشورات المجلس القومي للثقافة العربية.

ب. الجليند، [م. س]، ص ١١.

ج. زقزوق، [م. س]، ص ٢٠.

د. العقيقي، نجيب، المستشرقون، الجزء ١٢ الصفحة ١ فما بعدها، ط٣، ١٩٦٤م، دار المعارف، القاهرة.

المسلمين في الرياضيّات والطبّ والفلك والكيمياء والفلسفة، كما قرأ بعض العلوم الدينية، حتَّى قِيلَ عنه إنَّه كانَ أوسع علماء عصره معرفةً بعلوم المسلمين، وبخاصّةٍ في الرياضيات والفلك. ثم ارتحل إلى روما مقرّ البابويّة، حيث اشتُهِرَ هناك بين أقرانه بمعرفته الواسعة باللغة العربيّة وعلوم المسلمين، فانتُخِبَ حبراً أعظم تحت لقب سلفستر الثاني (٩٩٩م – ١٠٠٣م) فكان بذلك أول بابا فرنسيٍ يعتلي كرسي البابوية.

واستطاع من خلال منصبه الجديد أن يُنشئ مدرستين لتدريس اللغة العربيَّة وعلومها، وكانت الأولى منها في روما مقرّ البابوية، والثانية في موطنه الأصلي (دايمس)، ثم أنشأ مدرسةً ثالثةً باسم (شارتر). وقد قام هذا الراهب بترجمة بعض الكتب العربيّة في الرياضيات والفلك، وإليه يرجع الفضل في انتشار الأعداد العربيّة في أوروبا التي كان ينقصها الرقم صفر، ولم تكن أوروبا تعرفه حتى نقله إليها (جربر) من العربية إلى اللاتينية، هذا الرقم الذي تمَّ به حلُّ كثيرٍ من المشاكل الحسابية هناك بعد نقله.

ثانياً: انتقل الاستشراق من الفرديّة إلى العمل الجماعيّ والمؤسّسي على يد الراهب الفرنسي بطرس المبجّل الذي كان رئيساً لدير كلوني الشهير في جنوب فرنسا، حيث أمرَ هذا الراهبُ بتنفيذ أوَّلِ ترجمةٍ لاتينيّةٍ للقرآن الكريم، وأشرف على العاملين عليها بنفسه وكان يدفع لهم أجورهم منه، وكان هدفه من هذه الترجمة دراسة القرآن للطعن فيه، وبيان نقاط ضعفه وتناقضاته!!. وكان يؤمن بحتميّه الصراع والصدام مع الإسلام، ولكن ليس بالسيف، وإنّما بالكلمة والإقناع والحجّة "وفي نظرته للمسلمين كهراطقةٍ، اعتقد بطرس المبجل بإمكان إعادتهم إلى فلك الكنيسة، وذلك إذا تمكَّن اللاهوتيون والمبشّرون المسيحيون من أن يُظهِروا لهم بشكلٍ مقنعٍ، أين تكمن انحرافاتهم وضلالاتهم. وحول نوايا بطرس المبجل هذا تشهد رسالته التي وجهها إلى العرب، ويقول فيها: "من بطرس الفرنسي الجنسية، المسيحي العقيدة، الآباتي في الخدمة الكنسية، من أولئك الناس الذين يُطلق عليهم الرهبان ... إلى العرب، أبناء إسماعيل، الذين يتبعون قانون الرجل، الذي يدعى محمداً ..."[(١)].

[(1)] جورافسكي، [م. س]، ص ٧٩.

وقد سبق إيراد نصّ رسالته للمسلمين في الفصل الأول من هذه الدراسة. ويصف "جورافسكي" بطرسَ المبجلَ هذا بقوله: "فيمكنُ من دونِ أيِّ مُبالغةٍ تسميته مؤسِّس الدراسات الإسلامية لدى مسيحيي القرون الوسطى"[1]. ولن نقف مطوّلاً عند بطرس هذا، حيث سيتمُّ تخصيصُ مبحثٍ كاملٍ قادمٍ باسمه.

ثالثاً: انتقل الاستشراق إلى المرحلة الرسميّة بعد صدور قرار مجمع فينّا الكنسي عام ١٣١٢م "وُلِدَ الاستشراق بقرارٍ كنسيٍّ، ونشأ وترعرع في أحضان الكنائس الأوروبية، واستمدَّ منها قوّته ومقوّمات بقائه. وفي الغرب المسيحي يُؤَرَّخُ لبدء وجود الاستشراق الرسميّ بصدور قرار مجمع فينّا الكنسي عام ١٣١٢م، بتأسيس عددٍ من كراسي الأستاذية في (اللغات) العربية واليونانية والعبرية والسريانية في جامعات باريس وأكسفورد وبولونا وأفينيون وسلامانكا، وتأسَّس كرسيُّ اللغة العربية في روما على نفقة الفاتيكان،وفي باريس على نفقة ملك فرنسا، وفي أكُسفورد على نفقة ملك إنجلترا، ويعتبرُ كثيرٌ من المؤرخين لحركة الاستشراق أنَّ هذا المؤتمر هو البداية المنظَّمةَ وشبهَ الرسمية للاستشراق، وما كان قبل ذلك إنما كان بمثابة الإرهاص لميلاد هذه الحركة، وتَبِعَ ذلك انتشارُ المدارس والمعاهد الاستشراقية المعنيّة بدراسة الشرق وعلومه الإسلامية بصفةٍ خاصةٍ"[2].

ولم تتردّد الكنيسةُ الكاثوليكية يوماً في الإفصاح عن أهدافها من إنشاء المؤسَّسة الاستشراقية وكونها تمهيداً لارتداد العرب إلى المسيحية؛ ولذلك فقد نصَّ قرار إنشاء كرسي اللغة العربيّة في جامعة كامبردج عام ١٦٣٦م على أنّ الكرسيَّ أُنشئ بهدف توسيع حدود الكنيسة ونشر المسيحية بين المسلمين الذين يعيشون في الظلمات. ولم تقتصر جوانب التنصير في المؤسسة الاستشراقية على الهدف وسلطة الإنشاء، بل تعدَّتها إلى الممارسة والتنظيم، فقد كان الرهبان في طليعة المستشرقين"[3].

---

(1) المرجع السابق نفسه، ص ٧٩.

(2) انظر:

أ. سعيد، [م. س]، ص ٨٠.

ب. زقزوق، [م. س]، ص ١٨.

ج. عبد المحسن، [م. س]، ص ٤١.

(3) عبد المحسن، [م. س]، ص ٤١.

وممّا سبق يتوضّح لدينا مدى التداخل الكبير في مهمّة كلٍّ من الـمُستشرِق والـمُبَشِّر، ولعلَّ هذا التداخل يدعم صحّة ما ذهبنا إليه من القول بالطبيعة الدينيّة والدّافع العقدي للاستشراق. ولعلّ هذا التداخل في الوقت ذاته أكبر دليلٍ على عدم موضوعيّة وحيادية الاستشراق الديني، خصوصاً إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أنّ البابوات كانوا يرصدون انتشار العقيدة والفكر الإسلاميّ في أوروبا، وينظرون إليها بكلِّ الخوف والقلق والترقُّب، ولعلَّ هذه الأسباب ذاتها هي التي كانت على الدوام تدفع المستشرقين للتحيُّزِ والغضب والتعصّب عندما يتعلقُ الأمرُ بالإسلام والمسلمين!! وإلا فبماذا نعللُ عدم غضب المستشرقين وتعصّبهم عندما تتعلق الدراسة بموضوعِ دينٍ آخر غير الإسلام كالبوذية أو الشّنتوية أو الهندوسية مثلاً؟؟ نعم، لقد أنشأت الكنيسةُ المؤسساتِ الاستشراقية وقدّمت لها الدّعم الكامل، وما ذلك إلاّ لتحارب الإسلام من خلالها وتطعن فيه على لسانها. "إنَّ الدِّراسات الاستشراقيَّة الإسلاميّة مَا قامت أوّلَ ما قامت إلا بوحيٍ من الكنيسة الكاثوليكية خاصّةً للانتقاص من تعاليم الإسلام، وإهدار قيمه حرصاً على مذهب (الكثلكة) من جانبٍ، وتعويضاً عن الهزائم الصليبية المتلاحقة في تحرير بيت المقدس من جانبٍ آخر، ثم تبنَّى الاستعمارُ الغربيُ هذه الدراسات في الجامعات الغربية نفسها"[1].

ولعلَّ هذا الكلام لا يقعُ بعيداً عن رأي "بنت الشاطئ" التي أجابت عن الأسئلة حول نشأة الاستشراق بقولها: "فحِينَ نسْألُ التاريخ عن حركة الاستشراق وكيف نشأت؟ يلقانا جوابُه الصّريح بأنّها أوّلَ ما قامت في رعاية الكنيسة الكاثوليكيّة، وخضعتْ لإشرافٍ مُباشرٍ من كبار أحبارها"[2].

والسؤال الذي يطرحُ نفسه الآن هو إن كان المستشرقون من الرهبان الكاثوليك الأوائل قد تعمَّدوا مهاجمة الإسلام والطّعن فيه والبحث عن (عيوبه) و(نقائصه) و(تناقضاته)، فعلى أيِّ شيءٍ في أُسس الإسلام وأركانه تمَّ الهجوم؟؟؟ والجواب على هذا السؤال طويلٌ ومعقّدٌ، وهذا يتناسب تماماً مع طول وكثرة التفريعات والتعقيدات التي تفرّعت عنه، ولكنها في العموم تنضوي تحت الكلمات التالية: لقد تركَّز هجوم الاستشراق الديني الكاثوليكي في الإسلام على مصدريّته المتمثّلة في القرآن الكريم وسنّة رسول الله ﷺ وشخصه الكريم. ولم يكن تركيزُ الهجوم على هذه النواحي عبثاً بل لقد جاء عن دراسةٍ وعنايةٍ ودقّةِ اختيارٍ:

---

[1] البهي محمد، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، ص ٩، ١٠، ط٣، مكتبة وهبة.

[2] انظر: تراثنا بين ماضٍ وحاضر ص ٥٢، طبعة عام ١٩٦٨، من منشورات معهد البحوث والدراسات العربيّة.

١. فالهجوم على رسول الله ﷺ كان بهدف هدم الصورة المثالية لشخصه وأفعاله في نفس وقلب كلِّ مُسلمٍ وزعزعة الثقة به، كيف لا وهو القدوة الحسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر؟؟ وسنأتي على بعض الشّبهات المتعلّقة بهذا الصدد عند الحديث عن المقارنة بين محمدٍ وعيسى، عليهما الصلاة والسلام.

٢. أمّا الهجومُ على القرآن الكريم، فقد كان بهدف نزع مصدريّته الإلهية وذلك من خلال الزّعم (السّخيف) بأنّه ذو مصادرَ بشريّةٍ متنوّعةٍ ومتضاربةٍ، وأنّ عقائده وتشريعاته كلّها إنما هي مَنْحُولةٌ من الأديان والمذاهب والملل التي كانت متواجدةً في شبه جزيرة العرب وبالذات المذاهب المسيحية المندثرة كالأبيونيّة[١] المُهَرطِقة التي كانت تنكرُ ألوهية المسيح ولا تعترفُ بها. ويصرُّ هؤلاء المستشرقون الرهبان على أنّ واسطة الاتصال بين محمدٍ والأبيونيين كان الراهب الأبيونيّ المعتَقَدِ ورقة بن نوفل!! كما يذهب هؤلاء المستشرقون الرهبانّ إلى القول بأنّ إنكار محمدٍ لصلب المسيح إنما أخذه محمدٌ عن بعض أتباع الفرق الدوسيتيّة الغنوصيّة[٢] الذين كانوا يتواجدون في بعض بقاع شبه الجزيرة العربية.

ومن الجدير ذكره في نهاية الحديث عن استهداف المستشرقين الرهبان للقرآن الكريم العبارة الشهيرة للمشترق المبشِّر (جون تاكلي)، وهي: "يجب أن نستخدمَ كتابهم وهو أمضى سلاحٍ في الإسلام ضدَّ الإسلام نفسه، لنقضيَ عليه تماماً. يجبُ أن ترى الناسُ أنَّ الصحيح في القرآن ليس جديداً وأنَّ الجديدَ فيه ليس صحيحا"[٣].

---

[1] الأبيونيون: طائفة مسيحية قريبة الشبه باليهودية من حيث استمساكها بدرجات متفاوتة بالتعاليم الموسوية، تميز عقيدتهم بتمسكهم بالتوحيد المجرّد، وإنكارهم دعوى تأليه المسيح، واعتباره مجرد إنسانٍ، والتزامهم بكتب موسى والأنبياء وما تقضي به من شعائر وفروض. يتحدثون الآرامية وبالرغم من أن معظم أتباعها من اليهود اتخذوا لهم لقب الناصريين فقد اتبعها عدد من الأمم (أي من غير اليهود). ظهرت الأبيونية في أيام المسيحية الأولى، لكنها لم تصبح مذهباً له اتباعه ومريدوه إلا في أيام الإمبراطور تراجان (٥٢ – ١١٧م). انكروا أن يكون بولس رسولاً وكان لهم إنجيلهم الخاص وهو إنجيل متى (بصورة مختلفة عما هو معروف الآن). وكان رأيهم أن المسيح رجل عادي حُبِلَ به بالشكل العادي ولم يتميز سوى ببره وعطية الروح القدس السامية.

[2] الدوسيتية Docetism: مشتقّةٌ من فعل يوناني يعني (يظهر أو يبدو)، فهي تعني "الظاهرية" أي المذهب القائل أن يسوع كان له جسد ظاهري (وهمي) وليس جسداً حقيقياً، وأن الذين قتلوه وصلبوه لم يقتلوه ولم يصلبوه لأنهم كانوا واهمين (شبه لهم) وأنهم لم يقتلوه حقيقةً. والدوسيتيون الغنوصيون هم أول من قالوا أن المسيح لم يقتل أو يصلب، وإنما شُبِّه لأعدائه من اليهود والرومان أنهم صلبوه= =وقتلوه،وذلك لأنهم أنكروا مجيء الله في الجسد، أي أنكروا أن يكون يسوع هو الله أو ابن الله. وهذه الفكرة ترجع إلى القرن الأول المسيحي، وبالرغم من أن العهد الجديد قد أشار إلى فرقة الدوسيتية، فإن عقائدهم لم تتبلور وتكتمل حتى القرنين الثاني والثالث. ولقد واجهت معارضة قوية من الكتّاب المسيحيين الأوائل بدءاً من أغناطيوس الإنطاكي وإيرانيوس في القرن الثاني. ولقد أدينت الدوسيتية رسمياً في مجمع خلقدونية سنة ٤٥١م.

[3] عبد المحسن، [م. س]، ص ١٨

ويمكننا في ختام الحديث عن هجوم المستشرقين الرهبان على مصدريّة الإسلام أن نستنتج أنّ المستشرقين إنما كانوا يستهدفون فكَّ التلازم الضروري في الإسلام بين القرآن والرسول الكريم والوحي في محاولةٍ منهم "للإضعاف التدريجي للاعتقاد بالفكرة الإسلامية، وما يتبع هذا الإضعاف من الانتقاص والاضمحلال الملازِم له، وأنّه سوف يُفضي بعد انتشاره في كلّ الجهات إلى انحلال الروح الدينية من أساسها"[1].

كانت تلك الجذور الأولى للاستشراق. وقد رأينا كم لعبَ الدينُ دوراً محوريّاً فيها، بدأ الاستشراق بمحاولة صدّ المسيحيين عن الدخول في الإسلام والحدّ من انتشاره في القارّة الأوروبية، ثم تطوَّر ودخل مرحلة تشكيك المسلمين بدينهم ومصدريّة قرآنهم الكريم والسنّة الشريفة ورسمِ علامات الاستفهام حول شخصيّة وأخلاق وأعمال الحبيب المُصطفى، وتشويه صورته في عيون العالمين.

ثمَّ تولّدت عن الاستشراق الدعوة إلى تبشير (أو تنصير) المسلمين وتلازمت الدعوتان (الاستشراقية والتبشيرية) حتى غدا الفصلُ بينهما صعباً جداً في كثيرٍ من الأحيان؛ إذ أنّ هدفهما واحدٌ وسياساتهما متشابهةٌ ...

ويمكننا في نهاية هذا المبحث تلخيص موقف المستشرقين الرهبان من رسالةِ محمدٍ ﷺ فيما يلي: إنَّ الصورة المتولّدة في التصوّر الغربي عن الإسلام والمسلمين وكتابهم ونبيِّهم هي نفسها الصورة التي لم تزدها الدِّراسَاتُ المقبلة إلا رسوخاً وتأكيداً، والتي جَهد المُستشرقون من المبشِّرين في تعميقها، وذلك عن طريق إعادة الأباطيل في صِيَغٍ تبدو عليها مسحةٌ كاذبةٌ من ادّعاء العلم والموضوعية، كما تشهد بذلك دراسات أكابر المُستشرقين من المبشّرين الذين حصروا همهم في ما يأتي:

١. إثبات القول ببشرية القرآن، وأنه من صُنع محمدٍ ﷺ، وامتلاء القرآن بالتناقض والاختلاف.
٢. إنّ القرآن كتابٌ مُلَفَّقٌ، جُمِعَ ورُكِّبَ من موادَّ مستقاةٍ من اليهودية والمسيحية، وقد وقعت فيه الزيادة والنقصان والتحريف والتشويه.

---

[1] المرجع السابق، ص ١٨

أماّ عن محمدٍ ﷺ، فهو عند بعضهم أحدُ العباقرة وعند بعضٍ آخر أحدُ الأبطال العظام، وعند آخرين منهم أنه ناقلٌ ذكيٌّ من الكتب القديمة، أو متعلِّمٌ من رهبان النصارى، وقد أجاد في تعلُّمِه منهم.

المبحث الثاني
نماذج من الاستشراق الديّني القديم
أولاً: بطرس المبجَّل ... وأولُ ترجمةٍ للقرآن الكريم

تقدَّم فيما سبق الحديثُ عن نشأة الاستشراق، وعن الطبيعة الدينيّة التي اتَّصفَ بها. كما تقدّم الحديثُ على أنّ الكنيسة إنما أنشأت المؤسّسة الاستشراقية، وقامت بتقديم الدّعم الكامل لها، لتكونَ واحدةً من أدواتها في محاربة الإسلام عقديّاً وفكريّاً، بهدف الصدِّ عنه والحدِّ من انتشاره في القارّة الأوروبيّة. وقد تسنّى للكنيسة تحقيقُ هذا الهدف، من خلال رجالاتها ورهبانها الذين عكفوا على دراسة الإسلام ومصادره، وعلى رأسها القرآن الكريم وذلك في محاولةٍ منهم للبحث عن تناقضاتٍ وعيوبٍ ونقائصَ تُثبتُ بشريّة وضعه وتُبطلُ القول بإلهيّة مصدره. وقد كان أبرز مَنْ تصدّى لذلك الراهب بييرموريس دي مونتبوسيير، الذي اشتُهِرَ في التاريخ باسم بطرس المبُجَّل (أو المحترم / المكرَّم)؛ حيث قدَّم للعالم المسيحي الغربي آنذاك مشروعين هامّين جدّاً، كان لهما كبير الأثر في خلق الجدل العدواني العنيف ضد الإسلام، وتشويه صورة القرآن الكريم والمعتقدات الإسلامية في عيون الدارسين لها من الأجيال اللاحقة. وهذان المشروعان هما:

١. الترجمة الأولى للقرآن الكريم إلى اللغة اللاتينيّة.
٢. ترجمة الرسالة الإسلامية والجواب المسيحي عليها.

وقد شرع بطرس المبجّل في تنفيذ هذين المشروعين (أو بالأصحّ الإشراف عليهما بنفسه) بعد تولّيه رئاسة دير كلوني[1] الذي كان واحداً من أشهر الأديرة وأكثرها نفوذاً على الإطلاق....

---

(1) كلوني: أطلق الدير البندكتي في كلوني، من مقاطعة بورغونديا في جنوب فرنسا، حركةً إصلاحيةً هدفت إلى "تنصير" أوروبا، وتلقين الناس فيها القيم المسيحية الحقيقية. وفي نهاية القرن العاشر، وعلى امتداد القرن الحادي عشر، شكّلت كلوني والأديرة البندكتية الأخرى، التي انضوت تحت لواء تلك الحركة الإصلاحية، أقوى مؤسسة وأوسعها نفوذاً في طول أوروبا وعرضها. وقد نال ديركلوني منزلة الحصانة تحت الحماية المباشرة للبابا في روما، والحقَّ المُطلقَ في أن ينشئ أديرةً أخرى تابعةً لهُ، وخلال القرنين التاليين من تأسيسه، نال ديركلوني تأثيراً كبيراً وثروةً ضخمةً، وأصبح في الواقع عاصمةً للإمبراطورية الدِّيرية حيث كان يتبعه أكثر= =من ستمائة دير، والألوف من الرُّهبان في أوروبا. وأصبح رهبان ديركلوني بابوات وكرادلةً، وكثيرٌ من رؤسائه كانوا مستشارين للأباطرة والملوك. ومن أشهر رهبان ديركلوني الذين وصلوا إلى منصب البابوية، البابا جريجوري السابع، وتلميذه البابا أوربان الثاني الذي أطلق الحروب الصليبيّة ضد المسلمين.

كانت فكرة عقد مناقشةٍ فكرّيةٍ مع الإسلام تتردّد في عقل بطرس المبجّل بين الفينة والأُخرى، ولكنّها اختمرت واكتملت عندما كان في إحدى جولاته التفقديّة للأديرة البندكتية التابعة لديركلوني في إسبانيا عام ١١٤٢م. والذي شجّعه على المضيّ قدماً في هذه الفكرة أنّه التقى ببعض الرهبان الكاثوليك الذي يعرفون اللغة العربية (لغة القرآن ومحمد ﷺ)" ممّا يُسَهِّلُ عمليّة محاججة الإسلام والمسلمين في حال تمّت ترجمة قرآنهم وتشريعاتهم إلى اللغة التي يجيدها الرهبان ويتكلّمون بها.

إنّ الرسالة التي بعث بها هذا البطرس المبجّل للمسلمين، والتي سبق إيرادها في الفصل الأول من هذه الدراسة، تدلُّ وبشكلٍ واضحٍ على مدى الكراهية التي كان يحملها هذا البطرس للإسلام والمسلمين، وما كانت رغبته في ترجمة القرآن مُندرجةً إلاّ تحت هذه المشاعر التي تعتملُ في قلبه تجاه المسلمين. ولكنّه، وعلى خلاف الكثيرين من الرهبان آنذاك، كان يدعو للمواجهة الفكرية العقديّة السلميّة القائمة على الحوار في مواجهة الإسلام وبعيداً عن المواجهات العسكرية الحربية المُسلّحة (بعد أن أثبتت التجربةُ فشَلها طبعاً)، وقد كان يدعو على الدوام لمواجهة الإسلام بوصفه هرطقةً يجبُ دحضُها، ولكنّ الذي يختلفُ عنده عن غيره هو الشكل الذي اختاره لهذه المواجهة؛ فقد نادى بأن تكون غيرَ عسكريةٍ. ولكنّ هذه الفكرة (ترجمة القرآن لبيان كذبه وتناقضاته) لم ترُقْ للكنيسة الكاثوليكية، ولم ترُق للرهبان الفرنسيين والإسبان آنذاك، ممّا اضطرَّ بطرس المبجّل لتقديم المبرّرات والدوافع التي أدّت به إلى الإقدام على مثل هذا النوع من الأعمال فقال: "إذا بدا أنَّ العمل الذي أدعو له غيرُ ضروري الآن، لأنَّ العدو لن يتأثر بهذا السلاح، أجيبُ أنَّ بعض الأعمال التي تجري في مجال سُلطة الملك الأفخم إنما تتمُّ من أجل ضرورات الدفاع، أمَّا بعضُها الآخر فليس له غيرُ مهمةٍ تزيينيةٍ، والباقي يجري للمستقبل لا للحاضر. فسُليمانُ المحبُّ للسلام كان يصنع سلاحاً لم يُستغَلْ في أيامه، وداودُ أمرَ بصنع زخارف للهيكل رغم عدم تَبَيُّن مِعاصريه فائدةَ مثل هذا العمل. وهذا هو الشأن في العمل الذي أقوم به هنا، فإذا لم يمكن بهذه الطريقة إعادة المسلمين إلى المسيحية الصحيحة، فلا أقلَّ مِن أن يستفيد العلماءُ المسيحيون من عملنا في مجال دعم إيمان المسيحيين السُّذّجِ الذين يمكن أن تضيرَ هذه الصغائرُ عقيدتهم"[1].

---

[1] سوذرن، [م. س]، ص ٨١، ٨٢.

لقد كان بطرس يرى في الإسلام "هرطقةً مسيحيةً" هي آخر الهرطقات وأشدُّها ضرراً. ويعتقد أنَّ التحدّي الإسلامي لم يجد إجابةً مسيحيةً مناسبةً حتى أيامه، ولهذا رأى أنه من الضروري مواجهة هذه الهرطقة التي شكّلت، بزعمه، الأصلَ والمنبعَ لكل الهرطقات التي كانت تغزو المسيحية الأوروبية التقليدية آنذاك، فإذا كان الإسلام لا يشكِّلُ خطراً عسكرياً مباشراً، فلا شك أنه شديد الخطورة فكرياً، لذا لا بد من التعرّف عليه لِتُمْكِنَ مكافحته. وواضحٌ من كلامه السابق أنّه إنما كان يطمعُ في إعادة المسلمين (الهراطقة) إلى المسيحيّة الصحيحة، كما كان يرى في هذه الترجمة دفاعاً عن المسيحية ضدّ العقائد الإسلامية المُضِرَّة التي لربّما تؤثِّرُ على معتقدات بعض المسيحيين السُّذَّج غير المتمكّنين من دينهم كما ينبغي. وعلى كلٍّ فقد مضى هذا الراهب بطرس في تنفيذ فكرته وإخراجها إلى حيِّز الوجود، متجاهلاً كلَّ اعتراضات الرهبان على وجود مثل هذا النوع من الترجمة، فالتقى في إسبانيا "براهبين زائرين هما: روبرت ألكتوني الإنكليزي، وهرمان دلماتا. وكان الراهبان المذكوران ينقّبان عن نصوص في الرياضيات وعلم الفلك، لكنَّ بطرس أقنعهما بالتعاون معه في مشروعٍ لترجمة أهمّ المخطوطات الإسلامية. وهكذا عمل روبرت وهرمان سويةً مع مسيحيٍّ إسبانيٍّ يُدعى بطرس الطليطلي، وشخص مسلمٍ يُدعى محمد السراساني، وأنتج هؤلاء مجتمعين سلسلةً من الوثائق التي ظلّت على درجةٍ كبيرةٍ من الأهمية على صعيد فهم الغرب للإسلام حتى القرن السادس عشر. فكانت هناك ترجمةٌ للقرآن، وتاريخٌ للعالم من وجهة النظر الإسلامية، وعرضٌ لتعاليم محمد، ومجموعةٌ من الحكايا الشعبية والخرافية الإسلامية، وعملٌ مبكرٌ من أعمال اللاهوت الجدلي ضد الإسلام بعنوان "اعتذار الكندي"[١]. والذي يهمّنا ويعنينا في هذه الأعمال هو ترجمة القرآن الكريم إلى اللاتينيّة، وترجمة الرسالة الإسلامية والجواب المسيحي عليها والتي سمَّتها آرمسترونج (اعتذار الكندي) في النّصِّ السّابق. "وقد عَلِمَ روبرت ألكيتوني من بطرس المبجّل أنّ هدفه تعريف الغرب النصرانيّ بالإسلام الذي يعتبرهُ هرطقةً من الهرطقات الكبرى التي هدّدت النصرانية، وأنَّ بطرس ينوي الردَّ على الإسلام، لذلك قام روبرت ألكيتوني بترجمةٍ خاطئةٍ مُغرضةٍ لمعاني القرآن الكريم، كان لها تأثيرٌ سيءٌ في صياغة تلك العقيدة الغربية الحاقدة تجاه الإسلام ونبيّه محمّد"[٢].

---

(1) انظر:

أ. آرمسترونج، [م. س]، ص ٢٨٣.

ب. فوك، يوهان، تاريخ حركة الاستشراق الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا حتى بداية القرن العشرين، ترجمة عمر لطفي العالم، ص ١٥، ١٦، ط١، ١٩٩٦، دار قتيبة، دمشق.

ج. جورافسكي، [م. س]، ص ٨٠، ٨١.

د. عريبي، [م. س]، ص ١٤٤، ١٤٥.

(2) عودة، [م. س]، ص ٦.

ومن الأمانة القول: لقد أثارت ترجمة روبرت ألكيتوني للقرآن الكريم إلى اللغة اللاتينيّة بأمرٍ من بطرس المبجّل استياء معظم المؤرّخين المسيحيين المعاصرين الذين كتبوا عن أوروبا وتاريخها في العصور الوسطى، فأفردوا صفحاتٍ من كتبهم للحديث عنها وعن مساوئها والمآخذ عليها، وتكاد المعلومات والملاحظات التي ذكروها تتطابقُ، بالرغم من تعدُّد المصادر القديمة التي أخذوا منها ونقلوا عنها، ممّا يؤكِّدُ صحّة القول بتعمُّد بطرس المبجّل وروبرت ألكتوني إخراج ترجمةٍ مشوّهةٍ مقصودةٍ للقرآن الكريم. وممّا يؤكدُ كذلك على أنّ هؤلاء المتأخرين كانوا مُحقِّين في توجيههم الانتقادات لتلك الترجمة ولتشويهات روبرت ألكيتوني فيها، ومن ذلك[1]:

١. أنّ المترجِمَ روبرت الكيتوني قد غيَّر ترتيب السور القرآنية، وجاء بترتيبٍ جديدٍ لها، وقام بتقسيم بعض السِّور القرآنية الطويلة إلى مجموعةٍ من السِّور القصيرة، وبذلك وَصَلَ عدد السور القرآنية في ترجمته إلى مائةٍ وثلاثٍ عشرين سورةً بدلاً من مائةٍ وأربع عشرة سورة؟!!.
٢. لم يُدخل سورةَ الفاتحة في إحصائه للسِّور القرآنية، حيث اعتبرها مجرَّدَ دعاءٍ تمهيديٍّ يُتلى قبل الشروع في تلاوة القرآن، وهو بذلك قد قاسها على الدُّعاء المسيحي (أبانا الذي في السموات...).
٣. الترجمة الخاطئة لكلمة (وجيهاً) التي وردت في الآية ٤٥ من سورة آل عمران (إذا قالت الملائكةُ يا مريمُ إنّ الله يبشّركِ بكلمةٍ منه آسمه المسيح عيسى ابن مريم، وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقرَّبين) فقد قرأ الكيتوني كلمة وجيهاً على أنها وجهٌ، وبناءً على ذلك عبَّر عنها بكلمة (Facies).
٤. في ترجمته لبعض الآيات تعبيرٌ عن مدى الانحطاط والدّونية، وغيابٌ لأدنى درجات الأمانة العلمية؛ ويشهدُ على ذلك ترجمته للآية ١٤ من سورة آل عمرآن (زُيِّنَ للناسِ حُبُّ الشهوات من النِّساءِ والبنين ... الآية) فقد ترجمها بمعنى مجامعة الأبناء ومعانقتهم!!!.

---

[1] انظر:
أ. هاغمان، [م. س]، ص ٦٤ – ٦٩.
ب. آرمستورنغ، [م. س]، ص ٢٨٥ – ٢٨٦.
ج. عودة، [م. س]، ص ٦، ٧.
د. جورافسكي، [م. س]، ص ٨١، ٨٢.
هـ. عبد المحسن، [م. س]، ص ٤٨ – ٥٠. =
= و. فوك، [م. س]، ص ١٧، ١٨.

٥. في ترجمته لسورة الهُمَزة، ترجم قوله تعالى (يحسَبُ أنّ ماله أخلده) بمعنى إنّ الذي يُخلِّدُه هو ماله!!! والسبب في ذلك أنّه في ترجمته قد حذفَ كلمة (يحسبُ) فأعطتِ الترجمةُ عكسَ المعنى المراد من الآية الكريمة!!!.
٦. حين ترجم روبرت ألكتوني كلمات سورة الغاشية: "فذكِّر إنما أنت مُذكِّر. لستَ عليهم بمسيطر)، انتقل الشارح هنا على حين غرّةٍ إلى الهجوم على النبيّ محمدٍ على نحوٍ يدعو للاستغراب، فقال: فلِمَ تُعلِّمُ إذن أنّ هدي الناس إلى دينك يجب أن يتم بحدِّ السيف؟ إذا كُنتَ مذكِّراً ولست بمسيطرٍ، فلِمَ تُخضِعُ الناس بالقوة لكأنها الحيوانات أو الوحوش الضارية، وليس بالحجّة مثل الآدميين؟ إنك مثل الكذّاب، تناقضُ الحقيقةَ بنفسك في كل شي!!.
٧. أعطى معنى غامضاً لخطاب (يا أهل الكتاب)، وجعله يبدو في معظم الأحيان وكأنه موجّهٌ إلى المسلمين.
٨. أضفى على كل الآيات المتعلقة بأحكام الزواج والطلاق معاني جنسيةً داعرةً بحيث تبدو للقارى الغربيّ، لا سيما الرهبان، مثيرةً للاشمئزاز والنفور، مثل:

أ. الآية ٢٣٠ من سورة البقرة (فإن طلَّقها فلا تحلُّ له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره) ترجمها "فلا تحلُّ له حتى يطأها رجلٌ غيرُه"!!.
ب. الآية ٢٢٠ من سورة البقرة (.... ويسألونك عن اليتامى قل إصلاحٌ لهم خيرٌ، وإن تخالطوهم فإخوانكم في الدين) ترجم تخالطوهم بمعنى تمارسوا معهم اللواط!!.
ج. الآية ٢٢٣ من سورة البقرة (نساؤكم حرثٌ لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) ترجمها بمعنى "فأتوهن في أدبارهن"!!.
د. الآية ٥٠ من سورة الأحزاب (يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك ... الآية) ترجمها هكذا "نحن نجيزُ لك أزواجك اللائي آتيتهنَّ مهورهنَّ، وجميع إمائك اللائي أعطاكهنّ اللهُ، وبنات عمك، وبنات عماتك، وبنات خالك وبنات خالاتك، اللائي اتبعنك، وكل امرأةٍ مؤمنةٍ إذا هي ترغب أن تقدّم جسدها أو نفسها للرسول، وإذا الرسول يرغب أن يضطجع معها فليفعل، وهذا خاصٌ لك وليس للمؤمنين الآخرين"!!.

إذاً، لم يكن روبرت الكيتوني يتمتّع ولو بأدنى درجات الإحساس أو الأمانة العلميّين؛ حيث أغفل ترجمة العديد من المفردات ولم يتقيّد بأصل السياق ولم يُقم وزناً لخصوصيات الأسلوب القرآني، بل بذل مجهوده (المنثور هباءً) على استشفاف مضمون

مقصود أو فكرة كلِّ آيةٍ من كلِّ سورةٍ ثم ترجمها حسبما يلائمُ فهمه وهواه!!! وقد كان قدوته في ذلك الراهب بطرس المبجّل، الذي دفع له أجراً مجزياً ليقوم بمثل هذا النوع من الترجمة، فقد كان بطرس المبجل عندَ مهاجمته للقرآن الكريم أمام الرهبان والعوام من المسيحيين يقوم بانتزاع آياتٍ من بعض السّور القرآنية ويعزلها عن سياقها ويفسِّرها على هواه؛ ومن ذلك تعليقهُ على قوله تعالى في الآية العشرين من سورة آل عمران (فإن حاجّوك فقُلْ أسلمتُ وجهيَ لله ومَن اتّبعنِ) بقوله: "ثمَّ ما هذا؟ إذا شاء أحدُهم أن يُحاججك، تقولُ إنك تسلّم وجهك ووجوه التابعين لك إلى ربّ العالمين. أيا محمد ... إذا أبيتَ الردَّ فيما خلا أنك توجِّه وجهَك ووجوه أتباعك لله، فهل أصدِّق أنَّ ما تقولهُ صحيح؟ هل أصدّق أنك نبيُ الله حقاً؟ وهل أصدّق أنَّ الدين الذي نقلتهُ إلى قومك سُلِّم إليك من ربّ السماء؟ سأكون بالحقيقة أكثرَ من حمارٍ لو وافقتُكَ؛ وسأكون حتماً أكثر من سائمةٍ لو سلّمتُ معك"[١].

ولعلَّ ما نراه فاجعةً وطامّةً كبرى فيما يتعلقُ بهذه الترجمة، إضافةً لمضمونها وأهدافها، هو أنّها ظلّت طوال خمسة قرونٍ الأكثر استعمالاً، وعليها تقومُ أقدم ترجمات القرآن الكريم إلى اللغات الإيطالية والألمانية والهولنديّة. "ولم تجرِ إزاحة ترجمة القرآن اللاتينيّة لروبرت ألكيتوني بسبب ترجمة الإيطالي لودفيكو مرّاتشي إزاحةً نهائيّةً إلاّ في عام ١٦٩٨م، إذ كانت هذه أفضلَ وأكثرَ دقّةً بما لا يُقاس"[٢] والعجيبُ المضحكُ في موضوع هذه الترجمة المشوّهة المليئة بالأغلاط، أنّ الكنيسة الكاثوليكية رأتْ أنّ هذا النوع من الترجمات "قد أدّى إلى التعرُّف على بعض حقائق الإسلام، ممّا دفع البابا الإسكندر السابع لأن يُصدر قراراً بتحريم ترجمة القرآن ونشره بل وإحراق نُسخه"[٣]. وبناءً على تحريمات الكنيسة السابقة "بقيت ترجمة بطرس المبجل حبيسةَ محفوظات دير كلوني ولم يُفرج عنها إلاّ بعد أربعة قرون"[٤].

وبالعودة للحديث عن هذه الترجمة المشوّهة التي خرجت بأمرٍ ودعمٍ من بطرس المبجّل نقول: إنّ دور المترجم الآخر المساعد لروبرت ألكيتوني وهو الراهب هرمان دلماتا اقتصر على ترجمة بعض المقالات المناهضة للإسلام وضمّها إلى كتاب الترجمة ألكيتوني، هذا إضافةً لقيام دلماتا بكتابة ما يزيدُ عن خمسٍ وأربعين صفحةً "تطعنُ كلُّها في مبادئ الإسلام

---

(١) آرمسترونغ، [م. س]، ص ٢٨٧.
(٢) هاغمان، [م. س]، ص ٦٩.
(٣) عريبي، [م. س]، ص ١٤٥.
(٤) فوك، [م. س]، ص ٩٨.

وحياة النبي محمدٍ ﷺ وتاريخ الإسلام، وتصفه بـِ "التاريخ المُضحك". وكان مرجعه في ذلك كلّه القصص والمحاورات المدسوسة الملفّقة المزعومة بين أحبار اليهود والنبي ﷺ، والمنشورة في الغرب تحت عنوان (Doctrina Mahumet). وهي ذاتها الإسرائيليات المشهورة عند المسلمين باسم "مسائل عبد الله بن سلام". وكانت خلاصة ما كتبه هذا الراهب هرمان دلماتا عن الإسلام ما يلي:

١. مبادئ محمد (أو "تعاليم محمد" حسب بعض الترجمات).
٢. التاريخ الوهمي والمضحك للمسلمين.
٣.أمّةُ محمدٍ ونشوزها"[1].

وعلى أساس هذه الأعمال والترجمات، إضافةً للرسالة الإسلامية والجواب المسيحي عليها، والتي سيأتي ذكرها تفصيلاً فيما سيأتي، صنَّف بطرس المبجّل الأعمال الجدليّة التي هاجم فيها الإسلام، وأبرزها كتاب دحض العقيدة الإسلامية (Liber Contra Sectam Sive Haeresim Saracenorum). وقد انبرى الأستاذ علي بن محمد عودة لتحليل هذا الكتاب، ولعرض أبرز ما ورد في فصوله، وعرَض مقتطفاتٍ مختصرةً منه، وقبل عرض هذه المقتطفات نذكّرُ بأنّ الكتاب المذكور كان يتكون من ستةِ فصولٍ هي:

أ. الرب، المسيح، ويوم الحساب.
ب. النبي محمد.
ج. القرآن ومصادره.
د. الجنة والنار، والتعاليم الأخلاقية.
هـ. انتشار الإسلام.
و. الإسلام بوصفه هرطقةً مسيحيةً.

وكان مِمّا جاء في عرض الأستاذ عودة للكتاب ما يلي: "بعد أن عرض بتهكّمٍ مشاهدَ يوم القيامة التي انفردَ بها القرآنُ ولا توجدُ عندهم في كتبهم المقدسة قال [بطرس المبجل]: "إلى هذا الحدّ الفعليّ Mahumet (محمد) القذر الشرير علَّمَ أتباعه إنكار جميع

---

[1] انظر:
أ. جورافسكي، [م. س]، ص ٨١.
ب. عريبي، [م. س]، ص ١٤٥.
ج. عبد المحسن، [م. س]، ص ٥٢.

أسرار الدين المسيحي، وحَكَمَ تقريباً على ثلث الجنس البشري بعدم معرفة يوم الدينونة للرب، بواسطة حكاياتٍ مجنونةٍ يهذي بما لم يُسمع بمثلها استجابةً لإبليس والهلاك السرمدي"(١).

ثم يقدِّمُ في مجمله مختصراً مشوَّهاً لسيرة النبي (ﷺ) إلى أن يقول [بطرس المبجّل]: "هكذا كان Mahumet (محمد) ناشطاً جداً في الشؤون العالمية، وذكياً إلى أبعد حدٍّ، هو انبثقَ من الأصل الوضيع، والفقر إلى الغِنى والشّهرة، ونهض بنفسه إلى أعلى شيئاً فشيئاً، وتكراراً هاجم كلَّ أولئك الذين كانوا بجواره، وكان بشكلٍ بارزٍ يضمُّ إليه الأقرباء بالخداع والسلب، والغزوات، قاتلاً أيَّ شخصٍ غيلةً إن استطاع. هو ازداد رعباً بواسطة اسمه، وفي الوقت المناسب وصل إلى القمة بالنزاعات. ثم بدأ يطمح إلى منصب الملك على شعبه، ولمّا كان يدركُ أنه لا يستطيع أن يحقِّق هذا الرغبة بسبب أصله الوضيع. قرَّرَ أن يصبح ملكاً عن طريق السيف، وتحت قناع الدين وبواسطة الاسم [رسول الله]"(٢).

ثم يتناول في مجمله القرآن ويرفض بشدّةٍ نبوَّةَ محمدٍ (ﷺ) ويزعم أنَّ القرآن له مصادر هي: إبليس، وسرجيوس (نسطوريوس) وبحيرا ... إلى أن يقول [بطرس المبجّل] ما نصه: "هكذا عُلِّمَ محمّدٌ من جانب أحسن علماء اللاهوت البارزين، والمتهرطقين، فأنتجوا قرآنه، ونسجوا معاً، في ذلك الشكل غير الفصيح، له كتاباً مقدَّساً شيطانياً، صُنِّف على حدٍّ سواءٍ من الخرافات اليهودية والأغاني العابثة للهراطقة، [مدّعياً] كاذباً أن هذه المجموعة جُلبت إليه سورةً وراء سورةٍ بواسطة جبريل، الذي عرَفَ اسمه من الكتاب المقدس في ذلك الوقت، هو [محمد ﷺ] أَفسدَ بِسُمٍّ مُهلكٍ ذلك الشعب الذي لم يعرف الرب. وفي سلوك هذا المفُسدِ أن جعل في حوافِّ القدح المملوء بالعسل السمَّ المهلكَ الذي يتسرب معه، هو (محمد) حطَّم، واحسرتاه، الأرواحَ والأجساد لذلك الشعب البائس، ذلك الرجل، أثنى على الشريعة المسيحية واليهودية، والشرير مع ذلك يقتبس منها ويرفضها في الوقت نفسه"(٣).

وبعد ذلك يتناول بطرس المكرَّم، الجنة والنار، والتعاليم الأخلاقية، ويهاجم التصوير القرآنيَّ للجنة والنار فيقول: "محمدٌ يصفُ عذاب جهنم كأنها تَسرُّهُ حتى يصفها، وكأنه كان ملائماً لرسولٍ زائفٍ كبيرٍ أن يخترع تلك الأوصاف. وهو يصور جنّةً ليست من مجتمعٍ ملائكيٍّ،

(١) انظر: عودة، [م. س]، ص ١٠ فما فوق.
(٢) المرجع السابق نفسه ص ١٠ فما فوق
(٣) عودة، [م. س] ص ١٢.

ولا من تَجَلّي الرب، ولا من ذلك الخير الأعلى، الذي لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ...، بل في هذه الطريقة هو وَصَفَهَا مثلما هو رغبَها أن تكون مُعدَّةً لنفسه، هو يَعِدُ أتباعه هناك بالأكل من اللحم، وكل أنواع الثمرات، هناك أنهار من اللبن والعسل والمياه المتدفقة. هناك العناق والإشباع الشهواني من النساء العذارى الأجمل، فيها أشياء كثيرة، جنّتُهُ كلها حسِّيةٌ. ثم يتناول بطرس المكرم تعددَ الزوجات في الإسلام باعتباره عملاً من أعمال الزنى وفق المنظور الرهباني"[1].

ثم يعود بطرس المبجل للهجوم البذيء على النبيّ (ﷺ) فيقول: "وبالإضافة إلى كل هذه الأشياء، هو استطاعَ أن يجتذب إليه الرغبات الشهوانية للرجال، حيث أطلقَ لهم الأعنّة للنهم والتلوث. هو نفسه كان له في ذات الوقت ستةَ عشرَ زوجةً ... مقترفاً الزنى كأنه شرطٌ بواسطة الأمر الإلهي، وبذلك أضاف إلى نفسه عدداً ضخماً من الناس المحكوم عليهم بالهلاك السرمدي"[2].

ونرى في نهاية ذكرنا لكلمات هذا الراهب الحاقد بطرس المبجّل أنّ هذا البطرس لم يكن مُبجَّلاً البتّة، بل على العكس من ذلك، فمن الواضح أنّ مجموعته من الرهبان المترجمين كانوا يعانون من أزماتٍ أخلاقيةٍ ونفسيّةٍ نجمت عن الضّغط والقلق والرعب الذي كان الإسلام يسبِّبُهُ لهم وللكنيسة الكاثوليكية التي كانت ترعاهم، فما كان منهم إلاّ أن قاموا بتجميع تلفيقاتهم وتزويراتهم وترجماتهم المغلوطة المشوّهة المكذوبة فيما سُمّيَ بـ (المجموعة الطليطليّة) أو (فيلق كلوني) وهي المجموعة، لعظيم الأسف التي صارت المصدر الرئيسي للأوروبيين في استقائهم المعلومات والمعطيات عن الدين الإسلامي على مدى خمسمئة عامٍ تقريباً!!!.

وحتى تكتمل الصورة عن العمل الجماعي المنظَّم في تشويه هذه المجموعة الاستشراقية الرهبانية لصورة الإسلام وعقيدته وتشريعاته، فلا بدَّ لنا من الوقوف عند عملٍ خطيرٍ آخر من الأعمال التي قاموا بترجمتها ألا وهي الرسالة الإسلامية والجواب المسيحي عليها.

---

(1) المرجع السابق نفسه، ص ١٣.

(2) المرجع السابق نفسه، ص ١٤.

ثانياً: الرسالة الإسلامية والجواب المسيحي عليها
(رسالة عبد الله بن إسماعيل الهاشمي إلى عبد المسيح بن اسحاق الكِندي)

تكاد هذه الرسالة تكون أهمَّ أساسٍ من الأُسس التي قامت عليها الدراسات الاستشراقية الدينيّة في غرب القارة الأوروبية، والتي هدفت في أساسها للطعن في عقائد الإسلام وتشريعاته، وتنبعُ خطورتها من كونها قدّمت للعالم المسيحي الغربي عرضاً ونقداً صريحاً ومباشراً للدِّين الإسلامي، خصوصاً في عصر الجهالة الأوروبي الذي كان فيه الرهبان يُهاجمون الإسلام ويشوّهون صورته لمجرّد أنّه دينٌ آخرُ غير المسيحية، ولكونه لا يعترف بالصَّلب ولا يقرُّ ألوهية المسيح ابن مريم عليهما السلام.

حصل بطرس المبجّل على مخطوط هذه الرسالة عام ١١٤٢م في إسبانيا أثناء جولته التفقديّة للأديرة البندكية، التي سبق الحديث عنها، وأدهشته الكلمات البليغة الملفّقة ضد الإسلام التي اشتملت عليها، ووجدَ فيها ضالَّته المنشودة، ورأى فيها عملاً جدليّاً فلسفيّاً متكاملاً ينقض ـ كما توهّم ـ العقائد والتشريعات الإسلامية من أساسها!!!. وقد شجّعتْه نصوصُها على المضي قدُماً في فكرة عقد مناقشةٍ فكريةٍ مع الإسلام، حتّى أنّ بعض المؤلّفين ذكر أنّ هذه الرسالة هي الأساس الذي بنى عليه بطرس المبجّل كتاباته السابق ذكرها ضدَّ الإسلام.

وسبب كتابة هذه الرسالة هو أنّه كان في زمن عبد الله المأمون أحد نبلاء الهاشميين، قريب القرابة من الخليفة، معروفٌ بالنسك والورع والتمسُّك بدين الإسلام وشدّة الإغراق فيه والقيام بفرائضه وسننه، وكان له صديقٌ من الفُضَلاء ذو أدبٍ وعلمٍ، كِنديُ الأصل مشهورٌ بالتمسك بالمسيحية، وكان في خدمة الخليفة وقريباً منه مكاناً. فكانا يتوادّان ويتحابّان ويثق كلٌ منهما بصاحبه وبالإخلاص له. وهما عبد الله بن إسماعيل الهاشمي، وعبد المسيح بن إسحق الكندي. فكتب الهاشمي إلى الكندي رسالةً يدعوه فيها إلى الإسلام، ثم ردّ عليه الكندي برسالةٍ جوابيةٍ يدعوه فيها إلى ترك الإسلام واعتناق المسيحيّة.

وكان ذلك في نهاية القرن التاسع الميلادي وأوائل القرن العاشر. ومن المثير للدهشة في الرسالة الجوابية التي كتبها الكندي أنّها حوت الكثيرَ من القدح في النبيّ ﷺ والقرآن، "ولهذا تمّت ترجمتها من العربيّة، وضمّها إلى مجموعة دير كلوني الشهيرة، التي تشمل بضعة

مؤلفات في الجدل مع المسلمين، بأمرٍ من بطرس المحترم في القرن الثاني عشر الميلادي حتى يتعلَّمَ منها الرهبانُ أساليب الردِّ على المسلمين والطعن في الإسلام.

وقد تلقف كُتَّابُ القرون الوسطى هذه الرسالة بلهفةٍ، وأدرجوها في مؤلّفاتهم ضدَّ الإسلام، وصار ما تحويه من تشويهٍ مفاهيمَ ثابتةً في الفكر الأوروبي. وقد جرى نشرُ هذه الرسالة مرّتين في لندن عامي ١٨٨٠م و١٨٨٥م لاستعمال المنصِّرين"[١].

لقد رجّح معظم العلماء والدارسين المسلمين زيفَ هذه الرسالة وشكّكوا في وجود طرفيها أصلاً، وترجّح لديهم أنّ الاسمين المذكورين فيها (عبد الله الهاشمي، وعبد المسيح الكندي) اسمان مُستعاران. ورجّح الدكتور علي بن محمد عودة أنّ كاتب نصَّ الرسالتين هو الطبيب والفيلسوف النّصراني يحيى بن عديّ الذي عاش في العراق، وتوفّي سنة ٩٧٥ للميلاد، وأعقب ترجيحه هذا بقوله: "ولا نجدُ لهذه المُصنَّفة ذكراً في المصادر الإسلامية إلاّ عند البيروني المتوفى سنة ١٠٤٨ للميلاد الذي اقتبسَ منها نصّاً في حديثه عن الصّابئة"[٢]. وممّا يجدرُ ذكره هنا هو أنّ العلماء المسلمين بالرغم من تشكيكهم في وجود شخصين كانا يُسمّيان (عبد الله الهاشمي وعبد المسيح الكندي)، إلاّ أنهم قاموا بالتصدّي لمضمون هذه الرسالة وردّوا عليها في كلِّ تفصيلاتها، ويشهدُ لذلك كتاب (الجواب الفسيح لما لفَّقَهُ عبدُ المسيح)، الذي خطّه العّلامةُ نعمان بن محمد الألوسي البغدادي المتوفّي سنة ١٣١٧هـ - وهو ابن العالم الألوسي المفسِّر المشهور - وهو كتابٌ يقع في جزأين، حقّقه الدكتُور أحمد حجازي السّقا، ونشرت دار البيان العربي بالقاهرة طبعته الأولى بتاريخ ١٩٨٧/٩/١٣م. كما قامت بنشر نصِّ رسالة عبد المسيح هذه مجموعةٌ من المكتبات ودور النشر المسيحية وغير المسيحيّة[٣]. وقد ذكرها عددٌ كبيرٌ من المؤرخين المسيحيين في كتبهم ومؤلّفاتهم[٤]. ولا يكاد موقع إلكترونيٌّ مسيحيٌّ من مواقع شبكة الإنترنت يخلو من ذكر مقاطع من رسالة عبد المسيح هذه، وذلك ضمن مجهود هذه المواقع الدؤوبة في مهاجمتها للإسلام وتشكيكها في صحّة عقيدته وصدق نبّوةِ محمدٍ ﷺ.

---

(1) غراب، أحمد عبد الحميد، رؤية إسلامية للاستشراق، ص ٥٥ – ٥٦، ط١، ١٩٩٠، من منشورات المنتدى الإسلامي للنشر، لندن.

(2) عودة، [م. س]، ص ٨.

(3) منها على سبيل المثال مكتبة التكوين للطباعة والنشر والتوزيع، ومكتبة ومجلة صوت الكرازة على موقعها الإلكتروني www.vopg.org .

(4) منهم على سبيل المثال آرنولد توماس في (الدعوة إلى الإسلام) ، ص ١٠٤ فما فوق، ط٢، دار النهضة المصرية، وشاتليه في (الغارة على العالم الإسلامي)، ص ٩ فما فوق، نشر محب الدين الخطيب، بيروت.

وسنوردُ تالياً معظم نصّ الرسالة التي بعث بها المُسمّى (الهاشمي) ومقتطفاتٍ من رسالة (الكندي) الجوابيّة عليها؛ والسببُ في ذلك راجعٌ إلى كون رسالة الهاشمي قصيرةً لا تبلغ في مساحتها وحجمها سدس رسالة الكندي الجوابية التي تبلغ حوالي مائةٍ وأربعين صحفةً!!! ولعل حجم رسالة الكندي الجوابية كان سبباً مباشراً في إثارة تساؤلاتٍ كثيرةٍ حول حقيقة هذه الرسالة وكونها مبعوثةً جواباً من صديقٍ إلى صديقه، "وقد أجاب يحيى بن عدي على رسالته التي جعلها على لسان الهاشمي، بجوابه الذي جعله على لسان الكندي في ١٤٠ صفحةً، أي أكبر بسبع مرات من رسالة الهاشمي، بحيث يترك جوابهُ الانطباعَ لدى القارئ النصرانيّ أنّه نال الغَلَبَةَ والقهر بالحجّة والبرهان. ومن الواضح أن يحيى بن عدي كتب هذا الكتاب حين ازدادَ دخولُ النصارى في الإسلام في القرن الرابع الهجري، وكان هدفه منه تحصينَ أهل الذّمة من النّصارى، لمنعهم من اعتناق الإسلام، وإقناعهم بأنّ دينهم هو الدين الصحيح"[١].
ومختصر نص الرسالة كما يلي[٢]:

بسم الله الرحمن الرحيم

افتتحتُ كتابي إليك بالسلام عليك والرحمة، تشبُّهاً بسيدي وسيد الأنبياء محمد رسول الله (ص)، فإن ثقاتنا رووا لنا عنه أنَّ هذه كانت عادته، وأنه كان إذا افتتح كلامه مع الناس يبادئهم بالسلام والرحمة في مخاطبته إياهم، ولا يفرّق بين الذمّي منهم والأمي، ولا بين المؤمن والمشرك. وكان يقول إني بُعثتُ بحُسن الخلق إلى الناس كافة، ولم أُبعث بالغِلظة والفظاظة. ويستشهد الله على ذلك إذ يقول بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ (سورة التوبة ٩:١٢٨). وكذلك رأيتُ من حضَرْتُه من أئمتنا الخلفاء الراشدين يتتبعون أثر نبيِّهم ولا يفرّقون في ذلك ولا يفضّلون فيه أحداً. فسلكتُ ذلك المنهج. والذي حملني إليك وحثّني على ذلك محبتي لك، إذ كان سيدي ونبيي محمدٌ يقول: محبة القريب ديانة وإيمان . فكتبتُ طاعةً له، ولما أوجبه لك عندنا حقُّ خدمتك لنا ونُصحك إيانا، وما أنت عليه من محبتنا، وما أرى أيضاً من إكرام سيدي وابن عمي أمير المؤمنين لك وتقريبه إياك وثقته بك وحسن قوله فيك، فرأيت أن أرضَى لك ما قد رضيته لنفسي وأهلي ووالديَّ، مخلصاً لك النصيحة وباذلها، كاشفاً عما نحن عليه من ديانتنا هذه التي ارتضاها الله لنا ولجميع خلقه، ووعدنا عليها حسن الثواب في المعاد والأمن من العقاب في المآب ..... فلست أجادلك إلا بالجميل من الكلام والحسن من القول

(1) عودة، [م. س]، ص ٩.

(2) لقراءة النص الكامل لهذه الرسالة وللرسالة الجوابية عليها، انظر كتاب (رسالة عبد الله بن إسماعيل الهاشمي إلى عبد المسيح بن إسحاق الكندي يدعوه فيها إلى الإسلام ورسالة الكِندي إلى الهاشمي يردُّ بها عليه ويدعوه إلى النصرانية) ط١، سنة ٢٠٠٤، من منشورات دار التكوين للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا.

واللّين من اللفظ، لعلك تنتبه وترجع إلى الحق وترغب في ما أتلوه عليك من كلام الله جل جلاله الذي أنزله على خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم نبينا محمد. ولم أيئس من ذلك، بل رجوته لك من الله الذي يهدي من يشاء، وسألته أن يجعلني سبباً في ذلك، ووجدت الله يقول في كتابه إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ..... وأنت تعلم أني رجل أتت عليَّ سنون كثيرة وقد تبحَّرْتُ في عامة الأديان وامتحنتها، وقرأت كثيراً من كتب أهلها وخاصة كتبكم معشر النصارى، فإني عُنيت بقراءة الكتب العتيقة والحديثة التي أنزلها الله على موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء عليهم السلام. فأما الكتب العتيقة التي هي التوراة، وكتاب يشوع بن نون، وسفر القضاة، وسفر صموئيل النبي، وسفر الملوك، وزبور داود النبي، وحكمة سليمان بن داود، وكتاب أيوب الصدّيق، وكتاب إشعياء النبي، وكتاب الإثني عشر نبياً، وكتاب إرميا النبي، وكتاب حزقيال النبي، وكتاب دانيال النبي فهذه هي الكتب العتيقة.

فأما الكتب الحديثة فأولها الإنجيل وهو أربعة أجزاء، الأول منها بشارة متى العشار، والثاني بشارة مرقس ابن أخت سمعان المعروف بالصفا، والثالث بشارة لوقا المطبّب، والرابع بشارة يوحنا بن زبدي. فهذه أربعة أجزاء، منها بشارة رجلين من الحواريين الإثني عشر الذين كانوا ملازمين المسيح، هما متى ويوحنا، وبشارة رجلين من الحواريين السبعين الذين كانوا للمسيح، وبعثهم إلى الأمم دُعاةً له وهما مرقس ولوقا. ثم كتاب قصص الحواريين وأحاديثهم وأخبارهم من بعد ارتفاع المسيح إلى السماء الذي كتبه لوقا، ورسائل بولس الأربع عشرة. فهذه كلها قد قرأتها ودرستها وناظرت فيها تيموثاوس الجاثليق، الذي له فيكم فضل الرئاسة والعلم والعقل. وناظرتُ فيها من أهل فِرقكم هذه الثلاث التي هي ظاهرة، أعني الملكية القابلين مركيانوس الملك على عهد الشقاق الواقع بين نسطوريوس وكيرلس، وهم الروم. واليعقوبية القائلين بمقالة كيرلس الإسكندري ويعقوب البردعاني وساويرس صاحب كرسي أنطاكية. والنسطورية أصحابك، وهم أقرب وأشبه بأقاويل المنصفين من أهل الكلام والنظر وأكثرهم ميلاً إلى قولنا معشر المسلمين، وهم الذين حمد نبينا (صلى الله عليه وسلم (؟!)) أمرهم ومدحهم وأعطاهم العهود والمواثيق، وجعل لهم من الذمة في عنقه وأعناق أصحابه ما جعل وكتب لهم في ذلك الكتب وسجل لهم السجلات، وأكد أمرهم عندما صاروا إليه حين أُفْضي الأمر إليه واستوثق له، فأتوه وتحرّموا بحرمته وذكّروه بمعونتهم إياه على إعلان أمره وإظهار دعوته. وذلك أن الرهبان كانوا يبشرونه ويخبرونه قبل نزول الوحي عليه بما مكن الله له وصار إليه. فلذلك كان يُكثر توادّه لهم وإطالة محادثتهم، ويُرَى كثيراً عندهم مخاطباً لهم في تردّده إلى الشام وغيرها. وكان الرهبان وأصحاب الأديرة يكرمونه ويجلّونه طوعاً ويخبرون

أصحابهم بما يريد الله أن يرفع من أمره ويعلن من ذكره، وكانت النصارى تميل إليه وتخبره بمكيدة اليهود ومشركي قريش وما يبتغونه له من الشرّ، مع مودتهم له وإجلالهم إياه وأصحابه. فعند ذلك نزل الوحي على نبينا عليه السلام، وشهد الله لهم في القرآن قائلاً: لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ والَّذِينَ أَشْرَكُوا (يعني مشركي قريش) وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (سورة المائدة ٥:٨٢). وعرف النبي عليه السلام بما أُنزل عليه من الوحي صحة ضمائرهم ونياتهم، وأنهم أصحاب المسيح حقاً السائرون بسيرته الآخذون بسننه، إذ كانوا لا يقبلون القتال ولا يستحلّون المال ولا يغشّون أحداً ولا يريدون بالناس سوءاً ولا مكروهاً، وأنهم طالبو السلامة ولا يصرّون على حقدٍ ولا عداوة. فأعطاهم نبينا لذلك ما أعطاهم من العهود والمواثيق، وجعل لهم من الذمة في رقبته ورقاب أصحابه، ووصّى بهم تلك الوصية عندما أطلعه الله على ما أطلعه عليه من أمرهم وبراءة ساحتهم. فنحن مقرّون بذلك غير جاحدين ولا منكرين، وناظرون لهذا الفعل وآخذون بهذه السُنَّة وقابلون لهذه الوصية وموجبون هذا الحق على أنفسنا.

ولقيتُ جماعةً من الرهبان المعروفين بشدة الزهد وكثرة العلم، ودخلتُ كنائس وأديرة كثيرة وحضرت صلواتهم تلك الطوال السبع التي يسمّونها صلوات الأوقات، وهي صلاة الليل، وصلاة الغداة، وصلاة الثالثة التي هي صلاة السَحَر، وصلاة نصف النهار أعني صلاة الظهر، وصلاة التاسعة التي هي قريبة من وقت العصر والعِشاء، وصلاة الشفع وهي صلاة العِشاء المفروضة، وصلاة النوم التي يصلّونها قبل أخذهم مضاجعهم. ورأيت ذلك الاجتهاد العجيب والركوع والسجود بإلصاق الخدود بالأرض وضرب الجبهة والتكتُّف إلى انقضاء صلواتهم، خاصة في ليالي الآحاد وليالي الجُمَع وليالي الأعياد التي يسهرون فيها منتصبي الأرجل بالتسبيح والتقديس والتهليل الليل كله، ويصلّون ذلك بالقيام نهارهم أجمع، ويكثرون في صلواتهم ذكر الآب والابن والروح القدس، وأيام الاعتكاف التي يسمونها أيام البواعيث (صلوات الاستمطار) وقيامهم فيها حفاةً على المسوح والرماد باكين بكاءً كثيراً متواتراً بانهمال دموع من الأعين والجفون منتحبين بسحق عجيب. ورأيت عملهم القربان، كيف يحفظونه بالنظافة في خَبْزهم إياه ودعائهم عند عمله الدعاء الطويل مع التضرع الشديد عند إصعاده على المذبح في البيت المعروف ببيت المقدس مع تلك الكؤوس المملوءة خمراً. ورأيت أيضاً ما يتدبر به الرهبان في قلاليهم أيام صيامهم الستة، أعني الأربعة الكبار والاثنين الصغيرين، وغير ذلك. فهذا كله كنت له حاضراً ولأهله مشاهداً وبه عارفاً عالماً.

ورأيتُ أيضاً مطارنةً وأساقفةً مذكورين بحُسن المعرفة وكثرة العلم، مشهورين بشدة الإغراق في الديانة النصرانية، مظهرين غاية الزهد في الدنيا. فناظرتُهم مناظرةً نصفة طالباً للحق، مسقِطاً بيني وبينهم اللجاج والمكابرة والصلف بالحسب، وأوْسعتُهم أمناً أن يقوموا بحجّتهم ويتكلموا بجميع ما يريدونه، غير مؤاخذٍ لهم بذلك ولا متعنّت عليهم في شيء كمناظرة الرعاع والجهال والسفهاء من أهل ديانتنا، الذين لا أصل لهم ينتهون إليه ولا عقل فيهم يعولون عليه، ولا دين ولا أخلاق تحجبهم عن سوء الأدب، وإنما كلامهم العنَت والمكابرة والمغالبة بسلطان الدولة بغير علم ولا حجة. وكانوا إذا أنا ناظرتُهم وسألتُهم مسألة بحثٍ فاحصاً عن قولهم، وكانوا لشدة ورعهم ودعتهم واعتقادهم يصدقونني عن أمرهم ولا يكذبونني في شيءٍ مما كنت أسائلهم عنه وأجادلهم فيه. وكنتُ قد عرفتُ من بواطنهم مثلَ الذي قد عرفتهُ من ظاهرهم، فكتبت إليك بهذا الشرح بعد الاستقصاء والبحث، ليعلم من وقع في يده كتابي هذا أني عالم بالقضية.

فأنا الآن أدعوك بهذه المعرفة كلها مِنّي بدينك الذي أنت عليه إلى هذا الدين الذي ارتضاه الله لي وارتضيْته لنفسي، ضامناً لك به الجنة ضماناً صحيحاً والأمن من النار. وهو أن تعبد الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يتخذ صاحبةً ولا ولداً ولم يكن له كفؤاً أحد..... وأدعوك إلى الصلوات الخمس التي مَنْ صلاّها لم يخب ولم يخسر بل يربح ويكون في الدنيا والآخرة من الفائزين، وهي الفرض فيها فرضان: فرضٌ من الله وفرضٌ من رسوله مثل الوتر، وهي ثلاث ركعات بعد العِشاء الأخيرة، وركعتان في الفجر، وركعتان بعد الظهر، وركعتان بعد المغرب. فمن ترك شيئاً من هذه فليس بجائزٍ له. ويجب على من تركها أياماً الأدب ويُستتاب منه. فأما الفرض فهو سبع عشرة ركعة في اليوم والليل: ركعتا الفجر، وأربع ركعات الظهر، وأربع ركعات العصر، وثلاث ركعات المغرب وهي العِشاء الأولى، وأربع ركعات العِشاء الآخرة وهي العتمة. وقد نهى رسول الله أن يُقال العتمة، وقال هي عتمة عتمة الليل، وإنما سُميت عتمة لتأخّرها في العِشاء وإبطائها.

وأدعوك إلى صوم شهر رمضان الذي فرضه الديّان ونزل فيه الفرقان، شهر يشهد فيه الله أن فيه ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، تصوم فيه نهارك كله عن جميع المطاعم والمشارب والمناكح إلى أن يسقط قرص الشمس ويدخل حدّ الليل، ثم تأكل وتشرب وتنكح في ليلك كله حتى يتبيّن لك الخيط الأسود من الخيط الأبيض حلالاً مطلقاً هنيئاً طيباً من الله. فإن أنت لحقت ليلة القدر بإخلاص نيّتك كنت قد فُزت في دنياك وآخرتك.

ثم أدعوك إلى الحجِّ إلى بيت الله الحرام الذي بمكة، والنظر إلى حرم رسول الله وآثاره ومواضعه المباركة وتلك المشاعر العجيبة.

ثم أدعوك إلى الجهاد في سبيل الله بغزو المنافقين وقتال الكفرة والمشركين ضرباً بالسيف وسبياً وسلباً حتى يدخلوا في دين الله ويشهدوا أن الله لا إله إلا هو، وأن محمداً عبده ورسوله، أو يؤدوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

وأدعوك إلى الإقرار بأن الله يبعث من القبور، وأنه ديّانهم بالعدل فيكافي الحسنى بالحسنى ويجزي المسيء بإسائته، وأنه يُدخل أولياءه وأهل طاعته الذين أقرّوا بوحدانيته وشهدوا بأن محمداً عبده ورسوله وآمنوا بما نزل عليه من القرآن، الجنة التي أعدَّ لهم فيها الطيبات.... فهذه صفة الجنة التي أعدها الله للمؤمنين به وبرسوله، وأعد لهم فيها الطيّبات من الطعام والشراب وأنواع الفواكه والرياحين، ونكاح الحور العِين اللائي هن كأمثال اللؤلؤ المكنون بلا نهاية ولا انقطاع. يأخذون كل ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، ولهم فيها الكرامة والحياة والجلوس على الأسرَّة، متكئين على الأرائك، عليهم ثياب الحرير الليِّن مستورين بالأسرة المكللة باللؤلؤ، تُعرف في وجوههم نضرة النعيم. يدور عليهم الوِلدان والوصائف والوصفاء الذين هم في جنسهم كاللؤلؤ المكنون، يسقون من كأسات فيها الرحيق المختوم الذي ختامه مسك ومزاجه من تسنيم عيناً يشرب منها المقرَّبون، يُحيَّون بها بأحسن التحية وأطيبها، ويقولون لهم: كلوا واشربوا وتنعَّموا، هنيئاً لكم بما كنتم تعملون، لا يسمعون فيها لغواً ولا يمسهم جوع ولا لغوب، فهم في هذا النعيم آمنون واثقون خالدون أبداً. وأما الكفار الذين أشركوا بالله واتخذوا معه الأنداد ولم يؤمنوا برسله وكذبوا بآياته وحرموا حدوده وحاربوه، فهم أهل النار يلقونها كفاحاً في جهنم لابثين في نار لا تُطفأ وزمهرير لا يوصف وهم فيها خالدون، كلما احترقت جلودهم جُددت لهم جلود أخرى، مقامهم في الجحيم وشرابهم المهل، وطعامهم من شجرة الزقوم، رفقاء لإبليس وجنود له وبئس المصير..... وتنكح من النساء ما أحببت، لا جُناح عليك في ذلك ولا لوم ولا إثم ولا عيب، إذا أنت تزوَّجتها بولي وشاهدين وآتيتها من المهر ما طابت به نفسك ونفسها مما تيسَّر. ولك أن تجمع بين أربع نساء، وتطلّق من شئت إذا كرهتها أو مللتها أو شبعت منها. ولك أن تراجع بعد الاستحلال من أحببت منهن أيتهن تبعتها نفسك. .... فقد تلوتُ عليك من قول الله فيما سلف من كتابي هذا ما في أقله كفاية، فدع ما أنت عليه من الكفر والضلال والشقاوة والبلاء، وقولك بذلك التخليط الذي تعرفه ولا تنكره، وهو قولكم بالآب والابن والروح القدس، وعبادة الصليب التي تضر ولا تنفع، فإني

أرتابك عنه وأجلُّ فيه علمك وشرف حسبك عن خساسته .... فدع ما أنت فيه من تلك الضلالة وتلك الحمية الشديدة الطويلة المتعبة، وجهد ذلك الصوم الصعب والشقاء الدائم الذي أنت منغمس فيه، الذي لا يجدي عليك نفعاً إلا إتعابك بدنك وتعذيبك نفسك، وأقْبِل داخلاً في هذا الدين القيّم السهل المنهج الصحيح الاعتقاد الحسن الشرائع الواسع السبيل، الذي ارتضاه الله لأوليائه من عباده، ودعا جميع خلقه إليه من بين الأديان كلها تفضّلاً منه عليهم به، وإحساناً إليهم بهدايته إياهم، ليُتمّ بذلك نعماه عندهم. فقد نصحت لك يا هذا وأدَّيت إليك حق المودّة وخالص المحبة، إذ أحببتُ أن أخلطك بنفسي، وأن أكون أنا وأنت على رأي واحد وديانة واحدة .... وأشفقت عليك أن تكون من أهل النار الذين هم شر البرية، ورجوت أن تكون بتوفيق الله إياك من المؤمنين الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه وهم خير البرية، ورجوت أن تكون من هذه الأمة التي هي خير أمة أُخرجت للناس. فإن أبيت إلاَّ جهلاً وتمادياً في كفرك وطغيانك الذي أنت فيه، وردَدْت علينا قولنا ولم تقبل ما بذلناه لك من نصيحتنا، حيث لم نُرِدْ منك على ذلك جزاءً ولا شكراً، فاكتب بما عندك من أمر دينك، والذي صحَّ في يدك منه وما قامت به الحجة عندك، آمناً مطمئناً غير مقصِّر في حجتك ولا مُكاتم لما تعتقده. ولا فَرَق ولا وجَل، فليس عندي إلاَّ الاستماع للحُجّة منك، والصبر والإذعان والإقرار بما يلزمني منه طائعاً غير منكر ولا جاحد ولا هائب، حتى نقيس ما تأتينا به وتتلوه علينا ونجمعه إلى ما في أيدينا، ثم نخيّرك بعد ذلك على أن تشرح لنا عليه، وتدع الاعتلال علينا بقولك إن الفزع حجبك وقطعك عن بلوغ الحجّة، واحتجت أن تقبض لسانك ولا تبسطه لنا ببيان الحجة، فقد أطلقناك وحجتك لئلا تنسبنا إلى الكبرياء وتدَّعي علينا الجور والحيف، فإن ذلك غير شبيهٍ بنا. فاحتجَّ عافاك الله بما شئت، وقل كيف شئت، وتكلم بما أحببت وانبسط في كل ما تظن أنه يؤديك إلى وثيق حجتك، فإنك في أوسع الأمان، ولنا عليك إذ قد أطلقناك هذا الإطلاق وبسطنا لسانك هذا البَسْط، أن تجعل بيننا وبينك حكماً عادلاً لا يجور في حكمه وقضائه، ولا يميل إلى غير الحق إذا ما تجنَّب دولة الهواء، وهو العقل الذي يأخذ به الله عز وجل ويعطي. فإننا قد أنصفناك في القول، وأوسعناك في الأمان، ونحن راضون بما حكم به العقل لنا وعلينا، إذ كان لا إكراه في الدين. وما دعوناك إلا طوعاً وترغيباً في ما عندنا، وعرَّفناك شناعة ما أنت عليه. والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.[1]

---

(1) لقراءة النص الكامل لهذه الرسالة وللرسالة الجوابية عليها، انظر كتاب (رسالة عبد الله بن إسماعيل الهاشمي إلى عبد المسيح بن إسحاق الكندي يدعوه فيها إلى الإسلام ورسالة الكِندي إلى الهاشمي يردُّ بها عليه ويدعوه إلى النصرانية) ط١، سنة ٢٠٠٤، من منشورات دار التكوين للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا.

بعد استعراضنا لمعظم نصوص هذه الرسالة (المفتراة) وأبرز خطوطها العريضة نرى أنَّنا في حاجةٍ لأن ندوِّنَ الملاحظات التالية التي تراكمت بعد قراءتنا لها، مع الإشارة قبل البدء في ذلك إلى أننا لم نذكر مئات الآيات القرآنية التي كانت مبثوثةً في ثنايا الرسالة، حرصاً على عدم الإطالة.

الملاحظة الأولى: إن كان هذا المرسِلُ (المزعوم طبعاً) والمُسمّى عبد الله بن إسماعيل الهاشمي، شخصيّةً حقيقيّةً، فلماذا لا نجدُ له ذكراً في كتب التاريخ الإسلامي ومصادر التراث الإسلامي، سواءٌ أكانت من الكتب المشهورة المتداولة أم من غيرها؟؟ خُصُوصاً وأنّ هذا الشخص (المرسِلَ) قد وُصِف بأنّه أحَدُ نبلاء الهاشميين وأنّه كان قريب القرابة من الخليفة المأمون، بل وصف نفسه في الرسالة بأنّه ابن عَمٍّ أمير المؤمنين!!!.

الملاحظة الثانية: إن كان هذا المرسِلُ المزعومُ شخصيّةً حقيقيةً، وأنّه كان عالماً بالأديان ومتبحّراً فيها، وأنّه قد ناظر الكثيرين من الرهبان والمطارنة والأساقفة، وأنّه قد دخل كنائسهم وحضر صلواتهم وأكثر من مجادلتهم طالباً للحق، فلماذا لا نجدُ له ذكراً ولو في واحدٍ من كتب العقائد والأديان والملل؟؟.

الملاحظة الثالثة: إن كانت هذه الرسالة التي بعث بها هذا الهاشمي المزعوم حقيقيّةً، فكيف خفيت على علماء المسلمين في ذلك العصر، ولماذا لم تأتِ كتب التاريخ أو الأديان أو العقائد على ذكرها وعلى ذكر الرسالة الجوابية لعبد المسيح (المزعوم) عليها؟؟ إنّ رسالتين من هذا النوع وبهذا الحجم والمضمون كانتا لتشكّلان وثيقةً تاريخيةً ومستنداً هامّاً عند علمائنا المسلمين في ذلك العصر، هذا لو وُجدتا فِعلاً!!.

الملاحظة الرابعة: لو كانت هذه الرسالة، فعْلاً، مبعوثةً من صديقٍ لصديقهِ يدعوه فيها إلى الإسلام، فبماذا نعلل امتلاءها الكبير بآيات القرآن الكريم؛ حيث نلحظ فيها استخدام عبد الله الهاشمي (المزعوم) لآيات القرآن الكريم في تسعةٍ وأربعين موضعاً مختلفاً، ومن اثنتين وعشرين سورةً قرآنيةً مختلفةً. وبما يزيدُ على مئات الآيات القرآنية كشواهد، زادت مساحاتها أحياناً على مساحات كلمات الرسالة نفسها، مع توثيقٍ دقيقٍ وصحيحٍ لكلّ الآيات الكريمة التي تمّ توظيفها كشواهد؟؟ ممّا يُثبتُ دون أدنى شكٍّ أنَّ كاتبها كان يكتب وبين يديه نسخةٌ من القرآن الكريم.

الملاحظة الخامسة: ليس هذا نمط رسائل الدّعوة ولم يكن يوماً كذلك، ولكنّ الذي حدث أنّ كاتب هذه الرسالة (الحقيقي) قد اختلق شخصيّةً تُسمّى (عبد الله الهاشمي)، ثمَّ أجرى على لسانها هذه الرسالة ومضمونها لكي تُعطي القارئ (أو بالأصحّ القُرّاء فيما بعد) انطباعاً بأنّها مبعوثةٌ من مُسلمٍ ضليعٍ شديد الصّلة بالقرآن إلى المسيحيّ (المُفترَض) يدعوه فيها إلى الإسلام!!!.

الملاحظة السادسة: أسلوب صياغة الرسالتين يكاد يكون متطابقاً في صياغة المضمون وعرضه، وفي مستوى الرسالتين ما يدلُّ على أن كاتبها شخصٌ واحد.

الملاحظة السابعة: يقول الهاشمي: (وكذلك رأيتُ من حضرتِه من أئمتنا الخلفاء الراشدين يتتبعون أثر نبيّهم). ومن المستغرب هنا ذِكر لفظ الخلفاء الراشدين في نهاية القرن التاسع وبداية القرن العاشر الميلادي (يعني القرن الثالث الهجري)، وفقد انتهى زمنهم في القرن الأول الهجري!!!.

الملاحظة الثامنة: هنالك العشرات من علامات الاستفهام حول أسلوب وطريقة (الهاشمي) في الدّعوة إلى الله والإسلام؛ فقد كانت طريقته حسبَ نصّ الرسالة ساذجةً جداً؛ إذ يُفترَضُ في مَن يدعو غير المسلمين إلى الإسلام أن يبدأ معهم بإيراد البراهين على صحة الإسلام وعلى صحّة نبوّةِ محمد ﷺ، فهذا المقام يتطلبُ إيرادَها، لا أن يكلِّمَهُ عن الصّلاة والزّكاة والصوم والحجّ وهو لم يُؤمنْ بعد، ولكنَّ الهاشميَّ هذا بدل أن يُقَدِّمَ برهانه على صدق الدعوة الإسلامية نراهُ وكأنه يُحدِّثُ مُسلماً ويشرح له مسائل في الفقه، فيقوم بدعوة عبد المسيح الكِندي وبشرحٍ مُفصَّلٍ إلى الصلوات الخمس وغيرها!!!.

ويدعوه إلى صوم رمضان وترك المطاعم والمشارب والمناكح في نهاره وإباحتها له في ليله إلى مطلع الفجر!!! ويدعوه إلى حج البيت، والنظر إلى حَرَمِ رسول الله ﷺ وآثاره ومواضعه!!! ويدعوه إلى الجهاد وقتال الكفرة والمشركين ضرباً بالسيف وسبياً وسلباً، ويدعوه إلى نكاح النساء وتطليقهن إذا شبع منهنَّ!! يا لها من طريقةٍ لدعوة غير المسلمين للإسلام!!.

فهذا الأسلوب لا يمكن أن يقوم به من له أدنى خبرةٍ في حوار غير المسلمين، فكيف وهو معروفٌ بكثرة المناظرة، كما يذكرُ عن نفسه فيقول: "فهذه كلُّها قد قرأتُها ودرستُها وناظرتُ فيها تيموثاوس الجاثليق ... وناظرت ُفيها من أهل فرقكم هذه الثلاث التي هي ظاهرة، أعني الملكية ... وهم الروم. واليعقوبية ... والنسطورية أصحابك..."!! ويقول: "ورأيت أيضاً مطارنةً وأساقفةً مذكورين بحُسن المعرفة وكثرة العلم ... فناظرتهم مناظرةً طالباً للحق". فالدعوة في هذه الحالة تكون أولاً إلى الإيمان بالله ورسوله، ثم إذا آمن مَن ندعوه إلى الإسلام شرحنا له كيفية العبادات وما عليه من واجبات.

الملاحظة التاسعة: لقد افتتح الهاشمي رسالته بقوله: "افتتحتُ كتابي إليك بالسلام عليك والرحمة، تشبُّهاً بسيدي وسيد الأنبياء محمد رسول الله ﷺ فإن ثقاتنا رَوَوْا لنا عنه أن هذه كانت عادته، وأنه كان إذا افتتح كلامه مع الناس يبدَؤهم بالسلام والرحمة في مخاطبته إياهم، ولا يفرّق بين الذمّي منهم والأمي، ولا بين المؤمن والمشرك".

وهذا بالطبع كذبٌ واضحٌ على النبي ﷺ، فالنبي ﷺ لم يكن يفتتح رسائله لغير المسلمين بهذه الصيغة (السلام عليكم والرحمة)، ففي البخاري في رسالة النبي عليه السلام إلى هرقل (سلام على من اتَّبعَ الهدى).

ثم إن قول: "هذه عادته" كذب بحت، بل ثبت عنه النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام، فكيف يزعم أن هذه عادته؟

الملاحظة العاشرة: قد تكون الملاحظات السابقة كلها قابلةً للنّقاش والأخذ والردّ وقد يلتمسُ البعضُ الأعذار للهاشميّ عليها، ولكن الذي لا نفهمه ولا نجدُ له عذراً، هو هذا المدح المُبَطَّن من الهاشمي للرهبان المسيحيين ألدّ أعداء ديننا، فقد ذكر الهاشمي عبادات الرهبان، مُظهراً نفسه أنه يعرف عنهم الكثير، ولكنّهُ في الحقيقة يمدحهم مدحاً شديداً، فيقول عن الرهبان: "ورأيت ذلك الاجتهاد العجيب والركوع والسجود بإلصاق الخدود بالأرض وضرب الجبهة" ويقول: "وليالي الأعياد التي يسهرون فيها منتصبي الأرجل بالتسبيح والتقديس والتهليل الليل كله" وكذلك: "وأيام الاعتكاف ... وقيامهم فيها حفاةً على المسوح والرماد باكين بكاءً كثيراً متواتراً بانهمال دموع من الأعين والجفوف منتحبين بسحق عجيب".

وأيضاً: "ورأيت عملهم القربان، كيف يحفظونه بالنظافة في خبزهم إياه ودعائهم عند عمله الدعاء الطويل مع التضرع الشديد).

ولم يكتف الهاشمي (المزعوم) بهذا المدح للرهبان، بل إنّ الأمر تجاوز الحدِّ إلى مرحلة الانزلاق الخطير المتمثّل في قوله: إنّ الرهبان والنصارى قد أعانوا رسول الله ﷺ على إعلان أمره وإظهار دعوته ويخبرونه قبل نزول الوحي عليه بما مكَّن الله له وصار إليه. وأن الرسول ﷺ كان يُرَى كثيراً عندهم في تردّده إلى الشام وغيرها، وأنَّ الرهبان أصحاب الأديرة كانوا يكرمونه ويجلّونه طوعاً، ويخبرون أصحابهم بما يريدُ الله أن يرفع من أمره ويُعلي من ذكره. فإنّ ذلك الكلام كلّه كان مقدمةً، بل وأساساً استند عليه القائلون بأنّ محمداً أخذ الدِّين الإسلامي عن الراهب بحيرا وورقة بن نوفل، وأضاف عليه مِنْ عنده فأخرج ديناً جديداً يُسمّى الإسلام. ولعمري ما كانت تلك إلا كلمات الرهبان والقسيسيين التي يردّدها الغربيون حتى يومنا هذا.

الملاحظة الحادية عشرة: في منزلقٍ خطيرٍ آخر يقول الهاشمي (المزعوم) داعياً الكِندي إلى الإسلام وإلى الجهاد في سبيل الله بغزو المنافقين وقتال الكفرة والمشركين ضرباً بالسّيف وسبياً وسلباً حتى يدخلوا في دين الله. ولا يخفى أنّ في هذا الكلام ترديداً خطيراً لشبهة المستشرقين التي تقوم على أن الإسلام انتشر بقوة السيف والسلاح دون إقناعٍ للناس، وهي شبهةٌ لا زالت دوائر الكيد للإسلام في الغرب تردّدها حتّى السّاعة.

الملاحظة الثانية عشرة: عن قصدٍ وعمدٍ يردِّدُ هذا الخبيث شبهة أنّ المسلمين مولعون بالجنس "... وتنكح من النساء ما أحببتَ، لا جُناح عليك في ذلك ولا لومَ ولا إثمَ ولا عيبَ إذا أنت تزّوجتَها بوليٍ وشاهدين ..."، وكأن تعدُّدَ الزوجات هو ما علق في ذهن هذا وأمثاله في تشريعات الإسلام، خصوصاً عندما يُعرضُ تعددُ الزوجات بهذه الصورة السطحية القبيحة دون قيودٍ أو ضوابط أو دواعٍ كما عرضت هذه الرسالة!!!.

وخلاصةُ القول في هذه الرسالة: إنّ القول الذي نعتمدُه ونقول به في أمرها أنّها مُصطنعةٌ على لسان شخصيّةٍ وهميةٍ لا ذكر لها في أيٍّ من المصادر الإسلامية التي تناولت أسماء الرجال أو تاريخ العبّاسيين أو علم العقائد والأديان والملل ... غير أنّنا نقرُّ في الوقت ذاته

بتمكُّنِ كاتبها (المسيحي طبعاً) من اللغة العربية، ومعرفته بالقرآن الكريم وقراءته له وحيازته على نسخةٍ منه، وبترديده وبأسلوبٍ خبيثٍ ماكرٍ للشبهات ذاتها حول القرآن الكريم وتشريعات الإسلام التي ما فتئ الرهبان الكاثوليك وغيرهم يردّدونها حتى يومنا هذا.

أمّا عن الرسالة الأخرى؛ وهي الرسالة الجوابية التي كتبتها (أو بالأصحّ التي أجريت على لسانها) الشخصية الوهمية الأخرى المُسمّاة عبد المسيح بن إسحاق الكِندي، فهي من الطول بما لا يسمح بعرض الكثير منها، ولكننا سنقتصر رغبةً في عدم الإطالة على مقتطفاتٍ منها.

الرسالة الجوابية من عبد المسيح الكِندي إلى عبد الله الهاشمي يدعوه فيها إلى ترك الإسلام واعتناق المسيحيّة[1].

ربّ يسّر ولا تعسّر. تمم بالخير.
إلى عبد الله بن إسماعيل الهاشمي،
من عبد المسيح بن إسحق الكِنْدي أصغر عبيد المسيح.
سلامةٌ ورحمةٌ ورأفةٌ وتحياتٌ تحلُّ عليك خاصّةً، وعلى جميع أهل العالم عامةً بجوده وكرمه آمين.

---

(1) انظر:

أ. كتاب رسالة عبد الله بن إسماعيل الهاشمي إلى عبد المسيح بن إسحق الكندي [م. س] من منشورات مكتبة التكوين.

ب. دراسة الدكتور محمد حمدي البكري: "رسالة الهاشمي إلى الكندي ورد الكندي عليها" المنشورة في مجلة كلية الآداب (جامعة فؤاد الأول) العدد التاسع ـ المجلد الأول ـ شهر أيار ١٩٤٧م ـ الصفحات: ٢٩- ٤٩.

ج. دائرة المعارف الإسلامية بالفرنسية: مقال "الكندي، عبد المسيح بن إسحق" كتبه الفرنسي:
G. troupeau Encylcopedie de l’Islam Nouvelle edition Tome V KHE – MAHI Leiden E. J. Brill Paris, 1986, pp: 123 – 124.

د. المجلة الإيطالية "الشرق المسيحي" مقال: "جواب الكندي ومكانه في الجدل الإسلامي ـ المسيحي" كتبه الفرنسي: Armand Abel عنوان المقال L’apologie d’al-Kindi et sa place dans. La polemique islamo-chretienne نشر في مجلة: L’Oriente Cristiano Nella storia della civilta مكان وتاريخ صدورها والصفحات: Accadimia onale dei lincei, Anno (1964), Quaderno n° 62, pp 501 – 523.

هـ. الألوسي، نعمان بن محمد، الجواب الفسيح لما لفّقَهُ عبد المسيح، تحقيق د. أحمد حجازي السقّا، ط١، ١٩٨٧، دار البيان العربي، القاهرة.

أما بعد، فقد قرأت رسالتك وحمدت الله على ما وُهب لي من رأي سيدي أمير المؤمنين، ودعوت الله الذي لا يخيب داعيه، إذا دعاه بنيَّةٍ صادقةٍ، أن يطيل بقاء سيدنا أمير المؤمنين في أسبغ النعم برحمته. وشكرتُ ما ظهر لي من فضلِكَ، وما كشفتَه من لطيف محبّتك، فقد كان العهد قبلاً عندي على هذا قديماً، وقد زاده تأكيداً ما تبيَّن لي من شفقتك. وشكري يقصر عمّا فعلته، ولم تتعدَّ ما يشبه كرم طباعك وشرف سلفك. وأنا أرغب إلى الله الذي بيده الخير كله أن يتولى مكافأتك عني بما هو واسع له. إذ لم تأت بما أتيت به إلا على الإخلاص من المودّة، وكان الذي حملك على ذلك فرط المحبة. وفهمتُ ما اقتصَصْتَه في كتابك وتعمَّقت فيه من الدعوة وشرحتَه من أمر ديانتك هذه التي أنت عليها، وما دعوتني إلى الدخول إليه ورغَّبتني فيه منها. وقد علمتُ أنّ الذي دعاك إلى ذلك ما يوجبه لنا تفضُّلك من حق حرمتنا بك لما يظهر من رأي سيدنا وسيدك وابن عمك أمير المؤمنين فينا، فهذا ما لا قوة لنا على شكرك عليه، ولا عون لنا على ذلك إلا الله تبارك وتعالى، فإننا نستعينه ونسأله مبتهلين طالبين إليه أن يشكرك عنّا، فإنه أهلٌ لذلك والقادر عليه. فأمّا ما دعوتني إليه من أمر دينك، وأنك على ملّة أبينا إبراهيم، وما قلتَ فيه إنه كان حنيفاً مسلماً... فأقولُ مجيباً لك: إن إبراهيم كان يعبد الصنم حنيفاً مع آبائه وأجداده وأهل بلده، كما أقررتَ أنت أيها الحنيف وشهدتَ بذلك عليه، إلى أن تجلّى الله له فآمَنَ بِالرَّبِّ فَحَسِبَهُ لَهُ بِرّاً (تكوين ٦: ١٥).... فما لك وطلبِ ما لم يجعله الله لك حقاً؟ فأنت دائماً تنسب ذاتك إلى العدل، وصاحبك [محمد] يقرّ في كتابه: قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (سورة الأنعام ٦: ١٤) أفلا ترى أنه أولُ مَن أظهرَ الإسلام، وأن قبله إبراهيم وغيره لم يكونوا مسلمين، لأن صاحبك قد أقرَّ بأنه هو أول من أسلم؟

فهل ندع كلام الله والسرَّ الذي أودعه موسى، وبرهان موسى على صحّة ذلك بالعلامات العجيبة، ونقبل قول صاحبك بلا حجّةٍ ولا آيةٍ ولا أعجوبةٍ ولا دليلٍ، حيث يقول إنَّ الله فردٌ صمد، ثم يرجع فيناقض قوله ويقول إنَّ له روحاً وكلمةً. فهو قد وحَّد وثلَّث من حيث لم يعلم!...

ولقد فهمتُ ما دعوتَني إليه من الشهادة لصاحبك [محمد] والإقرار بنبوَّته ورسالته، وما عظَّمتَ من أمره. فأمّا تعظيمك إياه فلسنا نجادلك فيه، وليس عندنا فيه إلا تسليمه لك، إذ كنت أَوْلى الناس بقرابتك، وقرابتك أَوْلى الناس بك. وإنما نحن مناظروك في ما دَعوْتنا

إليه من الإقرار بنبوَّته بأن ذلك حقٌ واجبٌ، فإن كان ذلك حقاً واجباً فليس ينبغي لنا، ولا لأحدٍ ذي عقلٍ أن يمتنع أو يمتعض من قبوله، فإنه لا يمتنع عن الإقرار بالحق إلا ظالمٌ معتدٍ، أو جاهل بمعرفة قدْر الحق. وإن كان ذلك غير الحق فلا ينبغي لك أن تقيم على غير الحق، فكيف تدعونا إليه؟ فإنك إذا فعلتَ هذا كنتَ ظالماً لنفسك أولاً، ثم متعدّياً على من تدعوه إلى غير الحق.

كان هذا الرجل يتيماً في حِجْر عمه عبد مناف المعروف بأبي طالب، الذي كفله عند موت أبيه وكان يعوله ويدافع عنه، وكان يعبد أصنام اللات والعُزّى مع عمومته وأهل بيته بمكة على ما حكى هو في كتابه وأقرَّه على نفسه حيث قال: أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى (سورة الضحى ٩٣: ٦-٨)، ثم نشأ في ذلك الأمر حتى صار في خدمة عِيرٍ لخديجة بنت خويلد، يعمل فيها بأجرةٍ ويتردد بها إلى الشام وغيرها، إلى أن كان ما كان من أمره وأمر خديجة، وتزوُّجه إياها للسبب الذي تعرُفُه. فلما قوَّته بمالها نازعته نفسه إلى أن يدَّعي المُلك والترؤس على عشيرته وأهل بلده، فلم يتبعه عليه إلا قليل مِنَ الناس، فعندما يئس مما سوَّلت له نفسه ادَّعى النبوَّة وأنه رسولٌ مبعوثٌ من رب العالمين، فدخل عليهم من بابٍ لطيفٍ لا يعرفون عاقبته ما هي، ولا يفهمون كيف امتحان مثله ولا ما يعود عليهم مِن ضررٍ منه، وإنما هم قومٌ عربٌ أصحابُ بدوٍ لم يفهموا شروط الرسالة ولم يعرفوا علامات النبوة، لأنه لم يُبعَث فيهم نبيٌّ قطُّ. وكان ذلك من تعليم الرجل الملقِّن له، الذي سنذكر اسمه وقصته في غير هذا الموضع من كتابنا، وكيف كان سببه. ثم إنه استصحب قوماً أصحاب غاراتٍ ممن يصيب الطريق على سُنَّة البلد وعادة أهله الجارية عندهم إلى هذه الغاية، فانضمَّ إليه هذا النوع، وأقبل يبثّ الطلائع، ويدسّ العيون ويبعث إلى المواضع التي ترِد القوافل إليها من الشام بالتجارات فيصيبونها قبل وصولها، فيُغِيرون عليها ويأخذون العِير والتجارات ويقتلون الرجال. وكان أول خروجه من مكة إلى المدينة بهذا السبب، وهو حينئذ ابن ٥٣ سنة بعد أن ادّعى ما ادّعاه من النبوّة بمكة ١٣ سنة، ومعه من أصحابه ٤٠ رجلاً، وقد لقي كلَّ أذىً من أهل مكة لأنهم كانوا به عارفين، فأظهروا أن طرده لادّعائه النبوَّة.

ثم أعجب من هذا في قُبْح الأحدوثة، والشناعة في الفعل والفظاظة، توجيهه إلى واحدٍ واحداً يقتله بالغِيلة، كتوجيهه عبد الله بن رواحة لقتل أسير بن دارم اليهودي بخيبر فقتله غيلةً، وكبعثه سالم بن عمير العمري وحده إلى أبي عفك اليهودي، وهو شيخ كبير ما به حراك، فقتله بالغيلة ليلاً وهو نائم على فراشه آمناً مطمئناً، واحتجَّ بأنه كان يهجوه. ففي أيّ

كتابٍ قرأتَ هذا، وأي وحيٍ نزل عليه به، ومِن أي حُكمٍ حَكَمَ على مَن هجاه أن يُقتل؟ فقد كان في تأديب هذا الشيخ على ذنبه شيءٌ دون القتل، وخاصّةً ليلاً وهو نائم مطمئن آمن على فراشه، فإن كان هجاه بما كان فيه، فقد صَدَق ولا يجب على من صدق قَتْل. وإن كان كذب عليه في قوله، فلا يجب على من كذب القتل، بل يُؤدَّب لئلا يعود. فأين قولك إنه بُعِثَ بالرحمة والرأفة للناس كافةً؟

وكذلك ما فعل في يهود قينقاع، حيث صار إليهم بغير ذنبٍ ولا علةٍ إلا الرغبة في أموالهم، فحاصرهم حتى نزلوا على حكمه، واستوهبهم منه عبد الله بن أبيّ بن سلول فوهبهم له، وأخرجهم إلى أذرعات بعد أن أخذ أموالهم فقسمها بين أصحابه، وأخذ هو الخُمس قائلاً: هذا ما أفاء الله على نبيّه . فكيف طاب له هذا، وبماذا استحل أن يأخذ أموال قومٍ لم يؤذوه ولم يكن بينه وبينهم غل، وإنما استضعفهم وكانوا كثيري الأموال! فما هكذا تفعل الأنبياء ولا من يؤمن بالله واليوم الآخر.

فأمّا ما كان بينه وبين زينب بنت جحش امرأة زيد، فإني أكرهُ ذكرَ شيءٍ منها إجلالاً لقدر كتابي هذا عن ذكرها، غير أني آتي بشيءٍ مما حكاه في كتابه الذي يقول إنه نزل عليه من السماء إذ يقول: وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ واتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ واللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَجْنَاكَهَا لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللَّهُ مَفْعُولاً مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً (سورة الأحزاب ٣٣: ٣٧، ٣٨).

وكذلك هنّاته مع عائشة وما كان من أمرها مع صفوان بن المعطّل السّلميّ في رجوعهم من غزوة المصطلق، بتخلّفها عن العسكر معه وقدومه بها من الغد نحو الظهيرة راكبةً على راحلته يقودها، وما قذفها به عبد الله بن أبيّ بن سلول وحسان بن ثابت ومسْطَح بن أثاثة، ابن خالة أبي بكر، وزيد بن رفاعة وحمنة بنت جحش، أخت زينب، وتبليغ علي بن أبي طالب إليه كلام المتكلمين وعيب العائبين، قائلاً: "يا رسول الله، لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثيرة"، فلم يلتفت صاحبك إلى ذلك كله لشدة إعجابه بها، لأنه لم يكن في مَن نكح مِن نسائه بِكْرٌ غيرها ولا أحدث سناً منها، فكان لها من قلبه مكان، فرضي بما كان من ذلك الأمر كله، وهذا كان سبب انعقاد تلك العداوة بين عائشة وبين عليٍّ إلى آخر حياتها. ثم

قال صاحبك بنزول براءتها في سورة النور من قوله: "إن الذين جاءوا بالإفك عُصْبةٌ منكم" الخ... الأقاصيص، ومارية أم إبراهيم ابنه، وريحانة بنت شمعون القريظية اليهودية، فهؤلاء نساؤه اللواتي كنَّ له، وأمَتَان!

فإذا كان صعباً على الرجل أن يخدم امرأة واحدة ويرضيها ولا يُسخِط خالقه، فكيف يكون حال من يريد أن يصرف عنايته إلى رضى خمس عشرة امرأةٍ وأمَتين، مع ما أنت عارف من شغله من تدبير الحروب وتوجيه الطلائع لشنّ الغارات؟ فمتى يتفرغ للصوم والصلاة والعبادة وجمع الفكر وصرفه إلى أمور الآخرة، وما شاكل ذلك من أعمال الأنبياء؟ ولست أشك في أنه لا نبيَّ قبله ابتدع مثل هذا! والآن ما الدليل على دعوى صاحبك؟ إن قلت أنه أخبرنا بأقاصيص الأنبياء الذين كانوا قبله في الزمان السالف كنوحٍ وإبراهيم وإسحق ويعقوب وموسى والمسيح وسائر الأولين الذين ذكرهم في كتابه، فجوابنا أنه أخبرنا بما سبقت معرفتنا به، ودرسته صبياننا وأطفالنا في المكاتب. فإن ذكرت قصة عاد وثمود والناقة وأصحاب الفيل ونظائر هذه القصص، قلنا لك: هذه أخبار وخرافات عجائز الحي، وليس ذكرها دليلاً على نبوته، فقد سقط شرط من شرطي النبوة. فإن قلت أنه أخبر بأمرٍ قبل حدوثه، ألزمناك توضيح ذلك، لأنه قد مضت أكثر من مائتي سنةٍ منذ موت محمدٍ، وكان يجب أن يتحقق عندك شيء مما أخبرك أنه سيكون. ولكنك تعلم أنه لم يأتِ في هذا الباب شيء ولا نطق فيه بكلمة ولا تفوَّه بحرفٍ واحدٍ، فسقط عنه الشرط الثاني من شروط النبوة.

وإذ قد خلا من الشرطين اللذين يوجبان الإيمان بالنبوَّة، نسأل: هل أجرى محمد معجزات باهرات؟ فنسمعه يقول: وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلاَّ أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ (سورة الإسراء ١٧: ٥٩). أي: لولا أن يكذبوا بآياتك كما كذبوا بالآيات التي جاءهم بها الأولون من قبلك، لأعطيناك الآيات! وأنت تعلم أن هذا جواب مرفوض، لا يقنع أحداً!

أما كتاب صاحبك الذي ادّعى أنه منزَّل عليه من عند الله فليس فيه شيء من ذكر المعجزات، فقد قال إن الله لم يجعله صاحب معجزة لأن السابقين كذَّبوا بآيات الأنبياء الأولين، فكره الله أن يؤتيه بشيء منها فيكذبون به. نعم، إن الأولين من اليهود كذبوا بآيات الأنبياء وردُّوها، وأما الأعراب فبآيات من كذَّبوا، ولم يُبعث فيهم نبي قط، ولا وُجِّه إليهم رسولٌ لا بآية ولا بغير آية؟ ولعله لو كان جاءهم بشيء من الآيات لكانوا صدقوه ولم يكذبوه! ألم نر أن كثيرين منهم أجابوا دعوته ولم يروا منه آية ولا سمعوا عنه أعجوبة؟ أما غير الكتاب،

فقد وجدنا لكم أخباراً وقصصاً هي كخرافات العجائز... وكذلك السم الذي سمَّته به زينب بنت الحارث اليهودية (زوجة سلام بن مشكم اليهودي) في شاة مشوية فكلَّمته الذراع. وأكل معه بِشرْ بن البراء بن معرور فمات، وأن السم الذي لم يزل يدب في بدن محمد كان سبب موته. فهل سمع الكلام من الذراع وحده، أم سمعه من كانوا بحضرته؟ فإن كان سمعه هو وحده فلِمَ لم يمنع ابن البراء من أكل طعامٍ مسمومٍ حتى لا يموت، وهو رجل من أصحابه اختصَّه بالأكل معه؟ وكيف استحل ذلك واستجاز كتمان قول الذراع له إنها مسمومة؟ وإن كان جميع الحاضرين سمعوا كلام الذراع، فكيف لم يمتنع ابن البراء من الأكل وهو يسمع الذراع تقول: لا تأكل مني فإني مسمومة؟ فليس يخلو هذا من أحد وجهين، إما أن يكون سمعه هو وحده وكتم ذلك غدراً، وإما أن تكون الجماعة سمعوه فلم يمتنع ابن البراء من ذلك الأكل حيث سمع ولا يموت. ولعل ابن البراء أكل السم ثقةً منه بأنه يأكل مع نبي مُستجاب الدعوة ورسول رب العالمين، مشفَّع عند ربه في جميع ما سأله، فلماذا لم يَدْعُ محمد ربه فيجيبه كعهدنا بالأنبياء المشفعين في إحياء الموتى؟ .... وكيف لم يأكل محمد منها أيضاً ولم يصبه شيء، فيكون ذلك آية له وشاهداً على صحة ما يدّعي من النبوة إن كان نبياً؟ لأن الأنبياء معصومون بالوقاية الإلهية من الآفات التي يحتال الكفرة بها عليهم وعلى أولياء الله.

ثم أعظم من هذا وأشنع أنه كان يقول لهم في حياته ويوصي إليهم إذا مات ألاّ يدفنوه، فإنه سيُرفع إلى السماء كما ارتفع المسيح، وأنه أكرم على الله أن يتركه على الأرض أكثر من ثلاثة أيام. ولم يزل ذلك عندهم متمكناً في قلوبهم. فلما مات يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة مضت من ربيع الأول سنة ٦٣ لمولده، وقد مرض ١٤ يوماً، تركوه ميتاً، يظنون أنه سيُرفع إلى السماء كقوله، فلما أتت عليه ثلاثة أيام وانقطع رجاؤهم من ذلك ويئسوا من تلك المواعيد الباطلة، دفنوه يوم الأربعاء. وحكى بعضهم أنه مرض سبعة أيام بذات الجنُب، وأنه غرب عقله وخلط في كلامه تخليطاً شنيعاً، فغضب لذلك علي بن أبي طالب وأنكره، فلما أفاق أخبره بما كان فقال: لا يبقينَّ في البيت أحدٌ إلا العباس بن عبد المطلب، فلما كان اليوم السابع من مرضه مات، فارتفع بطنه وانعكست إصبعه الشمال وهي الخنصر. وذكر ضمران أنه كان تحته في مرضه شملة حمراء وعليها مات وفيها أُدرج بعد موته ووُوري في التراب بغير غسل ولا أكفان. وروى عمران بن خضير الخزاعي أنه غُسل وأُدرج في ثلاثة أثواب بيض يمانية، وأن الذي تولى ذلك منه علي بن أبي طالب والفضل بن العباس بن عبد المطلب عمه. فلم يبقَ

أحدٌ ممن كان تبعه إلا ارتدَّ ورجع عما كان عليه، غير نفرٍ يسير من أخصّ أهله وأقربهم نسباً إليه، طمعاً بما كان فيه من تلك الرئاسة .... إلى آخر الرسالة[*].

قبل البدء في مناقشة مضمون ما تقدّم من تلخيص هذه الرسالة تجدرُ الإشارة إلى أنّ التلخيص كان ضرورياً، لأنّ حجمها زاد عن مائة وأربعين صفحةً في بعض الطبعات القديمة، وقد تمّ التلخيصُ رغبةً في عدم الإطالة ممّا يوقعُ في الملل، وكذلك لأنّ طبيعة هذا النوع من الدراسات لا تسمحُ بالكثير من طويل النقول. وإنّما ذكرنا هذه النصوصَ لأنها موضعُ الشاهد على الكثير ممّا تقدّم معنا ولحاجتنا الملحّة للوقوف على بعضه ومحاكمته. ولسنا في معرض الردِّ على هذه الرسالة في هذا الموضع وذلك لأمرين:

أولهما أنّ العلامة الألوسي ـ رحمه الله ـ قد نقدها ونقضها كلمةً كلمةً وفنّد كل المزاعم والادعاءات والافتراءات المشتملة عليها في كتابه الجواب الفسيح لما لفّقه عبد المسيح[1]. وثاني الأمرين أنّ هناك مبحثاً مستقلاً كاملاً قد خُصِّصَ في هذه الدراسة لعرض الشبهات التي حملها الرهبان والقساوسة والمستشرقون تجاه الإسلام، وسيأتي تفنيدُ ذلك والردّ عليه إجمالاً وتفصيلاً بعونه تعالى.

وبالعودة للحديث عن هذه الرسالة الجوابيّة التي صِيغت على لسان الشخصيّة الوهميّة المزعومة المسّماة (عبد المسيح الكِندي)، فإنما هي استمرارٌ لمسرحية اختلاق الأشخاص، وإجراء الكلام على ألسنتهم بغاية عرض معتقدات الإسلام وتشريعاته للردِّ عليها ونقضها في هذا المؤلَّف الذي ترجَّح لدينا وضعه على يد الراهب يحيى بن عدي. ومن الواضح بعد دراسة نصوص هذه الرسالة الجوابيّة أنها إنما خُطَّتْ لتحقيق الأهداف والمقاصد غير الحسَنةِ التالية:

أولاً: صياغة كلِّ ما كان يعتملُ في صدور الرهبان آنذاك تجاه الإسلام ونبوّة محمد ﷺ صياغةً هجوميّةً، تقوم على إنكار نبوّته وتفنيد الادّعاء الإسلامي بصحّتها وبسماويّة مصدرها.

---

[*] هنا ينتهي تلخيصنا لأبرز نصوص هذه الرسالة الجوابيّة.

[1] سبق ذكره والتعريف به.

ثانياً: مهاجمة التصوّر الإسلامي والتصوير القرآني لقضيّة التثليث، والزّعمُ بأنّ الأقانيم الثلاثة إنما هي تعبيرٌ في صورٍ مختلفةٍ عن إلهٍ واحدٍ، والردّ على الآية الكريمة (لقد كفر الذين قالوا إنّ الله ثالثُ ثلاثةٍ).

ثالثاً: التركيز على ألوهية المسيح، وكونه أسمى منزلةً من أن يكون نبيّاً.

رابعاً: مهاجمة الفهم الإسلامي لحنيفيّة إبراهيم ـ عليه السلام ـ ووصفها بأنّها تعني عبادة الأصنام، حَسْبَ التفسير الكتابيّ لها، والزَّعمُ بأنّ إبراهيم، عليه السلام، عبدَ الأصنام سنواتٍ عديدةً، وأنّه اتّجه بعد ذلك للتوحيد وعبادة الله.

خامساً: اتّهام الرسول ﷺ بالتناقض؛ والقول بأنّه في حين كان يدعو لعبادة الله الفرد الصّمد، كان يرجع فيناقض نفسه ويقول إنّ لله روحاً وكلمةً، وبالتالي يكون محمدٌ قد وَحَّدَ وثلَّثَ من حيث لم يعلم.

سادساً: الطّعن الصريح والمباشر في سيرة الحبيب المصطفى ﷺ، والقول باستغلاله لزوجته الثريّة ولأموالها، وباستغلاله لبساطة مَن حوله من أهل قريشٍ، وإعلانه للنبوّة في وسطهم حيث كانوا عرباً أصحاب بداوةٍ لم يفهموا شروط الرسالة ولم يعرفوا علامات النبوّة؛ لأنّه لم يُبعث فيهم نبيٌّ قطّ، والقول باستعماله العنف والإغارة على قوافل التّجارة للسلب والنّهب.

سابعاً: القول بشهوانيّة النبي محمدٍ ﷺ، وعشقه للنساء، والاستدلال على ذلك بعدم تطليقه لعائشة ـ رضي الله عنها ـ بالرغم من فعلها للفاحشة (حاشاها رضي الله عنها) وتغاضيه عن حادثة الإفك، وأنّ ذلك كلّه كان لشدّة إعجابه بها؛ لأنّه لم يكن في مَن تزوّجَ من نسائهِ بكرٌ غيرها!!!.

ثامناً: التركيز على إبطال القول بنبّوة محمدٍ، وذلك بحجّة عدم انطباق شروط النبوّة عليه، والاستدلال على ذلك بأنّ محمداً مات مسموماً بعدما أكل من لحم الشاة المسمومة المشويّة التي قدّمتها له زينب بن الحارث اليهودية، والقول بأنّ محمداً لو كان نبيّاً حقّاً

لعصمته الوقايةُ الإلهيةُ من الآفات التي تحتال بها الكفرةُ على الأنبياء وعلى أولياء الله ومن ذلك تقديم السمّ لهم في الأكل، وعضدُ القول بإبطال نبوّة محمدٍ بأنّ محمداً لم يأتِ بمعجزاتٍ باهراتٍ ولم يُخبرْ قومه بأمورٍ قادمةٍ ستحدث وبالتالي هو ليس نبياً.

ومن الواضح تماماً أنَّ المرجعيّة التي كان يحتكمُ إليها هذا الكِندي (المزعوم) وينطلقُ منها في إصداره لأحكام التخطيء بحقِّ الإسلام ونبيّه ﷺ كانت حكايات التوراة والإنجيل، وما وردَ فيهما من قصص الرسل والملائكة والنبوّات، فما وافقها كان صحيحاً، وما خالفها لم يكن كذلك!!!

لقد صيغت هذه الرسالة الجوابية صياغةً مُحكمةً مُتقنةً، حتى لكأنَّ واضعها فذٌّ عبقريٌّ، أو مجموعةٌ من الدراسين للقرآن الكريم والسيرة النبويّة الشريفة الذين أجادوا العرض والنقد، ولكنّه للأسف، كان نقداً مليئاً بالسّموم والأباطيل التي لاقت هوىً وقبولاً واستحساناً لدى أصحاب المجموعة الطليطليّة وفيلق ديركلوني، فترجموها إلى اللاتينيّة، واتخذوا من أباطيلها مستنداً ووثيقةً تاريخيّةً، ردَّدها معظمُ المستشرقين الحاقدين على الإسلام في غرب أوروبا حتّى يومنا هذا.

ويُستفاد في نهاية الحديث عن الرسالة الإسلامية والجواب المسيحي عليها أنّ نشأة الدراسات الاستشراقية الدينيّة التي استهدفت دراسة الإسلام لنقده ومحاربته وتحصين المسيحيين ضدّه، إنما كانت في الشرق، وفي أرضه نبتت بواكيرُها. ثمّ انتقلت هذه الدراسات والنّصوصُ المكتوبة في هذا المجال إلى الغرب الأوروبي وبالذات إلى إسبانيا. ولعلَّ أسبقية الشرق في ذلك راجعةٌ إلى سببين؛ أولهما: قرب المسيحيين في الشرق من البيئة الإسلامية، لا بل محياهم في وسطها، وبالتالي كان من المفترَض أن يعرفوا عن الإسلام وعقائده وتشريعاته أكثر. أمّا السببُ الثاني فكان معرفتهم باللغة العربية، وكيف لا وهي لغتهم الأُم وبها ينطِقُ لسانهم!! وعلى ما يبدو فإنّ الأديرة والكنائس الإسبانية قد تلقّفتْ هذه الأعمال الاستشراقية الدينيّة القادمة من الشرق واحتضنتها ببالغ اللهفة والسّرور لسببين رئيسيين؛ أولهما وقوعها تحت الحكم الإسلامي خلال حركة الفتوحات الإسلامية لمدّةٍ طويلةٍ، وثانيهما انشغال الرهبان بمحاربة انتشار الإسلام واللغة العربيّة بين الشباب الإسبان (المستعربين حسبما مرّ وصفهم معنا)، وقد كانت هذه المحاربةُ عقديّةً فكريّةً قبل أن تكون تحريضيّةً للقيام بأعمالٍ صداميةٍ على نحو ما رأينا في ظاهرة شهداء قرطبة.

ونعيدُ هنا التأكيدَ على أنَّ هذه الدراسات الاستشراقية الدينيّة التي نشأت في الشرق إنما كانت الأساس والأرضية التي بُنيت عليها الآراء والدراسات الاستشراقية الغربية فيما بعد. ويشهدُ لصحّة هذا الكلام بناء بيدا المبجّل وأوغيليوس وباول ألفاروس لكتاباتهم ضدّ الإسلام على أعمال ومؤلّفات يوحنّا الدمشقي، كما يشهدُ لصحّة هذا الكلام بناءُ بطرس المبجّل لأعماله ومؤلّفاته ضدّ الإسلام على الرسالة الإسلامية والجواب المسيحي عليها، ويشهدُ لصحّة هذا الكلام كذلك أنّ الشّبهات والأباطيل المتعلّقة بالإسلام ونبوّة محمدٍ ﷺ، التي وردت في هذه الدراسات الناشئة في الشرق، هي عينُها الشبهات والأباطيل حول الإسلام ونبوّة محمدٍ التي وردت في الدراسات الغربيّة للإسلام ونبوّة محمدٍ ﷺ، والتي لا زالت تتردّد على مسامعنا بين الفينة والأخرى حتى يومنا هذا. وما الأزمة التي أثارتها الرسوم الكاريكاتورية المسيئة للرسول ﷺ في الصحف الدانماركيّة عنّا ببعيدةٍ.

ولعلَّ ما تقدّم من هذه الدراسات والأعمال شاهدٌ على أنّ رهبان الكنيسة والأديرة كانوا يعملون بروح الفريق الذي يُكمِّلُ بعضَ أعماله بعضُها الآخر، ويا ليته كان فريق خيرٍ أو محبّةٍ أو فائدةٍ ... لقد تضافرتْ جهود هؤلاء للكيد لهذا الدين ليلاً ونهاراً ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[1]. ولقد تحققّت الآيةُ؛ فها هو ذكرُ محمدٍ والدّين الذي أُوحيَ به إليه يترددُ في مشارق الأرض ومغاربها ويجذب إليه المزيد من الداخلين الجُدِدِ والمدافعين عنه حتى من غير بني جلدته، ولا زالت دعوة الحق الذي جاء به تزداد ألقاً وتوهّجاً، وتثبتُ قدرةً عجيبةً غريبةً على امتصاص الضربات والمؤامرات والقدرة على النهوض من جديد. ورُبَّ ضارّةٍ نافعة؛ فقد أيقظت هذه الدراسات الاستشراقية الدّينيّة وما شابهها من الدراسات روح الغيرة على هذا الدِّين في نفوس أتباعه، فهبّوا للذود عنه ولتبصير الناس بحقيقته، واجتهدوا في ابتكار وسائل جديدةٍ بغرض عرضه على الناس في الشرق والغرب، بروحٍ عصريّةٍ متطوّرةٍ تُراعي نفسيّات الناس، وتلائمُ أنماط حياتهم ومستويات تفكيرهم، ذلك كلّه دون المضيّ بعيداً عن حاجات العصر.

---

(1) سورة التوبة: الآية ٣٢.

ثالثاً: القدِّيس توما الأكويني[1]

انتهت حقبةُ بطرس المبجّل ومجموعته الطليطليّة وفيلق كولوني وما رافقها من مؤلفاتٍ جدليّةٍ كبرى ضدّ الإسلام والرسول محمدٍ ﷺ، وبزغ بعدها نجمُ راهبٍ جديدٍ حمل رسالة سابقيه، وتصدّى بكلِّ عزمه لمحاربة الإسلام وللدِّفاع عن العقائد المسيحيّة في وجه كلِّ المخالفين لها، وبالذات المسلمين الذين كان الأكويني يعتبرهم وثنيين وليس مجرد هراطقةٍ مُجدِّفين.

كان هذا الراهب كثير القراءة والتأليف وقد اشتُهر بموسوعته اللاهوتية الكبيرة التي قسَّم فيها أبحاثه إلى أقسامٍ ثلاثةٍ، خصَّصَ قسمها الأول للإلهيات، وقسمها الثاني للبحث حول الإنسان، أمّا القسم الثالثُ فكان موضوعه شخص السيد المسيح كإنسانٍ وإلهٍ معاً.

ففي الجزء الأول فصّلَ القول في وجود الله فالله عنده هو المحرِّكُ الأعظمُ أو العلةُ الأولى لجميع الأشياء، فهو البداية والنهاية والمنتهى لكلِّ شيءٍ في الوجود.

وفي الجزء الثاني، تحدَّث عن الإنسان كمخلوقٍ ساقطٍ (حسب تعبيره)، لكنَّه رغم ذلك في وسعه أنْ يتمتَّع بالفداء[2]، ثمَّ تطرق لبحث السلوك الإنساني بفضائله ورذائله، ثم توسّع في موضوع الناموس والنعمة.

---

(1) ولد توما الأكويني في حوالي العام ١٢٢٥م قرب قلعة الكونت لاندولف من روكاسكا في مملكة صقلية (لاتسيو اليوم). ويرتبط بسلالة هوهنستوفن إحدى سلالات إمبراطور روما المقدس عن طريق والدته ثيودورا كونتيسة تيات. كان سينيبالد شقيق لاندولف رئيس دير الرهبان البندكتيين الأصلي في مونت كاسينو، وبينما كان جميع إخوة توما في مهنٍ عسكريةٍ، قررت العائلة أن يسلك توما طريق عمّه في الرهبانية، بدأ توما الأكويني تعليمه المبكر في سن الخامسة في دير مونت كاسينو، غير أنه بعد اندلاع الصراع العسكري بين الإمبراطور فريدريك الثاني والبابا غريغوري التاسع ووصوله إلى الدير في بداية ١٢٣٩م، قرر لاندولف وثيودورا إرسال ابنهما إلى الجامعة التي أنشاها فريدريك حديثاً في نابولي. وعلى الأرجح، فإن توما قد تعرف هناك على أعمال أرسطو وابن رشد وموسى بن ميمون، وأثر هؤلاء الفلاسفة على فلسفته اللاهوتية. وخلال سني دراسته في نابولي تأثر توما بالمبشر الدومينيكاني يوحنا من سانت جوليان الذي كان جزءاً من المجهودات المستمرة للرهبانية الدومينيكانية من أجل تجنيد أتباعٍ مخلصين. يُعدُّ من الشخصيات المؤثرة في مذهب اللاهوت الطبيعي، وهو أبو المدارس التوماوية في الفلسفة واللاهوت، تأثيره واسع على الفلسفة الغربية، وكثيرٌ من أفكار الفلسفة الغربية الحديثة إما ثورة ضد أفكاره أو اتفاق معها، خصوصاً في مسائل الأخلاق والقانون الطبيعي ونظرية السياسة. ويعتبر الأكويني المدرس المثالي لمن يدرِّسون ليكونوا قسيسين في الكنيسة الكاثوليكية، ويُعرف بعملية خلاصة اللاهوت والخلق والخالق، يعتبره العديد من المسيحيين فيلسوف الكنيسة الأعظم لذلك تُسمى باسمه العديد من المؤسسات التعليمية.

(2) سبق التعريف به.

بينما تحدّث في الجزء الثالث عن المسيح الفادي الذي فتح للإنسان طريق العودة إلى الله. وقد استخدم الأكويني اتّساعَ معرفته بالكتب المقدّسة في إثبات صحّة العقائد الكنسية، كما كتب شرحاً لبشائر الإنجيل ورسائل بولس الرسول استندَ فيه إلى أقوال آباء الكنيسة.

والذي يعنينا الوقوف عنده من مؤلفات هذا الراهب هو كتاب (منطق الإيمان) الذي خصّصه للإجابة على اعتراضات المسلمين الواردة على العقائد المسيحيّة، وكان الشعار الذي يرفعه دوماً في عرض العقائد المسيحية والدّفاع عنها قول بطرس (وكونوا أبداً مستعدّين لأن تردّوا على مَن يطلب منكم دليل ما أنتم عليه من الرّجاء)[1]. وواضحٌ من خلال هذا الشعار الخلفية العَقَديّة التي كان هذا الراهب ينطلقُ منها في محاججته ودفاعه عن المسيحية. وتجدر الإشارة قبل البدء في الحديث عن مضمون كتاب (منطق الإيمان) إلى أنّ هذا الكتاب جاء بعد فروغ الأكويني من تأليف كتاب (الخلاصة ضدّ الأُميّين) أو (خلاصة الردّ على الأمم الخارجة عن المسيحيّة).

"وما من شك في أن توما الأكويني أَلَّفَ كتاب (الخلاصة ضد الأميين) بإيعازٍ من رمُند دي بينافور، وهو من كبار الشخصيات في نظام رهبانية الدُمنيكان الذي كان يعمل في تبشير المسلمين في إسبانيا، وإلى مبادرته أيضاً ندين بإدخال دراسة اللغة العربية في إسبانيا. وتشير كل المظاهر إلى أنَّ كتاب (الخلاصة ضد الأميين) كان يُقْصَدُ به أن يكون كتاباً تعليمياً للكليات التي أنشأها نظام رهبانية الدُمنيكان لتدريب مبشّري المستقبل"[2].

وقد جاء كتاب (منطق الإيمان) بمثابة رسالةٍ جوابيةٍ عن العديد من تساؤلات واعتراضات المسلمين أوردها شخصٌ يُسمّى كَنْتُر الإيطالي، وتوجّه بها إلى توماس الأكويني راجياً منه الإجابة عليها، فما كان من الأكويني إلاّ أن قام بوضع هذا المؤلَّف، وذلك في شعورٍ منه بوجوب تلبية نداء الواجب الذي ينصُّ على وجوب أن يكون على استعدادٍ دائمٍ لتحمُّل المسؤولية الدينية العقدية "تجاه الاعتراضات والصعوبات والمشكلات الموجودة في المواقف التاريخية الاجتماعية المحسوسة"[3].

---

(1) رسالة القدّيس بطرس الأولى: ٣: ١٥

(2) هاغمان، [م. س]، ص ٧٨.

(3) هاغمان، [م. س]، ص ٨٠.

وفي بداية الفصل الثاني من هذا الكتاب يوجّه الأكويني السائلَ كنتر الإيطالي إلى مسألةٍ هامّةٍ في محاججة غير المسيحيين، وهي تتمثّل في أنّه لا يجوز للمُدافع عن العقيدة المسيحية أن يتوجّه للبرهنة على صحّة هذه العقيدة، بل يجب عليه التوجّه للدفاع عنها فقط، وحجّته في ذلك أن هذه العقيدة المسيحية إنما هي مكفولةٌ بكفالةٍ إلهيةٍ، ولا يمكن بحالٍ أن تتناقض مع الحقائق العقليّة؛ لأنّ ما ليس بخاطىءٍ لا يمكن أن يكون خاطئاً!!.

"أريد بادئ ذي بدء أن أذكر أنه لا يجوز لك أن تهدف في الخلافات مع الكفار حول أركان الإيمان إلى البرهنة على صحة العقيدة عن طريق الأسباب القاهرة، إذ أنّ هذا خليقٌ أن يُنال من جلال العقيدة وتساميها، وهي التي لا تتجاوز صِحَّتُها مجالَ الفكر البشري فقط، بل تتجاوز حتى مجال فكر الملائكة؛ بل نحن نَعُدُّ (مضامين العقيدة) كأنما هي أمورٌ موحىً بها من الرب نفسه. ولكن لمّا كان ما يصدر عن الحقيقة العليا لا يمكن أن يكون خاطئاً، ولا يمكن البرهنة عليها بالأسباب القاهرة أيضاً، مثل تلك المضامين (المذكورة آنفاً) لأنها تتجاوز مجال العقل البشري. غير أنها لا يمكن دحضها أيضاً بالأسباب القاهرة بسبب صحتها"[1].

وقد نبّه الأكويني إلى أنّه عند مواجهة ومحاججة المسلمين، فليس من الصّواب اللجوء إلى الكتاب المقدّس أو الاستشهاد بآياته وكلماته، والسبب في ذلك أنّ المسلمين لا يعترفون بالكتاب المقدّس ولا يؤمنون به، حسبَ قوله، ولا يرون أنّهُ كلمةٌ لها حجيّتُها، وبالتالي، فإنّ العقل وحده هو السبيل والأساس المشترك للنقاش مع المسلمين.

ويلفتُ هاغمان[2] النظر إلى معلومةٍ هامّةٍ تتعلقُ بمقدار كفاية معرفة الأكويني بالإسلام وبمصدر هذه المعرفة فيقول: "وذلك أن توماس نفسه يعترف صراحةً بعدم كفاية معرفته [عن الإسلام]، وليس ثمة سبب يَحملُ على افتراض أنه قرأ القرآن في أيِّ يومٍ من الأيام مع توافر ترجماتٍ لاتينيةٍ له بلا ريب. ومن المعروف أنّ الترجمة اللاتينية الأولى للقرآن ترجع إلى مبادرة بطرس المبجل، أمَّا ما يوجدُ حول محمدٍ وتعاليمه لدى توما، فهو الراويات

---

(1) المرجع السابق، ص ٨٠.

(2) انظر المرجع السابق، ص ٨٢، ٨٣.

المعروفة في تلك الأيام في الأوساط الفكرية في كل مكانٍ من الغرب. ولا تتجاوز معلومات توما عن الإسلام مقدار معرفةٍ مَتَخَلِّفةٍ، كما يثبتُ ذلك كتاب (منطق الإيمان)[١].

إذاً فقد كانت معرفة الأكويني بالإسلام معرفةً محدودةً وفقيرةً. وكلُّ ما كتبه عن نبوّةِ محمدٍ ﷺ كان مصدره الترجمات المشوّهة المغلوطة التي تقدّم الحديث عنها في المبحث السابق!!.

وبالرغم من هذا الفقر المعرفي المتعلّق بالإسلام، والذي كان يعاني منه الأكويني، نراه في كتابه (منطق الإيمان) يتصّدى للفهم الإسلامي لموضوع التوحيد، فيثبتُ بطلانه، كما رأى، وصحّة الاعتقاد المسيحي بِـ (الله الواحد مثلّث الأقانيم)، كما يتَّهِمُ المسلمين بالتهكُّم على المسيحيين في موضوع صلب المسيح عليه السلام، "وهم يتهكمون على أننا ندعي أن المسيح ابن الله، قد صُلب من أجل تخليص الجنس البشري، لأنه إذا كان الله قادراً على كل شيء فهو يستطيع أن يخلص الجنس البشري من دون أن يعاني ولده الآلام، وقد كان في وسعه أيضاً أن يخلق البشر في الأصل حيث لا يمكن أن يرتكبوا الخطيئة"[٢]. ويقوم بالردّ على هذا التهكّم الإسلامي!!.

كما يخلصُ في النهاية إلى اتِّهام المسلمين بالجبرية والاعتقاد بعدم حريّة الإرادة البشرية!!! "ثم تروي لي بعد ذلك أنه فيما يتعلّق بالثواب الذي يتوقف على حرية الإرادة، يفرض المسلمون، مثلما تفعل شعوبٌ أخرى، قسراً على التصرفات البشرية بسبب المعرفة الإلهية المسبقة، وبسبب النظام الإلهي، إذ يقولون: إنَّ الإنسان لا يمكن أن يموت ولا أن يخطئ أيضاً إذا لم يكن ذلك قد رسمه الله للإنسان فيما يشبه التدبير: ولكل أمرئ قدره المكتوب على جبينه"[٣].

ثمَّ يُعقّبُ على مسألة الجبر والاختيار بترجيحه للقول بأنّها لم تُحسَمْ في الإسلام، لا على لسانِ محمدٍ ﷺ، ولا في نصوص القرآن الكريم نفسه، "بل يبدو أنَّ محمداً نفسه كان غير حاسمٍ في الإجابة عن سؤال هل يُعدُّ الإنسان حراً في تصرفه أم مجبراً، وعلى كل حالٍ فهذا هو

(1) المرجع السابق، ص ٨٢، ٨٣.
(2) المرجع السابق، ص ٨٤.
(3) المرجع السابق، ص ٨٦.

حال القرآن، فثمة سلسلة من آيات القرآن تتحدث عن الجبر. وفي مقابل ذلك يرد الحديث في آياتٍ أخرى عن حرية إرادة البشر، وحتى علماء اللاهوت المسلمون لا يتّفقون على هذا الرأي، فتفسيرهم يراوح بين الجبر من ناحيةٍ، ونظرية حرية الإرادة البشرية من ناحيةٍ أخرى"[1].

وواضحٌ من هذه الكلمات ضحالة معرفة هذا الأكويني بالقرآن الكريم والسَّنّة النبوية الشريفة، ومع ذلك فقد سمح لنفسه بكتابة المؤلفات التي يتحدّث فيها عن الإسلام ويهاجمه، نعم، لقد كان القديس توما الأكويني من أهمّ الشّخصيّات المسيحيّة الكاثوليكية التي هاجمت الإسلام في العصور الوسطى، وعلى الرّغم من اطّلاعه على أعمال الفلاسفة المسلمين، وبخاصّةٍ كتابات ابن سينا والغزالي وابن رشد، إلاّ أنّه عدَّ المسلمين وثنيين، "ولهذا قرر الأكويني حتمية عقد المناظرات والمحاورات الجدلية مع الوثنيين بناءً على البراهين العقلية، وليس وفق مفاهيم الكتاب المقدس وشهرته فقط. إضافةً إلى ذلك، فإن توما الأكويني يرى أنه لا يجوز تحويل الوثنيين هؤلاء إلى المسيحية بالقوة نظراً إلى أن الإنسان لا يمكن إجباره على الاعتراف بوجود شيءٍ أسمى من الخير والسعادة، ولهذا، فإنه يتوجب على الحكام المسيحيين ـ كما يقول الأكويني ـ الذين يقع المسلمون تحت سلطتهم أن يتصرفوا بصبرٍ إزاء مفهومهم لعبادة الرب"[2].

لم يستطع الأكويني، على أَلْمَعِيَّتِهِ وطاقته الذهنية الفذّة الكبيرة، أن يُحرِّر نفسه من القوالب الذهنية السلبية والصِّور المُشَّوهة السيّئة التي رسمها سابقوه للإسلام، فبقي أسيراً لمضامين الرسالة الإسلامية والردّ المسيحي عليها، ولترجمات بطرس المبجل المشوّهة للقرآن الكريم وما شابهها من الكتابات المُغرضة اللاموضوعيّة؛ ومن ذلك أنّه وضع الانتشار السلمّي للمسيحية في مقابل ما أسماه (بالانتشار الإكراهي) للإسلام. وقام تفسيره لظاهرة انتشار الإسلام على نظريّةٍ تنصُّ على أنّ محمداً آمن بدعوته في بادئ الأمر الناسُ الجهلةُ البدائيون فقط، أولئك الذين يعيشون في الصحراء، ولم يسبق لهم أن عرفوا أيَّ تعليمٍ أو عقيدةٍ إلهيّةٍ. وعن طريق هؤلاء [البدو الصعاليك كما يصفهم]، أجبر محمدٌ بقوة السيفَ بقيّةَ الناس في المنطقة على الامتثال إلى شريعته. "ويؤكد توما الأكويني المزاعم القائلة: إنَّ محمداً أغوى كثيراً من الشعوب للدخول في عقيدته، من خلال تشجيعه إياها على الحصول على الملذّات والشهوات

(1) المرجع السابق نفسه، ص ٨٧.

(2) جورافسكي، [م. س]، ص ٨٣، بتصرّف.

الحسّية، وعن طريق الوعود التي قطعها لها ضمن هذا التوجيه الغريزي. ويتابع الأكويني السير في هذا المنحى المتحيِّز مؤكداً أن محمداً أسس ((قواعده)) و((أحكامه)) التشريعيّة، التي تتناسب مع قدرات وإمكانات العقل المتوسط وحسب. ثمَّ يصل من كل هذه الأطروحات المتسرعة إلى القول: إنه لكي لا يكتشف أتباعهُ زيفَ شريعته، فإنّ محمداً منعهم من قراءة كتب العهدين القديم والجديد"[١].

ونشيرُ هنا إلى أن توما الأكويني لا يستخدم كلمة (القرآن)، وإنما يُحِلُّ محلَّها عبارة (قوانين محمد). وفي مؤلَّفه الصَّغير: "براهين الإيمان ضدّ المسلمين (الساراتيين كما يُسمِّيهم)، والإغريق والأرمن، يقدم توما الأكويني النصائح اللازمة لأخيه في الرهبانيات الدومينيكانية، وللهيئة الكنسية في أنطاكية، حول كيفية الرّد على أسئلة المسلمين وتفنيد حججهم"[٢].

---

[1] جورافسكي، [م. س]، ص ٨٣، ٨٤ بتصرّف.

[2] المرجع السابق ، ص ٨٤.

رابعاً: ركلدس دي مونتي كروتشي

في استمراريةٍ لاستعراضنا للرهبان الكاثوليك الذين مارسوا الاستشراق الدّيني وكتبوا ضدَّ الإسلام وشرائعه، وفي امتدادٍ للعقلية المسيحية المضادّة للإسلام في العصور الوسطى، نتحدّث في هذا المبحث عن راهبٍ وافقَ توما الأكويني في الكثير من كتاباته وتصورّاته عن الإسلام؛ ألا وهو الراهب الدومينيكاني ركلدس دي مونتي كروتشي أو (ريكالدو أوف مونت كروس) الذي عاش في الفترة ما بين (١٢٤٣ – ١٣٢٠) للميلاد، وترجعُ أصوله إلى مدينة فلورنسا الإيطالية. ومن خلال نظرةٍ سريعةٍ على ميلاده ومماته، ندركُ أنّه عاصر القديس توما الأكويني. وإن كان الأكويني قد هاجم الإسلام ونبوّة محمدٍ دون أن يدرس اللغة العربية أو يلتقي ولو بمسلمٍ واحدٍ، فإنّ ركلدس كروتشي هذا قد سافر إلى بلاد العرب والمسلمين، وقضى فيها فترةً من الزمان تعلّم فيها اللغة العربية ودرس الإسلام في ديار الإسلام، "وفي مقدّمة كتابه المُسمّى "كتاب الغرباء" نجدُ ملاحظةً تفيدُ أنّه قام برحلاتٍ طويلةٍ شاقّةٍ، ليكوّن لنفسه ثقافةً شاملةً. فطاف في أرجاء إسبانيا وفلسطين وأرمينيا وبلاد الرافدين، وعاش زمناً طويلاً في بغداد، وهناك درس الإسلام واطّلع على تاريخه. ويتحدث ركُلدُس مراراً في كتبه عن أنشطته التبشيرية، وفي كتابه "يوميات عن الأمم الشرقية" وضع الخطوات التوجيهيّة لسلوك المبشّرين تجاه المسلمين والمسيحيين الهراطقة"[(١)].

والغريب في أمر هذا الراهب ركلدس، أنّه لمّا أقام بين المسلمين وسكن في بلادهم، أعرب عن انبهاره بمستوى التقوى والورع الذي صادفه، فكتب يقول: "إنّ على المسيحيين أن يخجلوا من ورع المسلمين"[(٢)]. ولكنّه عندما عاد إلى وطنه كتب عن "إقامة الحجّة على المسلمين والقرآن"! فكان أول ما وضعه من مؤلفاته المتعلّقة بالإسلام كتابه المُسمّى "جدلٌ ضدَّ السراسنة والقرآن"!! كرر فيه كلَّ الخرافات والسّخافات القديمة المنتشرة في الغرب، والتي ما وُضِعَت إلاّ لتشويه صورة الإسلام في عيون أهل الغرب المسيحي، ويبدو أنّ هذه الصورة كانت قويّةً ومترسّخة الجذور بحيث "كانت تتغلّب بسهولةٍ على أيِّ اتّصالٍ موضوعيٍّ بالمسلمين الحقيقيين، ورواية ريكولدو هذه، المتحاملة، على نحوٍ سخيفٍ، وغير الدقيقة عن الإسلام، بقيتْ تُستخدَمُ وتُعتنقُ ضمنياً مِن قِبل الدارسين والبحّاثة الغربيين حتى أواخر القرن

---

(١) هاغمان، [م. س]، ص ٩٨.

(٢) آرمسترونغ، [م. س]، ص ٥١٠.

السابع عشر"[١]. ولعلَّ ما خَطَّه هذا الراهب شاهدٌ آخر من شواهد انحباس الرهبان والمستشرقين داخل سجن الصّورة النمطيّة السّلبيّة السائدة عن الإسلام، بالرغم من أنّه عاش بين المسلمين وتعامل معهم مباشرةً، وذلك في تجربةٍ فريدةٍ يَنْدُرُ أن تتوفّر لمثله من الرهبان الذين كانوا يتحدّثون عن الإسلام والمسلمين وهم لم يدرسوا كتبهم ولم يخالطوهم البتّة!!

ولكنّه، وكما هو مُستنتَجٌ من مؤلفاته بعد العودة لدياره، ما عاش تلك التجربة بتجرّدٍ وحياديّةٍ ليحكم على الإسلام بعدها، لا ولكنّه عاشها وفي ذهنه قراراتٌ وقناعاتٌ خاطئةٌ مُسَبَّقةٌ عن الإسلام عزَّ عليه فراقها أو التنازل عنها!! "ومن هُنا فلا يُستبعدُ بالتأكيد أنّه كان يمتحُ من مصادرَ ترجعُ إلى التراث الغربيّ المعادي للإسلام إلى درجةٍ بعيدةٍ"[٢]. وقد صاغ ركلدس كلَّ ما كان يعتملُ في صدره وعقله عن الإسلام والقرآن ونبوّة محمدٍ ﷺ في كتابه السابق ذكره "جدلٌ ضّد السراسنة والقرآن" والذي اشْتُهِرَ بأسماءٍ متعدِّدةٍ، كان أبرزها "ضدّ شريعة المسلمين". ويتكوّنُ هذا الكتاب من ستة عشر فصلاً، وكان الهدف الأول والرئيس من كتابته، حسبما جاء في مقدّمته، دحض الأخطاء الرئيسيّة للإسلام، وذلك بهدف إتاحة الفرصة أمام الرهبان والمبشّرين ليحملوا المُسلمين على التحوُّل إلى الدّين المسيحي، وذلك من خلال الإيمان بالربّ الحقيقي. ومن المفيد هنا تسجيل الملاحظات التالية:

١. إنّ ركلدس كان يرى أنَّ المسلمين يعبدون إلهاً غير حقيقيٍّ، وهو الإله الذي دعاهم محمدٌ إلى عبادته.
٢. لم يكن الكتابُ موجَّهاً إلى المسلمين، بل إلى الرهبان المسيحيين المشتغلين في التبشير (التنصير) ومحاجة المسلمين من خلال الكتب والمؤلّفات.
٣. اتفقت آراءُ ركلدس كثيراً مع آراء توما الأكويني فيما يتعلّق بالدّعوة إلى مناظرة المسلمين، واتفقت كذلك في أنّ موضوع المناظرات يجب أن يتعلق بالدفاع عن العقائد المسيحية وليس بإثبات صحّتها، ويشهدُ على ذلك قولُه عندما تحدَّث عن التثليث والتجسُّد: "ولمَّا كان كلا السّرّين يتعاليان على العقل البشري، ولا نستطيع أن نسوق أسباباً عقلانيةً للبرهنة عليهما، بل نسوق مجردَ أسبابٍ إيمانيةٍ، فإنه لا يبقى لنا سوى اللجوء إلى مرجعية

(١) المرجع السابق نفسه، ص ٥١٠.
(٢) هاغمان، [م. س]، ص ٩٢، بتصرّف.

رسالة الإنجيل التي يأتي القرآن على ذكرها أيضاً، وإلى معجزاتٍ مشهودةٍ لها في الكتاب المقدَّس"[١].

وقبل الشروع في ذكر أبرز اعتراضات هذا الراهب ركلدس على القرآن الكريم، فمن المفيد الإشارةُ إلى أنّ العنوان الأبرز والأكثر وروداً في هذا الكتاب إنما كان يتعلّق بِمَنْ هو الصواب والصحيح والحقُّ؟ أهو الكتاب المقدّس أم القرآن؟؟؟ ومن الواضح أنَّ ركلدس لم ينتظر الوصول إلى الفصل السادس عشر ليقرِّرَ النتيجة بناءً على المقدّمات والأسباب؛ فقد قرّر هذه النتيجة مُسبقاً في الفصل الأول عندما اجتهد فيه على إثبات أنَّ القرآن خليطٌ متنافرٌ مِن الهرطقات المسيحيّة القديمة المدحوضة منذ عهدٍ بعيدٍ، وأنّه مزيجٌ من آراء تعليميةٍ ذات أصولٍ هي في منتهى التباين والاختلاف!!. وهذا الكلام لا يقعُ بعيداً عن خلاصة رأي هذا الراهب في الإسلام؛ حيث كان يرى "أنّ الإسلام مجرّدُ خدعةٍ شيطانيةٍ ابتدعها الشيطانُ كي يمهِّدَ الطريق لمجيء المسيح الدجّال، وذلك حين شعرَ الشيطانُ بعدم قدرته على إيقاف انتشار المسيحية، وأنّ الوثنيّات بدأت تتهاوى أمام المسيحية، وأنه ليس في مقدوره دحضُ شريعة موسى وإنجيل عيسى، فابتدع الشيطانُ ذلك الدينَ ليكون وسطاً بين المسيحية واليهودية ... والقرآن ليس قانون الله، نظراً لأنَّ أسلوبه لا يطابق الأسلوبَ الإلهي، الذي لا يوجد فيه سجعٌ ولا عباراتٌ موزونةٌ كتلك التي جاءت في الكتب المقدّسة"[٢].

ويمكننا تلخيصُ وحصرُ مآخذ ركلدس دي مونتي كروتشي على القرآن الكريم فيما يلي:

١. خلوّ القرآن من ذِكر المعجزات المعقولة؛ حيث كان ركلدس يعتقدُ أنّ محمّداً لم يأتِ بمعجزاتٍ، وذلك خلافاً للمسيح الذي جاء بالعديد منها.
٢. إمتلاء القرآن بالمتناقضات الكثيرة، إضافةً لتناقض القرآن نفسه مع العقل. وقد ذكر ركلدس أنّ هذه التناقضات القرآنية تتوضّح في النقاط الأربع التالية[٣]:

---

(1) هاغمان، [م. س]، ص ٩٩.
(2) عودة [م. س]، ص ١٣.
(3) هاغمان، [م. س]، ص ١٠٠، ١٠١.

أ. في مؤلِّفه محمدٍ، وذلك في الحقيقة على أساس أطوار حياته المنافية للأخلاق. وهذا مأخذٌ يظلُّ يرد المرّةَ بعد الأخرى في الجدل المذهبيّ المعادي للإسلام.
ب. في القرآن ذاته، على قدر ما يتضمن من أقوالٍ لا تفيد شيئاً، لأنها أقوالٌ مُسهبةٌ مكررةٌ، وليس هذا فقط، بل توجد فيه أيضاً صياغاتٌ بذيئةٌ فاحشةٌ.
ج. في الممارسة العقديّة للمسلمين، كما في عمليات الوضوء الطقسيّة قبل الصلاة اليومية، وكذلك في فهمهم الزواج وممارستهم الطلاق.
د. في التصوّرات القرآنية الخاصّة بالجنّة، وهي التصورات التي كانت تمِّثلُ منذ العصور الأولى مساحةَ هجومِ الكُتَّاب المسيحيين على الإسلام.

٣. أمّا ثالث مآخذ ركلدس على القرآن فيتجلّى في مقارنته برسالة الإنجيل؛ حيث يرى ركلدس أنَّ القرآن المقدّس لدى المسلمين إنما هو تجسيدٌ لشريعة الموت، بعكس رسالة الإنجيل الرحيمة الموافقة للعقل والتقاليد الفلسفيّة، كما أنها مُكمِّلةٌ للكتب السماويّة السابقة ومحقّقةٌ لرسالتها، ومؤدّى ذلك كلّه هو أنّ الإنجيل وحده هو شرع الله الحقّ.

ولَئِنْ كان هذا الراهب قد سجّل العديد من المآخذ على القرآن الكريم، وهي كلّها مآخذ متهافتةٌ مثله تماماً، فإن من المفيد بالمقابل أن نسجّل بعض المآخذ عليه هو الآخر، ومن ذلك:

١. لمَّا سُئل هذا الراهبُ عن سرِّ الإقبال المُدهش والسّريع للمغول على الإسلام قال: إنّ السَّبب في ذلك هو "أنّ الإسلام أسهلُ في التّصديق والتطبيق"[1]. فكيف يصحُّ أن تُفهمُ إجابته هذه مع ما سبق مِن مآخذه على القرآن الكريم؟؟ إنها تُفهمُ على وجهٍ واحدٍ ألا وهو تناقضُ هذا الراهب في فهمه لطبيعة القرآن والإسلام.
٢. إنّ المقياس الوحيد للعثور على الحقيقة عند ركلدس كان اعتقاده الخاص وقناعته الخاصّة ولاهوته الخاص!! ولذلك لم يكن من المُستغرَبِ أن يصرّح بامتلاء القرآن بالمتناقضات ومواطن الضعف وبالأخطاء الجليّة الظاهرة للعيان بحيث يدركها كلُ إنسانٍ، ومن هذه الأخطاء، حسب زعمه، ادّعاءُ محمدٍ بأنّه خاتم الأنبياء، ونفي كون عيسى ابناً لله، ونفي موته على الصّليب واتهامه لليهود والمسيحيين بأنّهم يجعلون لله أنداداً!!!.

---

[1] سوذرن، [م. س]، ص ١١٧.

خامساً: ريموند لول

ذكرنا فيما سبق أنّ الاستشراق الدّيني امتزج في بعض مراحله بالتبشير لدرجةٍ أصبح الفصل بينهما من الصعوبة بمكان. ولئن كان هذا الكلام ينطبق على مَن سبق ذكرهم من المستشرقين الرهبان (كبطرس المبجل وتوما الأكويني وركلدس دي مونتي كروتشي)، فإنّه يَتَّضِحُ في أبرز صوره في الراهب المستشرق المبشر "ريموند لول (ريمون لولوس)"[1]؛ ففي هذا الراهب كانت تتوفر كلُّ مقوّمات الاستشراق الدّيني؛ فهو قد درس اللغة العربية وتمكَّن منها، ودرس القرآن الكريم وترجمته ودرَس أبرزَ أعمال الفيلسوفين ابن رشد وابن سينا، وسخّر كلَّ إمكانياته واتصالاته وعلاقاته مع الشّخصيّات الهامّة في محيطه، حتّى أنشأ مدرسةً لتعليم اللغة العربية من أجل التدريب على التبشير باللغة العربية بين المسلمين، إضافةً لتمكين الدارسين فيها من الاطلاع على أساليب الحوار و المناظرة والنقاش، كلُّ ذلك جنباً إلى جنبٍ مع دراسة اللاهوت المسيحي. "وقد كان هذا الراهب أعظم المبشّرين بين المسلمين في القرون الوسطى، سواءٌ من الوجهة العمليّة، أم من الوجهة النظرية، وممّا يشهدُ على جهوده التبشيريّة المتعدّدة الجوانب أيضاً كتاباته الهائلة"[2]. كان ريموند من كبار الدّاعين إلى دراسة الإسلام واللغة العربية، وذلك لمناظرة المسلمين وتبيين الأخطاء في دينهم ودعوتهم بالتالي لاعتناق العقيدة المسيحيّة. وكان على الدوام يدعو إلى وحدةٍ بين البشر، ولكن في ظل العقيدة المسيحية، وقد كان هذا منطلقهُ في دعوة المسلمين. "لمّا كنا نحن جميعاً، مهما يبلغ من كثرتنا، لا نؤمن إلا بربٍّ وإلهٍ واحدٍ ... فمن الواجب أن يكون لنا نحن جميعاً أيضاً، معتقَدٌ واحدٌ فقط، وديانةٌ واحدةٌ هي العقيدة المسيحية المقدسة"[3].

كسابقيه من الرهبان المستشرقين الأكويني وركلدس كروتشي، كان هذا الراهب يدعو إلى مناقشة المسلمين ومناظرتهم استناداً إلى أساسٍ واحدٍ فقط هو العقل؛ لأنّه كان يرى أنَّ العقل وحده هو المبدأ المقبول لدى كلٍّ من الجانبين الإسلامي والمسيحي للحوار. ومن هنا يمكننا أن نفهمَ سبب تخلّيه عن الإحالات للكتاب المقدس أو القرآن، وعدم الاعتماد على الاستشهاد بها (بشكلٍ عام). وفي تعليله لعدم الاعتماد على شواهد وأدلّة الكتاب

---

(1) ريموند لول: ولد في جزيرة مالاقا سنة ١٢٣٢م قبل أن يحكمها الموحّدون بستّ سنين، كان والده نبيلاً شارك مع يعقوب الأول الأراجوني في حربه ضد المسلمين المغاربة، وكوفئ بإقطاعية في مالاقا بعد احتلال الباليار، وهكذا فقد نشأ الصبي في محيط كانت فيه روح القتال الإسبانية ضد المسلمين على أشدها، توفي في ١٣١٦/١/٢٩م.

(2) هاغمان، [م. س]،ص ١٠٢.

(3) المرجع السابق، ص ١٠٣.

المقدّس في مناظرة المسلمين نراه يقول: "الكفار [المسلمون طبعاً] لا يحفلون بأقوال المؤمنين، بل يهتّمون، على سبيل الحصر، بالأسباب العقلانيّة"[١]. وكان ريموند يعتقدُ أنّه وبالعقل وحده يمكنه أن يُحصّلَ الحجج الأفضل الدالّة على صحّة العقيدة المسيحية وبطلان غيرها من العقائد، ويرى "أنّ هذه الأدلّة والحجج العقلية، والتي كان يسميّها (العقلانيات الضروريّة القاهرة)، يجب أن تلقى الاعتراف والاحترام من قبل شركاء حواره المسلمين"[٢]. وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذا الريموند كان من المطّلعين على القرآن الكريم الدارسين له، وذلك بعد أن تعلّم اللغة العربية على يد أحد الرقيق من المسلمين المغاربة الذين كانوا يعيشون في إسبانيا آنذاك، وقد استمرَّ ذلك ما يقارب التسع سنوات.

كان ريموند لول يعرف من تجربته الشخصية بشكل خاصٍّ، أن المُسلمين لن يقدّموا له أيَّ تنازلٍ يتناول معتقداتهم، فقد كان لزاماً على مَن يريد إقناعهم بصواب العقيدة المسيحية أن يدخل معهم في حوارٍ ومناقشاتٍ حاميةٍ. ومن أجل ذلك كان لابدَّ من إتقان لغتهم إتقاناً كاملاً. إنَّ مثل هذه الموازنات حَمَلَتْ لول على تعلُّمِ اللغة العربية. "وقد قضى تسع سنوات وهو عاكف على الدّرس والتلقّي، فكانت محصلةُ ذلك كتابه (Ars major) (الفنّ الكبير)، الذي احتوى على أسس فنّ الحوار وسَوق الأدلة في صورة تصنيفٍ لأضراب المعاني وطرق الاستدلال المنطقي. ثم أقنع يعقوب الأول بإنشاء مؤسّسةٍ لتثيقف مبشّرين للعمل في مجال التبشير ضد الإسلام [كليّة الثالوث المقدَّس] وافتتحها لول بوصفه عضواً من الدرجة الثالثة، وبثلاثة عشر تلميذاً من طائفة الفرنسيسكان في سنة ١٢٧٦ في بلدة ميرمار. فإلى جانب الثقافة اللاهوتية، كان نزلاء الدير يتلقُّون بشكلٍ خاصٍ دروساً في العربية بكل مستلزماتها"[٣]. وكان من الوسائل المُتَّبَعَةِ في هذه المدرسة وما شابهها من المدارس التبشيرية ـ بإشراف ريموند لول ـ التدريب على الخطابة وأساليب الإقناع في الحوار والسّيطرة على الخصم في المناظرة، "وقام في هذا الإتجاه بمحاولاتٍ متعددةٍ لإقناع البابا نيكولاس الثالث بروما (سنة ١٢٧٧م) بتعليم اللغات الشرقية وخاصة العربية من أجل إنجاح حركة التبشير

---

(1) المرجع السابق، ص ١٠٤.
(2) المرجع السابق، ص ١٠٤.
(3) انظر:
أ. فوك، [م. س]، ص ٢٧، بتصرف.
ب. عريبي، [م. س]، ص ١٥٢.
ج. جورافسكي، [م. س]، ص ٨٧.

بين المسلمين. وكان في كل لقاءاته مع السلطات الكنسية والرسمية العليا يشدد على تعليم اللغة العربية، مع ضرورة الاستفادة من مسيحيي الشرق وخاصة الموارنة في هذا الميدان"[1].

كان طموح هذا الراهب لا يعرف الحدود فيما يتعلّق بضرورة تعلُّم وتعليم اللغة العربية، لغة القرآن، لتوظيفها في مجادلة المسلمين ومحاججتهم، للبرهنة على الحقائق المسيحيّة، ودحض ما جاء به القرآن، وكان يرى في الإسلام العدو اللدود والأكبر للكنيسة الكاثوليكيّة.

ما من شكٍّ أن سنة (١٣١١م) كانت أسعدَ سنةٍ في حياة هذا الراهب ريموند، "ففيها استطاع أن يُقنع المَجمَع الكَنَسي العامّ بإصدار القانون رقم (١١)، والذي يقضي بتدريس اللغات الشرقية في خمس جامعات أوروبية هي: جامعات باريس بفرنسا وأكسفورد بإنجلترا وبولونيا بإيطاليا وسلمنكا بإسبانيا وجامعة كوريا، وقد صدر هذا القانون المشهور متضمّناً بتخصيص مدرسَين كاثوليكيَين لكلِّ جامعةٍ من هذه الجامعات الخمس يقومان بتدريس اللغة العربية والكلدانية والعبرية واليونانية، وبسبب هذا المنطلق ظهرت مدارس الاستشراق المتعددة، واستمرَّت إلى يومنا هذا تغذي الحضارة الغربية بمظاهرها الفكرية والاستعمارية والتبشيرية"[2].

وبالعودة للحديث عن رغبة ريموند لول في محاججة المسلمين ومناقشتهم ومناظرتهم بهدف إثبات زيف دينهم وبطلانه وإثبات صحّة العقيدة المسيحية ودعوتهم لاعتناقها، فإنَّ أحاديثه ونظرياته عن محاورة المسلمين قد مرّت بمرحلتين هامّتين:

المرحلة الأولى: وهي مرحلة المحاورات، والدّعوة لها على أساس العقل، واستخدام أساليب المنطق في الجدل والحوار. وقد عاش ريموند هذه المرحلة بتجاربها وزار فيها بعض البلاد العربية مثل تونس والمغرب والجزائر، وخلال هذه المرحلة كان يؤمنُ بفشل أيّةِ محاولةٍ لإكراه الإنسان على ترك دينه وتغييره بالقوّة.

---

[1] جورافسكي، [م. س]، ص ٨٧.

[2] انظر:

أ. جورافسكي [م. س]، ص ، ٨٨، بتصرّف.

ب. عربيي [م. س]، ص ١٥٤. =

=ج. عبد المحسن، [م. س]، ص ٣٦.

د. فوك، [م. س]، ص ٣١.

هـ. هاغمان، [م. س]، ص ١٠٦.

المرحلة الثانية: وهي المرحلة التي أعاد فيها ريموندُ التفكيرَ، وراجع أفكاره حول الكيفيّة التي تجب مواجهة الإسلام والمسلمين بها، حيث انتقل فيها إلى المناداة بالمواجهة المسلّحة والعمل العسكري ضدّ المسلمين. وقد كان سقوط مدينة عكا بوصفها آخر نقطةٍ لارتكاز المسيحيّة في ساحل فلسطين عام ١٢٩١م سبباً مباشراً في تحوّل آراء ريموند حول كيفيّة التعامل مع الإسلام والمسلمين؛ فأخذ ينادي بالحرب والقتال، وبحملةٍ صليبيّةٍ جديدةٍ لاستعادة الأرض المقدّسة. ولعلّه بذلك كان قد وقع أسير روح العصر الصليبيّة التي سادت أوروبا آنذاك، "وبدءاً من عام (١٢٩٢م) تمحور تفكيره على نحوٍ مُطَّرِدٍ الزيادة حول فكرة الحملة الصليبية، فيبدو رِيمُوند وقد استحوذت عليه فكرة استعادة الأرض المقدسة، وفي سبيل ذلك يكتب على نحوٍ لا ينقطع، مُذكِّراتٍ والتماساتٍ وخططاً لحملةٍ صليبيةٍ، في محاولةٍ يائسةٍ لتعبئة المسيحية من أجل الرسالة الكبيرة، ولئن كان نذر نفسه مِن قبل، بكل طاقته، لفكرة التبشير، وحاول أن يحقِّقَ الشروط الأوليّة لانتشارها في أوربا"[١].

إذاً فقد استجّدت في ذهنه فكرة الحرب والحملة الصليبيّة كوسيلةٍ جديدةٍ لنشر المسيحية بين المسلمين، إضافةً لفكرة التبشير عن طريق الدعوة وإقامة الحجج والأدلّة والبراهين العقليّة، تلك الدّعوة العقيمة التي كانت سبباً في مقتله في التاسع والعشرين من شهر كانون الثاني عام ١٣١٦ للميلاد، حيث عاد بالرغم من كبر سنّه لتونس، وراح ينادي علناً بدعوة الناس المسلمين لاعتناق المسيحّية، فهاجمه جمهورٌ مِن الذين أصابهم الذهول والغضب من وقاحته، وضربوه ضرباً مبرحاً، فمات متأثراً بجراحه إثر تلك الحادثة؛ أي أنّه دفع حياته ثمناً لحماقته وسوء تقديره للأمور ... كان ريموند قد كتب في عام ١٣١١م كلاماً يصفُ فيه مآلَ حاله وما انتهى إليه أمره: "لقد كنتُ متزوجاً، ولي أطفال، وكنتُ موسراً، ولقد استمتعتُ بالحياة، وتخلّيتُ عن كل شيءٍ لكي أعمل في سبيل مجد الرب والصّالح العام، وأزيد في انتشار العقيدة المقدسة. تعلمتُ العربية، وانفتحتُ من وجوهٍ عديدةٍ على المسلمين لكي أعظهم بالإنجيل. وبسبب عقيدتي أُسِرتُ وزُجَّ بي في السجن وجُرِحتُ، ولبثتُ أعمل خمسةً وأربعين عاماً لكي أحثّ الكنيسة المسيحية والحكام المسيحيين على خدمة الصالح العام، وقد صِرتُ الآن طاعناً في السن، وفوق ذلك أيضاً فقيراً، وبقي لدي اهتمامي ودأبي، وسأظل على هذا إلى أن أقضي نحبي، هذه مشيئة الرب"[٢].

---

[1] هاغمان، [م. س]، ص ١٠٦.

[2] هاغمان، [م. س]، ص ١٠٧.

لقد طُويَتْ صفحة ريموند هذا، وتحققت رؤياه وصدقت توقّعاته فيما كان يتعلّقُ بنهايته؛ حيث ظلّ على دأبه ذاك حتّى قضى نحبه. ولكنّه ما كان ليحلم بنهايةٍ على هذه الدرجة من المأساويّة؛ نهايةٍ على يد جموع الذين حاول تسفيه دينهم وإبدالهم إياه بدينه، كانت نهايتهُ على يد جموعٍ من البُسطاء الذين وصفَ لغتهم يوماً بأنها تُشبه أصوات ولغات الحيوانات ... "لقد كان ريموند لول الصورة الثابتة للاستشراق قديماً وحديثاً، على الرغم من وجود أفرادٍ متباعدين زماناً ومكاناً أمكن لهم النجاة من هذه الجمالية المرعبة المُسَخّرة لخدمة الحقد والكراهية والاستغلال والاحتلال وكلّ ما يتعلّق بذلك من موبقات"(١).

(1) العجلوني، إبراهيم، صورة ثابتة ووسائل متجدّدة، مقالة منشورة في جريدة الرأي الأردنية بتاريخ ٢٠٠٨/٩/٢٢م.

سادساً: يوحنّا السّيغوفي

تحدّثنا سابقاً عن الراهب يوحنّا السيغوفي ودعوته الشهيرة لعقدِ مؤتمرٍ عامٍ لمحاورة المسلمين ومواجهتهم فكرياً وعقدياً، واستبداله لفكرة المواجهة المسلّحة مع المسلمين بالمواجهة الفكريّة العقليّة، وذلك كمساهمةٍ منه في حلٍّ (المشكلة الإسلامية) التي كانت تؤرّقُ الغرب المسيحيّ كلَّه آنذاك. وقد راودته هذه الفكرة "بعد اعتزاله لمنصب الكاردينال الذي ناله في عام ١٤٤٠ للميلاد، واعتزاله في دير أيتون في سافويا بفرنسا، حيث ثبت له بالدليل العمليّ عدم قدرة أوروبا على مقاومة الإسلام بالسلاح، لأنّ الدولة العثمانية كانت في أوج قوّتها وتهدّد أوروبا كلَّها"[(١)].

وقد شرع السّيغوفي في التنفيذ العمليّ الواقعي لفكرته تلك بأنْ دعا إلى ترجمةٍ جديدةٍ للقرآن الكريم أملاً منه في إثبات تضمُّنِ القرآن لتناقضاتٍ وأخطاءٍ وآثار مؤلِّفين مختلفين، ليُثبتَ بالتالي أنّه ليسَ كتاباً موحىً به من عند الله.

ونستطيعُ أن نرصدَ عدّة اتفاقاتٍ واختلافاتٍ بين الترجمة السيغوفية للقرآن الكريم إلى اللاتينيّة وبين الترجمة الأولى التي كانت بإشراف بطرس المبجّل من حيث الظروف والأهداف، ومن ذلك:

١. كان المطلوب من هذه الترجمة أن تتَّصف بالأمانة والدقّة، بعكس الترجمة الأولى التي أخبر فيها بطرسُ المبجل المترجمَ روبرت الكيتوني برغبته في تشويه صورة الإسلام والقرآن من خلالها، فكان ذلك برنامج عمله ومنطلقه فيه!!!.
٢. كان هدفه من الترجمة واضحاً منذ البداية وهو منحصرٌ في الإجابة على سؤال واحدٍ هو "هل القرآن كلمة الله أم لا؟ بعكس الترجمة السّابقة التي تشتّت للإجابة عن أسئلةٍ كان السيغوفي يراها جانبيّةً مثل، أخلاقيات محمدٍ، والردّ المنطقي على دعوته..."[(٢)].
٣. تصميه على إيصال نسخةٍ من هذه الترجمة بعد الانتهاء منها إلى المُسلمين لأنَّه كان يرى أنّ هذه الترجمة ستبقى بلا فائدةٍ إن لم تصل للطرف الآخر المعنيِّ بها وهو أهل الإسلام، بعكس الترجمة الأولى التي هدف بطرس المبجّل من خلالها إلى تشويه الإسلام والقرآن

(١) بدوي، عبد الرحمن، موسوعة المستشرقين، ص ٢٦، ط١، ١٩٨٤، دار العلم للملايين، بيروت.
(٢) سوذرن، [م. س]، ص ١٣٤.

عن قصدٍ وعمدٍ، وكذلك سعى إلى نشر هذه الترجمة في الوسط المسيحي لا الإسلامي وذلك، كما أسلفنا، بهدف تنفير الناس منه وصدِّهم عنه.

٤. كانت إمكانيات السيغوفي الماديّة محدودةً، وقد كتب إلى رفاقه وبعض ذوي النفوذ محاولاً إقناعهم والحصول على دعمهم في التنفيذ، بعكس بطرس المبجّل الذي كان رئيساً لأقوى ديرٍ مسيحيٍّ وأكثرها نفوذاً وغنىً في أوروبا كُلِّها.

٥. عاش السيغوفي في دير أيتون البعيد المعزول، بعكس بطرس المبجل الذي كان يتجوّل في أوروبا ويتفقّد أديرتها البنديكتية على الدوام، وكان مشروعه بعد انتهائه بمثابة الأساس لكل الترجمات الأوروبية للقرآن الكريم حتى بعد مرور خمسمائةِ سنةٍ على إنجازه.

٦. التقت الترجمتان على عدم الإيمان بسماويّة القرآن الكريم وعدم صدق نبوّةِ محمدٍ، ولكنهما اختلفتا في كيفيّة التعبير عن ذلك.

٧. لئن كان الشخصان اللذان قاما بتنفيذ ترجمة بطرس المبجل معروفين؛ وهما الراهبان روبرت ألكيتوني وهيرمان دلماتا اللذان كان مُتقِنَيْنِ للغة العربية، فإنّ هنالك العديد من علامات الاستفهام حول هويّة المترجم الحقيقي، الذي استعان به يوحنا السيغوفي لإنجاز هذه الترجمة الثانية للقرآن الكريم، ويدعمُ صحّة هذا الكلام خلوُّ المصادر التاريخية التي تحدّثت عن تاريخ أوروبا في تلك الفترة من ذكر اسم هذا المترجم؛ حيثُ اكتفتْ بوصفه بأنّه "فقيهٌ مُسلمٌ وعالِمٌ عربيٌّ من سلمنكا الإسبانيّة"[1]. ويرى الدكتور عبد الرحمن بدوي أنّ هذا الشخص قد وُصِفَ زعماً بأنّه فقيهٌ مُسلمٌ يعرفُ اللغة العربية والإسبانيّة؛ "لذلك رأى ترجمة القرآن إلى اللاتينية؛ ولمّا كانَ لا يعرف العربية فقد استقدمَ من إسبانيا "فقيهاً" مسلماً يعرف الإسبانيةَ والعربية طبعاً، وكان هذا "الفقيهُ" المسلم ـ المزعوم في رأينا ـ يتولى ترجمة الآيات القرآنية فيصوغها يوحنا الأشقوبي باللغة اللاتينية!"[2].

وعلاوةً على ما سبق مِنْ جهالة اسم وحال هذا المترجم العربيّ، فقد ذكر سوذرن أنّه قرّر العودة إلى زوجته الشابّة التي خلّفها وراءه بعد أن عمل مع يوحنا السيغوفي عدّة أشهرٍ طويلةٍ وقاسيةٍ في إنجاز الترجمة، وحينها "كان العمل الأساسيُّ قد أُنجزَ؛ لكنّ يوحنا أَمِلَ أن يجد مَنْ يُعينُهُ في تدقيق بعض المواطن، والقيام بمراجعةٍ شاملةٍ وأخيرةٍ. لهذا طلبَ من

---

(1) انظر:

أ. آرمسترونغ، سيرة النبي محمد، [م. س]، ص ٥٤.

ب. سوذرن، [م. س]، ص ١٣٤.

(2) بدوي، [م. س]، ص ٢٦.

رئيسه مقدَّم الآباء الفرنسيسكان أن يساعده في العثور على عالِمٍ عربيٍّ أو أوروبيٍّ يُحْسِنُ العربية. وبحثَ هو بنفسه في أوروبا طولاً وعرضاً؛ لكنه لم يعثر على أحدٍ يعرف لغة القرآن وهكذا بقيت الترجمة دون مراجعةٍ أخيرةٍ"[١].

إذاً فقدْ بقيت الترجمةُ دون تدقيقٍ ودون مراجعةٍ شاملةٍ أخيرةٍ، وهذا مأخُذٌ عليها يُضافُ إلى مأخذ جهالة شخص وحال المترجِم. وممّا يزيدُ في عدد علامات الاستفهام المضروبة حولها هو ضياع هذه الترجمة وعدم استشهاد المصادر التاريخية بها!!.

كان الإسلام، في رأي يوحنّا السِّيغوفي يتضمّنُ روحاً مقاتلةً فاتحةً، بعكس المسيحيّة التي لا تقرُّ ذلك، وكان يرى أنّ المسيحيّة إن أرادت الحفاظ على جوهرها فإنّها ستجدُ نفسها دائماً في الجانب الخاسر إنْ هي لجأت للحرب، كما كان يرى "أنّ المسيحيّة الغربيّة لن تكسبَ في الصراع [ضد الإسلام طبعاً] إلاّ إذا لجأت للوسائل السلميّة؛ لأنّها بالسّلم تكونُ قد بقيتْ أمينةً لروحها هي"[٢]. وكان يرى خطأ القول بإمكان هداية المسلمين بالقوّة، وبإمكان فرض الحجج المسيحيّة عليهم، ولعلَّ رؤيته هذه هي التي دفعت بسوذرن لأن يصفه بأنّه "داعية السلام الأوروبي الأوّل مع الإسلام الذي اقتنع بأنّ المسيحّية لن تنتصرَ عن طريق التبشير، وقد كانت القضيّة الملحّةُ بالنسبة له التفكير بطرائق جديدةٍ للاتّصال بالمسلمين"[٣].

ولكننا لا نوافقُ سوذرن على ما ذهبَ إليه من وصف هذا الراهب السيغوفي بأنّه داعية سلام؛ وذلك لأنّ هذا السيغوفي بعد ترجمته للقرآن "قد شرع في تأليف كتاب "طعن المسلمين بروح السّيف"، وهو بمثابة أبرز ما كتبه في الردِّ على الإسلام"[٤]. لقد علّمتنا المواقفُ السّابقة لهؤلاء الرهبان المستشرقين أنهم، في موقفهم من الإسلام ونبوّة محمدٍ، دائماً يكونون خلف آلةٍ من اثنتين؛ أمّا الأولى فهي آلةُ الحرب الفكريّة والعقدية وأمّا الثانية فهي الآلة العسكرية الحربيّة، وقد دأبوا على جعل الأولى مقدّمةً للثانية ومفتاحاً لها، فإن فشلت هذه وانهزمتْ عادوا إلى آلة الحرب الفكريّة، وتمترسوا خلفها يشنّون على الإسلام ونبيّه المصطفى حرب اللسان والكلام، ويُديرون عليه دوائر الطّعن والشّبهات والتشكيك والهمز

---

[1] سوذرن، [م. س]، ص ١٣٤.
[2] سوذرن، [م. س]، ص ١٣٦.
[3] المرجع السابق، ص ١٣٦، ١٣٧.
[4] بدوي، [م. س]، ص ٢٦.

واللمز .. ولذلك، نرى أنّ كلَّ دعوات الرهبان المستشرقين للجدل ضد الإسلام إنّما جاءت في عهدٍ وزمنٍ ومناسباتٍ كانت القوّة العسكريةُ للإسلام تتمتّعُ فيها بتمام الصحّة والعافية، ومن هنا جاءت دعوة يوحنا السيغوفي لحماية المسيحيّة وعدم احتكاكها عسكرياً مع الإسلام بعد أن سقطت قلاع القسطنطينيّة تحت رايات الإسلام ووطئتْ أقدامُ الفاتحين ترابها في عام ١٤٥٣ للميلاد، فهي مهادنةُ الضّعيف الذي يخشى على تراثه ودينه، للقوي الفاتح المنتصِرِ، ولا نرى دعوة السيغوفي وغيره من الرهبان المستشرقين إلا ضمن هذا الإطار.

سابعاً: نيكولاس الكويسي

يُعتبرُ الكاردينال الألماني نيكولاس الكويسي (أو نيقولاس فون كيس) الصّديق الأفضل ليوحنّا السيغوفي بالرغم من تباعد المسافات بينهما، وهو الوحيد مِن بين الذين كان السيغوفي يراسلهم، للدعوة لمؤتمرٍ لمحاورة المسلمين الذي ردّ عليه ردّاً إيجابيّاً، وشجّعه على المضيّ قُدُماً في فكرة المؤتمر وكتابة المؤلفات الجدلية التي تناقش الإسلام والقرآن. وكان ممّا جاء في رسالته الجوابية التي بعثها للسيغوفي في شهر كانون الأول من عام ١٤٥٤ للميلاد: "يجبُ علينا أن نحاول دائماً أن نجعل ذلك الكتاب الذي يتمتّع بالمرجعيّة عندهم [يقصد القرآن الكريم]. معتَمَداً عندنا، ذلك لأننا نجدُ فيه مواضع تُعَدُّ مُفيدةً، والمواضع الأُخرى التي تناقضنا نستطيعُ تأويلها عن طريق تلك المواضع"[1]. ويُعتبرُ كتابه "نظرة في القرآن" أشهر الكتب التي ألّفها على الإطلاق. ثم يليه في الشهرة كتابه "نقد الإسلام وتفنيده" وهو الكتاب الذي "قام بتأليفه بتوجيهٍ من البابا بيوس الثاني"[2].

وكسابقيه من الرهبان المستشرقين، لم يكتب الكويسي كتاب "نظرة في القرآن" ليصلَ في النهاية إلى نتيجةٍ مبنيّةٍ على مقدّماتٍ سبق ذكرها في بداية الكتاب، بل إنّه كان على قناعاتٍ مسّبقةٍ فيما يتعلّق بالقرآن، ثمّ خطَّ هذا الكتابَ ليدافع عن قناعاته تلك ويثبّتها. وتتلخّصُ أبرز قناعاته تلك في أنَّ القرآن إنما هو خليطٌ من عناصر شديدة التباين ذاتِ أصولٍ يهوديّةٍ ومسيحيّةٍ هرطقيّةٍ!!!. لقد وضع الكويسي مؤلَّفه هذا بين عامي ١٤٦٠ و١٤٦١ للميلاد، وجاء في ثلاثة أقسام، وقام بحشوه بالمناقشات اللاهوتيّة الجدلية مع الإسلام، ويُعتبرُ الكتاب بحدِّ ذاته تأويلاً للقرآن من وجهةِ نظرٍ إنجيليّةٍ، ودفاعاً مُستميتاً عن العقيدة المسيحيّة في وجه الإسلام. ولعلَّ عنوان هذا الكتاب واضحٌ تماماً في الدلالة على مقصوده والمراد منه؛ فهو يريدُ أن ينظر في القرآن ويغربله! فيأخذ الثمينَ الذي فيه وهو، برأيه، كلّ ما يوافق مضمون الكتاب المقدس، ويطرح الغثّ الزائد وهو، برأيه، الذي لا يوافق مضمون الكتاب المقدّس! فتكون النتيجة أنّ القرآن منحولٌ عن الكتاب المقدّس، بدلالة هذه الموافقات التي فيه للكتاب المقدّس!!! وفي تحليله لمضمون هذا الكتاب، يذكر هاغمان أنّ هنالك ثلاثة شواهد فيه تدلُّ بوضوح على ما سَمّاهُ (اللاهوت الكويسي)، وهي التأويل الصحيح للقرآن، ومن ثمّ توجيه المسلمين، وأخيراً إثبات عقلانية ما ورد في العقيدة المسيحيّة.

---

[1] هاغمان، [م. س]، ص ١١٠، بتصرّف.

[2] عبد المحسن، [م. س]، ص ٣٧.

أمّا عن التأويل الصحيح للقرآن، فلم يُرِدْ به الكويسي التفسيرَ الصحيحَ المبني على الضمير والوجدان، بل يَقصدُ به تأويل القرآن من زاوية النظر المسيحيّة تأويلاً حسنَ المقاصد طيّب السريرة، واسع الصدر!! كما أنّه يقصدُ بالتوجيه الأخذ بيد المسلمين ليقودهم إلى فهم العقيدة المسيحيّة، ويوجّههم نحو فهم التثليث المسيحي!! أمّا العقلانية، فأراد بها أن يُثبتَ للذين يستخدمون عقولهم أنّ الإيمان بالتثليث إنما كان لدوافع عقلانية!!!.

ولعلَّ المحاولة السابقة التي قام بها الكويسي هذا لغربلة القرآن وتمحيص النظر فيه لأخذ الثمين وطرح الغثّ إنما كانت نابعةً، وبالدرجة الأولى، من اعتقاده بأنّ الإسلام في أصله إنما هو هرطقةٌ مسيحيّةٌ مُشتقّةٌ من الهرطقة النسّطوريّة. وهو في قوله هذا لم يأتِ بجديدٍ وإنما يكرّرُ ما كان سائداً في محيطه العام، ويردد هذه الفرية التي سبقه إليها عشرات الرهبان الذين كانوا يبحثون عن أكاذيب يلصقونها بالإسلام لصدِّ الناس عنه؛ حتى إنّه في محاولته لإثبات صحّة قوله هذا (الإسلام هرطقة نسطورية)، إنما كان يردّد وبالحرف مزاعم أسلافه وسابقيه من الرهبان في هذا الصّدد، فنراه يجترُّ حكاية تتلمُذِ محمد ﷺ على يد بحيرا الراهب النسطوري، "ولا يستبعدُ إمكانية التأثير النّسطوري على محمدٍ ومحيطه الفكريّ ما دامت النسطوريّةُ في ذلك الوقت واسعة الانتشار في مجال الشرق الأدنى"[١].

والذي نسجّله موقفاً في صالح نيكولاس الكويسي هذا، صراحته وصدقه في الإخبار عن المصادر التي أخذ منها معلوماته عن الإسلام ورسول الله محمد ﷺ، وتوثيقه لها في بداية كتابه "نظرة في القرآن"، وهي كتبٌ كنا قد عرضنا لمعظمها ووقفنا عليها بالنقد والتحليل وهي[٢]:

١. ترجمة القرآن إلى اللاتينية بتكليف من بطرس المبجَّل، التي أنجزها روبرت ألكيتوني.
٢. الرسالة التي يشار إليها بالعربية باسم "رسالة عبد الله بن إسماعيل الهاشمي إلى عبد المسيح بن اسحق الكندي، ورسالة الكندي إلى الهاشمي"، وهي من أشهر الدفاعات المسيحية باللغة العربية.

---

[١] هاغمان، [م. س]، ص ١١٣.
[٢] المرجع السابق نفسه، ص ١١٤، ١١٥ بتصرف.

٣. "كتاب السيرة المحمدية Liber generationis Mahumet"، الذي يتضمَّنُ عدداً من حكايات الخلق اليهودية الإسلامية، وكذلك عرضاً لنسب محمدٍﷺ، وقد يكون الأصل العربي كتاب "نسب رسول الله" لسعيد بن عمر.
٤. "الحكايات الإسلامية / Fabulae Saracenorum"، وهو أحاديثُ إسلاميةٌ ذات تلاوين دينيةٍ، وفيه تاريخ محمّدٍ، ولمحاتٌ من سير الخلفاء السبعة الأوائل.
٥. "مذهب محمّد / Doctrina Mahumet" باللاتينية، وهو خليطٌ من الحكايات الإسلامية واليهودية في صورة تمثيليةٍ من سؤالٍ وجوابٍ بأسلوب تعليم أصول الدين، أما الأصل العربي فهو: "مسائل عبد الله بن سلام".
٦. "الخلاصة الجامعة لهرطقات المسلمين / Summa totius haeresis Saracenorum" بقلم بطرس المبجَّل.
٧. رسالة بطرس المبجّل إلى برنارد فون كليرفو.

وإضافةً لهذه المراجع السبعة الهامة يخصُّ نيكولاس الكويسي أربعةً من الكتب بالذِّكر، مشيراً إلى مدى أهميّتها وخصوصّيتها بالنسبة له، وهي:

أ. كتاب ركُلدُس دي مونتي كروتشي "ضد شريعة المسلمين".
ب. الرسالة المستفيضة، ورسالة "ضد إلحاد محمد"، وهما من تأليف ديونيسيوس كارتو سيانوس.
ج. "المقالة الوجيزة حول عقلانية الإيمان العائدة لكنتر الإيطالي"، وهي من تأليف توما الأكويني.
د. رسالة "ضد المبادئ الخاطئة في عقيدة محمد"، وهي من تأليف خوان دي توركمادا.

لم يكن مُستغرباً إذاً أن يتشابه موقف نيكولاس الكويسي من الإسلام ونبوّة محمدِ ﷺ مع مواقف سابقيه من الرهبان المستشرقين، ولم يكن مُستغَرباً كذلك أن تتطابق مواقف هؤلاء الرهبان مع بعضها البعض فيما يتعلّقُ بالإسلام ونبوّة محمدٍ ﷺ؛ وذلك لأنّهم كانوا ينهلون من معينٍ واحدٍ، ويستقون من المصادر الملوّثة ذاتها؛ وهي المصادر التي سبق وأن وضعنا على مصداقيّتها عشراتٍ من علامات الاستفهام والتعّجب. والمؤلمُ في الأمر أنّ كُتُبَ ومصادر التراث الإسلامي ومخطوطاته كانت في متناولهم ومتوافرةً بكثرةٍ، بالذات في الأندلس، لكنّهم أبوا

إلاّ أن ينهلوا من المصادر التي توافق رأيهم وتدعم موقفهم، يجمعهم في ذلك همٌّ واحدٌ هو الدّفاع عن العقائد المسيحيّة في وجه الإسلام، حتّى ولو أدّى بهم الأمر إلى تشويه حقائق الإسلام وقلبها وتزويرها، فالغاية عندهم تبرِّرُ الوسيلة!!.

المبحث الثالث
نماذج من الاستشراق الديني المعاصر
أولاً: برنارد لويس

لقد ارتأينا البدء بالحديث عن برنارد لويس[١]، وذلك لأمرين، أولهما مراعاة التسلسل الزمني التاريخي، حيث كان لويس أقدم الرجال الثلاثة الذين اخترنا الترجمة لهم من حيثُ الميلاد. وثانيهما لأنَّهُ كان بمثابة المعلِّم والموجِّه الأكبر لهم، حيث حملوا آراءه ونظريّاته وعملوا على نشرها واستوحوا أصول معظم نظرّياتهم وأفكارهم من معتقداته وأفكاره عندما كان يعمل مدرّساً في جامعة لندن لمدّةٍ زادت على الخمسة عشر عاماً، ومن بعدها في جامعة برنستون بولاية نيوجرسي الأمريكية لمدّةٍ تزيدُ على العشر سنوات.

قضى لويس حياته الأكاديميّة يدرّس ويتحدّث عن التاريخ الإسلامي والحركات الإسلامية والعالم الإسلامي وواقع المسلمين، وألّف في ذلك ما يزيدُ على العشرين مؤلَّفاً، ممّا حدا بالكثير من الكُتَّاب والمؤرّخين المعاصرين لِيُطلقوا عليه ألقاباً متعدّدةً مثل كبير المستشرقين، وعميد الاستشراق، وشيخ دراسات الشرق الأوسط ... ولهذا الرجل صَوْلاتٌ وجولات كثيرةٌ مع حاضر المسلمين وتاريخهم وله دورٌ هام وخطيرٌ تمثّل في لفت أنظار العالم الغربيّ وبالذات الولايات المتحدة الأمريكية إلى أنّ الإسلام هو الخطر الأكبر والأوحد الذي يتهّدد الحضَارة الغربيّة وقيمها بعد انهيار الشيوعية في الإتحاد السوفياتي عام ١٩٩١. وكان برنارد لويس أوّلَ مَن أطلق على الإسلام مُسمّى "الخطر الأخضر"[٢].

---

[1] ولد لويس في ١٩١٦/٥/٣١م وتلقى تعليمه الأول في كلية ولسون والمدرسة المهنية حيث أكمل دراسته الثانوية. التحق بجامعة لندن لدراسة التاريخ ثم انتقل إلى فرنسا للحصول على دبلوم الدراسات السامية سنة ١٩٣٧م متتلمذاً على يد المستشرق الفرنسي ماسنيون وغيره. ثم عاد إلى جامعة لندن، كلية الدراسات الشرقية والأفريقية وحصل على الدكتوراه عام ١٩٣٩م عن رسالته القصيرة حول أصول الإسماعيلية.
استدعي في أثناء الحرب العالمية الثانية لأداء الخدمة العسكرية وأعيرت خدماته لوزارة الخارجية من سنة ١٩٤١م حتى ١٩٤٥م، عاد بعد الحرب إلى كلية الدراسات الشرقية والإفريقية لتدريس التاريخ الإسلامي وأصبح أستاذ كرسي التاريخ الإسلامي عام ١٩٤٩م ثم أصبح رئيساً لقسم التاريخ عام ١٩٥٧م، وظل رئيساً لهذا القسم حتى انتقل إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٧٤م.
دُعي للعمل استاذاً زائراً في العديد من الجامعات الأمريكية والأوروبية منها جامعة كولمبيا وجامعة انديانا وجامعة كاليفورنيا بلوس انجلوس وجامعة اكلاهوما وجامعة برنستون التي انتقل إليها وبدأ العمل فيها من ١٩٧٤م حتى تقاعده عام ١٩٨٦م. وهنا عُيّن مديراً مشاركاً لمعهد أنانبرج اليهودي للدراسات اليهودية والشرق أوسطيّة في مدينة فيلادلفيا بولاية بنسلفانيا.
قدّم خدماته واستشاراته لكل من الحكومة البريطانية التي كلفته القيام برحلة إلى العديد من الجامعات الأمريكية وإلقاء الأحاديث الإذاعية والمتلفزة عام ١٩٥٤م، كما قدم استشاراته للكونجرس الأمريكي أكثر من مرة. وفي إحدى المرات (في ٨ مارس ١٩٧٤م) ألقى محاضرة في أعضاء لجنة الشؤون الخارجية بالكونجرس الأمريكي حول قضية الشرق الأوسط ولأهمية هذه المحاضرة نشرتها وزارة الخارجية الإسرائيلية بعد أسبوعين من إلقائها.

[2] الفرّا [م. س]، ص ٩٧.

كتب برنارد لويس الكثير من المؤلفات المتعلّقة بالإسلام والمسلمين والعرب والحضارة الإسلامية قديماً وحديثاً، ومن أبرز هذه المؤلّفات وأهمّها ما يلي:

١. "العرب في التاريخ" (The Arabs in History).
٢. "ظهور تركيا الحديثة" (The Emergence of Modern Turkey).
٣. "الحشاشون: فرقة متطرفة في الإسلام" (TheAssassins: Radical Sect in Islam).
٤. "المسلمون يكتشفون أوروبا" (The Muslim Discovery of Europe).
٥. "يهود الإسلام" (The Jews of Islam).
٦. "الإسلام: من النبي محمد وحتى فتح القسطنطينية" (Islam: From the Prophet Muhammad to the Capture of Constantinople).
٧. "لغة السياسة في الإسلام" (The Political Language of Islam).
٨. "عالم الإسلام: إيمان وشعوب وثقافة" (The World of Islam: Faith, People, Culture).
٩. "الإسلام والغرب" (Islam and the West).
١٠. "الإسلام في التاريخ: أفكار وشعوب وأحداث في الشرق الأوسط" (Islam in History Ideas, People and Events in the Middle East)
١١. "ما الخطأ"؟ (What went worng?)
١٢. "أزمة الإسلام: الحرب المقدّسة والإرهاب غير المقدَّس" (The Crisis of Islam: Holy War and Unholy Terror).

وهذه الكتب جميعها مُترجمةٌ إلى اللغة العربيّة وهي متوفّرةٌ في الأسواق وفي الكثير من مكتبات الجامعات. لقد لعبتْ كتابات لويس دوراً هامّاً وخطيراً في إثارة خوف الغربيين من الإسلام وحضارته ونُظمه وتشريعاته، و"كانت بحوثه في مجملها صيحاتٍ تحذيريةً هدفها تذكير المجتمعات الأمريكية والأوروبية أنَّه ما مِن يومٍ في التاريخ واجهت فيه المقاومةَ إذا غزتْ، والهزائمَ إذا غُلِبتْ في مواجهتها مع سكان غرب آسيا وشمال أفريقيا إلاّ وكان الإسلام هو القوة التي تُنزِلُ هذه النكبات والهزائم. وخلال ذلك يبيِّنُ أنه ابتداءً من الماضي حتى الوقت الحاضر كان الإسلام هو القوة التي جاءت بسكّان شمال أفريقيا إلى إسبانيا لتحتلها ثمانية قرون، وأنه

هو الذي قاد العثمانيين إلى أبواب فينّا وإلى وسط مصر، وأنه هو القوة التي حاول السلطان عبد الحميد الثاني أن يستعملها ضد أوروبا"[1].

لقد وُجِّهتْ انتقاداتٌ عديدةٌ للمنهج الذي كان يتّبعه لويس في كتاباته السّابقة، ويمكن تلخيص أبرز الانتقادات الموجّهة إليه فيما يلي[2]:

أولاً: الانتقائية؛ حيث يختار من الحقائق، ومن السياقات التاريخية فقط ما يؤيد رؤاه.

ثانياً: التعميم في غير محلّه؛ حيث يعتبر الجزئية أساساً ويُلغي الكليّة، ويعتبر الفرد ويترك الجماعة، ويعتبر الفرقَ ويُضرِبُ عن الأصل.

ثالثاً: وهو يجيد توظيف الحقائق الصغيرة على نحوٍ يجعلك تُعجَبُ ببراعته وقدرته على الإقناع، ببداهاتٍ ومعلوماتٍ تُنتزَعُ من سياقاتها لتوظَّفَ في سياقاتٍ أخرى.

رابعاً: وكصاحب قضيةٍ، دخل برنارد دائماً بآراء مسبّقةٍ، حاول أن يجدَ لها في عالم الإسلام والمسلمين شواهدها.

خامساً: يركِّزُ برنارد لويس في كتاباته عن الإسلام والمسلمين والعرب والعالم العربي على مجموعةٍ من الآليات الخطيرة، مثل آليات التهويل، والبتر والتقطيع، وآلية التهوين (الإهمال). فهو يهوّل ما كان هامشياً أو عفوياً أو قليل الحضور في التاريخ الإسلامي والثقافة والحضارة الإسلامية ويهوِّن (يهمل) ما كان غالباً مهيمناً في الحاضرة والفكر الإسلامي وفي الثقافة الإسلامية.

---

(1) الكيلاني، ماجد، الهجوم على الإسلام والمسلمين، صيحة برنارد لويس أو حيي بن أخطب الجديد. مقالة منشورة على موقع دهشة الإلكتروني www.dahsha.com.

(2) انظر: أ. بدران بن الحسن، برنارد لويس وصهينة الدراسات الاستشراقية. دراسة منشورة بتاريخ ٢٠٠٥/٣/٦ على الموقع الإلكتروني "الإسلام اليوم" www.islamtoday.com.

ب. خليل الصغير، برنارد لويس بطريرك الاستشراق: ليتذكر المسلمون نعمة الاستعمار. دراسة منشورة بتاريخ ٢٠٠٤/١٢/٢٦ في الموقع الإلكتروني لمجلة بنت جبيل www.bintjbeil.com.

ج. أنس حسن، برنارد لويس ... تسامح ماكر ومعرفة موجّهةٌ. دراسة منشورة على الإنترنت بتاريخ ٢٠٠٨/١١/٤ في الموقع الإلكتروني لمجلة لواء الشريعة www.shareah.com.

سادساً: كما أنه يمارس بتراً وتقطيعاً لكثيرٍ من الحقائق، ويقوم بتغييبها ويعمل على تجاهل أو عزل الأحداث والأفكار عن سياقها الطبيعي، فالقارئ لما كتبه ويكتبه برنارد لويس يجد وكأنَّ الحضارة الإسلامية والتاريخ الإسلامي لا يوجد به غيرُ الحشّاشين والإسماعيلية والقرامطة، وبعض الفرق المنحرفة الأخرى التي بادت أو انحصرت عن التيار العام للإسلام والثقافة والحضارة الإسلامية والتاريخ الإسلامي.

سابعاً: ومما يُلاحظ على كتاباته عن التاريخ الإسلامي أنه يُبرز كلَّ الفرق المنحرفة والانحرافات الفكرية التي لا يمكن بحالٍ أن تطغى على الخط العام المعتدل في التاريخ الإسلامي.

ثامناً: أمَّا أكثرُ نقاط النقد لأفكار برنارد لويس إثارةً للجدل فهي تلك التي تتصل بأسلوب التنميط والتعميم الذي يمارسه لويس في حق العرب والمسلمين، فهو ينتقي مَوَادَّهُ بشكلٍ يصعب على النقّاد محاججته أو التشكيك بصحتها. وهو يستشهد، إضافةً إلى آياتٍ من القرآن الكريم وأحاديث الرسول، بوقائع تاريخيةٍ، قديمةٍ وحديثةٍ، تنتمي إلى حقبةٍ معينةٍ وتتصل بفئةٍ أو بمجموعةٍ أو مجتمعٍ إسلاميٍ بعينه، ثم يقوم بتحليلها وإسقاط نتائج ذلك ومدلولاته، بشكل تعميميٍّ سافرٍ، على العرب والمسلمين جميعا وعلى امتداد تاريخهم، أو على حقبةٍ كاملةٍ منه.

تاسعاً: يُلاحَظُ على كتاباته الخاصّة بالتاريخ الإسلامي أنّه يُبرز الشوائب والأعشابَ الضارّةَ التي ظهرت طوال التاريخ الإسلامي ويحاول أن يُقنعَ بها مَن يتابع مؤلّفاته أنها أصلٌ وجذرٌ لهذا التاريخ.

عاشراً: كان يتبسّطُ في كثيرٍ من المسائل والقضايا، ويتجاهل قضايا ومسائل أُخرى كثيرةً، ويقومُ عن عمدٍ بتشويه صورة الإسلام وتحريف تاريخ المسلمين وتشويهه.

لن نخوض في كتب برنارد لويس للوقوف من خلالها على حقيقة موقفه المعادي للإسلام الكاره لأهله فذاك أمرٌ يطول، لكننا سنقتصر على ذكر مقتطفاتٍ من مقابلاتٍ

صُحُفيّةٍ وأخرى مُتلفزةٍ أُجريت معه وضّح فيها بما لا يدعُ مجالاً للشك رأيه في المسلمين، ومن ذلك ما يلي[1]:

في مقابلةٍ أجرتها بعضُ وكالات الإعلام مع برنارد لويس في ٢٠٠٥/٥/٢٠ قال الآتي: "إنَّ مفهوم الحرية عند العرب والمسلمين ليس مفهوماً سياسياً وإنما هو حُكمٌ قضائيٌّ، فأنتَ في هذا المفهوم تصبح حراً إذا كنتَ قبل ذلك رقيقاً؛ فالحرية بمفهومها السياسي بضاعةٌ غريبةٌ عن العرب والمسلمين، استوردوها وما زالوا يستوردونها من الغرب ابتداءً من حملة نابليون على مصر حتى الوقت الحاضر ... إن العرب والمسلمين قومٌ فاسدون، مُفسدون، فوضويون لا يمكن تحضيرهم، وإذا تُرِكوا لأنفسهم فسوف يفاجِئون العالم المتحضّر بموجاتٍ بشريةٍ إرهابيةٍ تدّمر الحضارات وتقوِّضُ المجتمعات، ولذلك فإن الحلَّ السليم للتعامل معهم هو إعادة احتلالهم واستعمارهم وتدمير ثقافاتهم الدينية وتطبيقاتها الاجتماعية،وفي حال قيام أمريكا بهذا الدور فإن عليها أن تستفيد من التجربة البريطانية والتجربة الفرنسية في استعمار المنطقة لتجنُّب الأخطاء والمواقف السلبية التي اقترفتها الدولتان ... إنه من الضروري إعادة تقسيم الأقطار العربية والإسلامية إلى وحداتٍ عشائريةٍ وطائفيةٍ، ولا داعي لمراعاة خواطرهم أو التأثر بانفعالاتهم وردود الأفعال عندهم، إمَّا أن نضعهم تحت سيادتنا، أو نَدَعَهم ليدمِّروا حضارتنا ... يجب تضييق الخناق على هذه الشعوب ومحاصرتها واستثمار التناقضات العرقية والعصبيات القبلية والطائفية فيها قبل أن تغزو أمريكا وأوربا لتدمِّرَ الحضارة فيها.

وفي مقابلة أخرى قال برنارد لويس[2]:

"إني أرى المسلمين وهم يكتسحون أوروبا ويعملون على فرض الهيمنة الإسلامية فيها، والمطلوب ـ إذن ـ أن يحدث العكسُ تماماً، وأيُّ تهاونٍ في هذا سوف يؤدي إلى نجاح الاستعمار الإسلامي في القارة، وسوف يكون المستقبل إمّا أن ينجح المسلمون في الاستيلاء على أوروبا، أو ينجحَ الأوروبيون الأصليّون في حماية القارة وابتلاع الجاليات الإسلامية المقيمة على أراضيها".

---

(1) لقراءة نص المقابلة كاملة أنظر "Bernard Lewis "Bring them or they destroy us على موقع www.realclear.politics في شهر ٢٠٠٦/٩.

(2) لقراءة نصّ المقابلة كاملةً أنظر "Muslims about to take over Europe" في موقع www.Jihadwatch.org بتاريخ ٢٠٠٧/١/٢٩.

ولعلّ ما سبق ذكره من نُصوص هذه المقابلات الصحفيّة والمتلفزة أكبرُ دليلٍ على مدى الحقد والكراهية التي يكنّها هذا المُستشرق للعرب والمسلمين، كيف لا وهو القائل: "إنّ الإسلام لا يمكنُ أنّ يتطوّر وإن حضارته هي حضارةُ بدوٍ أجلافٍ تختلفُ عن الحضارة الغربية"[١] والقائل: "إنّ سببَ فشل المسلمين في مواجهة تحدّيات الحداثة هو تمسّكهم الطوطميّ بأمجاد تاريخهم وموروثهم من هذا التاريخ، وهو ما يؤدي إلى انسداد الأفق أمام المُحَدّثين في نظرتهم الموضوعية إلى ما تعاني مجتمعاتهم من تخلّف"[٢]. ما من شكٍّ في أنّ برنارد لويس ومن خلال عباراته وتصريحاته قد ساهم في ترسيخ نظرةٍ دونيةٍ لدى الغربيين تجاه الإسلام والمسلمين، وكان حريصاً تمام الحرص على انتقاء عباراتٍ تُذكي روح العداء الغربيّ للإسلام والكراهية الناجمة عن التخويف منه، ومن ذلك عبارته الشهيرة "إذا كان المقاتلون في سبيل الإسلام ـ الحرب المقدسة في سبيل الله ـ يقاتلون من أجل الله، فإنّ ذلك يستتبع القول إنّ خصومهم يقاتلون ضدّ الله، وبما أن الله هو المهيمن ومصدر السلطات من حيث المبدأ، وهو أيضاً القائد العُلويّ للدولة الإسلامية،والنبي وخلفاؤه من بعده وكلاء مباشرون عنه، فإن الله إذاً هو راعي الجيش وقائده، الجيش هو جيش الله، والأعداء هم أعداء الله، فواجب جنود الله إذاً هو إرسال أعداء الله بأقصى سرعةٍ ممكنةٍ، إلى حيث سيتولىّ الله بنفسه معاقبتهم وتأديبهم، أي إلى الآخرة"[٣].

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن: هل تلقّى الغربُ عبارات لويس السابقة وتحليلاته واتهاماته للإسلام والمسلمين بالقبول؟ أم أنّه رفَضَها؟ أم أنّه حاول فحصها وتمحيصها وتدقيقها للتأكّد من مدى صحّتها ومصداقيتها؟؟ والإجابة، للأسف، أنّ الغرب في معظم دوائر صنع القرار فيه، قد أخذَ عبارات لويس تلك على أنّها مُسلّماتٌ وحقائقُ تكاد لا تقبل النقاش ، بل كان الأمر أبعدَ من ذلك وأخطرَ حيث أثارت عباراته وأفكاره إعجاب الكثيرين من الأكاديميين والإعلاميين والساسة في الغرب، ونستذكر في هذا الصّدد عبارة نائب الرئيس الأمريكي السابق ديك تشيني "... وكما كافح الذين سبقونا من أجل الحرية والمساواة ... فنحن اليوم نقوم بمسؤولية الكفاح ضدَّ الإرهاب الإسلامي وسوف نستمر في اللجوء إلى فكر برنارد لويس

---

(١) الشمعة، خلدون، خطاب أبلسة الآخر .. برنارد لويس واكتشاف الإسلام لأوروبا، بحث مشارك في ندوة الرحّالة العرب والمسلمين "اكتشاف الذات والآخر"، المنعقدة في الرباط في أواخر شهر أيار ٢٠٠٩.
(٢) الصغير [م. س]، ص ٥.
(٣) أنس حسن، [م. س]، ص ٣.

القوي، الصلب؛ ليمدنا بالتفاؤل والقرارات السليمة ... لذلك هو إنسانٌ موهوبٌ، مخلِصٌ، ويستحق طول العمر، ونحن نشعر بالامتنان لأعماله، ونعترف بجميله[١].

وواضحٌ من عبارات نائب الرئيس الأمريكي السّابق هذه مدى تأثّر صُنّاع القرار في الغرب بآراء لويس ونظرياته حتّى إنّ نائب الرئيس هذا قد اقتبس من أقوال برنارد لويس في حديثٍ مُتَلفزٍ على الهواء عشية شنّ الحرب على العراق قول لويس: "إنّ المسلمين لا يستجيبون سوى للقوة وحدَها ومن ثمّ ينبغي التعامل معهم بكلّ حزمٍ وصرامة"[٢].

لقد أمعن هذا الرجل في طعنه الظاهر والمبطَّنِ بالإسلام والمسلمين مما دفع الأستاذ جلال أمين[٣] ليخصّه بمقالةٍ جريئةٍ لاذعةٍ نُشرت في جريدة الحياة اللندنية بتاريخ ٢٦ – ٢٠٠٣/٧/٢٧ فنّد فيها أبرز العناوين التي أوردها لويس في كتابه الأخير (أزمة الإسلام، حربٌ مقدّسةٌ وإرهابٌ غير مقدّس).

وقال: إنّ من الممكن للقارئ أن يستخلصَ من الكتاب بسهولةٍ مجموعةً من المبادئ العامة تصلح دليلاً ممتازاً لأيِّ شخصٍ يستهدفُ تشويه الإسلام والمسلمين. هذه المبادئ تصلح لأن تُنشرَ في كتابٍ مستقلٍ بعنوانٍ مثل "دليل الرجل الذكيّ إلى التشهير بالإسلام والمسلمين". ثُمَّ قام الأستاذ جلال أمين بشرح ما استخلصه من كتاب لويس السابق من مبادئ ولخَّصَها آملاً أن يكتشفَ القارئ لهذا الكتاب حقيقته ويفهم طبيعته ... وقد كان أبرز هذه المبادئ ما يلي[٤]:

المبدأ الأول: وهو أبسط المبادئ وأوضحها، لا تدّخر أيَّ جهدٍ في الحاق أيِّ وصمة عارٍ (وعلى الأخص ما يعتبره الأميركيون الآن وصمة عار) بالإسلام والمسلمين. الصورة

---

[1] الكيلاني، [م. س]، ص ٤.

[2] انظر عرض محمد الخولي لكتاب (الإسلام في زمن العولمة لمؤلفه البروفسور أكبر أحمد) ـ الحلقة الثالثة ـ المنشور في الموقع الإلكتروني لجريدة البيان الاماراتية بتاريخ ٢٠٠٨/٢/٢٩.

[3] جلال الدين أحمد أمين: عالم اقتصاد وأكاديمي مصري، تخرج من كلية الحقوق جامعة القاهرة عام ١٩٥٥، حصل على الماجستير والدكتوراه من جامعة لندن. شغل منصب أستاذ الاقتصاد بكلية الحقوق بجامعة عين شمس من ١٩٦٥ – ١٩٧٤ وعمل مستشاراً اقتصادياً= =للصندوق الكويتي للتنمية من ١٩٧٤ – ١٩٧٨ كما عمل أستاذاً زائراً للاقتصاد في جامعة كاليفورنيا من ١٩٧٨ – ١٩٧٩ وأستاذا للاقتصاد بالجامعة الأميركية بالقاهرة من ١٩٧٩ وحتى الآن. ومن أهم مؤلفاته عولمة القهر، وعصر التشهير بالعرب والمسلمين، وخرافة التقدّم والتأخّر.

[4] للمزيد، انظر صحيفة الحياة الصادرة من لندن في العددين السابقين المنشورين بتاريخ ٢٦ و٢٠٠٣/٧/٢٧.

الإجمالية التي يخرج بها القارئ عن المسلمين لا بُدَّ أن تكونَ قبيحةً للغاية،ومن مختلف الجوانب والزوايا.

المبدأ الثاني: يتعلق بالكراهية، إذ لا يكفي أن يكون هذا العدو (العربي والمسلم) حافلاً بمختلف النقائص والعيوب، بل يجب أن يحمل أيضاً قدراً كبيراً من الكراهية العمياء لأصدقائك ، وعلى الأخصّ للأميركيين.

المبدأ الثالث: لا يكفي أن يكون عدوك مليئاً بالعيوب، ويحمل لك فائق الكراهية، بل لابد أيضاً أن يكون قوياً وقادراً على الإضرار بك. فما الذي يُخيفُ من عدوٍ مهما كان متخلِّفاً وكارهاً لك، إذا كان ضعيفاً لا يستطيع إيذاءك؟

المبدأ الرابع: وهو على قدرٍ كبيرٍ من الأهميّة، أن تحاولَ قدر الإمكان ألَّا تُظهِرَ هذا العدو على أنه مجرد حفنةٍ قليلةٍ من الأشخاص، أو نسبةٍ صغيرةٍ من المسلمين، بعبارةٍ أوضح، يجبُ أن تبذلَ كل جهدك للقضاء على أيِّ تمييزٍ قد يوجد في ذهن القارئ (والموجود في الحقيقة) بين المسلمين المستعدِّين للقيام بأعمال العنف، وغيرهم من المسلمين، أو بين مَنْ يُسمَّون بالمتطرفين والمعتدلين، أو بين الأصوليين وغير الأصوليين.. إلخ" مثل هذا التمييز يضرُّ بقضيتك بالغ الضرر. فالمطلوب أن يخرج القارئ بانطباعٍ سيئٍ عن المسلمين بوجه عام، حتّى يمكن ضربهم بوجهٍ عامٍ.

المبدأ الخامس: لا تنسَ أنّ للمسلمين حججاً مضادّةً لحججكَ وبعضها لا يخلو من قوةٍ جعلت الكثيرين يشكّون في سلامة موقفنا، وكسبت للمسلمين والعرب أنصاراً في مختلف البلاد، بما فيها الولايات المتحدة نفسها، إلى درجة أنّ بعض الرجال والنساء الأميركيين والأوروبيين ذهبوا إلى فلسطين لشدّ أزر المقاومة والدفاع عنهم، بل ودفع بعضهم حياته ثمناً لهذه المؤازرة. فما هي طريقة التعامل المثلى مع هذه الحجج؟ لا تظن أنّ من الأفضل تجاهلها وكأنها غير موجودةٍ، إذ سيظلُّ البعض يعيدها ويكرّرها وسيضرّ هذا بموقفك. الأفضل أن تذكر هذه الحجج وتردَّ عليها، ولكنّ الأثر النهائي سيتوقّفُ على طريقة عرضك لهذا الحجج وطريقتك في الردِّ عليها.

ولعلنا نستطيع بعدّ كلٍّ ما سبق ذكره أن نفهم سبب وصف الأستاذ محمد علي الفرّا لبرنارد لويس بأنّه "المستشرق الذي يحمل الكثير من الحقد والكره للعرب والمسلمين"[١]. كيف لا وقد صدر عنه كلُّ ما صدر من حقدٍ وكراهيةٍ وتشويهٍ وتزييفٍ لتاريخ أمّتنا وحاضرها ومن طعنٍ في ديننا واتّهامه بالتخلّف؟ ومن ذلك قوله "الإسلام لا يتطوّر والمسلمون لا يتطوّرون!!"[٢] وكان ولا زال يعتقدُ بأنّ الإسلام مجرّدُ عقيدةٍ لا ساميّةٍ وانّه مجردُ ظاهرةٍ جماهيريّةٍ لا ساميّة!! كان هذا البرنارد من أبرز دعاة الكراهية الغربيين للإسلام والمسلمين وكان يحملُ رسالة أجداده رهبان العصور الوسطى في التحريض على الإسلام وحثّ الغربيين للنهوض لمحاربة أهله وغزو بلادهم والحرص على علاقةٍ صداميّةٍ سيئةٍ معهم، حتى قال فيه أكبر أحمد[٣] "إنّ مفكّراً عُرف بعدائه الشديد للإسلام مثل برنارد لويس ظلّ على مدار ثلاثين عاماً يؤثّرُ في سياسة أمريكا إزاء الإسلام"[٤].

إنّه حُيي بن أخطب هذا العصر، اليهوديُ الذي ما فتئ يثيرُ القيادات العسكرية الغربيّة ضد الخطر الإسلامي (الأخضر) المزعوم سالكاً درب جدّه حيي الذي ترأّسَ وفد يهود المدينة المنّورة آنذاك إلى مكّة والقبائل العربيّة، ليحرِّضَ قريشاً وأخواتها على قتال المؤمنين واستئصال شوكتهم من الأرض حتى أفلحوا في جمع القبائل لحرب المسلمين في غزوة الأحزاب (الخندق). "نفس الأمر قام ـ ولم يزل يقم به ـ البروفيسور برنارد لويس وفريقه، إذ لم تكد المؤتمرات الصهيونية التي عقدت في تل أبيب خلال الأعوام ١٩٧٠، ١٩٧٣ تنتهي من مناقشاتها عن طبيعة المواجهة القادمة مع الجبهة الإسلامية حتى أخذ لويس يطلق الصيحات من مكتبه في جامعة لندن في بريطانيا وفي جامعة برنستون في أمريكا، وكانت أولى هذه الصيحات مقالة الشهير بعنوان: "عودة الإسلام The Return of Islam" والذي نشره في مجلة ـ "كومنتري Commentary" التي تصدر في نيويورك ثم أعاد نشره في مجلة "ميدل إيست رفيو" ثم نشره مرةً ثالثةً في مجموعة الأبحاث التي حررّها البروفيسور "مايكل كيرتس" في مجلد واحد عنوانه: "الدّين والسياسة في الشرق الأوسط" واستمر ـ برنارد لويس ـ منذ

---

[1] الفرّا، [م. س]، ص ٩٧.

[2] الفرّا [م. س]، ص ٩٨.

[3] مفكر أمريكيٌ مسلمٌ من أصول باكستانية، يعمل مدرّساً في كلية الدراسات الإسلامية في الجامعة الامريكية بواشنطن، ويعملُ أستاذاً زائراً في مؤسّسة بروكنغر للبحوث والدراسات الاستراتيجية.أبرز مؤلفاته كتاب "الإسلام في زمن العولمة".

[4] الخولي [م. س].

ذلك الوقت ينفث في العقل الأمريكي والأوروبي بنفس الصيحات التحذيرية في كتبه التي تُطبعُ أو مقالاته التي تُنشر في المجلاّت والصحف وفي مواقع الإنترنت"[1].

ولعلّ هذا الدور الخطير في التحذير من الإسلام وخطره على الغربيين واستنهاض هممهم لمحاربته والقضاء عليه قد لعبه من قبله الرهبان (بطرس الناسك وبرنارد كليرفو وتوما الأكويني، وركلدس دي مونتي كروتشي وريموند لول ونيكولاس الكويسي) ولكنّ الذي اختلف عند برنارد لويس هو التسمية فقط؛ فبينما كان رهبان العصور الوسطى يستخدمون مصطلحاتٍ مثل "الخطر الإسلامي" و"المسألة الإسلامية" و"التهديد الإسلاميّ" نرى أن برنارد لويس يستخدم مصطلحاتٍ مثل "الإرهاب الإسلامي" و"التشدّد الإسلامي" و"الخطر الإسلاميّ الأخضر"، ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾[2]. وبالعودة للحديث عن مقالة الأستاذ جلال أمين التي شرّح وفنّد فيها كتاب لويس (أزمة الإسلام) نقتبس عبارةً هامةً جرت على لسان لويس قال فيها: "مشكلةُ المسلمين تنبع من موقفهم من التاريخ؛ إذ بينما يعيش سائر شعوب العالم عدا المسلمين، في الحاضر، وينظرون إلى المستقبل، يعيش المسلمون في الماضي ... المسلمون لا ينظرون إلى الأمة الواحدة على أنّها كيانٌ يتكوَّنُ من أديانٍ عدةٍ، بل يرون الدّينَ على أنه ينقسمُ إلى أممٍ عدّةٍ. ترتَّب على ذلك أنَّ نظرة المسلم إلى غير المسلمين هي أنهم "كُفّار"، وطريقة التعامل معهم هي "الجهاد"، أي محاربتهم حتى يتحوّلوا إلى مسلمين، ومن ثَّم فالبلادُ التي يسكنها غيرُ المسلمين هي في نظر المسلمين "دارُ حربٍ"، وعلى رأس البلاد التي يجب على المسلمين الجهاد ضدَّها هي الولايات المتحدة"[3].

هكذا إذاً فَهِمَ أستاذُ الدراسات الإسلامية وعميد المستشرقين وشيخ دراسات الشرق الأوسط الإسلامَ هكذا فَهِمَ الإسلامَ وكانت هذه خلاصة فهمه له بعد أن قام بتدريسه كمادةٍ لطلبة الجامعات لمدّةٍ زادت على الخمسة وعشرين عاماً!! ولعمري فإنَّ الظاهر أنّ لويس قد أحاطَ بكُلّ علوم الدراسات الدينية إلاّ الإسلامية منها، وهذا ليس مستغرباً، فإنه من الجليّ تماماً أنّه قد درس الإسلام بنفس الطريقة التي درسه بها رهبان العصور

[1] الكيلاني [م. س]، ص ٢، بتصرّف.
[2] سورة البقرة: الآية ١١٨.
[3] جلال أمين [م. س]، نقلاً عن كتاب (أزمة الإسلام، حرب مقدّسةٌ وإرهاب غير مقدّس) لمؤلفه برنارد لويس.

الوسطى؛ درسه ليبحث فيه عن تناقضاتٍ ومساوئ وسقطات!!! فكانت النتيجة الطبيعية لمثل هذا النوع من الدراسة ما نراه من مؤلَّفاته الكثيرة التي تخصّصت في الطعن في الإسلام والعمل على التخويف والتنفير منه، والصدّ عنه، وهي ذاتها الأسباب التي لأجلها خطَّ رهبان العصور الوسطى مؤلّفاتهم!!

نسي لويس، بل تناسى، أنّ الإسلام يؤسِّسُ علاقاته مع الدول غير المسلمة على ثوابت منها السلم والأمان وعدم اللجوء إلى الحرب إلا عند الضرورة القصوى، ووجوب الوفاء بالمعاهدات واحترام المواثيق!! نسي لويس أنّ الإسلام إنما جعل الحرب علاجاً لشذوذٍ لم ينفع معه علاج!! وهو عندما ذكر أنّ المسلمين ينعتون غيرهم بـ "الكفّار" فقد تناسى بل غابت عنه الذاكرةُ في أنّ كلّ رهبان وقساوسة وبابوات وحكام العصور الوسطى أطلقوا على المسلمين لفظ ووصف "كفّار"[(١)]!!!.

يبدو أنّ مرضَ فقدان الذاكرة المؤقَّت قد سُلِّط على الرهبان والمُستشرقين فلا يُصيبُ إلاّ هم ولا يؤثِّرُ على سواهم حتى أضحى مرضاً دائماً يستدعي اجتماع الخبراء والأطباء للعلاج، نسأل الله العفو والعافية!!!.

لم يختلف برنارد لويس في آرائه المتعلّقة بالإسلام ونبوّة محمدٍ ﷺ عن رهبان العصور الوسطى، فقد دأب هذا البرنارد على مهاجمة القرآن الكريم وانتقاده والزعم بأنّه "نصّ مقتبسٌ من الكتاب المقدّس وخصوصاً من التوراة. ففي طرحه لمقولة الوحي المزوَّر الكاذب يقول: إنّ بعض العلماء السوفيت يقولون بأنّ القرآن كُتِبَ في عهد الخلفاء، وقطعاً هناك علماء آخرون غربيون يعتقدون أيضاً أنّ القرآن كتبه شخصٌ ما وليس مُنـزَّلاً عن طريق الوحي"[(٢)]. كما يرى لويس "أنَّ القرآن قد اعترف رسمياً بالعصبية القبلية والعنصرية، وبالتفرقة على أساس العرق، واعترف رسمياً بالثأر والقصاص وبنظام العبودية، وأن الإسلام يعترف بالعبودية كنظامٍ اجتماعيٍ ويُعلن صراحةً أنّ حقوق السيِّد لا تتساوى مع حقوق العبد. وفي تحليله لقضية مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان [رضي الله عنه] كتب لويس: "إنّ ادعاء معاوية فيما يتعلق بالأخذ بثأر عثمان كان على أساس عادةٍ عربيةٍ قديمةٍ وهي العادة التي أيّدها القرآن الكريم

(١) راجع الفصل الأول، المباحث ٥ – ٨، والفصل الثالث، المباحث ٢ - ٨.

(٢) مهاجراني، السيد عطاء الله، الإسلام والغرب، ترجمة عادل سويلم، ص ١٣٩، ط١، ٢٠٠٦، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة.

وأكّدها..."[١]!! أمّا بالنسبة لرسول الله ﷺ فيرى لويس "أنَّ الرسول لم يكن مُطلقاً بصدد الإقدام على تأسيس دينٍ جديدٍ بل كان يريد فقط أن يكون له كتابٌ باللغة العربية كوحيٍ منزلٍ؛ لأنَّ الأمم الأخرى كان لها مثل هذه الكتب طوال التاريخ[٢].

لقد نصَّب لويس نفسه مُفسِّراً للكثير من آيات القرآن الكريم وشارحاً للكثير من المصطلحات والمفاهيم الإسلامية، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر فهمه وشرحه للجهاد؛ حيث يشرحه على النحو التالي: الجهاد هو الحرب المقدَّسةُ للإسلام، وهو فريضةٌ دينيةٌ، وهو واجبٌ اجتماعيٌ للجماعة ككُلٍّ، لكنهُ يصبح واجب كلِّ مسلمٍ في مناطق الحدود وساحات المعارك، أو حيثما يقرر الحاكم أو السلطان أنَّ الوقت قد حان للقيام به، وهو أيضاً واجبٌ دائمٌ لا يسقط إلاّ حين يدخل العالم كلُّهُ في الإسلام ... إذن يوجد بين المسلمين وبقية العالم، حسب رأي الفقهاء التقليديين حالةٌ من الحرب تفرضها اعتباراتٌ دينيةٌ وقانونيةٌ، ولا تنتهي حالة الحرب هذه إلاّ عندما يدخل جميع العالم في الإسلام أو يخضع له، لذا فإنَّ معاهدة سلامٍ بين الدولة الإسلامية ودولةٍ غير إسلاميةٍ كانت مُسْتحيلةً من الناحية الشرعيّة، فالحرب لا يمكن إنهاؤها، وإنما يمكن إيقافها لأسباب الضرورة، ولأسبابٍ ذرائعيةٍ فقط، عن طريق الهدنة. وهذا الإجراء في رأي الفقهاء، لا يمكن إلا أن يكون مؤقَّتاً، ويجب ألاَّ تزيد مدّته على عشر سنوات. ويستطيع المسلمون في أيِّ وقتٍ التنصُّلُ منه من طرفٍ واحدٍ، وإن كانت الشريعة تفرض عليهم أن يحيطوا الطرف الآخر علماً قبل استئنافهم للأعمال الحربية"[٣]!!!.

إنّ مكمن الخطورة، حسبما نراه في برنارد لويس يتمثّل في النقاط التالية:

أولاً: كان أوّل من أسَّسَ ونظَّرَ لمقولة "صدام الحضارات"، والدليل على ذلك أنّه استخدم هذا المصطلح في عام ١٩٥٧م في دراسةٍ له قدّمها إلى المؤتمر الذي نظّمته جامعة جون هوبكنز الأمريكية، والذي عُقد تحت عنوان "التوتر في الشرق الأوسط"[٤]،

---

[١] المطبقاني، مازن بن صلاح، الاستشراق والاتجاهات الفكريّة في التاريخ الإسلامي ص ١٤٤، ط١، ١٩٩٥ من منشورات مؤسسة الملك فهد الوطنية.

[٢] المرجع السابق نفسه، ص ٢٦٣.

[٣] لويس، برنارد، السياسة والحرب في تراث الإسلام، ترجمة إحسان العمد وحسين مؤنس ومحمد السمهوري، ص ٢٣٤، ٢٣٥ بتصرف الجزء الأول، ط٣، من منشورات عالم المعرفة.

[٤] انظر:

أ. النملة، علي بن إبراهيم، صناعة الكراهية بين الثقافات وأثر الاستشراق في افتعالها، ص ١٣٨، ط١، ٢٠٠٨، دار الفكر، دمشق. =

حيث أشار لويس إلى أن صدام الحضارات يفسِّرُ أسباب الكراهية من قبل دول المنطقة للولايات المتحدة رغم عدم وجود ماضٍ سلبيٍّ لها مع المنطقة، مؤكّداً أنه يمكن استيعاب هذا الفهم حسب كلماته [إذا نظرنا إلى الموقف على أنه ليس صراعاً بين دولٍ أو أممٍ وإنما صدام بين حضارات]. ويعيد لويس في دراسته المشار إليها التأكيد على طرحه مضيفاً أنه في تحليله للأوضاع في المنطقة ومحاولة استيعاب أبعاد الكراهية للسياسة الأميركية إنما حاول أن يرتقي بمستوى النقاش بشأن تناول النزاعات في الشرق الأوسط من مستوى نزاعٍ بين دولٍ إلى مستوى صدامٍ بين حضارات، وهو بالطبع يقصد الصدام بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية. وقد عزَّز لويس مفهومه هذا من خلال عملين تاليين له هما مقالته الشهيرة حول جذور الغضب الإسلامي التي نشرها في "Atlantic Monthly" عام ١٩٩٠ والتي يرى الكثيرون أنها تُعَدُّ المقدمة الأساسية التي بنى عليها هنتنغتون نظريته في صدام الحضارات، ثم كتاب حول "ثقافات في صراع cultures in conflict الذي صدر في العام ١٩٩٣.

وفي معرض تقديمه للمفهوم بشأن صدام الحضارات في "جذور الغضب الإسلامي" يقول لويس: إنّ زعماء الأصوليين لا يخطئون عندما يرون أن الحضارة الغربية هي أكبر تحدٍّ يواجه أسلوب الحياة الذي يرغبون في انتهاجه أو استعادته لشعبهم ... ويجب أن يكون واضحاً الآن أننا في مواجهة حالةٍ وحركةٍ تتجاوز بكثيرٍ مستوى القضايا والسياسات والحكومات التي تتابعها .. إنَّ هذا ليس أقل من صدامٍ بين الحضارات .. ربما يكون غير عقلانيٍّ ولكنّه بالتأكيد ردٌّ فعل طبيعيّ لمنافسةٍ قديمةٍ ضدّ تراثنا اليهودي المسيحي وحاضرنا العلماني والامتداد العالمي لكليهما.

ويرتب لويس على ذلك نتائجَ خطيرةً بقوله: إنه من المُستبعَدِ أن تخف حدّةُ الكراهية التي يكنّها المسلمون إزاء الولايات المتحدة إلا إذا تَغَيَّر الإسلام نفسُه وهو ما يعني

= ب. عبد الرزاق، مصطفى، قراءة في التطوّر التاريخي لنظرية صدام الحضارات، دراسة منشورة في الموقع الإلكتروني لصحيفة البيان الإماراتية، بتاريخ ٢٠٠٨/٧/٥.

ج. خليل الصغير [م. س].

د. أنس حسن [م. س].

هـ. بدران بن الحسن [م. س].

و. جلال أمين [م. س].

أنه على الولايات المتحدة أن تتخلّى عن التفاهم أو التقرُّب من المسلمين وإلاّ أسُيءَ فهمها إذ قد يفسِّرون هذا السلوك على أنه علاماتُ ضعفٍ وخشيةٌ تساور أميركا وليس علامات صداقةٍ أوحسن نوايا ... وسيأتي تفصيل القول في نظرية صدام الحضارات في المبحث التالي.

ثانياً: قدّم لويس نتائج الاستشراق الدّيني في صيغٍ عمليّةٍ تطبيقيّةٍ، وقد تَمَثَّلَ ذلك في حمل الكثيرين من الغربيين لآرائه ومعتقداته وتنفيذها على أرض الواقع، حيث ساهمت آراؤه في خلق موجاتٍ متتاليةٍ من الكراهية وأعمال العنف ضدّ المسلمين، بالذات أولئك الذين يعيشون في الغرب، وما نرى حادثة قتل شهيدة الحجاب المصرية الشابّة مروة الشربيني في قاعة محكمة درسدن الألمانية على يد الهمجي الألماني الروسيّ مندرجةً إلاّ تحت ذلك "فالهمجيُّ الألماني، الروسيّ الأصل، قاتل المواطنة المصرية الشابة مروة الشربيني في قاعة محكمة، في مدينة درسدن الكبيرة والعريقة،تحت أنظار الشرطة الألمانية، على مرأىً من زوج الفقيدة وطفلها ابن السنوات الثلاث لم يطعنها بالسكّين مرّةً واحدةً أو خمساً، بل ثماني عشرة مرة، لأنّ مشكلته معها كانت أبعد من مبلغ ألـ ٧٥٠ يورو الذي فرضته المحكمة غرامةً ماليةً جرّاء سلوكه العنصري ضدّ الشربيني. الأحرى القول إنّ الطعنات الثماني عشرة لم تكن تعبِّرُ عن الغيظ من الحكم القضائي، بل كانت تُصَفِّي حساباً عتيقاً ضارب الجذور، ضدّ حجاب السيدة المصرية من حيث الشكل والمظهر؛ وضدّ ما يُسمّى تارةً "الإسلام الأوروبي"، وطوراً "الإرهاب المسلم" من حيث المحتوى النطاق الأعرض"[(1)].

إننا نرى في الغرب اليوم مئات بل ألوف المتشنّجين والموتورين الذين يعادون الإسلام ويعتدون على المسلمين بعد أن حشت وسائلُ الاعلام الغربيّة الموجّهة كَنَسيّاً واستشراقياً وسياسياً عقولهم بموادّ كراهية الإسلام والخوف منه وذلك بوصفه الخطر القادم الجديد الذي يتهدّدهم وسَيُسَيطر على أوروبا وأمريكا مع نهاية القرن الحادي والعشرين!!! وما من شكٍّ في أنّ وسائل الإعلام هذه تستمدُّ موادّ الكراهية تلك من الأساتذة المستشرقين في الجامعات، أي بالمختصر المفيد من برنارد لويس وأمثاله. "انظروا، في المثال الأبرز، ما يقوله المستشرق برنارد لويس، في حوار مع صحيفة "دي فيلت" الألمانية [أوروبا سوف تكون جزءاً من المغرب العربي، وليس العكس. لماذا؟ لأنّ التوجّهات الحالية تُظهِرُ أنّ أوروبا

(1) صبحي حديدي، الصّلة بين مروة الشربيني وبرنارد لويس: صناعة الخطر الأخضر، مقالة منشورة في الموقع الإلكتروني لمجلة صفحات سوريّة الإلكترونية بتاريخ ٢٠٠٩/٧/١٢ بتصرف.

ستشهد أغلبيةً مُسلمةً في نهاية القرن الحادي والعشرين على أقصى تقدير، وإلى جانب الأعداد المتزايدة من المهاجرين العرب والمسلمين، فإن الأوروبيين يتأخرون في سن الزواج ولا يُنجبون سوى عدد قليل من الأطفال، بعكس مسلمي أوروبا الذين يتزوّجون في سنٍّ مبكّرةٍ وينجبون عدداً أكبر من الأطفال]. ثم تمعّنوا في ما قاله لصحيفة "جيروزاليم بوست" الإسرائيلية اليمينية [يوشك الإسلام على التحول إلى القوة المهيمنة في أوروبا، هذه التي باسم الانضباط السياسي، تنازلت عن خوض معركة الرقابة الثقافية والدينية](1).

ثالثاً: لم يكتفِ برنارد لويس بما سبق، وبما افتعله من الشّحن ضدَّ المسلمين بل إنّه تمادى وصرّح أكثر من مرّةٍ بمباركته للحروب الصليبيّة ودفاعه عنها لأنّها حسْب رأيه، تقليدٌ ناجحٌ للقضاء على الجهاد. وآخر تصريحاته تلك نشرتها صحيفة "Wall Street Journal" في شهر نيسان من عام ٢٠٠٧، حيث قالت الصحيفة "إنّ "لويس" وصف هجرة المسلمين إلى أوروبا بأنها هجومٌ إسلاميٌّ على الغرب، ودافع عن الحملات الصليبية معتبراً أنها تقليدٌ متأخّرٌ ومحدودٌ وناجحٌ للقضاء على الجهاد، أدت إلى منع نشر الإسلام في كثيرٍ من مناطق العالم. وأضافت الصحيفة: إنّ لويس قدَّم تأييداً واضحاً للحملات الصليبية الفاشلة وأوضح أنّ الحملات الصليبية، على بشاعتها، كانت ردّاً مفهوماً على الهجوم الإسلامي خلال القرون السابقة، وأنه من السُّخف الاعتذار عنها. لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يشير فيها "لويس" إلى الحملات الصليبية باعتبارها ضرورةً، بل محاولةً ناجحةً للحدِّ من نفوذ الحضارة الإسلامية. فبعد وقتٍ قصيرٍ من هجمات ١١سبتمبر كتب "لويس" يقول: إن الحملات الصليبية يمكن وصفها بشكلٍ أكثر دقةً باعتبارها رداً محدوداً ومتأخراً، وفي التحليل الأخير غيرَ فعّالٍ، للرد على الجهاد"(2).

ويكفينا في الختام أن نستذكر قوله "إنّ هدفَ الإسلام في هذا العصر هو إبادة القوى المركزيّة في العالم ... لقد شهد المسلمون كيف دُمِّرَ الرايخ الألماني الثالث [النظام النازي في ألمانيا] إبان الحرب العالمية الثانية ثم شهدوا انهيار الاتحاد السوفياتي، والآن يسعون إلى انهيار الولايات المتحدة الأميركية"(3)!!.

---

(1) المرجع السابق نفسه بتصرف.

(2) انظر الموقع الإلكتروني لوكالة الأخبار الإسلامية نبأ www.islamicnews.net بتاريخ ٢٠٠٧/٤/٩ نقلاً عن صحيفة wall street journal.

(3) جريدة الشرق الأوسط، العدد ١٠٣٠٩ بتاريخ ٢٠٠٧/٢/١٨.

ها قد جاوز برنارد لويس الثالثة والتسعين ودخل في خريف العمر منتظراً سقوط ورقته، والسؤال الذي يطرح نفسه الآن: أرأينا إن كان هذا البرنارد قد مات أو قُتِل فهل ستنتهي موجات الكراهية التي أثارها؟ وهل ستعود العلاقاتُ طيبّةً بين الشرق المسلم والغربي المسيحي من جديد؟؟ الجواب هو قطعاً لا، والدليل على ذلك أنّ موجات الكراهية التي أثارها أسلافُه وأجداده السالفون من المُستشرقين الرهبان لم تمت بموتهم ولم تنتهِ برحيلهم بل إنّ "إعادة عزف تلك الأسطوانة المكرورة ذاتها، حول انقلاب الإسلام إلى عدوٍّ أولٍ، أو أوحدٍ، للغرب، وأنّهُ اليوم الخطر الأخضر الذي حلّ محلّ الخطر الأحمر في أحقاب الحرب الباردة. ورغم تكرارها وإعادة عزفها، فإنَّ هذه الأسطوانة لا تبدو وكأنها صارت مُمِلّةً في أسماع قطاعاتٍ واسعةٍ من أبناء الغرب، بل على العكس: تزداد جاذبيةً، وقدرةً على التحريض، كُلّما تكرر عزفها"[1].

نعم، لم ينته الاستشراق الدّيني الذي بدأته الكنيسة الغربية ورهبانها قبل مئات السنوات ولم يمت، ولكنّه لبسَ أثواب العولمة وأختبأ في قولباتٍ سياسيةٍ اجتماعيةٍ وأخذ يجري في عروقٍ جديدةٍ وبدماء جديدةٍ، التقت بشتّى منابتها وأصولها على محاربة الإسلام والطّعن في نبوّةِ محمّدٍ ﷺ، وما كان برنارد لويس يوماً إلا عيّنةً من هذه العروق والدماء...

---

[1] حديدي [م. س].

ثانياً: صامويل هنتنغتون

لم يكن صامويل هنتنغتون[1] شخصيّةً معروفةً أو مشهورةً في المجتمع الأمريكي بالرغم من أنّه كان يُدرِّس العلوم السياسيّة والعلاقات الدولية في جامعة هارفارد ويشغل منصب مدير معهد جون ألين.

ولكنّ شهرته بدأت تظهر، وصيته يَذيع بعد أن ذكر نظريّة صدام الحضارات التي عبَّر عن فكرتها الرئيسيّة في "محاضرة له في مؤسسة بروكنز في واشنطن في أوائل التِّسعينات، ثم نشر مقالته في عام ١٩٩٣ في الدورية الذائعة الصيت للشؤون الخارجية (Foreign Affairs) [٢] التي تعبِّر عن المجلس الأمريكي للشؤون الخارجية، وعلى الرغم من أنّ الأخير يُعدُّ منظمةً غير حكومية، إلا أنّ تأثيره (المباشر وغير المباشر) في توجيه السياسة الخارجية الأمريكية، وحتى في تشكيل أفكار بعض أعضاء الصفوة العالمية معروفة للجميع. ثم أردف هنتنغتون نشر المقالة بإصدار كتابٍ كاملٍ حول الموضوع نفسه بعد ثلاث سنوات"[٣].

يتكون كتاب هنتنغتون "صدام الحضارات[٤]، إعادة صنع النظام العالمي الجديد" من خمسة أجزاءٍ تحتوي على إثنى عشر فصلاً؛

ففي الجزء الأول: يرى المؤلف بأنه ولأول مرّةٍ في التاريخ فإنّ السياسة العالمية هي في آنٍ واحدٍ متعدّدة الأقطاب ومتعدّدة الحضارات وأنّ التحديث مختلفٌ عن الغربنة.

---

(1) صامويل فيلبس هنتنغتون (ولد ١٩٢٧/٤/١٨ وتوفي في ٢٠٠٨/١٢/٢٤) استاذ علوم سياسيّة اشتهر بتحليله للعلاقة بين العسكر والحكومة المدنية، وبحوثه في انقلابات الدول، ثم أطروحته بأن اللاعبين السياسيين المركزيين في القرن الحادي والعشرين سيكونون الحضارات وليس الدول القومية. كما استحوذ على الانتباه لتحليله للمخاطر على الولايات المتحدة التي تشكلها الهجرة المعاصرة. درس في جامعة يال، وهو استاذ بجامعة هارفارد.

عاش هنتنغتون ٨١ عاما منها ٥٨ عاماً يدرس لطلبته العلوم السياسية والعلاقات الدولية بجامعة هارفارد منذ أن كان عمره ٢٣ عاماً، حيث تخرج من جامعة يال العريقة وعمره ١٨ عاماً، وألّف وشارك في تأليف ١٧ كتاباً و٩٠ مقالاً علمياً. ورغم علمه الغزير لم تأت شهرته إلا من كتابه "صدام الحضارات" الذي ترجم إلى الكثير من اللغات.

(2) للمزيد انظر النص الكامل للمقالة في موقع المجلة المذكورة الإلكتروني www.Foreign Affairs.com تحت عنوان The Clash of civilizations.

(3) قرني، بهجت، العلاقة بين الفكر والسياسة كما تظهر في نظريّة صدام الحضارات، وهذه الدراسة هي الفصل الرابع من كتاب "صناعة الكراهية في العلاقات العربية الأمريكية"، الصادر عن مركز دراسات الوحدة العربيّة ط٣، شهر أيار لعام ٢٠٠٧، بيروت.

(4) هنتنغتون، صامويل فيلبس، صدام الحضارات، إعادة صنع النّظام العالمي الجديد، ترجمة طلعت الشايب، ط١، ١٩٩٨، دار سطور للنشر، القاهرة.

وفي الجزء الثاني: يتحدث عن توازن القوى بين الحضارات الآخذ في التغيُّر؛ فالغرب يتقهقر في نفوذه النسبي، والحضارات الآسيوية تقوم بتوسيع قواها الاقتصادية والعسكرية والسياسية، والإسلام يتفجُر سكانياً تفجّراً مصحوباً بنتائج عدم الاستقرار للدول الإسلامية وجاراتها والحضارات غير الغربية بشكل عام، وهي الآن تؤكّد مرةً أخرى قيمة ثقافاتها.

وفي الجزء الثالث: تحدّث هنتنغتون عن انبثاق النطاق العالمي الذي أساسه التنوُّع الحضاري. فهناك مجتمعات تتقاسم روابط ثقافية تتعاون مع بعضها البعض، والدول تجمع نفسها حول الدول الأساسية أو الرائدة أو الكبرى من نفس حضارتها.

ويؤكد المؤلف في الجزء الرابع: على دعاوى العالميّة والإنسانية التي يطرحها الغرب والتي تضعه بشكلٍ متزايدٍ في صراعٍ مع الحضارات الأخرى، وبشكلٍ أكثر خطورةً مع الإسلام والصين، وعلى المستوى الإقليمي حروب خطوط الصدع والتي تقع بشكلٍ رئيسيٍ بين المسلمين وغير المسلمين.

وفي الجزء الخامس والأخير: يؤكد هنتنغتون على أنَّ استمرار حياة الغرب تعتمد على الأمريكيين، وهم يعيدون تأكيد هويتهم الغربية، وعلى سكان العالم الغربي وقد هَيّؤوا حضاراتهم على أنها متميزةٌ وليست عالميّةً، وقد اتّحدوا لغرض تجديدها وصيانتها ضدّ التحديات من المجتمعات غير الغربية.

هذا "وقد شغل كتاب "صدام الحضارات" الجماهير والمثقّفين منذ أكثر من عشر سنوات، فكتُبتْ تعليقاتٌ ضدّ صاحب أطروحة صدام الحضارات برفضها، ومنها ما يؤيدها بصورةٍ صريحةٍ أو ضمنيةٍ، ومنها مَن يقترح بديلاً عنها حوار الحضارات، بما أنَّ العرب من أكثر المستهدفين في هذا العالم الجديد، ولنشر الوعي بهذه الأطروحة الخطيرة التي باتت تؤثر على مسار الأحداث في العالم وخاصّةً منطقة الشرق الأوسط"[1].

---

[1] عبد العاطي، صلاح، قراءة نقديةٌ في كتاب صدام الحضارات، دراسة مطوّلة منشورةٌ على الموقع الإلكتروني لمجلّة الحوار المتمدّن الإلكترونية العدد ٢٠٢٣ بتاريخ ٢٠٠٧/٨/٣٠ وعنوانها www.ahewar.org.

وحتى لا يضيعَ الكلام في التعريفات والتقسيمات فمن المستحسن البدء في عرض مضمون هذه النظرية "الخبيثة" وما تضمَّنته من تصوّراتٍ وتنبؤاتٍ.

يفترضُ هنتنغتون[1] أنَّ البعد الرئيسيّ والأكثرَ خطورةً في السياسة الكونية، سيكون الصدام بين جماعاتٍ من حضاراتٍ مختلفةٍ، وأنَّ نظاماً عالمياً يقوم على الحضارات هو الضمان الأكيد ضدَّ حربٍ عالميةٍ، وأنَّ الثقافة، والهويات الثقافية، هي التي تشكّل أنماط التماسك والتفسّخ والصراع في عالم ما بعد الحرب الباردة، ويرجّح "هنتنغتون" أنَّ العلاقات بين الدول والجماعات غالباً ستكون علاقاتٍ عدائيةً، وهناك أخرى أكثر عُرضةً للصراع من غيرها. ويرى أنه على المستوى الأصغر، ستكون أشدّ خطوط التقسيم الحضاري عنفاً، هي تلك الموجودة بين الإسلام وجيرانه الأرثوذكس، والهندوس، والأفارقة، والمسيحيين الغربيين. أمّا على المستوى الأكبر، فإنَّ التقسيم السائد هو بين الغرب والآخرين، وأنَّ أشد الصراعات القائمة هي بين المجتمعات الإسلامية وبعضها من جهةٍ، وبين المجتمعات الإسلامية والغرب من جهةٍ أخرى، ومن المحتَمَلِ أن تنشأ أخطرُ الصراعات في المستقبل، نتيجة تفاعل (الغطرسة الغربية، والتعصب الإسلامي،والتوكيد الصيني). ويضع هنتنغتون احتمالية نشوب حربٍ مجتمعيةٍ باردةٍ بين الغرب والإسلام تقف فيها أوروبا على خطٍّ المواجهة. وهذا التطوُّرُ له علاقة بالعلمانية، وقِيَمِ العلمانية، مقابل القِيَمِ الدينية، وله علاقةُ الخصوصية التاريخية بين المسيحية الغربية، والإسلام، وبالغيرة أيضاً من القوة الغربيّة، والاستياء من السيطرة الغربية الناجمة عن بنية الشرق الأوسط السياسية، بعد زوال الاستعمار، والشعور بالمرارة والامتهان نتيجة المقارنة البغيضة بين إنجاز الحضارتين الغربية والإسلامية، في القرنين الأخيرين. كما أنّ حرباً مُجتمعيةً باردةً على الإسلام، سوف تساعد على تقوية الهوية الأوروبية بشكلٍ عامٍ، في وقتٍ حاسمٍ بالنسبة للوحدة الأوروبية، ومن هنا قد يكون هناك مجتمع في الغرب مُستعِدٌّ، ليس لدعم حربٍ مجتمعيةٍ باردة على الإسلام فقط، بل لتبنّي سياسةٍ تشجعُ على هذا الحرب!!!

---

(1) انظر:

أ. النص الكامل للمقالة منشور على الموقع التالي

www.foreignaffairs.com/articles/48950/samulephuntington/theclashofcivilizations

ب. خضر، لطيفة إبراهيم، الإسلام في الفكر الغربي، ص ٧١، ٧٢ بتصرف، ط١، ٢٠٠٢، دار عُلا للنشر والتوزيع.

ج. الدبّاغ، مصطفى، الإسلام فوبيا عقدة الخوف من الإسلام، ص ١٠٥، ١٠٦ بتصرف، ط١، ١٩٩٩، دار الفرقان، عمان.

د. قرني، بهجت، [م. س]، ١٨١ – ١٩٥ بتصرف واختصار.

هـ. عبد العاطي صلاح، [م. س].

و. الموسوعة الحرّة ويكيبيديا، أنظر مادة صامويل هنتنغتون.

ز. محمد يحيى، صراع الحضارات أم هيمنة الحضارة الغربيّة، مقال منشور على موقع الموسوعة الشاملة الإلكتروني www.islamport.com.

ومن الواضح أنّ أبرز ما تضمّنته هذه النظرية فيما يتعلّق بالإسلام والحضارة الإسلاميّة ما يلي[1]:

أولاً: إن للحضارة الإسلامية حدوداً دموية (Islam has bloody borders) فهي في صراعٍ مع كلّ مَن يجاورها من الحضارات في آسيا وأفريقيا وأوروبا، كالصراع الإسلامي مع الصّرب الأرثوذكس في البلقان ومع الهندوس في الهند ومع اليهود في إسرائيل(!!).

ثانياً: إنَّ الإسلام والمسلمين هم الأعداء حيث ستنفجر معاركُ المستقبل على الخطوط التي تفصلهم عن الغرب. والبؤرة المركزية للصراع في المستقبل القريب سوف تكون بين الغرب وبين تحالف الحضارتين الإسلامية والكونفوشية وهو التحالف الذي بدأ يظهر كردٍّ فعلٍ لهيمنة الغرب وليُجَابِهَ مصالحَ الغرب وقيمه ونفوذه.

واضحةٌ تماماً خطورة الدور الذي لعبه صاحبُ هذه النظرية في تحريض الغرب على الإسلام والمسلمين، ولعلّ خطورة هذا الرجل (زميل برنارد لويس في التدريس) تكمن" في تقديمه لفكرة التحريض على الإسلام على شكل نظريّةٍ فكريّةٍ متكاملةٍ وفق منهج التاريخ السياسي والعلاقات الدولية؛ حيث نراه يُحلِّل الماضي بهذه النظرية ويفسِّرُ بها الحاضر ويتنبّأ بها لمُستقبلٍ يقرّره ويتأكّدُ من قوعه"!!![2] وحتى لا يكون وصفنا لهنتنغتون بالمحرِّض على الإسلام مجرد اتهامٍ باطلٍ لا دليل له، فإننا سنسوق هنا ملخَّصَاً لما وصفه بـ (الحقائق عن الحضارة الإسلامية) التي ضمّنها في كتابه السابق، وسنجملها في ستَّ عشرةَ نقطةً هي[3]:

١. تنتشر المسيحيّةُ أساساً عن طريق التحوُّل، أمّا والإسلام فينتشر عن طريق التحوُّل والتناسل .. وعلى المدى الطويل سينتصر محمد ديموغرافياً.
٢. الأصوليون الإسلاميون في العالم كلّه هم وحدهم الذين يرفضون التحديث والتغريب معاً.

---

[1] الدّباغ [م. س] ص ١٠٧.
[2] المرجع السابق نفسه ص ١٠٤، بتصرف.
[3] انظر:
أ. قرني [م. س] ص ١٧٩ – ١٩٤ بتصرف.
ب. الدبّاغ [م. س] ص ١٠٥، ١٠٦.
ج. عبد العاطي [م. س] ص ٢ – ٥ بتصرف.

٣. النموّ السكاني في الدول الإسلامية يقدّم مجندين جداً للأصولية والإرهاب والتمرُّدِ والهجرة.
٤. الإسلام لا يقدِّم بديلاً للحداثة الغربية.
٥. المشكلة المهمّة بالنسبة للغرب ليست الأصولية الإسلامية بل الإسلام، فهو حضارةٌ مختلفةٌ وشعبها مقتنعٌ بتفوّق ثقافته، وهاجسه هو ضآلة قُوَّتِهِ.
٦. رَفَضَ المسلمون كلَّ شيءٍ يظنّون أنه ضدّ الإسلام حتّى ولو كان التحديث، وهم يفضِّلون تخلُّفاً مع إسلامٍ قويٍّ على تحديثٍ يظنّون إنه يُضعِفُ الإسلام.
٧. لم يعُد الهدفُ تحديثَ الإسلام بل أسلمة الحداثة عبر الصحوة الإسلامية.
٨. الدّين يتسلّم زمام الآيدولوجية، والقومية الدينية تحلُّ محل القومية العلمانية.
٩. كانت العلاقات دائماً عدائيةً بين المسلمين وشعوب الحضارات الأخرى.
١٠. صراع القرن العشرين بين الديموقراطية الغربية والماركسية ليس سوى ظاهرةٍ سطحيةٍ زائلةٍ إذا ما قورن بعلاقة الصراع العميق بين الإسلام والمسيحية.
١١. مِن المرجَّح أن تكون علاقات الغرب بالإسلام والصين متوتِّرةً على نحوٍ ثابتٍ وعدائيةً جداً في معظم الأحيان.
١٢. الصحوة الإسلامية تيارٌ عامٌ وليست تطرّفاً، متغلغلةٌ وليست مُنعزِلةً. وقد أثّرت الصحوة على المسلمين في كلّ دولةٍ، وعلى معظم جوانب المجتمع والسياسة في معظم الدول الإسلامية.
١٣. الإسلام هو الحضارة الوحيدة التي جعلت بقاء الغرب موضع شكٍّ، وقد فعل ذلك مرّتين على الأقل.
١٤. لمدّة ما يقرب من ألف سنةٍ، منذ دخول العرب إسبانيا وحتّى الحصار التركي لفينّا، كانت أوروبا تحت تهديدٍ مستمرٍ من الحضارة الإسلامية.
١٥. المسلمون في كل انحاء العالم يشعرون بالإحساس المُسْكِرِ بالقوة.
١٦. في أمريكا جرى استطلاعٌ واسعٌ للرأي تناول ٣٥٠٠٠ مثقّفٍ امريكيٍّ لديهم إلمامٌ بالشؤون الخارجية وكان السؤال: هل الصحوة الإسلامية خطرٌ على الغرب؟ وجاءت الإجابة بنعم من ٦١% ممن شاركوا في هذا الاستطلاع.

من الواضح أن هذا الهنتنغتون لا يرى المسلمين داخل أطر الحضارة ولا حتى داخل الأطر الإنسانية، فهم دون البشر، في نظره، وما ذلك إلاّ لأنّهم كما يراهم، أعماه الله، عدوانيّون إلى درجة الإرهاب ومتخلّفون إلى درجة البربريّة، وللتدليل على ذلك نراه في كتابه السّابق يسوقُ العديد من الإحصائيّات والأرقام منها:

أولاً: خمسون بالمائة من الحروب بين ثنائياتٍ من الدّول ذاتِ أديانٍ بين عامي ١٨٢٠م و١٩٢٩م كانت حروباً بين مسلمين ومسيحيين، وفي منتصف التسعينات كان نصف عدد الصراعات العرقيّة في العالم بين المسلمين ممن يُحَاربون بعضهم البعض أو يحاربون غير المسلمين.

ثانياً: في منتصف التسعينات كان هناك تسعة عشر صراعاً بين المسلمين والمسيحيين من مجمل ثمانيةٍ وعشرين صراعاً بين المسلمين وغيرهم عبر حروب خطوط التقسيم الحضاري.

ثالثاً: في كلِّ العالم على امتداد حدود الإسلام نجد أنَّ المسلمين لهم مشكلاتٌ في العيش مع جيرانهم بسلام.

رابعاً: شارك المسلمون في ستّةٍ وعشرين صراعاً من إجمالي خمسين صراعاً عرقياً سياسياً في الفترة ما بين ١٩٩٣م و١٩٩٤.

خامساً: كانت هناك صراعاتٌ بين مسلمين وأطرافٍ أُخرى من حضاراتٍ أخرى ثلاثة أمثال ما كان بين كلّ الحضارات غير الإسلامية، كما كانت الصراعات داخل الإسلام نفسه كثيرةً وأكثر ممّا يدور داخل أيّةِ حضارةٍ أخرى.

سادساً: الصراعات التي كان المسلمون طرفاً فيها كانت دائماً كثيرة الضحايا، والصراعات الستّةُ الكبرى التي زاد ضحاياها عن مائتي ألف قتيلٍ كان ثلاثةٌ منها بين مسلمين وغير مسلمين.

سابعاً: حددت صحيفة نيويورك تايمز ثمانيةً وأربعين موقعاً كان يدور بها تسعةٌ وخمسون صراعاً عرقياً عام ١٩٩٣م، وقد كانت نصف هذه الصراعات بين مسلمين وغير مسلمين أو بين المسلمين أنفسهم.

ثامناً: حسبَ المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية، فإنّ اثنين وعشرين صراعاً مسلّحاً وقعت عام ٢٠٠٠م، وقد كان المسلمون طرفاً في أكثر من ثلث هذا العدد رغم إنهم يشكّلون خمس سكان العالم فقط.

تاسعاً: في تقريرٍ مسحيٍّ لمجلة "الإيكونومست" كان المسلمون مسؤولين عن ١٢ من أصل ١٦ من حوادث الإرهاب الدولية الرئيسية في الفترة من ١٩٨٣ حتى ٢٠٠٠.

إنّ نظرةً سريعةً تُلقى على الإحصائيّات (المشكوك في صحّتها) التي ذكرها هذا الصامويل لكفيلةٌ بأن يخرج قارئُها بخلاصةٍ واحدةٍ وهي أنّ الإسلام يرعى العنف ويُشَجِّعُه وأنّه انتشر بقّوة السّيف والسلاح، وأنّ المسلمين إرهابيّون عنيفون لا يعترفون بحقّ الحياة لغير المسلم، وذلك لكونه كافراً!!! ولعلّ هذه الخلاصة لا تقعُ بعيداً عمّا كان برنارد لويس قد قاله واتّهمَ الإسلام والمسلمين به من قبل!!! لقد تناسى هذا الصامويل أنّ حكومة الولايات المتحدة الأمريكية راعية الحرية والإنسانية في العالم. قد قتلت خلال أربعة أيامٍ ما مجموعه ٢١٠ ألاف شخص في اليابان وحدها عندما وافقت على إلقاء قنبلتين نوويتين على مدينتيّ ناغازاكي وهيروشيما!! كما تناسى أن الحرب العالميّة الثانية التي شنّتها دول الغرب (الديموقراطي المتحضّر) قد حصدت أرواح ستين مليون شخصاً!! كما تناسى أنّ الدول المتحضّرة الأمريكية والأوروبية قد أبادت ما يزيد على خمسمائة قبيلةٍ من قبائل الهنود الحمر السكّان الأصليين للبلاد الأمريكية وزادَ مجموع القتلى خلال تلك الفترة عن ١١٢ مليوناً من الهنود!!. كما تناسى وهو يتحدّثُ عن قتال المسلمين لبعضهم البعض عشرات الألوف من القتلى البروتستانت الذين سقطوا على يد الكنيسة الكاثوليكية في باريس في القرن الرابع عشر!! وأخيراً فيبدو أنَّ هذا الصامويل قد تناسى عشرات الألوف من القتلى المسلمين الأبرياء العُزَّل المجرّدين من السلاح في الأندلس على يد محاكم التفتيش الكَنَسيَّة لأنّهم رفضوا الدخول القسري في المسيّحية!!!.

لسنا في معرض الردّ على هنتنغتون ومناقشته في هذه الدراسة ولكنّ وقاحته وتزييفه وتحامله على الإسلام وتحريضه على المسلمين قد تجاوز كلَّ الحدود، نقول هذا ونحن نعلم أنّ الرجل كان صاحبَ حجّةٍ ودرايةٍ وعلمٍ ولكنّه، وللأسف، كان من الذين يحبّون تغييبَ الحقيقة عندما يتعلّق الأمر بالإسلام، الخطرُ القادم، والعدّو الأوحد والخطر الأخضر الذي يتهدّد حياة الحضارة الغربيّة!!!

لم يتوقّف هنتنغتون عند ذكر الإحصائيات السابقة التي تتعلّق بالعنف الإسلامي بل إنّه ذكر في الصفحات التالية من كتابه السابق ما سمّاه "أسباب العنف الإسلامي" والتي يراها هنتنغتون نابعةً من العناصر السبعة التالية:

أولاً: يمجّد الإسلام القتالَ وقد انتشر بالسيف، ونبيُّ الإسلام محمدٌ كان مقاتلاً وقائداً عسكرياً ماهراً.

ثانياً: تعاليم الإسلام تنادي بقتال غير المؤمنين، كما أنّ مفهوم اللاعنف غائبٌ عن الفكر والممارسة الإسلامية.

ثالثاً: وَضَعَ انتشارُ الإسلام المسلمين في احتكاكٍ مباشرٍ مع شعوبٍ مختلفةٍ، ولا زال ميراث هذه الاحتكاكات موجوداً.

رابعاً: عند المسلمين عدمُ قابليّةٍ لهضم غير المسلمين، ويتجلّى ذلك في وجهين؛ فالدول الإسلامية لها مشكلات مع الأقلّيات غير المسلمة، والأقليّات المسلمة في الدول غير الإسلامية، لها مشكلات مع تلك الدول.

خامساً: الإسلامُ عقيدةٌ مستبدّةٌ أكثرُ من المسيحية، وهو يمزجُ بين الدين والسياسة ويضعُ حدّاً فاصلاً بين دار الإسلام ودار الحرب.

سادساً: الانفجارُ السكانيّ والفقرُ والفساد والاستبداد في الدّول الإسلامية.

سابعاً: عبر العالم الإسلاميّ، خاصةً فيما بين العرب يوجد إحساسٌ قويٌ بالحزن والاستياء والحسد والعدوانية تجاه الغرب وثروته وقوته وثقافته.

ليس من قبيل المبالغة القول إنّ كتاب صامويل هنتنغتون يكاد يكون أخطر كتابٍ يُشَوِّهُ صورة الإسلام ويحرّض عليه في القرن الماضي كلّه، خصوصاً إذا ما علمنا أنّه "وحتى نهاية التسعينات ترجم الكتاب إلى ستٍ وعشرين لغةً، وبيعت منه ملايين النسخ، وعُقدت

الندوات والمؤتمرات في مختلف أنحاء العالم لمناقشة موضوع "صراع الحضارات"، وأدلت المنظمات الدولية بدلوها في الموضوع نفسه"[١].

نعم لقد أمعن هذا الصامويل في الترويج لفكرة السيف والعنف في الإسلام، وذلك بهدف تخويف الناس منه وصدّهم عنه، وهي ذات الفكرة التي انطلق منها رهبان العصور الوسطى في كل دراساتهم للإسلام، "هناك مُحَاجّةٌ أن الإسلام كان ديناً للسيف منذ البداية، وأنه يمجّدُ فضائله القتالية. الإسلام نشأ بين قبائل بدويةٍ رُحّلٍ متأخرة، هذه النشأة العنيفة مطبوعةٌ في أساس الإسلام، يُذكر عن محمّدٍ [عليه الصلاة والسلام] نفسه أنه مقاتلاً عنيفاً وقائداً عسكرياً ماهراً (لا أحد يستطيع أن يقول ذلك عن المسيح أو بوذا). تعاليم الإسلام كما يُقال تنادي بقتال غير المؤمنين به، وعندما تراجع التوسُّعُ الأول للإسلام كانت الجماعات الإسلامية على عكس ما تقول به التعاليم، تحارب بعضها البعض. نسبةُ "الفتنة" أو الصراعات الداخلية إلى "الجهاد" تَحَوَّلَتْ إلى حدٍّ كبيرٍ لصالح الأولى. القرآن وغيره من الإفادات في المعتقدات الإسلامية يحوي القليل مما يحض على تحريم العنف، كما أنَّ مفهوم اللاعنف غائبٌ عن الفكر والممارسة الإسلامية"[٢].

لقد أمضى هنتنغتون حياته ينفخ في عقول الغربيّين أنّ الإسلام هو دين العنف والحرب وأنّ صداماً وشيكاً بينه وبين الحضارة الغربيّة سيقع، وقد شاء الله تعالى لهذا الهنتنغتون أن يموت في قطاع غزّة المحاصَرِ بتاريخ ٢٠٠٨/١٢/٢٤، ومن العجيب في الموضوع "أنّ بيان جامعة هارفارد الذي نعى هنتنغتون جاء فيه أنّه مات في ملجأٍ للمُسنّين دون ذكر اسم هذا الملجأ، وهو الأمرُ الذي الذي نفاهُ الناطق باسم الجيش الإسرائيلي باللغة العربيّة في تبريره للقصف العسكري الإسرائيلي لمدينة غزة بذريعة الحرب على الإرهاب آنذاك"[٣]. مات هنتنغتون ورحل، وبقيت خلفه نظريته، نظرية الكراهية والتحريض، تحثّ الغربيين على مزيدٍ من الكراهية للإسلام وتبثّ فيهم هواجس الخوف منه كلَّ حين.....

---

(١) قرني [م. س] ص ١٩٥.

(٢) هنتنغتون [م. س]، ص ٤٢٦.

(٣) الطويسي، باسم، موت هنتنغتون في غزة، مقال منشور في جريدة الغد الأردنية بتاريخ ٢٠٠٨/١٢/٣١.

ثالثاً: دانيال بايبس

يُعتبرُ دانيال بايبس[1] من أبرز الذين وظّفوا الاستشراق الدّيني في صُنع الكراهية بين الشرق والغرب،وعلى وجه الخصوص بين ثقافة الإسلام والثقافة الغربيّة.ولا عَجَبَ في ذلك فهو من أكثر تلاميذ برنارد لويس إخلاصاً له ولآرائه ولمعتقداته "وقد عدّه فاضل الربيعي من المستشرقين الإستعماريين"[2]. يُعتبر بايبس مؤسّس نظريّة "الرّعب الإسلامي". وقد برع في الكتابة والتأليف، كما برع في التحدُّث والمحاورة وإلقاء الخطب الحماسيّة، وقد كتب ونَشَر آلاف المقالات في الصحف الأمريكية والأوروبية والإسرائيلية. كما قام بتأليف ونشر إثني عشر كتاباً كان أبرزها أربعة تتعلّق بالإسلام والمسلمين وهي:

١. الإسلام الجهاديّ العسكريّ [المتطرّف] يصلُ أمريكا Militant Islam Reaches America وقد نُشِرَ في عام ٢٠٠٢.
٢. قضيّة رشدي The Rushdie Affair وقد نُشر في عام ١٩٩٠.
٣. في الطريق إلى الربّ: الإسلام والقوّة السياسيّة In the path of God: Islam and Political Power وقد نُشر عام ١٩٨٣.
٤. الجنودُ العبيدُ والإسلام Slave Soldiers and Islam وقد نُشر في عام ١٩٨١.

ولئن كانت مقولةُ "قد يتفوّق التلميذ على أستاذه أحياناً" تتّسم بالطابع النّظريّ في الأغلب الأعم إلا أنها تجسّدت في دانيال بايبس عمليّاً حيث تفوّق على أستاذه برنارد لويس في إثارة الكراهية ضدّ الإسلام والمسلمين، ولعلَّ مضامين ومحتويات موقعه الإلكتروني[3] خيرُ شاهدٍ على ذلك. لقد رصدت هذه الدراسةُ مائتين وخمسين مقالةً من بين تلك التي نشرها بايبس على موقعه الإلكتروني ما بين الأعوام ٢٠٠١ – ٢٠٠٩ كما رصدت كلَّ ما يبثُّه هذا

---

[1] دانيال بايبس: ولد في ولاية بوسطن الأمريكية في ١٩٤٩/٩/٩. وهو مؤلِّف ومؤرخ أمريكي، نُشر له إثنا عشر كتاباً. حصل على شهادة البكالوريوس (عام ١٩٧١) وشهادة الدكتوراه (عام ١٩٧٨) من جامعة هارفارد، والاثنتان في التاريخ. قضى ست سنوات في الدراسة خارج الولايات المتحدة، منها ثلاث سنوات بمصر. بايبس يتحدث الفرنسية ويقرأ العربية والألمانية. قام بالتدريس في جامعة شيكاغو وجامعة هارفارد وكلية الحرب التابعة لبحرية الولايات المتحدة.عمل في خدمة حكومة الولايات المتحدة بصور عديدة مختلفة، شغل منصبَ نائب رئيس هيئة فولبرايت للمنح الدراسية للطلاب الأجانب وعضو مجلس إدارة معهد الولايات المتحدة للسلام.كان مديراً لمعهد السياسة الخارجية في الفترة من ١٩٨٦ إلى ١٩٩٣. وتقول سيرته الذاتية المنشورة على موقعة الإلكتروني:كان السيد بايبس واحداً من المحللين القلائل الذين أدركوا ما يمثله الإسلام الجهادي العسكري من تهديد "وهو الأمر الذي أغفله معظم الغربيون" وهو كتب في ١٩٩٥، "لقد تم إعلان الحرب من طرف واحد على أوروبا والولايات المتحدة" وذكرت صحيفة البوسطن جلوب: لو أن تحذيرات بايبس كان قد تم الانتباه لها ربما ما وقعت هجمات الحادي عشر من سبتمبر.

[2] النملة [م. س] ص ١٣٢، نقلاً عن فاضل الربيعي في كتابه "ما بعد الاستشراق: الغزو الأمريكي للعراق وعودة الكولونيات البيضاء"، ص ١٣.

[3] www.danielpipes.org

الموقع من مقابلاتٍ مُتلفزةٍ وإذاعيّةٍ وصحفيَّةٍ كان بايبس طرفاً فيها. وهذا الموقع يُغطّي كلَّ ما قدّمه بايبس وأنتجه من أعمالٍ من نهاية السبعينات من القرن الماضي حتى عام ٢٠٠٩، ويشتمل الموقع على تصنيفاتٍ للمقالات المعروضة أبرزها التصنيفات التالية:

١. الإسلام الجهادي العسكري.
٢. الإسلام في الغرب.
٣. الإسلام في أمريكا.
٤. الإرهاب: أ. الحرب على الإرهاب. ب. هل نوقف الإرهاب.

"يُعتبر بايبس من أخبث الشخصيات المعادية للعرب والمسلمين في أمريكا. ويحظى دائماً بتغطيةٍ إعلاميةٍ ودِّيةٍ واسعةٍ. وقد كافأ "جورج بوش" بايبس على جهوده في إشاعة الكراهية ضدَّ العرب والمسلمين بتعيينه في المعهد الأمريكي للسلام، ووجودُ بايبس في ذلك المعهد يجعل من تسمية ذلك المعهد من المفارقات العجيبة في هذا الزمان"[١].

ولعلّ الوصف الذي أُطلِقَ على بايبس بأنّه من أخبث الشخصيّات المعادية للعرب والمسلمين يُعبِّرُ تمام التعبير عن واقع بايبس وماضيه وحقيقة موقفه المعادي دوماً للإسلام والمسلمين، وهو يردّد شبهات رهبان العصور الوسطى حول الإسلام ويحاول أن يُلصق به تهمة الإرهاب والعنف والتطرُّف وعدم احترام رأي الآخر، وما ذلك إلاّ للتخويف منه والصدّ عنه. وسنعرضُ تالياً لمجموعةٍ من مقالاته ودراساته التي تُثبتُ وبكلّ صراحةٍ ووضوحٍ طبيعة التيَّار الحاقد المعادي للإسلام الذي يتزعمه هذا البايبس كما تُبرِزُ حقيقة الدّور الذي يلعبه في التخويف من الإسلام والصدّ عنه ....

أولاً: في مقالته الطويلة "الإسلام الراديكالي[٢] المتطرّف ضدّ الحضارة"[٣] والتي هي في أصلها نصّ لحواره مع عمدة لندن "كين لفنجستون" في ٢٠٠٧/١/٢٠ يوضّح بايبس موقفه من نظرية صدام الحضارات قائلاً: دعني أبدأ بموقفي من سؤال أو مسألة الحضارة العالمية أو صراع وصدام الحضارات. واحد: أنا مع الحضارة العالمية وأنا أرفضُ

[1] بايبر، مايكل كولينز، كهنة الحرب الكبار، ترجمة عبد اللطيف أبو البصل، ص ٢٥٣، ط١، ٢٠٠٦، مكتبة العبيكان، الرياض.
[2] يقصد بذلك الإسلام المتطرّف المتشدّد. والراديكالية هي النزعة إلى إحداث تغيراتٍ متطرّفةٍ في الفكر والعادات السائدة.
[3] لقراءة النص الكامل للمقالة "Radical Islam vs. civilization" بقلم "Daniel Pipes" انظر موقع Frontpagemagazine.com أو موقع www.danielpipes.org مقالة رقم ٤٩٩٥.

مقولة أو أطروحة "اشتباك أو صدام الحضارات" إثنان: المشكلة ليست في المقام الأول صراع حضارات، وإنما هي صراع واشتباك الحضارة والهمجية، لذلك يكون السؤال: هل يمكن أن توجد مثل هذه الحالة الحضارية على مستوىً عالميٍّ؟ يُمْكِنُ أنْ توجد، بقدر ما يواجِه أولئك المُتحضِّرون غيرَ المتحضّرين. إنَّ أساس وجود الحضارة العالمية هو اتحاد العناصر المُتحضّرة في كلّ ثقافةٍ من الثقافات مع نظائرها في الثقافات الأخرى من أجل حماية الأخلاق، والحريَّة، والاحترام المتبادل. إنّ الاشتباك أو الصراع أو الصدام الحقيقي هو بين الحضارة العالمية والهمجيين ... أقصد بالهمجيين الآيديولوجيين أو العقائديين. ولقد ظهرت الهمجية الأيديولوجية في الثورة الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر. والأمثلة الضخمة للهمجية الأيديولوجية هي الفاشية واللينينية الماركسية ـ اللتان في مساريهما التاريخيين، قامتا بقتل العشرات من ملايين الناس. لكننا اليوم نرى الثالثة، الحركة الشمولية الاستبدادية الثالثة، الحركة الهمجية الثالثة، وبالتحديد الإسلام الراديكالي المتطرف، وهو نسخةٌ أو صورة طوباويةٌ متطرفةٌ من الإسلام. أوقعتْ بؤساً وعملياتٍ إرهابيةً انتحاريةً، وحكومات استبدادية طاغية ووحشية، وهناك قمع وظلم للنساء ولغير المسلمين ... إنَّ السؤالَ العظيم في عصرنا هذا هو كيف نَمْنعُ هذه الحركة، الشبيهة بالفاشية الشيوعية، من أن تصبح أكثرَ قوةً ... إنّ جوهر الإسلام الراديكالي المتطرف هو التمسكُ الكاملُ بالشريعة،، بقانون الإسلام وهو يدفع بالشريعة إلى المناطق ومجالات الحياة التي ما وُجدَتْ فيها من قبل ...

ينشأ الإسلامُ المتطرف الراديكالي عن الإسلام لكنَّهُ نسخةٌ أو صورةٌ منه معاديةٌ للحداثة، مؤمنةٌ بالرؤى والأساطير والتنبؤات الألفية، كارهةٌ للبشر وللإنسانيّ، كارهةٌ للمرأة، ومعاديةٌ للمسيحية، ومعاديةٌ للساميَّة، تتعالى على الأديان والحضارات الأخرى وترى نفسها أفضل وأصحَّ منها ويجب أن تسود عليها، مؤمنةٌ بالجهاد والحرب الدينية، إرهابية وانتحارية. إنه شموليةٌ استبداديةٌ ذاتُ نكهةٍ وطبيعةٍ إسلامية.

مثل الفاشية والشيوعية، الإسلام الراديكالي هو رؤية للعالم تتَّصِفُ بالإرغام والقهر...

ويسعى الإسلام الراديكالي للسيطرة على الدول والبلدان، وهو يستعمل الدولة لأغراضٍ قهريةٍ، يحاول السيطرة على كلّ جوانب الحياة. وهو يعتدي على الجيران، وأخيراً هو يسعى نحو مواجهةٍ كونيةٍ مع الغرب...

أنا أُجادلكم، ايها السيدات والسادة، وأقول إنّ الإسلام الراديكالي يجب أن يُقَاتَلَ ويجب أن يُهزَمَ مثلما حدث في ١٩٤٥م و١٩٩١م عندما تمت هزيمة التهديدات الألمانية والتهديدات السوفيتية. هدفنا يجبُ أن يكون، في حالتنا هذه، ظهور الإسلام الذي هو إسلام حديث ومعاصر،معتدل، ديمقراطي، إنساني، ليبرالي، وودّي يؤمن بحسن الجوار. إسلام يحترم النساء، وأصحاب الجنسية المثلية، والمُلحدين،وغيرهم إسلام يُؤَمِّنُ لغير المسلمين نفسَ حقوق المسلمين ... إلى الدرجة التي نعمل بها معاً، ضدّ همجية الإسلام الراديكالي المتطرف، يمكن أن تُوجَدَ بالفعل حضارةٌ عالميّةٌ، حضارةٌ تتجاوز وتتعالى على لون البشرة، والفقر، والجغرافية، والسياسة، والدين.

ثانياً: يكرر بايبس تحذيرات البابا بنديكتيوس والمستشرق برنارد لويس من أسلمة أوروبا بنهاية القرن الحادي والعشرين فيقول في مقالته "أوروبا المسلمة"[1]:

هناك قوّتان تساهمان في هذا التغيير الذي قد يهز العالم.

أولاً: تفريغ المسيحية من قيمها التاريخية وتقاليدها. إذ أنّ عدد المسيحيين الملتزمين يتناقص في الجيلين الماضيين لدرجةٍ أنّه بدأ يُطلق عليه اسم "القارة المظلمة" ويقول المحللون إنّ مساجد بريطانيا يعمرها عددٌ من المسلمين هو أكبر من عدد الذين يذهبون إلى الكنيسة الانجليكانيّة.

ثانياً: تدنّي نسبة الولادات في أوروبا (من قِبَل أهل البلاد الأصليين) إذ أنّ سكان أوروبا الأصليين يتضاءل عددهم يوماً بعد يوم. لذلك فإنّ الإسلام والمسلمين يأتون لملء هذا الفراغ ففي حين تتداعى المسيحية يزدادُ الإسلامُ قوةً، ويؤكّد وجوده ويعمل

[1] لقراءة النص الكامل لهذه المقالة (Muslim Europe) بقلم Daniel pipes انظر موقعه(www.danielpipes.org) المقالة رقم ١٨١٠.

على تحقيق طموحاته. وفي حين يتناقص عدد الأوروبيين بسبب الشيخوخة، يتكاثر المسلمون الذين يتزوجون في أعمارٍ مُبكّرةٍ.

إنّ نسبة خمسةٍ في المئة من الاتحاد الأوروبي، أو عشرين مليون نسمة يعتبرون أنفسهم مُسلمين، وإن استمرّت الأمور على ما هي عليه ستصل النسبة إلى عشرةٍ في المئة في عام ٢٠٢٠. وان تركتِ العناصرُ غيرُ الإسلامية أوروبا فستصبح غالبية السكان من المسلمين في عقودٍ قليلةٍ.

ثالثاً: في مقالته الخبيثة "مسألة الإكراه في الدِّين: الإسلام هو ما يصنعُه أتباعه منه"[١] يصف بايبس الآية الكريمة رقم ٢٥٦ من سورة البقرة (لا إكراه في الدِّين) بأنّها عبارةٌ بسيطةٌ بصورةٍ مخادعةٍ وأنّها ليست كما يوحي ظاهرها، ويذهبُ بايبس إلى أنَّ هناك خلافاً كبيراً قد دار بين المسلمين في تفسيرها وتوضيح معناها، وذلك على النّحو التالي:

١. الآية مُلغاةٌ (منسوخة): حيث نسخت الآيات القرآنية التالية آية "لا إكراه في الدين" (مثل الآية التاسعة من سورة التوبة "يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم").
٢. الآية رمزيةٌ خالصةٌ: فالعبارة أو الآية مجرد وصف وليست أمراً. فحقيقة الإسلام واضحة جداً لدرجة أنّ إجبار شخصٍ ما على أن يكون مُسلماً لا يصل إلى "الإكراه"، أو أنَّ دفعَ الشخص إلى اعتناق الإسلام بعد الهزيمة في الحرب لا يُنَظرُ إليه على أنه "إكراه".
٣. الآية روحيةٌ وليست عمليةً: فالحكومات قد تفرض الطاعةَ الخارجية الظاهرة إلاّ أنها بالطبع لا يمكن أن تفرض وتملي على المسلمين كيف يفكرون.
٤. الآية محدودةٌ في الزمان والمكان: أي أنها تنطبق فقط على اليهود في المدينة في القرن السابع.
٥. الآية مقصورةٌ على غير المسلمين الذين يعيشون تحت حكم المسلمين ويقبلون به: يقول بعض الفقهاء إنّ الآية تُطَبّق فقط على "أهل الكتاب" (المسيحين واليهود والزرادشتيين)، ويقول البعضُ الآخر إنّها تطبّقُ على كُلِّ مَن هو غير مسلم.

---

[١] لقراءة النص الكامل لمقالة: The Issue of compulsion in Religion: Islam is what followers make of بقلم Daniel pipes انظر موقعه www.danielpipes.org المقالة رقم ٣٠٠٢ Newyork sun بتاريخ ٢٠٠٤/٩/٢٨.

٦. الآية تستبعدُ بعض غير المسلمين: فالمرتدّون والنساء والأطفال وأسرى الحرب وغيرهم يمكن بالفعل إجبارهم. [هذا هو التفسير الشائع الذي كان يُطَبّق في معظم الأزمنة والأماكن كما يقول بايبس].
٧. الآية مقصورة على غير المسلمين بكافّة صورهم: فالمسلمون يجب أن يلتزموا ويخضعوا للمبادئ والعقيدة الإسلامية وليس مسموحاً لهم الارتداد عن الإسلام.
٨. الآية مقصورة على المسلمين: حيث يحق للمسلمين أن ينتقلوا من تفسيرٍ وتأويلٍ لإيمانهم إلى آخر (من السني إلى الشيعي على سبيل المثال) ولكن لا يحق لهم ترك الإسلام.
٩. الآية تُطَبَّقُ على كلّ الناس: حيث ينبغي أن يصل المرء إلى الإيمان الحقيقي من خلال المحاولة والاختبار، والإكراه يفسد هذه العملية.

ويستند بايبس في نقله لهذه التفسيرات (المختلفة المتناقضة طبعاً) إلى كتابين لمؤلِّفين مسيحيين هما:

١. كتاب باتريشيا كرون (حكمُ الله: الحكومة والإسلام).
٢. كتاب يوهانان فريدمان (التسامح والإكراه في الإسلام).

رابعاً: في مقالتين تحملان عنوانين متقاربين عن الجهاد ينصِّبُ بايبس نفسه عالماً بهذا المفهوم الإسلامي وشارحاً له ولتاريخه ولتطوّره، فيقول في المقالة الأولى التي حملت عنوان "ما هو الجهاد"[١]:

الجهاد بمعنى التوسع كان دائماً السِّمةَ المركزية لحياة المسلمين. وهذا هو الأمر الذي أفضى إلى حكم المسلمين في معظم مناطق شبه الجزيرة العربية عند وفاة الرسول محمدٍ في عام ٦٣٢، وهو أيضاً الأمر الذي أفضى بعد قرنٍ من هذا التاريخ إلى غزو المسلمين لمنطقةٍ تمتد من أفغانستان حتى إسبانيا. وقد اكتسب الجهاد لاحقاً مكانةً جعلته يبرزُ غزوات المسلمين لمناطق مثل الهند والسودان والأناضول والبلقان.

---

(١) لقراءة النص الكامل للمقالة (WHAT IS Jihad?) بقلم Daniel pipes انظر:
أ. New york post بتاريخ ٢٠٠٢/١٢/٣١
ب. www.danielpipes.org المقالة رقم ٢٨٣٠.

إنّ المصدر الرئيسي الأول للإرهاب في العالم اليوم هو الجهاد، إذ يُلهم لحَمَلةِ عنفٍ على نطاق العالم مِن قِبل مجموعاتٍ تعتبر نفسها جهاديةً. ويواصل بايبس في مقالته بالقول: إنَّ التواجد الأكثر ترويعاً للجهاد حقيقةً في الوقت الحاضر هو في السودان، حيث أن الحزب الحاكم كان يحمل حتى الفترة الأخيرة شعار "الجهاد والنصر والشهادة" لمدّة عقدين وتحت رعاية الحكومة هاجم الجهاديون غيرَ المسلمين وسلبوا ممتلكاتهم وقتلوا ذكورهم.

وقد استعبدَ الجهاديون عشرات الآلاف من الإناث والأطفال وأجبروهم على اعتناق الإسلام، وأرسلوهم في مسيراتٍ قسريةٍ وانهالوا عليهم ضرباً وزجّوهم في الأشغال الشاقة. وقد عانت النساء والفتيات من اغتصابٍ طقوسيٍّ جمعيٍّ، وعانت كذلك من القيام بتشويه أعضائهن التناسلية واستعبادهن جنسياً.

وفي مقالته الثانية التي حملت عنوان "الجهاد عبر التاريخ"[(١)] يتصدّى بايبس للثناء على كتاب ديفيد كوك "فهم الجهاد" ويستخلص من خلال قراءته لهذا الكتاب مخطّطاً موجزاً يوضِّحُ من خلاله مسار الجهاد عبرَ التاريخ جاء فيه ما يلي:

- يدعو القرآن المسلمين لتقديم حيواتهم مقابل دخولهم الحتميّ إلى الجنّة.
- يشرح الحديثُ النبوي القرآنَ معطياً إياه توصياتٍ خاصّةً بالمعاهدات والدّفع والغنائم والسّجناء والوسائل التكتيكية وأشياء أخرى كثيرةٍ، بعد ذلك صاغ فقهاء الإسلام هذه الوصايا على هيئة تشريع.
- انشغل الرسول خلال سنين حكمه بحروبٍ عسكريةٍ وصلت بمعدلها إلى التسع في السنة، أو حربٍ واحدةٍ كل ستة أسابيع؛ وهكذا فإنَّ الجهاد ساعد في تعريف الإسلام منذ فجره الباكر. فقد كان غزو وإذلال غير المسلمين السمة الرئيسية في جهاد الرسول.
- "كان الجهاد يُترجَم بوضوحٍ على شكلٍ عدوانيٍّ وتوسّعيٍّ خلال القرون الأولى للإسلام. وبعد أن خمدت الفتوحاتُ لم يعد ثمّة تهديد لغير المسلمين، إذ تبلورت مفاهيم صوفية عن الجهاد مضفيةً عليه معنىً روحياً يكمل المعنى الماديّ له.

---

(١) لقراءة النص الكامل للمقالة (Jihad through history) بقلم Daniel pipes انظر:
أ. Newyork sun بتاريخ ٢٠٠٥/٥/٣١.
ب. www.danielpipes.org المقالة رقم ٢٦٨٦.

- أعطت الحملات الصليبية، التي حاول بها الأوروبيون طيلة قرون السيطرة على الأرض المقدسة، الجهادَ من جديدٍ صفةَ الإلحاح ودفعت إلى ما يسميه كوك نظرية الجهاد "الكلاسيكية"، ونظراً لإيجاد المسلمين أنفسهم في مواقع دفاعيةٍ فقد تصلَّبت مواقفهم.
- لقد أخضعت الحملات المغولية في القرن الثالث عشر معظم أجزاء العالم الإسلامي،وتلك كانت الكارثة التي خَفَّتْ جزئياً إزاء اعتناق المغول الصّوري للإسلام. بعض مفكّري الإسلام، وابن تيمية على وجه التحديد، مَيَّزَ بين المسلمين الحقيقيين والزائفين، وبحسب ابن تيمية فإنّ إيمان المرء يقترن بمدى استعداده لشن الحرب (الجهاد).
- شنَّ مسلمون "حملاتِ جهادٍ تطهيريةً" في القرن التاسع عشر في بقاعٍ عدّةٍ ضدّ أقرانهم من المسلمين ومن أكثرهم تطرفاً كان الجهاد الوهّابي وعواقبه في الجزيرة العربية، واستناداً إلى تعاليم ابن تيمية فقد وسم الوهّابيون كل مسلمٍ غير وهابيٍّ بميسم الإلحاد (الكفر) وأعلنوا الجهاد عليه!!!.

خامساً: في مقالته "كيف نقضي على الإرهاب"[1] يقول بايبس: ينبغي أن تركِّز الاستراتيجية الفعّالة في مكافحة الإرهاب على حقيقة أن الإرهاب الذي يقوم به المسلمون باسم الإسلام إنما يُمثِّلُ التهديد الاستراتيجي الذي تتعرض له اليوم الشعوب المتحضِّرةُ المسلمة منها وغير المسلمة.

بعد تراجع القانون الإسلاميّ (الشريعة) وانسحابه خلال القرنين الماضيين، عاد مرةً أُخرى مُحدِثاً الكثير من الجلبة وعاد معه الجهاد أو الحرب المقدسة. لقد أصبحت الخلافةُ، التي كانت في حكم المنتهية طوال ألف عام، حلما لا يتوقّف مليئاً بالحياة والحيوية.

سادساً: في مقالته (مشكلة صورة الإسلام)[2] يواصل بايبس حمل رسالته في التخويف من الإسلام وتشويه صورة المسلمين فيقول:

---

(1) لقراءة النصّ الكامل للمقالة (How to end terrorism: with moderate Islam) بقلم daniel pipes أنظر
أ. Newyork Sun بتاريخ ٢٠٠٦/١٢/٥.
ب. www.danielpipes.org المقالة رقم ٤٥٦٩.

(2) لقراءة النص الكامل لمقالة (Islam’s Image Problem) لكاتبه (Daniel pipes) انظر:
أ. New your post بتاريخ ٢٠٠٣/٧/٢٩.
ب. www.danielpipes.org المقالة رقم ١١٩.

يوماً بعد يوم، تتغيّر نظرة الأمريكيين إلى الإسلام والمسلمين لتصبح أكثرَ سلبيةً، هذا ما جاء في استطلاعٍ مهمٍّ نشره "مركز بيو للأبحاث" في الأسبوع الماضي ... ربما كان التطوّر الأكثر إثارةً في الاستطلاع، هو ازدياد عدد الأمريكيين الذين يجدون بأن الإسلام - على الأرجح - دينٌ "يشجِّعُ أتباعه على العنف" أكثر من الأديان الأخرى ففي شهر آذار من سنة ٢٠٠٢ كان هناك خمسةٌ وعشرون بالمائة من الذين استُطْلِعتْ آراؤهم يؤيدون هذه النظرة أما الآن، فقد ارتفعت هذه النسبة إلى ٤٤ بالمائة.

ترى ما هو تفسير هذا القلق المتزايد في نظرة الأمريكيين؟ إنه لواضحٌ بأنّ أكثر هذا القلق، هو نتيجةٌ لواقع الإرهاب الذي يعيشونه باستمرارٍ، وما يسمعونه من تصريحاتٍ مُمتلئةٍ بالكراهية، إضافةً إلى المشاكل المرتبطة بالإسلام المتطرّف والتي يُعاني منها العالمُ كلُّه. لكنَّ بعض هذا القلق ناتجٌ أيضاً عن المشاكل المتعلقة بسيطرة الإسلام المتطرف على النواحي الحياتية للمجتمع الإسلامي الأمريكي.

سابعاً: في مقالته "الولايات الأمريكيّة الإسلامية"[1] يواصل بايبس التحريض والتخويف قائلاً: إنَّ أكثر شيءٍ يصعب على الغربيين فهمه ليس أنّ هناك حرباً قائمةً مع الإسلام المتطرِّف الجهاديّ وإنما طبيعة الهدف النهائيّ للعدو. هدف العدو هو تطبيق القانون الإسلامي (الشريعة) على العالم بأسره. في الولايات المتحدة الهدف هو إحلال القرآن محل الدستور. إن طبيعة المسلمين في هذا البلد ليست مثل طبيعة أيِّ جماعةٍ أخرى، لأنها تضمُّ داخلها عدداً كبيراً من الناس ممّن يشاركون المختطِفين الانتحاريين العداء للولايات المتحدة والرغبة في تحويلها إلى أمةٍ تعيش تحت قيود الإسلام المتطرف الجهادي في نهاية المطاف.

ثامناً: في مقالته التحريضيّة البشعة "الفاتيكان يواجه الإسلام"[2] يواصل بايبس مشواره في التحريض ويذكّر الفاتيكان والمسيحيين الكاثوليك بالظروف الصعبة التي تعاني منها

---

[1] لقراءة النص الكامل لمقالة (The Islamic States of America) لكاتبه (Daniel Pipes) أنظر:
أ. www.frontpagemagazine.come بتاريخ ٢٠٠٤/٩/٢٣.
ب. www.danielpipes.org المقالة رقم ٣٠٤٢.

[2] لقراءة النصّ الكامل لمقالة (The Vatican confronts Islam) لكاتبه (Daniel pipes) انظر:
أ. jerusalem post بتاريخ ٢٠٠٦/٧/٥
ب. www.danielpipes.org المقالة رقم ٣٧٦٦.

الأقليات المسيحية التي تعيشُ مُهمّشةً مُضْطَهدةً مهضومة الحقوق في العالم الإسلامي الذي يعاملهم على أنّهم مواطنون من الدرجة الثانية، لافتاً إلى أنّ هذا النوع من التمييز والاضطهاد لا تشعرُ به الجاليات والأقليّات المسلمة التي تعيش في الغرب، ويقول بايبس في هذه المقالة:

يلاحظ باتريك سوكدو، المدير الدولي لصندوق بارناباس، أن حوالي أربعين مليون مسيحيٍّ في دار الإسلام يجدون أنفسهم، وفي تزايدٍ، أقليةً مُحارَبَةً (تُشَنُّ عليها الحرب) تواجه انهياراً اقتصادياً، وحقوقاً تتناقص وتتصاغر، وأخطاراً ماديةً. ويستمرُ قائلاً، إنّ معظمهم مواطنون من الدرجة الثانية يتعرَّضون للاحتقار ولا يُوثَقُ بهم، يواجهون التمييز العنصري في التعليم والوظائف والمحاكم. وتدفع هذه الظروف القاسية المسيحيين إلى هجرة أراضي أسلافهم إلى بيئة الغرب الأفضل ضيافةً لهم والأكثر ترحيباً بهم. نتيجةً لذلك، يتناقص عدد السكان المسيحيين في العالم الإسلاميّ وبسرعة ... واقع القهر والتدهور هذا يقف في تناقضٍ شديدٍ ودراميٍّ مع صعود الأقلية المُسلمة في الغرب. بالرغم من أنَّ تعدادها يقل عن عشرين مليون معظمهم من المهاجرين وأبنائهم (ذريتهم) إلاّ أنّها أقليةٌ تتزايد قوَّتُها ويعلو صوتها، وحصلت على الكثير من الحقوق وتتمتع بقدرٍ كبيرٍ من الحماية خاصّةً مع فوزها بامتيازاتٍ تشريعيةٍ قانونيةٍ وثقافيةٍ وسياسيةٍ جديدةٍ. إنّ الإسلام الراديكالي المتطرِّف هو السبب الرئيسي للخروج المسيحي.

تاسعاً: في مقالته "ترهيب الغرب وإكراهه بالتهديد من رشدي إلى بيندكت"[1] يتعمّد بايبس إظهار المسلمين بمظهر المشاغبين الميّالين للعُنف الذين لا يسمحون بتعدُّد وجهات النظر ولا يطيقون سماع أيِّ صوتٍ مخالِفٍ لهم، ولا يلتمسون له عذراً ويتجاهلون أو يجهلون الأمور الدقيقة التي يتطلّب فهمها الكثير من الهدوء والحكمة وحدّة الذهن ويقول:

إنّ العنف الذي اتسمت به ردود فعل المسلمين على تعليقات البابا إنّما يتّفقُ ونمطٍ يتطوّر وفي تسارع منذ ١٩٨٩م. لقد تكرَّر هذا النمط ستَّ مراتٍ منذ ذلك التاريخ: لا يلبث

---

(1) لقراءة النصّ الكامل لمقالة (Intimidating the west, from rushdie to benedict) لكاتبه (daniel pipes) انظر:
أ. New york sun بتاريخ ٢٠٠٦/٩/٢٦.
ب. www.danielpipes.org المقالة رقم ٤٠١٦.

أن يفعل أو يقول الغربيون شيئاً حتى يندلع العنف وتتردّد عبارات التهديدات بالقتل والثأر في العالم الإسلامي. إنّ تأمُّل هذه الأحداث معاً يمنحنا فهماً وبصيرةً في غاية النفع:

- ١٩٨٩م - رواية سلمان رشدي، "الآيات الشيطانية" دفعت آية الله خميني إلى إصدار حكم الإعدام عليه وعلى الناشرين، على أساس أنّ ذلك الكتاب هو "عدوان على الإسلام وعلى الرسول وعلى القرآن" وأدّت أعمالُ الشغب التي أعقبت ذلك إلى مقتل ما يزيد عن عشرين شخصاً معظمهم في الهند.
- ١٩٩٧م ـ عندما رفضت المحكمة الدستورية العليا للولايات المتحدة أن تزيل إطار عمودٍ يُزيِّنُ قاعة المحكمة الرئيسية مرسومٌ عليه صورةٌ لمحمد بوصفه أحد مُشَرّعي القوانين؛ جعل مجلس العلاقات الأمريكية الإسلامية من هذا الأمر قضيةً، مما أدى إلى أحداث شغبٍ وسقوط جرحى في الهند.
- ٢٠٠٢م – وصف جيري فالويل، الزعيم البروتستانتي الإنجيلي الأمريكي الجنسية، محمداً "بالإرهابي،" مما أدى إلى إحراق الكنائس ومقتل ما لا يقل عن عشرة أشخاص في الهند.
- ٢٠٠٥م ـ استغل لاعب الكريكت الباكستاني الشهير، عمران خان، قصّةً غيرَ صحيحةٍ نشرتها مجلة النيوزويك، تتحدث عن أنّ محقّقين أمريكيين في معتقل خليج جوانتانامو، كانوا قد قاموا بإلقاء القرآن في المرحاض من أجل إزعاج ومضايقة المعتقلين المشتبَهِ بهم، ودعا خان إلى الاحتجاج والتظاهر عبر أرجاء العالم الإسلامي، مما أدى إلى مقتل خمسة عشر شخصاً على الأقل.
- شباط ٢٠٠٦م ـ نشرت الصحيفة الدنماركية يولانس ـ بوستن إثني عشر رسماً كرتونياً (كاريكاتورياً) لمحمّدٍ مما دعا أحمد عبد الرحمن أبو لبن، وهو إمام مسجد فلسطينيّ في كوبنهاجن، إلى تهييج الرأي العام الإسلامي ضدّ الحكومة الدنماركية. ولقد حقق نجاحاً كبيراً في ذلك حيث قُتِلَ المئاتُ، معظمهم في نيجيريا.
- سبتمبر ٢٠٠٦م ـ استشهد البابا بينديكت السادس عشر بوجهات نظر إمبراطورٍ بيزنطيٍّ ترى أنَّ ما هو جديد في الإسلام إنما هو "شرير ولا إنساني"، مما أدّى إلى رمي الكنائس بالقنابل وقُتِلَ العديدُ من المسيحيين.

ويعلّق بايبس على هذه الأحداث بقوله إنها تلقي الضوء على الغياب الكامل لمبدأ المعاملة بالمثل عند المسلمين ويقول في نهاية هذه المقالة:

لا توجد مؤامرةٌ خلف هذه الجولات الستّ من الغضب والعنف والعدوان، لكنّ فحصها وتأمّلها يكشف عن تلاحمها واندماجها معاً لتخلق حملةً واحدةً ممتدةً للترهيب والتخويف والإكراه بالتهديد، ولاشكَّ أننا سوف نشهدُ المزيد منها. والرسالةُ الأساسيةُ "أنتم أيها الغربيون ما عدتم تملكون الحق في قول ما تودّون عن الإسلام والنبيّ والقرآن، فالقانون الإسلامي (الشريعة) يحكمكم أنتم أيضاً، سوف نعودُ مرّةً عقب أخرى حتى يخضعَ الغربيون ويستسلموا أو يدرك المسلمون أنّ جهودهم قد باءت بالفشل".

وتعليقاً على ما ذكره هذا البايبس عن سلمان رشدي صاحب رواية "الآيات الشيطانيّة" نشيرُ إلى أنّه كتبَ مقالةً يمدحُ فيها منح ملكة بريطانيا لقب (فارس) لرشدي ويصفُ تصرّفها ذاك بأنّه "تعبيرٌ عن القوّة والصلابة البريطانية"[1]!!.

عاشراً: في نهاية ذكرنا لبعض مقالات دانيال بايبس نتوقّفُ عند هذه المقالة العاشرة والتي تناولت موضوع الرسوم الكرتونية المُسيئة لرسول الله ﷺ التي نشرتها بعض الصحف الدانماركية، وقد حملت مقالة بايبس هذه المرّة عنوان (رسوم الكرتون والإمبريالية الإسلاميّة)[2] وجاء فيها ما يلي:

المسألة الأساسية التي نخشى ضياعها في المعركة الدائرة حول رسوم الكارتون الدانماركية الإثني عشر التي تناولت رسول المسلمين محمداً هي: هل يقف الغرب مدافعاً عن عاداته وتقاليده وقيمه، بما فيها حرية التعبير، أم أنّ المسلمين سوف يفرضون طريقتهم في الحياة على الغرب؟ في النهاية، لا يوجد حلٌّ وسطٌ: إمّا أن يتمسَّك الغربيون بمدنيَّتهم وحضارتهم، بما

---

[1] لقراءة النص الكامل لمقالة (Salman Rushdie and british backbone) لكاتبها (daniel pipes) انظر:
أ. Newyork sun بتاريخ ٢٠٠٧/٧/٢٦.
ب. www.danielpipes.org المقالة رقم ٤٩٦٤.

[2] لقراءة النصّ الكامل لمقالة (Cartoons and Islamic Imperialism) لكاتبها (Daniel pipes) انظر:
أ. Newyork sun بتاريخ ٢٠٠٦/٢/٧م.
ب. www.danielpipes.org المقالة رقم ٣٨٦٦.

فيها حقُّ السبِّ والإهانة وحقُّ الكفر والتجديف في حقّ الأديان وفي حقّ مفهومها عن الربّ أو الإله، أو لا يتمسّكوا.

بتحديدٍ أكثر، هل يقبل الغربيون بمعيارٍ مزدوجٍ يكون بموجبه المسلمون أحراراً في إهانة اليهودية والمسيحية والهندوسية والبوذية، بينما محمدٌ والإسلام والمسلمون يتمتّعون بحصانةٍ ضد الإهانات والسبّ؟ بصورةٍ روتينيةٍ ينشر المسلمون رسوم كارتون أكثرَ عدوانيةً وجرحاً للمشاعر من الرسوم الدانماركية. هل هم يملكون الحق في قول وعمل ما يشاؤون دون تفكيرٍ وتدبرٍ بينما يشعرون بالإهانة من أقوالٍ وأعمالٍ مشابهة؟

وفي نهاية هذه المقالة يمدح بايبس بعض حكومات الدول التي رفضت الاعتذار عن إعادة نشر صحفها لهذه الرسوم المُسيئة، ويحتجُّ بشدّةٍ على حكومات بعض الدول الأخرى التي اعتذرت للمسلمين عن قيام صحفها بإعادة نشر هذه الرسوم، وكان على رأس هذه الدول بولندا وبريطانيا ونيوزيلاند والولايات المتّحدة الأمريكيّة ويتّهم هذه الدول وبالذات الولايات المتّحدة بالخضوع للتهديد الإسلامي والإمبريالية الإسلامية ويقول في ختام مقالته:

يا للغرابة بينما "أوروبا القديمة" تستجمع قوّتَها وعزيمتها، ترتجفُ المملكة المتحدة والولايات المتحدة لقد كان ردُّ فعلِ الحكومة الأمريكية سيئاً جداً ... ينبغي على الحكومات الغربية أن تأخذ مقرراً دراسياً مُكثّفاً يعلّمها الحقائق الأساسية التي تتعلق بالشريعة الإسلامية (القانون الإسلامي) والأمر الإسلامي الذي التزم به المسلمون عبر التاريخ والمتمثل في إخضاع واستعباد الشعوب غير المسلمة ...

ليست مقالات دانيال بايبس ودراساته عن الإسلام بحاجةٍ إلى كثير تعليقٍ، فالرجل كان من خلالها يُعبرِّ عن ألمه وهمّه من هذا الدّين الذي يحملُ اسم الإسلام، ويمارس هوايته في نفث السموم في عُقَد المجتمع الغربيّ عموماً والأمريكيّ على وجه الخُصوص. لقد وسمَ بايبس الإسلام بأنّهُ متطرّفٌ وعنيفٌ وأصوليٌّ، ونسيَ في الوقت ذاته بل تناسى انتماءه للتيار المسيحي الصهيونيّ والذي يُعتبرُ الوجه الأوضح للتطرّف المسيحيّ المعاصر!!

رسالةُ هذا الرجل واضحةٌ وعلنيّةٌ وصريحةٌ، فهو يختصر الإسلام ومنجزاته الحضاريّة كلّها في خمسة عشر مصطلحاً نراه يكرّرُ بعضها في كلّ مقالاته ودراساته وكتبه وهي (العنف

الإسلامي، الرّعب الإسلامي، التهديد الإسلاميّ، الترهيب الإسلامي للغرب، مواجهة الإسلام، الإرهاب الإسلامي، الجهاد، الإسلام الراديكالي، الإسلام المتطرّف، الإكراه الإسلاميّ، إحساس المسلمين المتنامي بالقوّة، طبيعة المسلمين، الإمبريالية الإسلاميّة، منظومة العصور الوسطى الإسلامية، الإسلام المعادي للحداثة).

ويبدو أنّ هناك علاقةً روحيّةً حميمةً تربط بايبس بهذه الأوصاف والمصطلحات فنراها تكاد لا تفارق كتاباته وندواته، ولعمري ما اشتَّق هذا البايبسُ هذه المصطلحات إلاّ ممّن سبقوه من رهبان العصور الوسطى الذين ابتدعوا الاستشراق الدّيني، وممّن سار على نهجهم من المعاصرين من برنارد لويس إلى صامويل هنتنغتون ... كان بايبس ولا يزال مدفوعاً بهواجس الخوف من الإسلام والخشية من انتشاره (على حساب المسيحيّة طبعاً) فلم يجد وسيلةً للقضاء على هذه الهواجس سوى مهاجمة الإسلام والعمل على تشويه صورته في أعين المسيحيين، سالكاً بذلك درب أجداده رهبان العصور الوسطى. ويبدو أنّ هذا البايبس لم يفهم الحكمة الإلهية من انكسار شوكة صليبيي العصور الوسطى وصليبيي القرن الحادي والعشرين في حربهم على الإسلام، وهذه الحكمة تتمّثل في قوله تعالى " يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ "[1]. قضى هذا الرجل حياته في محاربة الإسلام وتشويه صورته ولم يكلّف نفسه ولو لمرّةٍ واحدةٍ عناء استضافة مُسلمٍ في برامجه وأعماله المتلفزة وندواته وحواراته. كلُّ أعماله كانت تتحدّث عن الإسلام ولم يظهر فيها مسلمٌ واحدٌ ليشرحَ أو يبيِّنَ أو يوضِّحَ لبايبس وجمهوره حقيقة المفاهيم الشائكة المُبْهَمة التي يحملونها عن الإسلام والسبب في ذلك، كما نرى، يرجعُ إلى أنّ هذا البايبس لا يريدُ أن يعرف عن الإسلام غير الأوهام والخزعبلات التي يعرفها والتي تربّى عليها ونشأ!!!.

والمصيبةُ الكبرى أنّ بعض الموسوعات المعاصرة تُصنّفهُ على أنّه من العلماء المختصّين بالإسلاميّات!!! مظلومةٌ هذه "الإسلاميات"، فالكلُّ يزعم وصلاً بها مع أنّ بينها وبينهم بُعدَ المشرقين!!.

---

(1) سورة التوبة: الآية ٣٢.

يُستفادُ مما سبق خطورة الدور الذي لعبهُ هؤلاء الرجال الثلاثة في الصدِّ عن الإسلام والترويج له كعدوٍّ يتهدّد الحضارة الغربية المسيحيّة بكُلّ منجزاتها وقيمها، وقد نجحوا، إلى حدٍّ بعيدٍ، في إستثارة الفزع الغربي من الإسلام وساهموا بشكلٍ فعّالٍ في إستثارة القلق الأوروبي تجاه الإسلام والذي كان قد انتهى، تقريباً، بنهاية الحروب الصليبيّة.

ولعلّ هذا القلق والخوف يتمثّل في وجهين بارزين، أولهما هو الخوف من انتشار الإسلام في القارّتين الأوروبية والأمريكية، وثانيهما هو الخوفُ على المسيحيّة من الاندثار في هاتين القارّتين الحاميتين لها على امتداد التاريخ والحاضر، ويدعم صحّة هذا الاستنتاج الإشارات المتكررة إلى (أوروبا مسلمة بنهاية هذا القرن) بسبب ازدياد عدد المهاجرين المسلمين إليها وازدياد نسب مواليدهم مقارنة بانخفاض نسب مواليد المسيحيين. ونعيدُ التذكير هنا بأنّ هذه الإشارات إلى (أوروبا مسلمة) قد تكررت حرفيّاً في كلٍّ من خُطَب وتصريحات البابا بنديكت السادس عشر وبرنارد لويس وصامويل هنتنغتون ودانيال بايبس ممّا يُثبتُ تطابق مواقفهم ووجهات نظرهم إزاء الإسلام. ولا ينبغي لأحدٍ التخفيف من مدى الخوف الغربيّ من الإسلام الذي أضحى على حدِّ تعبير الكثير من الكتّاب والنُقّاد مَرَضَ الغرب المعاصر.

"الخوف من الإسلام مرض بريطانيا الجديد" هكذا نشرت صحيفة "ذي إندبندنت" اللندنية مقالاً على صفحتين كاملتين في الرابع من تموز عام ٢٠٠٨م ويقول كاتب المقال "بيتر أوبورن": "إنّ نظرة الشكّ تجاه المسلمين البريطانيين قد وجدت طريقها إلى المجتمع الواسع ولا يبدو أنّ أحداً ما يكترث لذلك"، مشيراً إلى أنّ الفجوة تتّسعُ أكثر فأكثر بين المسلمين وباقي المجتمع في بريطانيا. ويضيف: "في بريطانيا اليوم، ثمة تعميق لعدم الثقة بين التيار الرئيس للمجتمع والمجتمعات الإسلامية الأكثر عزلةً من أيِّ وقتٍ مضى، وبدأت ثقافةُ العنف والاحتقار تظهر في شوارعنا. في مطلع شهر تموز من عام ٢٠٠٨م حُكم بالسجن لمدة ستة عشر عاماً على "مارتن جيلارد"، أحد المتعاطفين مع النازيّة في شرق "يوركشر"، وقد عثرت الشرطة في منزله على أربع قنابل مسامير، ورصاص، وسيوف وفؤوس وسكاكين. وقال "جيلارد": "إنه كان يستعد لحرب ضدّ المسلمين". كما عُثِرَ على مذكرةٍ كَتَبَ فيها: "لقد سئمتُ من الاستماع إلى كلام القوميين عن قتال المسلمين، وتفجير المساجد، وردّ العدوان، ولكنني رأيتُ فشل هذا النوع من المقاومة، لقد حان الوقت للتوقف عن الكلام والبدء في العمل".

ومضت القضية دون ضجةٍ، ولو كان الذي عُثِر في منزله على بعض هذه الأسلحة، والتخطيط لاعتداءاتٍ عنيفةٍ هو أحد المسلمين، لكانت القصة أكبرَ من ذلك بكثير"[1].

"وقامت القناة الرابعة البريطانية بتكليف باحثين في كلية الصحافة والإعلام بجامعة "كاردف" للنظر فيما تبثُّهُ وسائل الإعلام عن الإسلام والمسلمين في بريطانيا، ودرسوا عيّنةً من ألف مقالٍ (من جملة ٢٣ ألف مقال) منذ عام ٢٠٠٠م، فوجدوا أنّ ٦٩% من مقالات الصحف تصوِّرُ المسلمين على أنّهم مصدر المشكلات [المشكلات وليس الإرهاب فحسب]، وأنّ ٢٦% من المقالات تصوّر الإسلام على أنه دينٌ خطيرٌ ورجعيٌّ وغيرُ منطقيٍّ، وأنّ ٢% فقط مما نُشر يقول: إنّ المسلمين يؤيدون القيم البريطانية. كما وجد أنّ الصحف تربط بين المسلمين والتهديد بالإرهاب في ٣٤% من المقالات، وأنّ الإسلام يهدّدُ طريقة الحياة البريطانية في ٩%، واستُخدِمَ تعبير "صراع الحضارات بين الإسلام والغرب" في ١٤% من الكتابات. وتتكرّرُ الصّور في الصحافة البريطانية في وصف المسلمين بالإرهاب والتطرف ومعاداتهم للثقافة البريطانية، وتهدف الصحافة من التكرار إلى غسيل مخّ الجمهور وتثبيت العداء للمسلمين كلِّ المسلمين، وللإسلام كلِّ الإسلام.وفي هذا العام زاد معدّلُ الكتابة عن الإسلام والثقافة والحضارة والحياة الاجتماعية أكثر من الحديث عن الإرهاب (٣٢% مقابل ٢٧%) وهو تطورٌ خطيرٌ قال عنه البروفيسور "جوستين لويس" الأستاذ بجامعة "كاردف": "إنّهُ تحولٌ خطيرٌ؛ لأنّ اتهام كل المسلمين بالإرهاب قد لا يجد آذاناً صاغيةً، ولكنّ اتهام المسلمين بكراهية طريقة الحياة الغربية سيجدُ نسبةً كبيرةً من المصدّقين،وهو يضع جبالاً من الأعباء على أكتاف المسلمين"[2].

لقد كان من الجدير بدانيال بايبس وأمثاله من المروّجين لأكذوبة الرعب والتطرف الإسلامي الانشغال بالترويج للمسيحيّة وقيمها والحضارة التي نشأت في ظلها في الغرب، أو بالأصح الحضارة التي نشأت بعد عزل الكنيسة ومنعها من التدخل في الحياة العامّة والخاصّة لأهل الغرب، عوضاً عن الانشغال بمهاجمة الإسلام واصطناع موجات التزوير والكذب

---

(1) أحمد عيسى، الخوف من الإسلام .. مرض بريطانيا الجديد، دراسةٌ منشورةٌ في الموقع الإلكتروني لمجلة المجتمع بتاريخ ٢٠٠٨/١٠/٦. وأصل عنوان هذه المقالة هو "The enemy within? Fear from Islam: Britain's new disease" للكاتب "Peter Oborne" وهو منشور في صحيفة "The Independent" البريطانية بتاريخ ٤/ تموز/ ٢٠٠٨م.

(2) المرجع السابق نفسه.

والافتراء عليه وعلى رسول الله ﷺ وتشويه صورتها الحقيقيّة المشرقة. ولكن يبدو أنّ الأمر لا يعدو كونه توزيعاً للأدوار في معركتهم الحضاريّة العقديّة الفكرية مع الإسلام.

والسؤال المُلحُّ الذي يطرح نفسه بقوّةٍ، هل كان هؤلاء محقّين في خوفهم هذا من الإسلام؟ وهل كان خوفهم مبرّراً وله ما يسوّغه؟؟ وفي الإجابة على هذا السؤال نقول: إنّ خوفهم من الإسلام غير مقبولٍ أبداً، ولكنّنا نعترفُ في الوقت ذاته أنّ خوفهم كان ولازال وسيبقى له ما يبرّره في ظل الامتداد المذهل والانتشار السريع للإسلام في الغرب بالرغم من كلّ ما يتعرّض له المسلمون اليوم من مضايقاتٍ واتهاماتٍ ومحارباتٍ. إنّ سرعة انتشار الإسلام تكاد تكون الخَاصّية الأبرز فيه، وهي الخاصيّة التي يتفوق بها على بقيّة الأديان، وما ذلك إلاّ لسهولته وبساطته وموافقة معتقداته وتعاليمه للفطرة والعقل البشريّ في الوقت ذاته. نقول هذا عن سرعة انتشار الإسلام في ظلّ ظروفٍ يرافقُها تراجعٌ مُخِيفٌ للمسيحيّة في الغرب، وبالذات في بريطانيا، "فهناك صعوبات مستمرة تواجه النصرانية في بريطانيا، أدَّتْ إلى هجر الكنائس إلا من العجائز؛ وبالتالي قلّةَ التبرعات والموارد المالية، وبهذا تتعرض المباني للإغلاق أو البيع .. بالإضافة إلى التخُّوف الرقميّ من أعداد المسلمين "الملتزمين"؛ خاصّة الشباب منهم، وهو ما عبّر عنه بابا الفاتيكان أثناء زيارته لـ "النمسا"، مخاطباً الأوروبيين بقوله: [إنّ مستقبل أوروبا المسيحية كئيبٌ ويُنذرُ بالخطر، خاصّةً إذا لم تُنجبوا الأولاد وتقيموا شريعة الرب]، مُحذّراً من انحسار الهوية النصرانية في ظل انخفاض معدّل المواليد وزيادة عدد المهاجرين المسلمين ... وقد أشارت الدراسة التي أصدرتها مؤخراً مؤسسة Christian Research إلى أنه بحلول عام ٢٠٥٠م سيتدنّى عدد المُرتادين للكنائس باختلاف عقائدهم في بريطانيا أيام الآحاد إلى أقل من مليون و٩٠٠ ألف، وستتعرض أربع آلاف كنيسة بحلول عام ٢٠٢٠م للإغلاق إذا استمرَّ مُعدّلُ الغلق الحالي. وتتوقع الدراسة أن ينمو ويتضاعف عددُ المسلمين "الملتزمين"، حسب تعبير الدراسة، إلى ٢.٩٦ مليون وهو ثلاثةُ أضعاف العدد المتوقع لعدد النصارى الذين يحضرون "قُدَّاس الأحد". والصورة قاتمةٌ للكنيسة الإنجليكانية الرسمية، فالتقرير يتنبّأ أنه في عام ٢٠٤٠م، سيكون وضعُ رئيس الكنيسة "مُعدَماً تماماً"؛ حيث سيرعى مائةً وثمانين ألف مصلٍّ فقط في ست آلاف كنيسة فحسب، أي بمتوسط ثلاثين مصَلّياً لكلّ كنيسةٍ. وقالت دراسةٌ نشرتها صحيفةُ "صنداي تليجراف" البريطانية: أنّه من المتوقَّع أن يتراجع عددُ الكنائس في بريطانيا بحلول عام ٢٠٣٠م من ثماني وأربعين ألف كنيسةٍ إلى تسع وثلاثين ألفاً، أي ما يُعادل خُمس كنائس إنجلترا. وأشارت الدراسة إلى أن كنيستين يتم إغلاقها أسبوعياً، فيما تحتاج إعادةُ ترميم الكنائس على مدار السنوات الخمس

القادمة إلى مليار جنيه استرليني، أي بمعدل مائتي مليون جنيه سنوياً، في حين لا تقدّم الحكومة سوى خمسة وعشرين مليون جنيه سنوياً لهذا الغرض ..."[1].

وقد بادرت الصحيفة بإطلاق حملةٍ بعنوان "أنقذوا الكنائس"، تهدف إلى حماية آلاف الكنائس من الاختفاء للأبد، وأظهرت الدراسة تراجعاً ملحوظاً في عدد الحضور بالكنائس، ونقلت عن قساوسةٍ قولهم: [إنَّ هناك آلافاً من الكنائس لا يدخلها سوى العشرات كلَّ يوم أحدٍ، في حين يندرُ التردّد عليها في باقي أيام الأسبوع].

وفي تعليقٍ له على الوضع السابق المتمثّل في إعراض الشباب المسيحيّ في الغرب وازدياد إقبال الشباب المسلم على المساجد يقول: البروفيسور "دافيد فوياس"، أستاذ الدراسات السكانية بجامعة "مانشستر": [إن المشكلة هي عدم حضور الشباب للكنائس لأنهم يستهزئون بمن يذهب، ويوجد تصورٌ اجتماعيٌ بينهم يَسِمُ مَن يحضر بالعار والاحتقار]. ويضيف: [إن شباب المسلمين مختلفون، فهم يعتبرون الدين ميراثاً يُعتز به، وهو مسألة هوية تتأكد عندهم بالتزامهم أكثر من آبائهم][2].

وقد يقولُ قائلٌ: إنّ هذا الوضع قائمٌ في بريطانيا فقط، وإنه وضعٌ استثنائيٌ ولا يُجيز لنا أن ننطلق لتعميم القول بتراجع المسيحيّة وعدد مرتادي الكنائس في أوروبا. ونوردُ الردّ على هذا الاعتراض بذكرنا لكُلٍّ من الحقائق التالية:

أولاً: إنَّ الإسلام خلال الخمسين عاماً الماضية تقدَّم بخطىً حثيثةٍ، فقد ازدادت أعداد المسلمين في أوروبا وأمريكا في العقود الخمسة المنصرمة زيادةً ملحوظةً، لم تعد تقدَّر بالآلاف بل تقدَّر بالملايين العديدة، فتذكر الدراسات "أن الإسلام تنامى في أوروبا بنسبة ٢٣٥ في المائة خلال النصف الثاني من القرن العشرين، مقابل ٤٧ في المائة للمسيحية، ومن خلال الأماكن التي يلتقي بها المسلمون، فبعدما كانت في فترة الستينات بضع عشرات، ثم بضع مئات في بداية الثمانينات وصل تعدادها الآن

---

[1] أحمد عيسى، المسيحيّة تنقرضُ في بريطانيا، دراسة منشورة في موقع نسيج الإلكتروني www.naseej.com بتاريخ ٢٠٠٨/٩/٢٧.
[2] المرجع السابق نفسه.

٧٥٠٠ بين مساجد وقاعات للقاء المسلمين"، الأمر الذي اضطر عدداً من بلدان العالم الغربي إلى الاعتراف بالواقع الجديد، وذلك بالاعتراف القانوني بالإسلام[١].

ثانياً: أشارت عمليةُ مسحٍ حديثةٌ صادرة عن مركز الأبحاث الاجتماعية في "جامعة جورجيا" الأميركية، إلى أن الإسلام أسرع الأديان انتشاراً في "الولايات المتحدة" اليوم، ويبلغ عدد المساجد في أمريكا ـ بحسب المسح ـ ما يزيد على ١٢٠٩ مساجد، بُني أكثر من نصفها خلال السنوات العشرين الماضية، وتتراوح نسبة الذين تحوّلوا إلى الديانة الإسلامية ما بين ١٧ و٣٠ بالمائة[٢].

ومن العجيب أنّ أعداد المهتدين للإسلام في الولايات المتحدة الأمريكية تضاعف أربعَ مراتٍ بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، "حيث تشيرُ الأرقام المنشورة إلى أنّ ثلاثين ألف أمريكي اشهروا إسلامهم بعد حادث سبتمبر،وذلك رقمٌ قياسيٌ في أمريكا، كما أظهرت دراسةٌ إحصائيةٌ جديدةٌ أعدَّها مجلس العلاقات الأمريكية الإسلامية "كير" عن المساجد بالولايات المتحدة: أنّ عدد المساجد بالولايات المتحدة قد ارتفع بنسبةٍ كبيرةٍ، حيث أكدَّ الدكتور إحسان يابقى ـ من جامعة كنتاكي الذي قام بإعداد الدراسة ـ أنّ ازدياد عدد المساجد يؤكد انتشار الإسلام وازدياد عدد معتنقية بالولايات المتحدة"[٣].

ثالثاً: أصبحت بعضُ الكنائس الدانماركية معروضةً للبيع، بعد أن باتت فارغةً لا يدخلها إلاّ الأشباحُ، حسبَ تعبير بعض رجال الدين، فقد قررت إدارة الكنائس في الدانمارك عرض عشر كنائس للبيع قابلةٍ للزيادة، خاصّةً في العاصمة "كوبنهاجن" حيث أدار الناس ظهورهم للكنيسة ... ورغم أنّ نسبةَ المسجّلين في الكنائس حوالي ٨٢% إلاّ أنّ عدد الذين يدخلونها لا يتعدّى ٨%. ويقول الأمين العام للكنائس في الدنمارك "كاي بولمان" تعليقاً على قرار البيع: "إذا لم تُستعَمل الكنيسة للعبادة، فالأحرى أن تُستعمل كإسطبل"!.

---

(1) خلف أحمد محمود، شمسُ الإسلام هل تسطع من الغرب، مقالة منشورة في موقع الألوكة الإلكتروني www.alukah.net بتاريخ ٢٠٠٩/٩/٢٨م.

(2) انظر الموقع الإلكتروني لوكالة الأنباء الإسلامية الدولية (إينا) بتاريخ ٢٠٠٨/٩/٩.

(3) خلف أحمد محمود [م. س]

ووضع عددٌ من رجال الدين حَظْراً على بيع الكنائس للمسلمين لتحويلها إلى مساجد، بحجّةِ أنَّ هناك طوائفَ مسيحيةً من خارج الدانمارك ترغب في شرائها أو استئجارها كالطوائف الرّوسية والصّربية،وخاصةً في العاصمة كوبنهاجن حيث التجمّعُ الكبير للمسلمين وقد يتحوّل معظمها لمقاهٍ ومنتدياتٍ ومراكز لشركاتٍ سينمائيةٍ ومراكز لعرض اللوحات الفنية. وتقول إدارة الكنائس: "إنّ الكنائس التي بُنيت في القرون الوسطى، والتي تنتشر في القرى وخارج المدن الكبيرة لن تصبح مطروحةً للبيع، ولكنّ فكرةَ بيعها للمسلمين مرفوضةٌ من كلِّ الجهات الرسمية والشعبية"(١).

رابعاً: كشفت نتائج الإحصاء السُكّاني الكنديّ عن تزايد أعداد المسلمين في كندا بشكلٍ ملحوظ، ممّا جعل الإسلام أسرع الأديان انتشاراً في كندا، وتشيرُ صحيفة "مونتريال جازيت" الكندية في مقالٍ نُشِرَ في الرابع عشر من أيار عام ٢٠٠٣ إلى أنّ المسلمين قد أصبحوا أكبر الأقليات في مقاطعة توبيك ـ إحدى أكبر المقاطعات الكندية ـ حيث قفز عددهم في المقاطعة من ١٠٨ ألف نسمة في أوائل العقد الماضي، إلى ١٤١ ألف نسمة في نهاية القرن العشرين، وقالت الصحيفة: إنّ الفترة نفسها شهدت انخفاض أعداد أقلياتٍ أخرى، مثل اليهود الذين تناقص عددهم بنسبة ٨%،حيث وصلوا إلى ٩٠ ألف نسمة"(٢).

خامساً: تتوقع جهاتٌ إحصائيةٌ رسميةٌ في فرنسا أن يصل عدد المسلمين الفرنسيين إلى عشرين مليوناً بحلول عام ٢٠٢٠، نتيجةَ إرتفاع عدد المواليد وسط المسلمين وانتشار الدين الإسلامي بين الفرنسيين، كما تتوقع تقارير أخرى أن يعتنق الإسلام حوالي خمسين ألف فرنسي سنوياً، الأمر الذي سوف يجعل من الإسلام أكبر الديانات في فرنسا في المستقبل القريب(٣).

سادساً: أثبتت الإحصاءات في ألمانيا أنَّ الإسلام هو الدِّينُ الوحيدُ الذي يتزايد عدد أتباعه باستمرارٍ، وأنَّ المسلمين الجدد هم من طبقة المثقَّفين والأكاديميين الألمان"، ويؤكد "عمر فندر بروك" ـ مستشار المركز الثقافي الإسلامي في بروكسل ـ أنّ المستقبل

---

(١) مجلة المجتمع العدد ١٧٩٦ بتاريخ ٢٠٠٨/٤/٥م.
(٢) خلف أحمد محمود [م. س].
(٣) المرجع السابق نفسه.

لصالح الإسلام في القارة الأوروبية؛ حيث إنّ عدد المسلمين في دول الاتحاد الأوروبي في زيادةٍ مستمرةٍ ويُتَوقّع أن يرتفع عدد المسلمين في غضون نصف القرن القادم إلى خمسين مليون نسمة، وفقاً لمعظم التقديرات، وهذا العدد يُداني حجم أكبر دول الاتحاد الأوروبي، ويضاهي حجم الغالبية الساحقة منها[١].

سابعاً: ذكرت صحيفة الفاتيكان "أوسرفاتوري رومانو" في عددها الصادر يوم الأحد الماضي "نقلاً عن الدليل السنويّ الحبريّ للفاتيكان طبعة عام ٢٠٠٨م" أنّ عدد المسلمين في العالم تجاوز عدد النصارى الكاثوليك، حيث بلغت نسبةُ المسلمين في العالم ١٩.٢% فيما تُقدَّر نسبة الكاثوليك بـ ١٧.٤%. وتستند هذه الأرقام إلى معلوماتٍ صادرةٍ عن الأمم المتحدة في عام ٢٠٠٦م، حسبما أوضح لصحيفة "الفاتيكان" مديرُ الدليل السنوي المونسنيور "فيتوريو فورمنتي" المسؤولُ عن هذه النشرة منذ ١٩٩٦م. وقال "فورمنتي": "إنَّ نسبة الطوائف المسيحية مجتمعةً، والتي تضمُّ الكاثوليك والأرثوذكس والإنجليكان والبروتستانت، تبلغ ٣٣% من تعداد سكان العالم، وأنَّ التزايد في تعداد المسلمين يرجعُ إلى ارتفاع نسبة الإنجاب في عائلاتهم، فيما تميل العائلات المسيحية في المقابل إلى إنجاب عددٍ أقلّ من الأطفال"[٢].

ولعلّ الحقائق السبعَ الماضية وغيرها لتؤكِّدُ بما لا يدعُ مجالاً للشكّ في تقدّم الإسلام في الغرب وتراجع المسيحيّة الكاثوليكيّة التي يزداد على مدار الساعة عدد المعتنقين من أبنائها للإسلام ازدياداً كبيراً متنامياً، ولعلّ هذا الازدياد يُعتبرُ المفتاح الرئيسي لفهمنا لما سبق من تعليقاتٍ وحملاتٍ ومحارباتٍ يتعرّض لها الإسلام بين الحين والآخر، نعم لقد عاد الإسلام ليتألق من جديدٍ وليكون سبباً في إثارة قلقهم ومخاوفهم، هذه المخاوف التي عبّر عنها الكاردينال "جان لوي توران" مسؤول الفاتيكان المعنيّ بشؤون العلاقات مع الأديان الأخرى حين قال: إنّ العالم مهووسٌ بالإسلام ... لا نريد أن يتنامى الانطباع بأنّ الأديان ذات وضعٍ طبقيٍّ، أو أنَّ هناك ديناً أفضل من آخر ... إن الإسلام مهمٌّ للغاية، ولكن هناك أيضاً دياناتٌ آسيويةٌ عظيمةٌ أخرى، والإسلام دين واحدُ... بالفعل إن الناس مهووسون بالإسلام][٣].

---

[1] المرجع السابق نفسه.

[2] مجلة المجتمع العدد ١٧٩٦ بتاريخ ٢٠٠٨/٤/٥.

[3] المرجع السابق نفسه.

الخاتمة

خُلصت هذه الدراسة المتواضعة إلى مجموعةٍ من النتائج كان من أبرزها ما يلي:

أولاً: كان رسولُ الله ﷺ السبَّاق في مدِّ يده للحوار مع المسيحيين الروم الغربيِّين، حيث دعاهم إلى التعرُّف على الإسلام واعتناقه، وذلك من خلال الرسالة التي بعثَ بها إلى هرقل فلافيوس أغسطس، ابن هرقل الأكبر، الذي كان أعظمَ وأقوى زعيمٍ وقائدٍ عسكريٍّ مسيحيٍّ في ذلك الوقت، وكان شديد الصِّلةِ بالكاثوليكيّة، وقد وُصِفَ بأنّه الصَّليبيُّ الأوّلُ وذلك نظراً للأعمال التي قام بها في الدّفاع عن دولته وكنيسته ودينه. وخَاضَ سلسلةً من الحروب ضدَّ الفُرس لاسترداد الصليب الكبير (صليب الصَّلبوت) وإعادة نصبه في القدس. وقد تحقّقَ له ذلك في شهر آذار من السنة ستمائةٍ وثلاثين للميلاد.

ثانياً: تمحورت الكنيسة الكاثوليكية حول شخص البابا بوصفه خليفةً للقديس بطرس، وتمتّع البابا بصفة القداسة في ذاته وكلماته كما اعتُبِرَ عند الكثيرين من الكاثوليك واسطةً بين الله والخلق، وممثّلاً لله على وجه الأرض. وتطّور الأمرُ لدرجةٍ وصلتْ إلى إطلاق وصف العصمة عليه فهو معصوم عندما يتكلمُ بصفته كاهناً أو مُعلِّماً، وهذه العصمة، كما يرون، إنما هي هديةٌ من الله ثبتت مشروعيتها بنص العهد الجديد. وقد قرّر مجمع روما الذي عُقد عام (٨٦٩م) أموراً هامّةً فيما يتعلق بالكنيسة والبابا كان من أبرزها تقرير مبدأ عصمة البابا ومنح الكنيسة سلطة محو السيئات ووجوب الاحتكام إلى كنيسة روما في كلِّ أمرٍ يتعلق بالمسيحية، وأن المسيحيين في جميع بلاد العالم يخضعون لقرارات رئيس كنيسة روما.

ثالثاً: إنّ هنالك مجموعةً من العوامل كانت قد تضافرت وتجمَّعت لِتُشَكِّلَ وتصنعَ الموقف والفهم الذي لا زالت الكنيسة الغربية في روما تتبناه تجاه الإسلام إلى وقتنا الحاضر، وترفض أن تُدخل على جوهره أيَّ تغييرٍ حقيقي. وعواملُ فهم هذه الكنيسة للإسلام (أو فلنقل عوامل صورة الإسلام في ذهن الكنيسة الغربية) إنما هي عوامل متباينةٌ مختلفةٌ، على مصدريّها العشرات والعشرات من علامات الاستفهام والتعجب والرفض، وأبرز هذه العوامل هي قصص العهد القديم ودور الحجّاج المسيحيين العائدين من بيت المقدس (أورشليم) وقصص الخيال والموروث الشعبي، ويضاف إلى تلك العوامل مساهمات الكنيسة الإسبانيّة ومساهمات

الرهبان في التحريض على الإسلام والمسلمين. أمّا أهمُّ هذه العوامل وأبرزها على الإطلاق فكان عامل الجهل بالإسلام والخوف منه.

رابعاً: يُعتَبَرُ المؤرخ "بدا" (أو بيدا) العالِمُ الكبيرُ بنصوص الكتاب المقدّس في مطالع العصور الوسطى أوّلَ من أدخل المسلمين في تفسير العهد القديم، وصار الأمر من بعده بمثابة (كليشية) يستعمله الجميع في شروح الكتاب المقدّس وخارجها ... وقد ظلّت صورة "بدا" عن المسلمين (السرازانيين) سائدةً لمدّةٍ طويلةٍ دون إضافاتٍ ظاهرةٍ.

خامساً: شكّلت سرعةُ انتشار الدين الإسلامي في العالم في العصور الوسطى، تماماً كما هي اليوم، ظاهرةً فريدةً أثارت الخوف والقلق في قلوب رجال الكنيسة الغربيين، فعملوا جاهدين على محاربة هذه الظاهرة والحدّ منها بأن حاكوا حولها الأكاذيب والقصص المشّوهة والخياليّة لصدِّ الناس عن مجرد التفكير في حقيقة هذا الدين وطبيعته فقالوا بأن الإسلام من اختراع محمدٍ وإنه استلهم هذا الدين من الشيطان. وكان هذا القول نقطة البداية التي نسجت حولها الخيوط، وبُنيت عليها الكثير من الأساطير والافتراءات على الإسلام، ونشروها بين الناس وبخاصة في الأوساط المسيحية، لإخافتهم من هذا الدين، ومنعهم من التحول عن دينهم واعتناق الإسلام.

سادساً: ظهرت في العصور الوسطى في أوروبا محاولاتٌ لفهم الإسلام والتعرُّفِ عليه من خلال الكتاب المقدّس وكان خلاصة ما انتهت إليه تلك المحاولات أنَّ محمداً هو عدو المسيح (أي أنه المسيح الدجّال) والذي يعتبرون قدومه وكثرة انتصاراته الدنيويّة دلالةً على اقتراب اليوم الآخر. وقد خرجت فتاوى هنا وهناك في أنحاء أوروبا وبالذات في إسبانيا تشجّع على مسبّة وشتيمة هذا "المحمد" أو "المسيح الدجال" وكانت تلك الفتاوى والتي شجعها رجال من أمثال باول ألفاروس وأوجيليو بدايةً لتاريخ مؤلمٍ محزنٍ مريرٍ من العلاقات بين المسلمين والمسيحيين والغربيين. وقد بدأ ذلك بالهجوم على شخص الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في الأندلس المُسلمة عام ٨٥٠ للميلاد.

سابعاً: يُعتبَرُ الجهل بالإسلام، في تقديرنا، أبرز وأهم العوامل التي صاغت صورة الإسلام في ذهن الكنيسة الغربيّة حتى يومنا الحاضر، وليس هذا الجهل بالإسلام راجعاً لتواضع إمكانيات الكنيسة الغربية وعدم قدرتها على بعث مَن يذهبون إلى الجزيرة العربية للتعرف على حقيقة دعوة الإسلام لا، ولكن ذلك راجعٌ إلى عدم اهتمام هذه الكنيسة والقائمين عليها، في ذلك الوقت على الأقل، بمعرفة عقيدةٍ غير العقيدة

الكاثوليكيّة، و"كان الكثيرُ مِن أتباع هذه الكنيسة يعتقدون بأن الدّين الجديد (أو المحمديّ كما كانوا يسمّونه) إن كان غير مسيحيٍ فإنه ومن كلِّ بُدٍّ سيكون وثنياً، ولمّا كان المسيحيون الكاثوليك يعبدون مؤسس العقيدة المسيحية فإنّه ومن كلِّ بُدٍّ سيكون المسلمون يعبدون محمداً مؤسِّسَ العقيدة الإسلامية!!!

ثامناً: ممّا اشاعته الكنيسة الغربيّةُ عن رسول الله ﷺ في القرون الوسطى أنّ محمداً كان في البداية تلميذاً للراهب النسطوري سرجيوس بحيرا، تلقّى عنه بعض المعلومات الأساسية عن التوراة والإنجيل، وبعد ذلك أعلن نفسه نبياً وكوّنَ عقيدةً خاصّةً به. ورأى لاهوتيّون كثيرون أنّ النبي محمداً هو مطرانٌ أو بطريقٌ في الأصل؛ تشاجر مع بطريق القسطنطينية فشكل هرطقةً انفصلت تدريجياً عن المسيحية الكاثوليكية الصحيحة. ولم تكن هذه الفرية وليدة لحظةٍ أو ساعةٍ، بل الأمرُ خلاف ذلك تماماً حيث وُلدت هذه الفرية في بيئةٍ ملائمةٍ ونمت وتطورّت واتخذت اشكالاً متعددةً في التعبير عنها، إلا أنَّ هذه الأشكال بقيت تعبّرّ عن جوهرٍ واحدٍ، وهو أن محمداً تلميذٌ لبحيرا النسطوري أخذ عنه هذه الهرطقة المسيحية وأدخل عليها بعض التعديلات والتطويرات والإضافات وزعم أنها دينٌ جديدٌ سمّاه الإسلام.

تاسعاً: ظنَّ الغربيونَ بأنَّ فتح العرب المسلمين لبلادهم ما هي إلا غزوة طارئة من أقوامٍ حلَّ بها القحطُ، أو شكت من مجاعةٍ أو واجهت الشح في عيشها فلم تجد وسيلةً تخفف بلوتها إلاّ بالإغارة على المناطق الزراعية الخصبة. ولكن سرعان ما خاب ظنهم بعد أن شاهدوا انطلاقة الإسلام يكتسح العوائق والعقبات التي تعترض طريقه، ورأوا المسلمين يُقبلون على الجهاد، لا طمعاً في المكاسب والمغانم، وإنما طلباً للشهادة، وفوزاً بالجنة التي وُعِدَ المجاهدون بها، بل لقد امتلأت قلوبهم بالإيمان ونفوسهم تشبّعت بالإسلام فزاد ذلك من مخاوفهم وحوّلها إلى قلقٍ مُستمرٍ دائم.

عاشراً: كانت الخطبة الناريّةُ التي ألقاها البابا أوربان الثاني في مجمع كليرمون الإعلانَ الرسميَّ عن بداية الحروب الصليبيّة ضدَّ المسلمين. وكان ممّا جاء في تلك الخطبة: أقولها للحاضرين هنا، وأطلبها من الغائبين: إنَّ المسيح يأمر بذلك ... إنَّ كل الذين سيذهبون ويموتون على الطريق، سواء على الأرض أم في البحر، أو أولئك الذين سيموتون وهم يحاربون الكفّار، فإنَّ ذنوبهم سَتُغفرُ لهم وسأمنح الغفران لكل الذين سيساهمون في هذه الرحلة بموجب السلطة التي منحني الربُّ إياها ... ويا للعار إذا ما انتصر مثل هذا الشعب الحقير، المنحطّ، عابد الشياطين، على الأمة التي تعبد الرب، وتفخر بأنها مسيحية! أي لومٍ سيوجهه لكم الرب بنفسه إذا لم تجدوا الرجال

الكافية الجديرة مثلكم بلقب المسيحيين! ليذهب إذن هؤلاء الذين كانوا يحاربون بعضهم بعضاً على حساب المؤمنين ليذهبوا إلى المعركة ضد الكفّار، إنها معركةٌ جديرةٌ بأن تبدأ، ورهينةٌ بأن تنتهي بالنصر! وليصبحوا من الآن فرسان المسيح، بعد أن كانوا قُطّاع طرقٍ! ليحاربوا الآن ضد البرابرة بدلاً من أن يحاربوا ذويهم وإخوانهم!

حادي عشر: كانت مساهمةُ الكنيسة الغربيّة في تكريس الصورة السوداء عن الإسلام كبيرةً فقد صَوَّرت الكنيسةُ الأوروبية رسولَ الإسلام ساحراً كبيراً ... وصوَّرت "قرطبة" في الأندلس على أنّها وطن عُبّاد الشيطان، المتوسّلين بالموتى، الذين قدّموا لمحمدٍ الصنم الذهبيّ الذي كانت تحرسه عصبةٌ من الشياطين، تضحيةً بشرية"!! فبلاد الإسلام هي عالم الخرافات والأساطير وعبدة الشيطان، والسحرة المتضرّعين إلى الشيطان ... بلاد الأضاحي البشرية من أجل صنم ذهبيٍ، تسهر على سلامته عصبة من الشياطين، اسمه محمد!!.

ثاني عشر: عاشت الكنيسةُ الكاثوليكيةُ في إسبانيا حرباً مفتوحةً طويلة الأمد في المجال العقدي ضدّ الإسلام والمسلمين. ويمكن القول إنَّ أكثر أخبار وأفكار الأوروبيين عن المسلمين في القرون الأولى للعصور الوسطى إسبانيةُ المنشأ. صحيحٌ أنّ النظريات العامة، والمنظومات الشاملة، وتطورات الأفكار الأولى، جرت كلها خارج إسبانيا تقريباً، بيد أنَّ الدوافع الأصلية إسبانيةٌ في غالبيتها العظمى؛ سواءٌ كانت تلك الدوافع العلمية الطبيعيّة، أو المستندة إلى رؤى أنبياء الكتاب المقدس.

ثالث عشر: ترى الكنيسةُ الغربيّة أنّ أهمَّ وصفٍ يُعرفُ من خلاله الأنبياءُ الكذبةُ، إنكارُهم لعقيدة الثالوث الأقدس (الآب والإبن والروح القدس) وإنكارهم للصليب ولقيامة ولاهوت المسيح وعمل الفداء. ويُضافُ إلى ما سبق من أوصاف الأنبياء الكذبة ادّعاؤهم معرفة علم الغيب وظهور العديد من الآيات والعجائب على أيديهم، إضافةً لكونهم يقدِّمون تفسيراتٍ جديدةً مغايرةً تماماً للمعروف والمألوف من تفسير الكتاب المقدّس. لقد أسندت الكنيسةُ في تاريخها وصف النبي الكاذب للعديد من الرجال، وذلك حسب تفسيراتها التي كانت على الدوام تتغيّر بتغير الزمان والأماكن والأشخاص، لكنّ الشخص الوحيد الذي اتّهمتهُ الكنيسةُ بهذا الوصف منذ ما يزيدُ على تسعمائة سنةٍ ولا زال هذا الوصفُ ملازماً له كلّما ذُكِر هو الرسولُ محمدٌ ﷺ، الذي لا زالت الكنيسةُ الكاثوليكية حتى اليوم تتّخذُ من الطعن في صحّة نبوّته مدخلاً للطعن في الإسلام كلِّه.

رابع عشر: بالرغم من أنّ بعضَ الحضارات حاربت المسلمين، إلاّ أنّ معظم تلك الحضارات لم تحتفظ بتُراثٍ من الكراهية تجاه نبي الإسلام مثلما احتفظت به دويلاتُ أوروبا وكنائسها. إنّ مِن المُلفت للنظر أنَّ العداء المسيحيّ للإسلام وللنبي ﷺ وسلم خارج أوروبا الغربية لم يتحول إلى كراهيةٍ تاريخيةٍ يتم الاحتفاء بها وتأكيدها في المناسبات الدينية وعلى حوائط الكنائس والأديرة كما حدث في أوروبا الغربية.

خامس عشر: إنَّ الحربَ ضد الإسلام قد صارت مقدَّسةً منذ أصدر البابوات السابقون عدة قراراتٍ بشأنها، ومنذ شارك فيها ملوكٌ وأمراءُ كثيرون. إنّ الكنيسة الرومانية الكاثوليكية منحت المقاتلين المشاركين في ضرب الإسلام امتيازاتٍ وحقوقاً استمدَّتْها من سُلطتها الكنسيّة الدينيّة.

سادس عشر: يُعتبَرُ المجمع الفاتيكاني الثاني الذي انعقد في حياة البابا الراحل يوحنا بولس السادس، أولَ مجمعٍ مسكونيٍّ كاثوليكي يتحدّثُ بصورةٍ إيجابيّةٍ عن المسلمين ويعترفُ بأنّ الخلاص سيشملهم، ومن قرارات ذلك المجمع أنّ الخلاص سيشمل أولئك الذين يعترفون بالخالق، وأولهم المسلمون الذين يعتقدون أنَّهم يتّبعون ملة إبراهيم، ويعبدون معنا الإله الواحد الحيَّ القيوم الرحيم، الذي سيحاسب الناس يوم الدين، الإله الذي خلق العالم وكلَّ ما فيه، الذي يعطي الجميع حياةً ونفساً وكلَّ شيءٍ لأن المخلِّص يريد أن جميع الناس يُخَلَّصون، أولئك الذين ليس بذنبهم لا يعرفون إنجيل المسيح وكنيسته، ولكنهم يبحثون بإخلاصٍ عن الربّ، وبتأثير النبل والخير يسعون لأن ينفِّذُوا بأعمالهم إرادته؛ حيث يقودهم إلى ذلك ضميرُهم، وبذلك يمكن أن يحوزوا على الخلاص الأبدي.

سابع عشر: لا يعترفُ البابا الحالي بنديكتيوس السادس عشر بخلاص غير الكاثوليك سواءٌ أكانوا مسيحيين تابعين لكنائس أُخرى أو مسلمين أو غير ذلك. وقد عَبّرَ عن ذلك بصياغته ونشره لوثيقة "إحكتار روح المسيح" (دومينوس يزوس) التي تؤَكِّدُ أنَّ الدين المسيحي يشدد على حقيقةٍ واحدةٍ، وهي أنَّ جميع عناصر كنيسة المسيح موجودةٌ متوحِّدَةٌ في كيانٍ واحدٍ هو الكنيسة الكاثوليكية، وهذه العناصر غيرُ متوفرةٍ في الجماعات الكنسية الأخرى. وتقول الوثيقة استناداً إلى ذلك فإنه، في ظل إيماننا الكامل بوجود عيوبٍ في الكنائس والجماعات الأخرى، فإنها في كلِّ الأحوال محرومةٌ من أسرار الخلاص، لأن روح المسيح عزفت عن استخدامها كوسائط للخلاص، ووضعت كل النعمة الإلهية والحقيقة المجرَّدة في الكنيسة الكاثوليكية ... وتؤكدُّ على أفضلية الكنيسة الكاثوليكية الرومانية على غيرها من الكنائس واعتبارها

كنيسة المسيح الحقيقية والطريق الحقيقي الوحيد للخلاص في حين تُعتبرُ بقية الكنائس إمّا معيبةً أو غير حقيقيةٍ.

ثامن عشر: اتخّذَ الرهبانُ القائمون على الأديرة قراراً بالاشتراك في الحروب الصليبية ضدّ العالم الإسلامي بمجرّد أن دعا البابا أوروبان إليها، كما فعل الراهب بطرس الناسك لا بل إنّ منهم مَنْ شجَّع الحكّام عليها بعد انتهائها كما فعل القديس برنار الذي كان مسؤولاً عن دير كليرفو، والذي كان سبباً رئيساً ومباشراً في اشتعال الحملة الثانية من حملات الحروب الصليبية وذلك بعد خمسين عاماً من انتهاء الحملة الأولى التي دعا إليها أوربان الثاني ... لقد انخرط الرهبان في الدعوة للحروب الصليبية وحثّوا الناس على الاشتراك فيها وأخذوا يشجّعونهم للخروج للقتال والقضاء على المسلمين الكُفّار الذين منعوا الحجاج المسيحيين من الوصول إلى القدس ودنّسوا قبر المسيح المقدَّس، وقد استخدم هؤلاء الرهبان كلَّ ما خطر ببالهم من طرق وحيلٍ ووسائل لحث الناس على الخروج لقتال المسلمين وذبحهم.

تاسع عشر: لم يقف الرهبان الكاثوليك مكتوفي الأيدي، بل شاركوا في محاربة الإسلام عسكرياً من خلال دورهم الخطير في الحروب الصليبية كما حاربوه عقدياً وإعلامياً من خلال الحملات التشهيرية التي تزعَّمُوها ضدَّه وضدَّ الرسول الكريم ﷺ، وهي الحملات التي عملوا من خلالها على ربط العسكريّ بالعقديّ، وعملوا على استنهاض الأحلام النبوئية والفكر الرؤيوي في محاولةٍ منهم لتخويف الناس من الإسلام، وتشويه صورته ولتشجيعهم على قتاله من خلال الانضمام للحملات والجيوش الصليبية. صحيحٌ أنَّ ربط هذه الرؤى بالإسلام كان محلَّ رفضٍ واستهجانِ الكثيرين من مفكري ومؤرخي العصور الوسطى إلا أنّه، وللأسف، اتَّسَمَ بسرعة التصديق والانتشار بين الناس. كان تخويف الناس من "المحمدية" الطريقة المثلى التي اختارها هؤلاء لاستنهاض الهمم بُعيدَ فشل كلِّ حملةٍ صليبيةٍ.

عشرون: قامت طريقةُ أصحاب الفكر الرؤيوي في تقديمهم للإسلام في أوروبا على أساسٍ واحدٍ هو الإلصاق الكاذب للنبوءات المرعِبة بشخص رسول الله ﷺ ومحاولة إسقاط تفاصيلها عليه وعلى الدولة الإسلامية، وبالذات في عهود الفتح الإسلامي وازدهار الحضارة الإسلامية، ووصولها إلى قلب القارة الأوروبية التي كانت تسبح في عصور الظلمات الوسطى آنذاك.

الحادي والعشرون: إنّ نشأة الاستشراق كانت دينيّةَ الدافع، وكانت الكنيسةُ الكاثوليكيّة ورهبانها المحرِّكَ والدّاعم له، وذلك في واحدٍ من فصول حربها المُعلَنة ضدَّ الإسلام والمُسلمين؛ تلكمُ هي الحربُ الإعلاميّة التضليليّة التي اختارتها الكنيسة ولجأ إليها رجالاتها بعد العجز المُبين لهم ولجيوشهم الصليبيّة أمام الآلة العسكرية الإسلامية في العصور الوسطى.

الثاني والعشرون: إنّ الدراسات الاستشراقية الدينيّة التي نشأت في الشرق إنما كانت الأساس والأرضية التي بُنيت عليها الآراء والدراسات الاستشراقية الغربية فيما بعد. ويشهدُ لصحّة هذا الكلام بناء بيدا المبجّل وأوغيليوس وباول ألفاروس لكتاباتهم ضدّ الإسلام على أعمال ومؤلّفات يوحنّا الدمشقي، كما يشهدُ لصحّة هذا الكلام بناءُ بطرس المبجّل لأعماله ومؤلّفاته ضدّ الإسلام على الرسالة الإسلامية والجواب المسيحي عليها، ويشهدُ لصحّة هذا الكلام كذلك أنّ الشّبهات والأباطيل المتعلّقة بالإسلام ونبوّة محمدٍ ﷺ التي وردت في هذه الدراسات الناشئة في الشرق هي عينُها الشبهات والأباطيل حول الإسلام ونبوّة محمدٍ التي وردت في الدراسات الغربيّة للإسلام ونبوّة محمدٍ ﷺ والتي لا زالت تتردّد على مسامعنا بين الفينة والأخرى حتى يومنا هذا.

الثالث والعشرون: يُعتبرُ يوحَنّا الدمشقي (منصور بن سرجون بن منصور) من أوائل الذين أَلَّفُوا كتباً تتّهمُ المسلمين بالهرطقة والضَّلال وتتهمُّ الرسول ﷺ بالزّيف وادّعاء النبوّة وكان هدف يوحنا الدمشقي من ذلك التشويه، تحصين النصارى من أهل الذمة والحيلولة بينهم في بلاد الشام وبين اعتناق الإسلام حين رأى تسامح المسلمين مع أهل الذمة، ودخول كثير من النصارى في الإسلام فلم يجد وسيلة لتثبيت النصارى على دينهم سوى اتهام الإسلام بالهرطقة وتشويه سيرة النبي، لتكون صورته في نظر النصارى صورةً كريهةً حتى لا يُقْبلوا على اعتناق الإسلام. وقد انتشرت كتُبُهُ في بلاد الدولة البيزنطية (دولة الروم) واستخدمها الكُتّابُ البيزنطيون في هجماتهم الفكرية على الإسلام. ثم تُرجِمَت إلى اللاتينية وأسهمت في صياغة العقيدة الغربية تجاه الإسلام والمسلمين طوال العصور الوسطى وحتى العصر الحاضر. وقد ردَّد جميع المجادلين ضدّ الإسلام بعدَه بعضَ أو كلَّ قوالبه.

المراجع

أولاً: المراجع باللغة العربية

١. أ. جبسون، و. ج، الكنيسة النابضة، الفصل الأول، وهو ترجمة لكتابه المسمّى The Dynamic Churuch، الذي قام بترجمته ونشره موقع كلمة الحياة التابع للكنيسة الارثوذكسية

٢. آرمسترونج، كارين، الحرب المقدّسة، الحملات الصليبيّة وأثرها على العالم اليوم، ترجمة سامي العكعكي، ط١، ٢٠٠٤، دار الكتاب العربي.

٣. آرمسترونج، كارين، القدس مدينةٌ واحدةٌ وعقائدُ ثلاثةٌ، ترجمة فاطمة نصر ومحمد عناني، ط١، ١٩٩٨، دار الكتاب العربي، القاهرة.

٤. أرمسترونج، كارين، سيرة النبي محمد، ترجمة فاطمة نصر ومحمد عناني، ط١، ١٩٨٩، دار الكتاب العربي، القاهرة.

٥. الألوسي، نعمان بن محمود، الجواب الفسيح لما لفّقه عبد المسيح، تحقيق الدكتور أحمد حجازي السقا، ط١، ١٩٩٢، دار الجيل، بيروت.

٦. بايبر، مايكل كولينز، كهنة الحرب الكبار، ترجمة عبد اللطيف أبو البصل، ط١، ٢٠٠٦، مكتبة العبيكان، الرياض.

٧. بدوي، عبد الرحمن، موسوعة المستشرقين، ط١، ١٩٨٤، دار العلم للملايين، بيروت.

٨. بسترس، كيرلس سليم، نظرة الكنيسة الكاثوليكية إلى العلاقات المسيحية الإسلامية، بحث منشور ضمن كتاب "العيش المشترك في الإسلام والمسيحية"، ط١، ٢٠٠٢، من منشورات اللجنة الوطنيّة اللبنانيّة، بيروت.

٩. البهي محمد، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، ط٣، مكتبة وهبة.

١٠. تسمرلينغ، دنتر، النهايات، الهوس القيامي الألفي، ترجمة ميشيل كيلو، ص ٣٦، ط١، ١٩٩٩، دار قدمس للنشر، بيروت.

١١. الجليند، محمد السيّد، الاستشراق والتبشير قراءة تاريخيّة موجزة، ط١، ١٩٩١، دار قباء، القاهرة.

١٢. الجندي، جمعة، ملامح العنف والإرهاب الصليبي في بلاد الشام، ط١، ٢٠٠٦، مكتبة مدبولي، مصر.

١٣. جورافسكي، إليكسي، الإسلام والمسيحيّة من التنافس والتّصادم إلى الحوار والتفاهم، ترجمة خلف محمد الجراد، ط١، ٢٠٠٥، دار الفكر، بيروت.
١٤. حبشي، حسن، الحرب الصليبيّة الأولى، ط١، ١٩٥٨، دار الفكر العربي، القاهرة.
١٥. حسونة، محمد ومحمد رفعت، معالم تاريخ العصور الوسطى، ط١، ١٩٢٥، المطبعة الرحمانية، مصر.
١٦. خضر، لطيفة إبراهيم، الإسلام في الفكر الغربي، ط١، ٢٠٠٢، دار عُلا للنشر والتوزيع.
١٧. الخطيب، محمد أحمد، مقارنة الأديان، ط١، ٢٠٠٨، دار المسيرة، الأردن.
١٨. الخفاجي، باسم، لماذا يكرهونه؟ الأصول الفكرية لموقف الغرب من نبيّ الإسلام، ط١، ٢٠٠٦، من منشورات مجلة البيان، الرياض.
١٩. أبو الخير، عبد المسيح بسيط، إعجاز الوحي والنبوّة في سفر دانيال، ط١، ١٩٩٥، مطبعة المصريين، مصر.
٢٠. الدبّاغ، مصطفى، الإسلام فوبيا عقدة الخوف من الإسلام، ط١، ١٩٩٩، دار الفرقان، عمان.
٢١. ديورانت، ول، قصّة الحضارة، الكتاب الخامس، ترجمة عبد الحميد يونس، طبعة الإدارة الثقافية وبجامعة الدول العربيّة.
٢٢. رستم، أسد، كنيسة مدينة الله أنطاكية العُظمى، ج١، بتصرف، مطبعة دار الفنون، تاريخ النشر مجهول.
٢٣. رستم، سعد، الفرق والمذاهب المسيحية منذ ظهور الإسلام حتى اليوم، ط٢، ٢٠٠٥، دار الأوائل للنشر، دمشق.
٢٤. الرومي، سليمان بن عبد الله بن صالح، دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبيّة ط١، ٢٠٠٧، مكتبة الرشد، الرياض.
٢٥. الريّس، علي، الحروب الصليبيّة من عهد قسطنطين إلى اليوم وجذورها الدينية، ط١، ٢٠٠٨، دار طيبة، مصر.
٢٦. زاريوف، ميخائيل، الصليبيّون في الشرق، ترجمة إلياس شاهين، ط١، ١٩٦٨، دار التقدّم، موسكو.
٢٧. زقزوق، محمود حمدي، حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشكّكين، من منشورات المجلس الأعلى للشؤون الإسلامي. النسخة الإلكترونية.

٢٨. سعيد، إدوارد، الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، ط١، ١٩٨١، من منشورات مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت.
٢٩. سوذرن، ريتشارد، صورة الإسلام في أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة رضوان السيّد، بتصرف ط١، ١٩٨٤، من منشورات معهد الإنماء العربي، لبنان.
٣٠. شعبان، فؤاد، من أجل صهيون، ط١، ٢٠٠٣، دار الفكر، دمشق.
٣١. شلبي، أحمد، المسيحيّة، ط١٠، سنة ١٩٩٣، مكتبة النهضة، مصر.
٣٢. الصّوا، علي محمد وآخرون، العلوم الإسلامية، ط٣، منشورات وزارة التربية والتعليم، الأردن.
٣٣. الطويل، توفيق، قصة الاضطهاد الديني في الإسلام والمسيحية ط١، دار الفكر العربي.
٣٤. عبد العزيز زينب، محاصرة وإبادة، موقف الغرب من الإسلام، ط ١، ١٩٩٣، المؤسّسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت.
٣٥. عبد المحسن، عبد الراضي محمد، الغارة التنصيرية على أصالة القرآن الكريم، بحث من بحوث ندوة العناية بالقرآن الكريم وعلومه المنشورة في موقع المفكرة الدّعوية الإلكتروني.
٣٦. عربي، محمد ياسين، الاستشراق وتغريب العقل التاريخي العربي، ط١، ١٩٩١، من منشورات المجلس القومي للثقافة العربية.
٣٧.
٣٨. العقيقي، نجيب، المستشرقون، الجزء ١٢، ط٣، ١٩٦٤، دار المعارف، القاهرة.
٣٩. عمارة، محمد، الفاتيكان والإسلام، أهي حماقة أم عداء له تاريخ، ٢٩، ط١، ٢٠٠٧، مكتبة الشروق الدولية، مصر.
٤٠. العمري، أكرم ضياء، السيرة النبويّة الصحيحة، ط٧، ٢٠٠٧، مكتبة العبيكان، الرياض.
٤١. عودة، علي بن محمد، العدوان الفكري الغربي على الإسلام وعلى نبيّه محمد، بحث منشور في موقع نصرة رسول الله، النسخة الإلكترونية.
٤٢. غراب، أحمد عبد الحميد، رؤية إسلاميةُ للاستشراق، ط١، ١٩٩٠، من منشورات المنتدى الإسلامي للنشر، لندن.

٤٣. الفـرا، محمـد عـلي، الإسـلام والغـرب مواجهـةٌ أم حـوار، ط١، ٢٠٠٢، دار مجدلاوي للنشر، الأردن.
٤٤. فكري، أنطونيوس، تفسير الكتاب المقدّس، النسخة الإلكترونيـة المنشورة في الموقع الإلكتروني للكنيسة العربية.
٤٥. فلوري، جان، الحرب المقدّسة، الجهاد، الحـرب الـصليبيّة، العنـف والدِّيـن في المسيحية والإسـلام، ترجمـة غـسان مايسو، ط١، ٢٠٠٤، دار المـدى للثقافـة والنشر، دمشق، بيروت.
٤٦. فندلي، بول، لاسكوت بعد اليوم مواجهة الصّور المزيفّة عن الإسلام في اميركا، ترجمة تحسين خياط، ط١، ٢٠٠٢، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت.
٤٧. القاسم، أنيس، نحن والفـاتيكان وإسرائيـل، ط١، ١٩٦٦، منشورات مركـز أبحاث منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت
٤٨. القرآن الكريم.
٤٩. القـرني، بهجـت، العلاقـة بـين الفكـر والـسياسة كـما تظهـر في نظريّـة صـدام الحـضارات، وهـذه الدراسـة هي الفصل الرابـع مـن كتـاب "صـناعة الكراهيـة في العلاقات العربية الأمريكية"، الـصادر عـن مركـز دراسـات الوحـدة العربيّـة ط٣، شهر أيار لعام ٢٠٠٧، بيروت.
٥٠. كامبل، د. ك، كنيسة الله الحيّ، ترجمـة موقـع كلمـة الحيـاة الإلكـتروني. التـابع للكنيسة الآرثوذكسية.
٥١. الكتاب المقدس، ط٨، ١٩٦٩، منشورات دار المشرق، بيروت.
٥٢. الكتاب المقدس، دون رقم طبعة، ١٩٦٠، المطبعة الكاثوليكية، بيروت.
٥٣. ابن كثير، عماد الـدين أبي الفـداء إسـماعيل، البدايـة والنهايـة، ط١، مـن دون سـنة نشر مكتبة الإيمان، القاهرة، مصر.
٥٤. الكيلاني، إسماعيل، الخلفيّة التوراتيّة للموقف الأمريكي، ط١، ١٩٨٦، مكتبة الأقصى، الدوحة.
٥٥. اللحام، كريم، موقـف الكنيـسة الكاثوليكيـة مـن الإسـلام بعـد المجمـع الفـاتيكاني الثـاني، منـشور ضمـن سلـسلة ورقـات طابـة، العـدد ٢، شـهر تمـوز، ٢٠٠٨. مؤسسة طابة، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة.
٥٦. لويس، برنارد، الـسياسة والحرب في تـراث الإسـلام، ترجمـة إحـسان العمـد وحسين مؤنس ومحمد السمهوري، ج١، ط٣، من منشورات عالم المعرفة.

٥٧. مدني، بسام، دروس الكنيسة في التاريخ، من منشورات موقع كلمة الحياة، النسخة الإلكترونيّة.
٥٨. مطبقاني، مازن بن صلاح، الاستشراق والاتجاهات الفكريّة في التاريخ الإسلامي، ط١، ١٩٩٥ من منشورات مؤسسة الملك فهد الوطنية.
٥٩. مقار، شفيق، المسيحيّة والتوراة، ط١، ١٩٩٢، دار رياض الريّس للنشر، لندن، وقبرص.
٦٠. الملا، جاسم ناصر عبد الرزاق، الإسلام والغرب دراسات في نقد الاستشراق، ط١، ٢٠٠٤، دار المناهج، عمّان.
٦١. مهاجراني، السيد عطاء الله، الإسلام والغرب، ترجمة عادل سويلم، ص ١٣٩، ط١، ٢٠٠٦، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة.
٦٢. النملة، علي بن إبراهيم، صناعة الكراهية بين الثقافات وأثر الاستشراق في افتعالها، ط١، ٢٠٠٨، دار الفكر، دمشق.
٦٣. النيسابوري، أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري، صحيح مسلم، دون رقم طبعة ودون سنة طبع، طبعة مكتبة الإيمان، مصر.
٦٤. هاغمان، لودفيغ، المسيحيّة ضدّ الإسلام حوار انتهى إلى الاخفاق، ترجمة محمد جديد، ط٢، ٢٠٠٥، قدمس للنشر، سوريا.
٦٥. هنتغتون، صامويل فيلبس، صدام الحضارات، إعادة صنع النّظام العالمي الجديد، ترجمة طلعت الشايب، ط١، ١٩٩٨، دار سطور للنشر، القاهرة.
٦٦. هونكة، زيغريد، العقيدة والمعرفة، ترجمة عمر لطفي العالم، ط١، ١٩٨٧، دمشق.

ثانياً: مراجع شبكة الإنترنت

١. أحمد تمام، الحروب الصليبيّة، حملة الرّعاع في ذكرى تجّمعها. دراسة منشورة على موقع www.islamonline.net .
٢. أنس حسن، برنارد لويس تسامح ماكر ومعرفةٌ موجّهةٌ، مقالة منشورة في موقع www.shareah.com بتاريخ ٢٠٠٨/١١/٤.
٣. البابا بنديكتيوس السادس عشر، محاضرة بعنوان (الإيمان والعقل والجامعة، ذكريات وانعكاسات) منشورة في موقع الفاتيكان الرسمي www.vatican.va.

٤. البابا شنودة الثالث، مقالة بعنوان (احترزوا من الأنبياء الكَذَبة) منشورة في موقعه الرسمي www.copticpope.org.
٥. بدران الحسن، برنارد لويس وصهينة الدراسات الاستشراقية، دراسة منشورة في موقع الإسلام اليوم www.islamtoday.com بتاريخ ٢٠٠٥/٣/٦.
٦. برناد لويس، مقابلة بعنوان (Muslims about to take over Europe) منشورة في موقع www.jihadwatch.org بتاريخ ٢٠٠٧/١/٢٩.
٧. برنارد لويس، الحملات الصليبيّة رداً على الجهاد، مقالة منشورة في الموقع الإلكتروني لوكالة الأخبار الإسلامية نبأ www.islamicnews.net بتاريخ ٢٠٠٧/٤/٩.
٨. برنارد لويس، مقابلة بعنوان (bring them or they destroy us) منشورة في موقع www.realclear.politics في شهر أيلول عام ٢٠٠٦.
٩. ترجمة مقالة (مليون ضد محمد، الفاتيكان يسعى لوقف إنتشار الإسلام حول العالم، منظمة معروفة ... بالكاد تسهم بربع التكلفة)، منشورة بدون اسم مؤلف على موقع www.islamdaily.net، وهي ترجمة للمقالة التي نشرتها صحيفة فليت إم زونتاج الألمانية بتاريخ ٢٠٠٤/١/٣٠.
١٠. تفاسير الكتاب المقدّس الكاملة، من دون اسم مؤلّف، منشورةٌ في الموقع الإلكتروني المسيحي كلمة الحياة www.kalematalhayat.com.
١١. خلف أحمد محمود، شمس الإسلام هل تسطع من الغرب، مقالة منشورة في موقع الألوكة الإلكتروني www.alukah.net بتاريخ ٢٠٠٩/٩/٢٨.
١٢. خليل الصّغير، برنارد لويس بطريرك الاستشراق: ليتذكر المسلمون نعمة الاستعمار. دراسة منشورة في الموقع الإلكتروني www.bintjbeil.com بتاريخ ٢٠٠٤/١٢/٢٦.
١٣. دانيال بايبس، سلسلة المقالات المنشورة في موقعه الإلكتروني www.danielpipes.org
   ١. الإسلام الراديكالي المتطرّف ضد الحضارة.
   ٢. أوروبا المسلمة.
   ٣. مسألة الإكراه في الدين: الإسلام هو ما يصنعهُ أتباعُه منه.
   ٤. ما هو الجهاد.
   ٥. الجهاد عبر التاريخ.

٦. كيف نقضي على الإرهاب.
٧. مشكلة صورة الإسلام.
٨. الولايات الأمريكيّة الإسلاميّة.
٩. الفاتيكان يواجه الإسلام.
١٠. ترهيب الغرب وإكراهه بالتهديد من رشدي إلى بيندكت.
١١. رسوم الكرتون والإمبريالية الإسلامية

١٤. زينب عبد العزيز، البابوات والإسلام، دراسة منشورة في موقعها الإلكتروني www.dr-abdelaziz.com بتاريخ ٢٠٠٩/١/٢.

١٥. زينب عبد العزيز، مقالة بعنوان (ردّ الفاتيكان على خطاب الـ ١٣٨ مقالة تحليلية) منشورة في موقع وكالة الأخبار الإسلامية (نبأ) www.islamicnews.net بتاريخ ٢٠٠٧/١٢/١٠.

١٦. زينب عبد العزيز، مقالة بعنوان (وثيقة في زماننا هذا وعلاقة الكنيسة بالإسلام) منشورة في موقعها الإلكتروني www.abdelaziz.com بتاريخ ٢٠٠٨/١٠/٢٧.

١٧. صامويل هنتنغتون، The Clash of civilizations، مقالة طويلة منشورة في موقع www.foreignaffairs.com . المقالة رقم ٤٨٩٥٠.

١٨. صبحي حديدي، الصّلةُ بين مروة الشربيني وبرنارد لويس: صناعة الخطر الأخضر. مقالة منشورة في الموقع الإلكتروني لمجلة صفحات السورية بتاريخ ٢٠٠٩/٧/١٢.

١٩. صلاح عبد العاطي، قراءة نقدية في كتاب صدام الحضارات، دراسة منشورة في الموقع الإلكتروني لمجلّة الحوار المتمدّن، www.alhewar.org بتاريخ ٢٠٠٧/٨/٣٠.

٢٠. القديّس يوحنّا الذهبّي الفم في تفسيره لموعظة المسيح على الجبل (كيف نميّز الأنبياء الكذبة) المنشورة في موقع كلمة الحياة www.kalimalhayat.com.

٢١. ماجد الكيلاني، الهجوم على الإسلام والمسلمين، صيحة برنارد لويس أو حيي بن أخطب الجديد. مقالة منشورة في موقع دهشة الإلكتروني www.dahsha.com.

٢٢. محمد أسعد بيوض التميمي، (الحرب الصليبيّة والإساءة المتكرّرة لرسول الله ﷺ والغزو الفكري والثقافي وحقيقة المعركة) دراسة منشورة في موقع مفكرة الإسلام الإلكتروني بتاريخ ٢٠٠٨/٣/٢٣.

٢٣. محمد يحيى، صراع الحضارات أم هيمنة الحضارة الغربيّة، مقال منشور في موقع الموسوعة الإلكتروني www.islamport.com.

٢٤. وثائق المجمع الفاتيكاني الثاني. منشورةٌ في موقع الفاتيكان الرسمي www.vatican.va.

٢٥. وثيقة دومينوس يزوس. منشورة في موقع الفاتيكان الرسمي www.vatican.va.